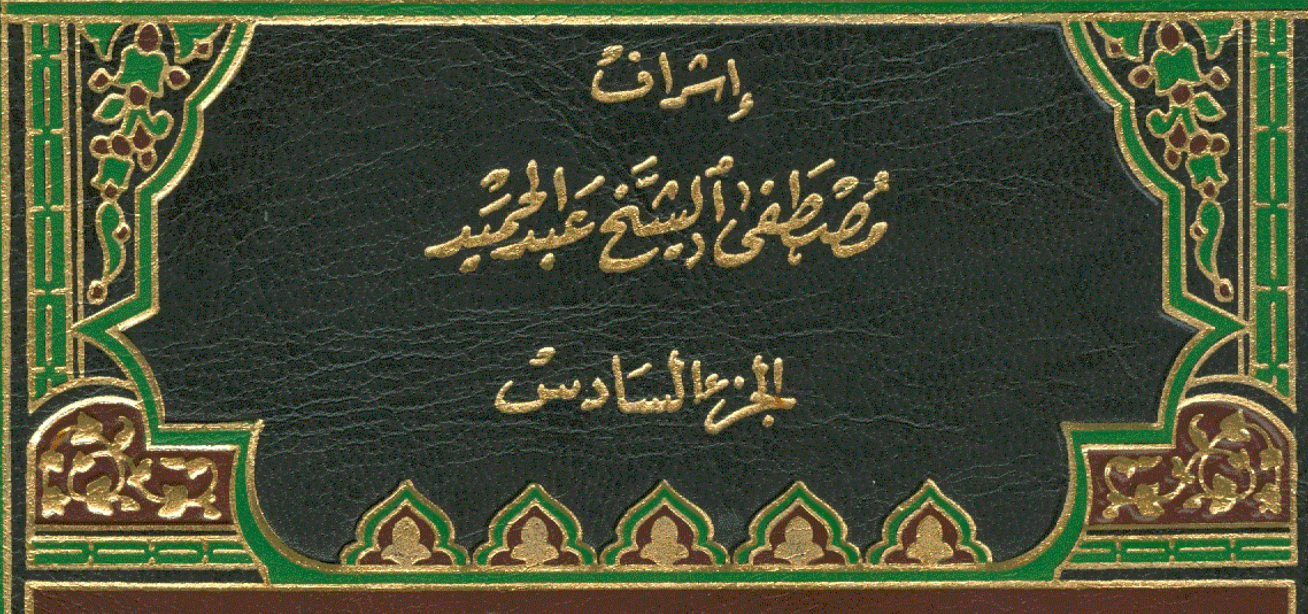
محاضرات الوائلي




بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرات الوائلي

رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء السادس

منشورات

شركة دار المصطفى لإحياء التراث

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

يطلب من:

لبنان - بيروت - جادة السيد هادي - مفرق الرويس - بناية اللؤلؤة - ط١-
ص.ب: ٢٤/١٩٧ - برج البراجنة - بعبدا ٢٠٢٠ ١٠١٧ - هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢
سوريا - دمشق - ص.ب: ٧٢٣ - السيدة زينب - تلفاكس: ٠٠٩٦٣١١ ٦٤٧٠١٢٤
إيران - قم - خ سمية - ١٦ متري عباس آباد بلاك ٢٤ هاتف: ٧٧٣٨٨٦٥ - فاكس: ٧٧٣٨٨٥٥
البريد الإلكتروني: e-mail: hidayh@shuf.com



لبنان - بيروت - ص.ب: ٢٤/١٩٧

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر
فرع قم المقدسة
ت/ ٠٠٩٨٢٥١٧٧٣٥٦٤٦
فاكس/ ٠٠٩٨٢٥١٧٧٣٠٣٨٠
Info@omalqra.com

﴿ ١١١ ﴾

الزهد في حياة علي عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

«فو الله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً. بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين، ونعم الحَكَم اللّه. وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانّها في غد جدث تنقطع في ظلمته آثارُها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم؟»[١].

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: سيرة الإمام عليه السلام بين الواقع والمستلزمات

امتاز الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالوضوح وعدم الازدواجيّة، فنحن أحياناً نحاول أن نتلمّس ما بين النظريّة والتطبيق عنده فلا نجد هناك مسافة أو فاصلة بينهما، فالنظرية إلى جانب التطبيق ولا شيء يمكن أن يتبدّل عنده

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

أبداً، ولا يمكن أن يفعلﷺ خلاف ما يقوله مطلقاً. وهذا تاريخه بين أيدينا يشهد له بذلك، بل حتى ألدّ أعدائه لا يستطيع أن ينبزه بهذا المعنى، وما أكثر أعداء عليﷺ! وفي الواقع إن أعداءه ملء الدنيا، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يتقوّل عليه بأن تطبيقاته قد خالفت كلامه أو نظريّاته، أو بأن ممارساته قد تخلّفت عن منهجه وكانت على العكس ممّا يقوله. لقد رأينا في تأريخنا من يصعد منبر الوعظ وينهى الناس عن المغالاة بالمهور، لكنه عندما تزوّج امرأة دفع لها أربعين ألفا. وهنا تجد الهوة واضحة بين النظرية والتطبيق عنده.

وهناك الكثير من هذه الأنماط التي تُكثر من الكلام والجعجعة دون أن تُدخل ذلك الكلام حيّز التطبيق. أمّا مع أمير المؤمنينﷺ فالأمر مختلف جدّاً، ذلك أن منهجه واضح غاية الوضوح، وشخصه بيّن غاية البيان. وبالرجوع إلى هذا المقطع من كتابه الذي كتبه لعثمان بن حنيف نجد أنه يعكس جانباً من منهجهﷺ في مسيرته، فهو يقول: «**فو الله ما كنزت من دنياكم تبراً**». ونلاحظ هنا أن الإمام علياًﷺ يريد أن يركّز هذا المعنى في النفوس؛ وهذا هو الذي حمله على أن يصدّر هذه الجملة بالقسم: «**فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً**».

المبحث الثاني: أسباب انتصار الذات عند عليﷺ

ثمّ إن هذا السلوك القويم منهﷺ يرجع للأسباب التالية:

السبب الأوّل: أنهﷺ تلميذ القرآن

فالقرآن واضح المنهج وصريحه في أن الثروة الموجودة في أيدي الناس إنما هي عملية توظيف اجتماعي ليس للعبد فيها أي ملكية، والإسلام كما هو معروف لا يعطي الملكية الحقيقية إلّا للّه تعالى أمّا البشر فيعطيهم توظيفاً

اجتماعياً بمعنى أن الإنسان متى ما كان في يده مبلغ من المال فإن له حق الانتفاع به بأي وجه أو طريق مشروع دون أن يمتلك خاصية الاستحواذ عليه وتملّكه، وهو مصداق قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾(١).

وهذا هو المقصود بقولنا: التوظيف الاجتماعي للمال، فحينما يمن الله تعالى على عبد من عباده بمبلغ من المال فإنه يجب عليه أن ينفقه كما أراد الله تعالى كأن يصل به رحمه أو لقضاء حاجاته وحاجات أُسرته من مأكل وملبس ومشرب ومتطلباته اليومية كافة على أن تكون بالوجه المشروع. إذن فملكية الإنسان ليست ملكية حقيقية وإنما هي ملكية اعتبارية تخويلية أمّا الملكية الحقيقية فهي لله جل وعلا. ولو أن ملكية العبد كانت حقيقية لما وظف له الباري تعالى سبل الصرف؛ لأن المالك الحقيقي هو الذي يتصرف بأمواله كيف يشاء.

وخلاصة الكلام أن هناك تخويلاً من قبل الله تعالى للإنسان، وقد نص على ذلك في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(٢).

فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام باعتباره تلميذاً للقرآن لا يمكنه أن يخالف تعاليمه وما جاء فيه حول مسألة التخويل هذه.

السبب الثاني: أن الادّخار هدر للطاقات

فالإنسان عندما يحاول أن يدخر شيئاً من المال فإنه يقوم بعمل سلبي وهو حبس الطاقة المالية عن التداول، وهذا هو أحد الأسباب التي دعت إلى

---

(١) الحديد: ٧. (٢) الأنعام: ٩٤.

تحريم الادّخار بهذه الصورة؛ فإن حبسه كذلك معناه تقليص السيولة المالية وقتل السوق واحتكار لما يتداول به الناس مما ينعكس سلباً بالتالي على القوة الشرائية للعملة وهو بالنتيجة سينعكس سلباً على المجتمع نفسه. أمّا إذا نزلت هذه الأموال إلى السوق فإنها ربما تشغل مجموعة من العمال فتفتح بيتاً أو سوقاً أو ما شاكل ذلك مما ينعكس بشكل إيجابي على المجتمع حيث ستعم الرفاهية وتسود الحياة العامة حالة من التوازن وعدم الحاجة.

فالمقصود إذن بهذا العطاء الإلهي هو أن يصل به رحمه ويقضي به حق مجتمعه ونفسه وإنسانيته، في حين أن الاكتناز يحبس الثروة ويحولها إلى كائن حبيس لا يمكن له أن يؤدي دوره في المجتمع، وربما فاجأ الموت صاحبها فيخلفها بعده ويمكن أن يأكلها التراب. يقول الشريف الرضي﵀:

يا آمن الأيّام بادر صرفَها ... واعلم بأن الطالبين حثاثُ
خذ من تراثك ما استطعت فإنما ... شركاؤك الأيّام والورّاث
لم يقضِ حقَّ المالِ إلّا معشرٌ ... نظروا الزمانَ يعيثُ فيه فعاثوا[1]

---

(١) شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٨. وتمامها:

تحثو على عيب الغَناء يد الغنى ... والفقر عن عيب الفتى بحّاثُ
المال مال المرء ما بلغت به الـ ... ـشهواتُ أو دفعت به الأحداثُ
ما كان منه فاضلاً عن قوته ... فليعلمنّ بأنه ميراثُ
ما لي إلى الدنيا الدنيّة حاجة ... فليجنِ ساحرُ كيدها النفّاثُ
طلّقتها ألفاً لأحسم داءها ... وطلاقُ من عزم الطلاقَ ثلاثُ
وثَباتُها مرهوبةٌ وعِداتُها ... مكذوبة وحبالُها أنكاثُ
أمّ المصائبِ لا تزالُ تروعُنا ... منها ذكورُ حوادثٍ وإناثُ
إني لأعجبُ للذين تمسّكوا ... بحبائلِ الدنيا وهن رثاثُ
كنزوا الكنوز وأعقلوا شهواتِهم ... فالأرضُ تشبعُ والبطونُ غِراثُ
أتراهُمُ لم يعلموا أن التقى ... أزوادُنا وديارُنا الأجداثُ

فالإمام علي عليه السلام يقول لهم: إنني لم أكتنز من دنياكم هذه ذهباً ولا فضة، فالبيضاء والصفراء لم تكونا باللتين تستهويانه أو تغرانه، بل كانتا تعرضان عليه صباح مساء وكان يخاطبهما بأنه أكبر منهما. والحق أنه ما قيمة هذين المتاعين الزائلين كي يتحكما بمثل ابن أبي طالب عليه السلام، وهو الذي ملأ الدنيا حرية؟ فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يستعبده ذهب ولا فضة، بل إنه عليه السلام كان يقف وبيده منسأته فيحرّك بها الذهب والفضة، ثم ينادي القوم فيعطي كل واحد منهم حقّه، وكان يكنس بيت المال كل جمعة ويصلّي فيه يتّخذه مسجداً رجاء أن يشهد له يوم القيامة أنه لم يحبس فيه من المال عن المسلمين شيئاً[١].

نعم حينما حضرته الوفاة لم يكن عنده سوى سبعمئة درهم كان قد خصّصها لشراء خادم يساعد أهله في أُمور البيت من نقل الماء والحطب وغير ذلك[٢]، فقد كانت حالته عليه السلام كذلك منذ أن كان في المدينة؛ حيث كانت الزهراء عليها السلام تطحن بيديها حتى مجلتا، وكانت آثار الرحى في بيتها إلى جانب حجرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. ولذا فإنه عليه السلام كان يدّخر من عطائه الخاصّ شيئاً

☚ وفي قوله عليه السلام: «فالأرضُ تشبعُ والبطونُ غِراثُ» تأكيد لما ذكره المحاضر عليه السلام في قوله: وربما فاجأ الموت صاحبها فيخلفها بعده ويمكن أن يأكلها التراب.

(١) مناقب أمير المؤمنين (محمد بن سليمان الكوفي) ٢: ٣٢، كنز العمال ١٣: ١٨٢ / ٣٦٥٤٦، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٧٨، ينابيع المودّة ١: ٤٥٠، ٢: ٤١١.

(٢) الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر بردّ هذا المبلغ إلى بيت المال بعد وفاته كما ذكره الإمام الحسن عليه السلام في خطبته. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، وقد مرّ ما في هذا الهامش والذي قبله مفصّلين في ج ٢ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ من كتابنا هذا.

ليشتري لعياله أجيراً يساعدهم في البيت. يقول أحد الأُدباء:

وعَفَّرتُ خدِّي في ثرىً مسَّ عَفرَهُ ... لجبريل من جِنحيه ريشٌ مُزَغَّبُ
وفيه محاريبُ لآل محمدٍ ... بهنَّ ضراعاتٌ إلى الله تُنصَبُ
وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعٌ ... إلى الحسنين الزاكيين وملعبُ
وصوتُ رحى الزَّهراء تطحنُ قوتَها ... إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلس زينبُ
رؤىً سوف يبقى الدَّهرُ يروي جلالَها ... وتبقى على رغم البساطة تأشبُ[1]

وكان﵇ يتولّى أُموره البيتيّة بنفسه ويقوم بأعماله بمفرده كأي إنسان عادي[2]، فكان ينقل الماء والحطب حتى في أيّام خلافته، فقد كان يخرج صباحاً يدور في الأسواق ثم يرجع وبيده شيء من التمر الذي اشتراه من ميثم التمار﵀، فيتلقّاه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر فيقول: **«ربّ العيال أحقّ بحمله»**[3]. فيحمله ويعود به إلى بيته.

فهل رأيت مثل هذا الوضوح وهذه البساطة والتلقائيّة والعفويّة في السلوك والتطبيق؟ لقد كانت حياته﵇ تفيض بالطهر والإيمان وبالعدل والمساواة والنور. ولذا فإنه﵇ يشدّد على قضية التوزيع العادل للثروة، فيقول: أنا لا أجمع الذهب وليس من شأني ذلك.

وأنا أُريد أن أسأل هنا: أين ذلك الذهب الذي كان يكنز في دور الخلفاء وخزائنهم؟ وانظر إلى من طلّق الذهب وقد سجد الذهب له على أعتابه بعد

---

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥، وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ ـ أشب.
(٢) حتى أصاب يديه المَجَل. الغارات ١: ٩٢.
(٣) الغارات ١: ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١: ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٤٨٩، البداية والنهاية ٨: ٦، كنز العمّال ١٣: ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.

وفاته، فهاهي القباب تناطح السماء علواً وهي مبنية من الذهب. مع أني أؤكد على أن غلاف الذهب هذا لا يغير من علي بن أبي طالب عليه السلام شيئاً ولا من جوهره قيد شعره؛ فالسيف الصقيل لا يضيره أن كان غمده خرقة بالية أو قطعة من الحرير الموشى بالذهب؛ لأن المهم هو السيف الصقيل فهو الجوهر وهو الكيان. وهل علي بن أبي طالب غير حسام لا يهمه الثرى؟ إنه وهج يتألق في كل غلاف مهما كان.

إن بعض الناس يتساءل: لماذا كل هذا الذهب على قبر علي عليه السلام؟ ولماذا لا ينفق على المجتمع في وجوه الحاجة إليه؟ إن الذي يصلح جواباً لمثل هذا التساؤل أو السؤال هو أن نقول: لماذا لا تقول: لم كل هذا الذهب على قبر لينين؟ فكل هذا الذهب الذي على قبر علي بن أبي طالب عليه السلام ليس لأنه عليه السلام أراده؛ بل لأن الله تعالى قدّره له؛ لأنه عليه السلام كان قد زهد فيه، وإلّا فإن الدنيا كلها لا تعادل عنده جلبة شعير.

المبحث الثالث: مشروعيّة ادّخار الثروة

ثم قال عليه السلام: **«ولا ادّخرت من غنائمها وفراً»**، لقد كانت الغنائم التي تأتي له من الحرب والقتال كثيرة وفيها من الذهب والفضة ما يمكن أن يغري كل أحد غيره لكنه لم يدخر منها وفراً. ولمن يدخر، وهو الذي يمتلك كل تلك الثقة بالله؟ إن الذي يدخر إنما هو من لم يكن ذا ثقة به تعالى، أمّا من يقول: **«لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»**[1] فهو غير مستعدّ؛ لأن يدّخر بضعة دراهم أو دنانير ليتقي بها عادية الزمن أو ليواجه بها تغير الظروف؛ لأنه عليه السلام كل يوم

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ٥٦٦ / ١.

يواجه عطاء الله تعالى ويواجه رحمته والانقطاع إليه، فهذه الأُمور أكبر من الادّخار.

وهذا لا يعني أن الادّخار أمر غير محبّب شرعاً أو أنه حرام، بل على العكس من ذلك إذ أن عندنا روايات تقول: **«النفس إذا أحرزت معيشتها اطمأنّت»**[1]. فالمسألة ليست مسالة حلال أو حرام وإنما هي مسألة سموٍّ روحي ورقي بالأخلاق والصفات، وإلّا فإن الادّخار لا يقدح بإيمان الرجل لكن النفوس الكبيرة المؤمنة التي هي أكبر من هذا الهلع المتهالك على الدنيا هي التي لا تدخر لأنها لا تعُد في الدنيا شيئاً مهماً. فقوله: **«فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادّخرت من غنائمها وفراً»** كان موضع تطبيق في كل مناسبة، إذ كان﵇ كلما جاءت غنيمة وزعها على المسلمين وعاد إلى بيته خالي الوفاض وقد نفض جميع ما في يديه من أموال ضخمة من الغنائم، فيبيت طاوياً على حجر يشده على بطنه.

ثم قال﵇: **«ولا أعددت لبالي ثوبيَ طمراً»**، الطمر هو الثوب المساعد أو المناوب لثوب الإنسان الذي يرتديه، والذي يبدل به إن اتسخ أو حدث به أمر. فإذا تمزق اشترى ثوباً آخر، وغالباً يكون الثوب الذي يأخذه معروفاً، وقد روي أنه﵇ أتى سوقَ الكرابيس، فوقف على غلام، فقال: **«يا غلام عندك ثوبان بخمسة دراهم؟»**. قال: نعم، عندي ثوبان. فأخذ الثوبين، وكان أحدهما بثلاثة دراهم والآخر بدرهمين، فقال: **«يا قنبر خذ الذي بثلاثة دراهم»**.

---

(١) تحف العقول: ٣٥٢، ونسبه في الكافي ٥: ٨٩ / ٣، والعلل (ابن حنبل) ٣:٢:٤٠٢ / ٥٧٧٤، وغيرهما لسلمان المحمّدي﵁.

فلما لبس القميص مدّ يده في ردنه فإذا هو يفضل عن أصابعه، فقال: **«اقطع هذا الفضل»**. فقطعه، فقال الغلام: هلمّ أكفّه. قال: **«دعه كما هو؛ فإن الأمر أسرع من ذلك»**[1]. وهذا يعكس الوضوح الذي كان سائداً في منهج الإمام عليه السلام والذي كان غالباً عليه، وكذلك الشفافية في سيرته.

المبحث الرابع: حول قضية فدك

ثم قال عليه السلام: **«بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم»**، فما هي فدك؟ هنالك قسم من الأنفال مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وهو الذي أشارت إليه الآية الكريمة: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾**[2]، وهناك قسم يؤخذ بالحرب كأن يعدّ المسلمون جيشاً ويقاتلوا به عدوّ الله تعالى ثم يحصلوا بقتالهم هذا على غنائم العدوّ. ومسألة فدك تعتبر من القسم الأول وهو مما لم يوجف عليه بخيلٍ ولا ركاب. فلو أن العدو جاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصالحه على ألّا يقاتلهم فيبقوا في أماكنهم، وهم ـ مقابل ذلك ـ يتنازلون للرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن مبلغ من المال أو عن أرض، فهذا يسمى أنفالاً. وكما قلنا فإن فدكاً من هذا النوع، ومثل هذه الأموال تكون ملكيتها مختصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا ما نصّ عليه فقه المسلمين جميعاً فقد هبط جبرائيل عليه السلام على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الآية: **﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾**[3]. فاستفسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جبرئيل عليه السلام: **«من هم ذوو القربى؟»**. فأجابه جبرئيل قائلاً: **«إن الله يأمرك أن تعطي فدكاً بُلغة لفاطمة، عوضاً عما أنفقته أُمها في سبيل الإسلام»**.

---

(١) روضة الواعظين: ١٠٧.
(٢) الأنفال: ١.
(٣) الإسراء: ٢٦.

والإنفاق الذي كان من خديجة يفوق الوصف، فقد ذكر المؤرّخون أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلّا كان يضارب بأموال خديجة[١]؛ فقد كان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها. وقد ساقت هذه الأموال كلّها إلىٰ بيت النبي ﷺ، وانتهى الأمر بها أن نامت مع النبي ﷺ على جلد كبش.

فاستدعى النبي ﷺ فاطمة عليها‌السلام وأنحلها فدكاً. وقد جرت هذه المسألة في بيت أم أيمن بحضور أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم‌السلام[٢].

لكن الذي حدث أنه بمجرد أن توفي النبي ﷺ، وبعد أن اعتلى من بعده الخليفة أبو بكر سدّة الحكم، جاء أُناس إلى فلاحي فاطمة عليها‌السلام وأخرجوهم من فدك، فأثار هذا التصرّف سيدتنا فاطمة الزهراء عليها‌السلام، فجاءت إلى أبي بكر تسأله عن وجه إخراج هؤلاء الفلاحين من أرضها، فأجابها الخليفة بقوله: لقد سمعت أباك ﷺ يقول: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث**»[٣]. وهذه طعمة أطعمها الله تعالى لنبيّه، وباعتباري وليَّ الأمر بعد أبيك ﷺ، فإني أتصرّف بها كيف أُريد، وأنا الآن أُريد أن أُنفقها في مصالح المسلمين. فأخبرته أن هذه الأرض لها، فقال لها: ما بلغني أنها ملك لك. فقالت: «**لقد أنحلنيها أبي**». فقال لها: لا أقبل الدعوى إلّا بالشهود. فذكرت له أن يدها عليها‌السلام كانت على فدك ستّ سنوات تتصرّف به، وكانت تأخذ وارده وتبيعه وتتصدّق ببعضه، وكان

---

(١) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ ـ ٤٤٤ / ٤٦٧ ـ ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨، الدر المنثور ٤: ١٧٧.

(٢) تفسير القمي ٢: ١٥٥، بحار الأنوار ٢٩: ١٢٨. وقد مرّ هذا المبحث مفصّلاً في ج ٢ ص ١٧٧ ـ ١٩٢ من كتابنا هذا.

(٣) انظر: المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، ٦: ١٤٥، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم يراها تفعل ذلك، وقد أقرّها والمسلمون كذلك. فأجابها بأن التصرّف أعمّ من الملكيّة، وربما كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قد ملّكها إياه بصورة مؤقّتة لتأكل من واردها.

فأجابته بأنها لو كان خاضعاً للملكيّة العامّة لكان صلى الله عليه وآله وسلم قد انتزعه منها، أو نصّ على أنه ملّكها المنفعة فقط لا الأصل. لكن ليس الأمر كذلك، فهو صلى الله عليه وآله وسلم أعطاها إياه بحضور الشهود على أنه نحلة لها. ثم إن تصرّفها فيه معناه أن يدها كانت عليه، واليد ناقل شرعي فالملكيّات العامّة تقرّ الآن بدليل اليد، فلو أن شخصاً سكن في بيت أو عاش فيه زماناً فإن يده على البيت هنا وتصرّفه فيه يدلّان على أن البيت ظاهراً له، وهذا التصرّف حجّة على ملكيّته له ما لم يثبت العكس؛ ذلك أن اليد أمارة على الملكيّة.

فلمّا طالبها أبو بكر بالشهود جاءته عليها السلام بمن حضر الواقعة ليشهدوا لها، وهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام وأم أيمن (رضي الله تعالى عنها)[١].

والذي يحزّ في النفس هنا أن المقاييس لا تتّخذ منهجاً واحداً واضحاً؛ وإلّا فإنه هل يمكن أن تكون الزهراء عليها السلام كاذبة؟ مع أن هؤلاء يعاملون بدويّاً لا يعقل أي طرفيه أطول معاملة تقديس لمجردّ أنه صحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بضعة أيّام[٢]، وأصبح الحال أن من يتعرّض له يصبح كافراً، أمّا الزهراء عليها السلام ابنة

---

(١) السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤.

(٢) وقد مرّ أنه حينما وقع نزاع بين الخليفة الثالث وأُم المؤمنين عائشة وحفصة أيّام بوادر الثورة؛ حيث دخلتا عليه تطالبانه بميراث النبي صلى الله عليه وآله وسلم. قال: ستعلم فاطمة اليوم أني ابن عم لها. ثم قال: والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يورّث؟ إذا كان يورّث فلمَ مُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورّث فأي حقّ تطالبان به؟ أولستِ أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي

المجد والرسالة، الطاهرة التي رضعت من ثدي الإيمان وسمعت الوحي الذي امتدحها بقوله مخاطباً الرسول ﷺ: **«حسبك من نساء العالمين أربع... وفاطمة سيّدة نساء العالمين»**، والتي يقول فيها الرسول الأكرم ﷺ: **«فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها»**[١]، و: **«روحي التي بين جنبي»**[٢]، والتي لقّبها ﷺ بـ **«أُم أبيها»**[٣] إلى آخره ممّا ورد فيها وفي فضلها من عشرات الروايات، فإنها تكذّب وتطالب بالشهود. ألا ينهض كلّ هذا دليلاً على صدقها؟ ليت تلك الفترة لم تكن؛ فقد تركت صدعاً كبيراً في تاريخنا. ومثل هذه التفسيرات إنما تكون في شيء فيما إذا لم يكن واضحاً، أمّا إذا كان واضحاً غاية الوضوح، فهو يبعث على القلق. وإلّا فإنه لا يوجد مؤمن بالله ورسوله يرمي الزهراء عليها السلام بالكذب، أو أنها لا تقول الحقّ.

غير أن الخليفة أجابها بأن الحسن والحسين عليهما السلام ما زالا طفلين، والطفل لا تقبل منه شهادة. وهذا خلاف ما فعل النبي ﷺ؛ لأنه قبل منهما البيعة.

وأما أمّ أيمن فهي امرأة أعجميّة لا تفقه ما تقول[٤].

وأما الإمام علي عليه السلام فلم تقبل شهادته أيضاً؛ لأن له مصلحة كما ادّعوا.

☚ يتطهّر ببوله، وشهدتم عند أبيك أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأي ميراث تطالبين به؟ فخرجت ورفعت قميص النبي ﷺ وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته. الإيضاح: ٢٥٧ ـ ٢٥٨، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥. أي أن أعرابياً يتطهّر ببوله تقبل شهادته وشهادة من هو مثل علي والحسنين وأم أيمن لا تقبل! وهذا بشهادة الخليفة عثمان بن عفّان.

(١) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٢) الأمالي (الصدوق): ١٧٥ / ١٧٨.

(٣) مقاتل الطالبيّين: ٢٩، المعجم الكبير ٢٢: ٣٩٧، أُسد الغابة ٥: ٥٢٥.

(٤) انظر: كتاب سليم بن قيس: ٣٩١ / ٢، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٢، ٤٣: ١٩٨.

فرجعت الزهراء عليها السلام غضبىٰ بعد تكذيبها في دعوى النحلة واليد.

وهكذا تكون الزهراء عليها السلام قد أكّدت على مسألة الإرث أي تأكيد؛ ولذا فإنها قالت: «**وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لي ولا حظوة من أبي، أفخصّكم الله بآية أخرج أبي محمداً منها؟ أم تقولون: أهل ملّتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟**».

وعقّبت بكلامها هذا على قوله تعالىٰ: «﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ**﴾[1]. **وقال فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا**: ﴿**فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً**﴾[2]، **وقال**: ﴿**وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ**﴾[3]، **وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لي ولا حظوة من أبي؟**»[4]. وكلّ هذه أدلّة قائمة على صحّة دعواها عليها السلام. لكن الذي حصل أنه قد فُسّر الميراث في هذه الآيات بالعلم والحكمة والنبوّة، ودعوى الميراث حدّدت بـ«**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث**».

ولو قدّر أن علياً عليه السلام لا يجوز له أن يشهد؛ لأنه صاحب مصلحة فهنا نقول: إن من يدّعي عدم الميراث ألا يحقّ لنا أن نقول له: أنت صاحب مصلحة في الموضوع؛ لأنك مدعٍ، والمدعي يجب أن يقيم البينة. والزهراء عليها السلام هي مالكة وقد تصرفت بملكها أيام أبيها صلى الله عليه وآله وليست هي مدعية؛ وعليه فلا يجب عليها أن تأتي بشهود بل من يجب عليه أن يأتي بهم هو المدعي عدم الملكيّة، وإلّا

---

(١) النمل: ١٦.

(٢) مريم: ٥ ـ ٦.

(٣) الأحزاب: ٦.

(٤) الاحتجاج ١: ١٣٨، بحار الأنوار ٢٩: ٢٢٧، وستأتي الإشارة إلى مصدرها كاملةً.

فإن اليد حجة عند الفقهاء[١].

وعلى هذا فإن من يأتي لشخص ويقول له: هذا الكتاب الذي بحوزتك ليس ملكك فإن من حق من بيده الكتاب أن يطالب المدعي بالبينة.

تخصيص القرآن بخبر الواحد

ثم إن هناك نقطة هامة أود أن أُشير إليها وهي أن مسألة تخصيص القرآن بخبر الواحد يعد أمراً غير مقبول على إطلاقه سيما عند أهل السنة الذين لا يخصّصون القرآن إلّا في موردنا هذا كما سنبيّنه. فعندما يقول القرآن: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** ﴾[٢]، ثم تأتي رواية فتقول: إن عقد الربا لا يجوز الوفاء به، فمعنى هذا أن هذه الرواية قد خصّصت عموم الآية أي أن المراد ليس كل العقود بل بعضها وهي العقود الشرعية. والربا عقد غير شرعي فلذا لا يجوز الوفاء به هذا عندنا. أمّا عند المذاهب الإسلاميّة الأُخرى فإنهم لا يجوزون تخصيص القرآن بخبر الواحد[٣] إلّا في هذه القضية كما أسلفنا. والحال أن القرآن فيه عموم كقوله تعالىٰ: ﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ** ﴾[٤]. فهذه حالة عامة تشمل النبي وغيره أمّا أن يخصص هذا العموم بحديث لم يثبت وهو ما ينسب إلى الرسول الأكرم ﷺ من قوله: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث**»، أي أنهم خارجون من العموم، فهذا يعد تهافتاً؛ لأننا نسأل في هذا المقام فنقول: إذا كنتم تعتمدون قاعدة هي عدم جواز

---

(١) انظر القواعد الفقهية ١: ١٣١.
(٢) المائدة: ١.
(٣) انظر: الابهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠، البحر المحيط ٣: ٣٦٥.
(٤) النساء: ١٠.

تخصيص القرآن بخبر الواحد، ولا تجيزون ذلك[١]. فلماذا إذن أجزتموه هنا وخصّصتموه بهذه الرواية؟

على أية حال فإن الإمام عليه السلام يذكر هذه الواقعة حيث يقول: «**بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم**»، فانظر إلى هذا التعبير، يقول الشاعر:

بضعةٌ من محمدٍ خالفت ما ... قال حاشا مولاتنا حاشاها
سمعته يقول ذاك وجاءت ... تطلبُ الإرثَ ضلّة وسفاها
هي كانت للّهِ أتقىٰ وكانت ... أفضلَ الناسِ عفّةً ونزاها
ولكان الجميلُ أن يُقطِعاها ... فدكاً ما الجميلُ أن يَقطَعاها
كان إكرامَ خاتمِ الرسلِ الها ... دي البشيرِ النذير لو أكرماها[٢]

ولو فرضنا أنه ليس هناك ميراث، لكن هذه ابنة الصادق الأمين صلى الله عليه وآله .. ابنة الذي حوّل الجزيرة العربية إلى جنة[٣].. بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الذي وحد العرب بعد تفرّقهم وأعزّهم بعد ذلّهم، وأغناهم بعد فقرهم، والمرء يُحفظ في ولده، وهو صلى الله عليه وآله لم يترك إلّا هذه البنت، فألا ينبغي أن تكرم؟

على أية حال فلنترك دعوى الميراث ودعوى المحنة ولنأتِ إلى دعوى سهم ذوي القربي، فقد جاءت الزهراء عليها السلام في اليوم التالي تطالب بسهم ذوي القربى مستشهدة بقوله تعالىٰ: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ**

---

(١) انظر: الابهاج في شرح المنهاج ٢: ١٧١ ـ ١٧٢، نهاية السؤل ٢: ٤٥٩ ـ ٤٦٠، البحر المحيط ٣: ٣٦٥.

(٢) الأبيات للسيّد الجذوعي. بيت الأحزان (القمي): ١٦٢.

(٣) قالت الزهراء عليها السلام: «وكنتم... تقتاتون القِدّ وتشربون الطَّرْق ﴿الماء تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ ـ طرق﴾. فأنقذكم الله بأبي محمد صلى الله عليه وآله منها». شرح الأخبار ٣: ٣٥.

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[١]. فقالت عليها السلام: **«إن اليتامي يتامانا، والمساكين مساكيننا، وابن السبيل منا، واسم الله ذكر للبركة، وسهم النبي صلى الله عليه وآله وسهم ذوي القربى كلّه يعود لنا، فأعطنا حقّنا من خمس الغنائم وما يحصل للمسلمين من مواردهم»**[٢].

فقال: إن مبلغ علمي أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يعطيكم هذا كلّه، وإنما كان يسدّ حاجتكم فقط، ونحن نعطيكم بهذا القدر، فمن لم يكن له طعام أطعمناه، ومن كان يحتاج اللباس كسوناه، ومن أراد التزويج زوّجناه، وما زاد على ذلك يعود إلى بيت المال. فأحسّت الزهراء أن المراد بكلّ ذلك أن يغلق الباب بوجهها. فرجعت الزهراء وهي غضبىٰ من القوم بعد أن أحسّت أن الباب أُغلق في وجهها.

ثم إن الزهراء لما اشتدّت بها العلّة قصدها الخليفتان الأوّل والثاني، فدخلا عليها بعد أن استأذنا من أمير المؤمنين عليه السلام وألحّ عليها، فقالت: **«ليدخلا»**. فلما دخلا حوّلت وجهها إلى الحائط، فاستدار الخليفتان، فاستدارت هي، ثم استدارا فاستدارت، ثمّ قالت: **«والله لا أكلّمكما حتى تصدّقاني إن صدقت»**. قالا: بلى. قالت: **«الله عليكما، هل سمعتما قول أبي فيّ: فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني؟»**. قالا: بلى. قالت: **«اللهم اشهد عليهما أنهما آذياني»**. ثم حوّلت وجهها مرّة أُخرى، فجزع أبو بكر جزعاً شديداً. فوضع الخليفة الثاني يده بيده وقال: قم، ولا تجزع لقول امرأة. فأخرجه[٣]. والانفعال

(١) الأنفال: ٤١.

(٢) انظر الخطبة كاملة في شرح الأخبار ٣: ٣٤ ـ ٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٠ ـ ٢٣٥.

(٣) الإمامة والسياسة ١: ٢٠ ـ وحول حديث «يؤذيها ما يؤذيني» انظر: مسند أحمد ٤: ٥.

باديان على وجهها الشريف.

ولحقت عليها السلام بأبيها وهي ولهى، وقد ملئت ألماً ووجداً. وفي لحظاتها الأخيرة كانت توصي أمير المؤمنين عليه السلام بوصايا عدّة؛ منها ألّا يحضر جنازتها أحد، حيث إنها عليها السلام قالت له: **«في صدري وصايا تختلج، وأُريد أن أُوصيك بها»**. قال عليه السلام: **«بلىٰ، عزّ والله عليَّ فراقك يا بنت رسول الله»**. قالت: **«يا أبا الحسن، إن أنا قضيت نحبي فغسّلني بثيابي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهّرة. يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أُختي أُمامة فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصِح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين؛ بالأمس فقدا جدّهما واليوم يفقدان أُمّهما»**. إلىٰ آخر وصيّتها (سلام الله عليها). ثم قالت: **«فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات»**[1].

فكان أمير المؤمنين عليه السلام إلىٰ جانبها إلى أن فاضت روحها الطاهرة. فسجّاها وأسبل عليها الإزار والتفت إلىٰ أبي ذرّ قائلاً: **«يا أبا ذر، أعنّي علىٰ حملها»**[2].

وهذا طلب غريب، فالذي يظهر أن النكبة قد أخذت أثرها منه عليه السلام، فالذي اقتلع باب خيبر بيد واحدة يعجز الآن عن نقل فاطمة عليها السلام وهي برعم صغير في عمر الورود؟ لقد ماتت عليها السلام وعمرها ثماني عشرة سنة ولا يستطيع حملها؟ نعم، ذلك أن المصاب قد هدّه، فلم يمكنه أن يتحرّك. ثم أقبل ورفع طرف

☚ صحيح مسلم ٧: ١٤١، وغيرها كثير.

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

(٢) انظر: معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٩٢، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٩.

الفراش ووضعها على المغتسل، فلما أتم غسلها صاح: **«يا حسن يا حسين يا زينب يا أُم كلثوم يا أسماء، هلمّوا لتودعوا فاطمة؛ فإن هذا الفراق، ولا لقاء قبل يوم القيامة»**.

ثم أمر بنقل الجنازة، فأخرجها المشيّعون وهم ثمانية: سلمان وأبو ذر وعمار والمقداد والعباس والفضل ابنه والحسن والحسين﵉، وحمل أمير المؤمنين﵇ طرفاً من الفراش، وحمل أبو ذر الطرف الآخر، واستقبل أمير المؤمنين﵇ قبر النبيﷺ فقال: **«السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة بجوارك والمختار لها الله سرعة اللحاق بك»**[1]. ثم أخّر إخراج الجنازة إلىٰ ما بعد منتصف الليل، فأخرجها مع المشيّعين فوضعها علىٰ حافة القبر:

شيعها الكبرها بليل   حنىٰ عليها وبچه بهداي
يگلها يا وليف الروح   عگبچ من يظل وياي
چنتي صحوة ايامي   وعگبچ غيّمت دنياي
وشريچ الروح لو سافر   ما ندري الوجه لا وين

وبعد أن أوصلها إلىٰ القبر التفت إلىٰ المشيّعين وقال لهم: **«ارجعوا لا حاجة لي ببقائكم»**. ثم التفت إلىٰ أبي ذر وقال: **«خذ بيد الحسنين إلىٰ البيت»**. ثم جلس هو علىٰ شفير القبر يخطّ الأرض بأنامله:

ما لي وقفت علىٰ القبورِ مسلماً   قبرَ الحبيبِ فلم يردَّ جوابي
أحبيبُ مالك لا تردّ جوابَنا   أنسيت بعدي خلّة الأحبابِ[2]

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٢.
(٢) ديوان الإمام علي﵇: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

﴿١١٢﴾

نهضة الإمام الحسين عليه السلام

أيا كربلا يا هدير الجراح

وزهو الدم العلوي الأبيْ

وياصرح مجد بناه الحسين

وأبدع في رصفه المعجبِ

ويا عبقاً في ثرى العلقميّ يشدُّ الأنوفَ إلى الأطيبِ

سيبقىٰ الحسين شعاراً علىٰ أصيلك والشفق المذهبِ[1]

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأوّل: ملامح الخليفة الشرعي

من أبرز ملامح النهضة الحسينية (على صاحبها أتم الصلاة وأشرف السلام والتحيّة) أن الأقلام كلّما عاودتها وجدت فيها عطاءً ثرّاً ومنبعاً جديداً. وهذا خلاف ما عليه الكثير من الموضوعات التي تتطرّق إليها تلك الأقلام. ومعلوم أن كلّ كاتب عندما يلج موضوعاً ويكتب عنه، أو يتطرّق إلى مضامينه فإنه يستنفد فيه أغراضه كلها من أول وهلة. فلو حاول أن يكتب فيه ثانيةً أو ثالثة فإنه سيأخذ باجترار المادّة السابقة نفسها؛ لأنه ليس هنالك من مادّة جديدة يستطيع أن ينهل منها. لكن واقعة الطفّ في حقيقتها عطاءٌ ثرٌّ؛ ما إن تعاوِدْها

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

الأقلام حتى تجد فيها ذلك الينبوع المتدفّق المليء بالعطاء.

والسرّ في ذلك أن مضمون هذه النهضة المباركة لا يتعدّى تجسيد الأهداف الإسلاميّة، أي أنها ترمي إلى تجسيد هذه الأهداف ولا تتعداها إلى غيرها. والذي يهمّني في هذا البحث هو إثبات هذه الحقيقة دون أن أُعير التعليلات التي حاول بعض المؤرّخين أن يسم بها ثورة أبيّ الضيم أبي الشهداء، والتي ستمرّ علينا في بحوثنا القادمة إن شاء الله تعالى.

وبعض هذه التعليلات هي اجتهادات فرديّة تتعلق بهذه العشيرة أو تلك، وبعضها يتعلّق بجوانب أُخرى. والتعليل الأساس الصحيح البعيد عن التعليلات الشخصيّة القائمة على أساس دوافع بعيدة كلّ البعد عن مبادئ الإسلام ـ وهذا التعليل هو التعليل الوحيد الذي يرتبط بالواقع والذي يعدّ التفسير الحقيقي لقيام هذه الحركة المباركة ـ هو التعليل الذي يوضّح ويبيّن حقيقة أن نهضة الإمام الحسين هي نهضة تستهدف تجسيد الإسلام وأحكامه.

المبحث الثاني: أسباب قيام الحسين بنهضته

وقد يسأل سائل فيقول: وهل تعرّضت أهداف الإسلام إلى شيء من التضييع، أو تعرّض لها بعض ليؤدّي بها إلى الانحراف حتى يحاول الحسين أن يصحّحها بثورته ونهضته؟

والجواب: أن هذا الأمر سيتّضح لنا من خلال هذه اللمحات التي سأعرض لها إن شاء الله تعالى؛ كي أُوضّح هذا المشكل الذي التبس أمره على هذا المتسائل. إن الإسلام تعرّض إلى الكثير من محاولات الطمس والتضييع وإلى سحق أهدافه، وهذا هو الذي اضطر الإمام الحسين إلى النهوض بثورته المباركة.

اللمحة الأولى: المخالفة الصريحة للشريعة

يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عزّ وجلّ: **«إن الله يقول: ثلاثة أنا خصيمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أُعطي بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفِّه أجره»**[1]. فهذه الأُمور الثلاثة تبدو أنها أهداف رئيسة في الإسلام، بحيث إن الله تعالى يتبرّأ ممن خالفه فيها. وهذا أمر مهم جداً؛ لأنه يعبر عن إرادة الله جل وعلا في هذه المسألة. وسنستعرض هذه الأهداف لنرى فيما إذا كانت قد تعرضت للضياع أو لا.

أولاً: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «رجل أُعطي بي فغدر»

ومعنى هذا أن بعض الناس يتلبس بعنوان من العناوين الدينية ثم يسخّر هذا العنوان الذي تلبس به لأغراضه، مع أن من يتلبّس بلباس الدين يجب عليه أن يكون صادقاً وفياً طاهراً فيكرم هذا العنوان ويحترمه. لكن الذي يلاحظ أن البعض ممن تلبس بهذا قد خالف سيرة الأنبياء والرسل عليهم السلام، واعتدى على أهداف الدين وجعل الدين وسيلة لإذلال غيره وخدمة الظالمين بدل أن يأخذه وسيلة لخلاف هذا. فتعامله هنا تعامل قذر وغير نظيف حيال الدين.

معنى الخلافة

والمفروض أن الإنسان خليفة الله تعالى في أرضه، وهذا يعني أن الخلافة امتداد للنبوة؛ لأن من يتربع على كرسي الخلافة فهو إنما يخلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في

---

(١) عوالي اللآلي ٣: ٢٥٣ / ٣، مسند أحمد ٢: ٣٥٨، صحيح البخاري ٣: ٤١.

تطبيق أحكام الله تعالى ، ويجسد المضامين عينها التي جسدها الرسول ﷺ وأمر باتباعها.

والخلافة عندنا أمر مقيد بمعنى أن الخليفة ليس له الحق في أن يشرع، بل إن مهمته هي أن يأخذ آيات الكتاب الحكيم أو السنة النبوية المطهرة ثم يستنبط منها الحكم الشرعي المناسب لكل موضوع وحادثة. وهذا يعني أنه لا يمكنه التدخل في البنية الاقتصادية للمجتمع الإسلامي؛ لأن أمر تحديدها والتصرف فيها منوط بالقرآن؛ فهو الذي يبين لنا حدودها وضوابطها.

فكل ما عند الخليفة وما له هو أن يطبق هذا المفهوم الإسلامي سواء كان على صعيد المجتمع أو على صعيد نظام الأُسرة، فلو جاء خليفة مثلاً وقال: أُريد أن أُبيح للرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء فإنه يكون قد خرق الحكم الشرعي، ويجب حينئذٍ أن يخالفه المسلمون في ذلك مادام القرآن قد حرم ذلك وحدد العدد بأربع. وبالنتيجة أنه لا يجوز لأحدٍ مهما كان أن يشرّع قبالة هذا النص وأن يغيّر العدد؛ لأن هذا الوضع هو خلاف الدستور الإسلامي.

فالخليفة إذن هو مطبق للأحكام التي جاء بها النبي ﷺ ، وعليه فلا يجوز له أن يخالف ما جاء به النبي ﷺ ؛ لأنه خليفته في هذا الأمر. ولنأخذ يزيد بن معاوية كأُنموذج فنرى مدى التزامه بما قررنا آنفاً، إن الكثير من المؤرخين كانوا ومازالوا يعطون يزيد هذا مفهوم الخلافة الإسلاميّة، بل يعطونه أكثر من هذا بأن يرتبوا له حكماً مفاده أن الخارج عليه خارج على الله تعالى وعاصٍ له؛ لأن يزيد يمثل منصباً دينياً. والمفروض أن هذا المنصب يستمدّ شرعيّته من النصوص الدينيّة، فلا يزيغ عنها صاحبه يميناً أو

شمالاً، فيطبّق الدين وأحكامه كما كان الرسول صلى الله عليه وآله يطبّقها.

فإذا أخذ من يُدّعى له أنه الخليفة الشرعي حقّ غيره، وكان أخذه له بالله فقد غدر وأصبح مصداقاً للحديث الشريف.

وهذا الرجل حينما وصلت إليه الخلافة وعُبر عنه بأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله خالف كل ما جاء عن الله تعالى، ونحن إذ نقول هذا لا ننطلق فيه من منطلق عدائنا للأُمويين أبدا، بل إنما ننطلق فيه من حقائق تاريخية ثابتة لا يتطرق إليها الشكّ ولا يمكن أن توصف بالزيف. مع أن تأريخنا ليس فيه تقييم صحيح وواقعي لرجالاتنا، فنحن حينما نمر مثلاً بعمر بن عبد العزيز لا نذكره إلّا بالتقدير والإكبار لأن مواقفه معروفة، وكذلك حينما نمر بأبان بن سعيد فإننا نكبره ونجلّه، هذا مع كونهما أُمويين، وكذلك الحال مع غيرهما كأُم حبيبة بنت أبي سفيان.

وهذا معناه أننا لا نعادي شخصاً ما؛ لمجرّد أنه ينتسب إلى البيت الأُموي أو العباسي بل إننا نعاديه بناءً على ضوابط معيّنة تحدّدها مواقفه وما يصدر منه من تصرفات إزاء الدين وحملته من أهل البيت عليهم السلام. وهذا إنما استقيناه من القرآن الكريم الذي وضع لنا مقاييس واضحة نقيّم بها الناس، وعلى ضوئها نمنح هذا تقديراً وذاك ازدراء[1].

ولنرجع إلى يزيد الذي حينما وصل إليه الأمر واستقل به فإنه لم يحترم هذا المنصب الذي شغله فأخذ بالله حق غيره، وقتل وظلم وفعل المنكرات[2]،

(١) وقد ورد في الأثر: اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال.

(٢) كشرب الخمر جهاراً والتغني بذلك، وتربية الكلاب والفهود والقرود، واتخاذ المغنّين ومصاحبة النصارىٰ والاستهتار بحياة الناس ومقدّراتهم وغير ذلك من المنكرات التي سيمرّ

مع أن وظيفة الخليفة هي أن يحكم بين الناس بالعدل ويرجع إلى الناس حقوقهم ويعالج مشاكل الأُمّة. ومن هذه المواقف ما يروى من أنه حينما كان وليّاً للعهد، ذهب إلى مشارف الروم يلهو، فسمع أن جيش أبيه قد أنهكته الحمّى والطاعون فلم يأبه له، وانشغل بالخمر والغناء مع ما كانت عليه أوضاع الجيش والمسلمين آنذاك من حرج وحاجة إلى الكثير من الاهتمام والرعاية.

وقد كان هذا سنة (٤٩) هجريّة؛ حيث إنه كان قد خرج إلى القسطنطينية التي يسميها هو في شعره الفرقدونة، وكانت جيوش المسلمين تقاتل في اسطنبول، وكان أن أصاب جيش المسلمين طاعون وحمّى فتكا به، فأرسل إليه أبوه ـ باعتباره ولي العهد ـ: أن توجهْ إلى الجيش لترفع من عزيمته ومعنويّاته. لكنه بقي مع جارية له في دير مَرَّان تغنّيه، حتى بعد أن وصل إليه خبر لجيش وما أصابه، فاندفع يشرب حتىٰ ثمل، ثم أنشأ يقول:

ما إن أبالي بما لاقت جموعُهُمُ ... بالفَرقَدونة من حمًّى ومن شومِ

☚ المحاضر ببعضها.

فهو القائل مثلاً:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّمُ

خذوا بنصيب من نعيم ولّذة ... فكلٌ وإن طال المدى يتصرّمُ

جواهر المطالب (الدمشقي) ٢: ٣٠١. والقائل:

اسقني شربة تروِّي فؤادي ... ثمّ قم واسقِ مثلها ابن زياد

موضع العدل والأمانة مني ... ولتنفيذ مغرمي ومرادي

تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ١٤٣ ـ ١٤٤، النصائح الكافية: ٧٩.

ويروىٰ أن معاوية سمع شخصاً يغنّي عنده، فسأله عنه فقال: هذا سائب خاثر. فقال له: فاختر له يا بنيّ من برّك وصلتك، فما رأيت في مجالسته بأساً. الأغاني ٨: ٣٢٤

إذا اتّكأت على الأنماط مرتفقاً   بدير مَرّان عندي أمّ كلثومِ[1]

ثم بعد ذلك ألحّ عليه أبوه أن يلتحق بالجيش فالتحق.

فمثل هذا الرجل ما الذي يمكن أن تلمسه منه؟ وأي شعور بالمسؤولية يمكن أن يحمله وهو لا يبالي بما تلاقيه جموع المسلمين؟ لقد كان كل همه أن يشبع رغباته وأن يرضي نفسه ولذائذها في أحط شهواتها. فمثل هذا هل يمكن أن ينسحب عليه وصف ديني؟ بل هل يصح أصلاً وصفه بهذا الوصف؟ وهل من الإنصاف والمروءة أن نعطيه لقب خليفة ونضعه في مصاف الخلفاء الراشدين؟ إن هذا ليس من الإنصاف ولا من المروءة في شيء، وليس هذا المقياس بالذي يمكن أن يصححه هذا اللقب.

وهو إلى جانب هذا كان يصبح عليه الصباح في أيام خلافته فيذهب إلى قرد كان عنده أسماه أبا قيس، فيلاعبه تاركاً أمور المسلمين دون أن ينظر فيها ويعالجها. فهو بدلاً من أن يفعل هذا يعد عدته ويروّض قروده وكلابه على الصيد ثم يركب ويُركب قرده على أتان ويسابق بها خيول المسلمين. فهو من الصباح إلى المساء يقضي وقته ما بين القرود والفهود مخلفاً وراءه مشاكل بلد بأكمله وأمة بحالها. إن من يرتكب مثل هذه الأُمور لا بد أن تعافه مرتبة الخلافة ويعافه الإنسان المحترم الوقور الذي يربأ بنفسه أن تنجر إلى مثل هذا.

إن حقوق المسلمين كانت مضيّعةً يميناً وشمالاً، وهو لا يعلم ولا يدري ماذا حصل أو ماذا سيحصل في بلاد الإسلام، وأين هذا ممن كان يمارس

---

(١) معجم البلدان ٢: ٥٣٤، ٤: ١٨٨.

لوناً من الرقابة على نفسه أو على أمراء المسلمين كما كان يفعل أمير المؤمنين﴿ع﴾ وغيره؟ ولقد كان عمر بن الخطاب يقول: إذا فقدت شاة بالعراق فإن الله تعالى سائلي عنها.

أما أمير المؤمنين﴿ع﴾ فيضرب لنا مثلاً سامياً في هذا المجال، فيقول لعثمان بن حنيف: **«أ أقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين ولا أُشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أُسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات كالبهيمة المربوطة، همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عمّا يراد بها؟»**(١).

فهذه هي المسؤوليّة الحقيقيّة التي يجب أن يكون عليها الخليفة العادل، وهي مسؤوليّة الضمير ومسؤوليّة الدين. ثم إنه لا يخفى على أحد من هو الذي كان نديم يزيد، إنه الأخطل النصراني الشاعر الذي كان مولعاً بشرب الخمرة، وهو مع ذلك يسمى شاعر البلاط؛ لأنه كان يمدح الأُمويين، وكانت صلاحياته الممنوحة له واسعةً فله حق التصرف في كل شيء؛ ولذا كان يعبث عبثاً واضحاً ومنقطع النظير في مقدرات المسلمين. وبعبارة أُخرى كان إنساناً منحلّاً في غاية السقوط ومع ذلك كان يقود زمام الخليفة بيده يميناً وشمالاً.

هذا هو معنى قوله﴿ص﴾: **«أُعطي بي فغدر»**، فهذا الخليفة بدل أن يكرم هذه الوظيفة غدر بمن أعطاه إياها مع أنه ينبغي عليه أن يقف حيث يوقفه الشرع ويتحرك حيث يحركه القرآن. لكنه كان بمعزلٍ عن هذا بأجمعه؛ ولذا فإن الآلوسي المفسر الشهير حينما يمر بيزيد بن معاوية يشبعه لعناً وينهال عليه به بشكل فظيع حتى بلغ به الأمر أن قال:

---

(١) نهج البلاغة / الكتاب: ٤٥.

يزيد على لعنٍ عريض جنابه   فأغدو به من لعنه ألعن اللعنا

وينتهي الأمر إلى هذا اللون من الاختيار، وهو اختيار غير نظيف في تأريخ المسلمين، فأن يوضع شخص في مصاف خلفاء المسلمين ويأخذ بالله حق هذا ويعطيه غيره بغير حق لهو حقيق بأن يكون في أدنى طبقة من المجتمع. ذلك أنه يأخذ معالم الدين ويحرفها ويضعها في غير موضعها، ولم يكن بمستوى حسن ظن المجتمع به، بل إنه يمارس ما يجعله ضمن دائرة عكس ظنهم به، وبالتالي يصبح منبوذاً منهم. وينتهي به الأمر إلى هذا اللون من العبث بالمقدسات، وهي كثيرة منها وقعة الطف ووقعة الحرة[1] وهدم الكعبة[2] والتنكيل بأهل البيت عليهم السلام إلى آخره مما يعجز القلم عن تسطيره.

ثانياً: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «رجل باع حراً فأكل ثمنه»

فمن الطبيعي أن أي إنسان لا يولد عبداً، ولا يحق للمجتمع أن يحكم عليه بالعبودية؛ إذ لا توجد عبودية في نظر الإسلام بالولادة. والإسلام عندما جاء وضع قوانين للرق وشرع نظماً للحد من مسألة العبودية، وهو إنما جاء والرق موجود تتعامل به الشعوب والأمم كافة، ولم يكن هو الذي أوجد الرق. ومنهاجه الذي وضعه لمعالجة هذه المسألة منهاج تدريجي، وإلّا فإن الإسلام لم يكن هو التشريع الوحيد الذي جوز هذا الأمر.

---

(١) انظر: الأخبار الطوال: ٢٦٧، تاريخ الطبري ٨: ١٨٧.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٦٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤، ١٨٧ / ٣٨٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدىٰ والرشاد (الشامي) ٦: ٢١٤.

مصادر الرق

إن المصدر الأساس للرق هو الحروب التي كانت تخوضها الأُمم آنذاك، ولذا فإن كل من يتناسل من أبناء الأسرى يسمون عبيداً. وحينما يرجع الباحث إلى التأريخ الأوروبي فإنه سيجد أن العبيد هم الذين يديرون المنشآت الاقتصادية؛ من مصانع ومزارع ومطاحن. فنظام الإجارة لم يكن معروفاً آنذاك، وهذا النظام هو الذي يعبر عنه ماركس بأنه نظام عبودية، والحال أنه عكس ذلك؛ إذ ليس فيه أي عبودية بل إنه عبارة عن وضع ثمن قبالة عمل ما. على أية حال فإن الذي كان يدير الحياة في المجتمعات والشعوب هو الرق؛ ولذا فإن الإسلام حاول علاجه تدريجياً؛ إذ أن من الصعب بمكان اجتثاث هذه الظاهرة من جذورها دفعة واحدة.

وما يمكن أن يذكر في المقام أن الإنسان لا يمكن أن يتحول من حر إلى عبد مهما كانت المسببات والظروف؛ لأن هذا خلاف التكريم الذي نص عليه الله تعالى في كتابه الكريم: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**[1].

فكرامة الإنسان فوق كل شيء وكل اعتبار، وقد صور الرسول الأكرم ﷺ هذا الأمر بأدق تصوير حينما صدَر الناس في حجة الوداع؛ إذ صعد المنبر وخطبهم قائلاً: **«يا أيها الناس، أي يوم هذا؟»**. قالوا: أعظم الأيام. ثم قال: **«يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟»**. قالوا: أعظم الشهور. قال: **«أيها الناس، أي بلد هذا؟»**. قالوا: أعظم البلدان. ثم قال: **«وأي بيت هذا؟»**. قالوا: أعظم البيوت.

(١) الإسراء: ٧٠.

قال: «إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من بيتكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»[١].

ولهذا تلاحظ أن مسألة البيعة كانت تأخذ بعداً خاصاً عند المسلمين، فقد كانوا يعتقدون بأنهم حينما يبايعون الخليفة فإنهم إنما يبايعونه على أساس أنه أخ في اللّه تعالى وأنه خليفة وأنهم مواطنون. وهل يمكن أن يقال: إنه قامت خلافة شرعية في التأريخ على أساس الرق والعبودية؟ والحال أن الذي حصل أيام يزيد عندما انتهت إليه الخلافة هو هذا. والذي حدث في واقعة الحرّة أنهم جلبوا لمسرف بن عقبة الناسَ حتىٰ يجدّدوا البيعة ليزيد، فقال لهم: تبايعون علىٰ أساس أنكم عبيد أقنانٌ ليزيد[٢]. ومعلوم أن العبد القنّ لا يملك شيئاً إطلاقاً، فدمه وماله وكلّ ما يملك تحت تصرف سيّده، وكذلك يريد هؤلاء أن يكون الناس لهم. فكيف تلتقي هذه المبادئ مع القيم الإسلاميّة؟

وهذا التأريخ بصورة عامة ـ وليس تأريخ المسلمين فقط ـ حينما تستنطقه تجده لا يذكر أن هناك بيعة في الحقّ قامت على أساس أن يبايع الناس السلطانَ على أنهم عبيد له كما فعل ذلك يزيد بن معاوية. والمفروض أن عندنا مفاهيم مسبقة حددها لنا الإسلام حول هذا الموضوع نستقيها من سيرة

---

(١) الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢. وفي الجميع بتفاوت: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأي شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن اللّه عزّ وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه».

وقريب منه عن أبي عبد الله عليه السلام. انظر: الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٥٤: ١٨١ ـ ١٨٢.

الرسول الأكرم ﷺ وصحابته البررة، وأبسط مثال على ذلك ما يحدثنا التأريخ عنه من أن الإمام علياً ﵇ طلب يوماً من أحد غلمانه ماء، فلم يجبه، حتىٰ كرّر الطلب ثلاثاً. فقال له: **«لمَ لم تجبني؟»**. قال: أمنت عقوبتك. فقال﵇: **«الحمد لله الذي جعل عبدي يأمن عقوبتي، اذهب فأنت حرّ لوجه الله»**.

فهذا اللون من الخلق الذي نراه هو الذي رسمه لنا الإسلام وقد سار عليه صحابة الرسول الأكرم ﷺ ومن تابعهم. وكمثال آخر على ذلك يحدثنا التأريخ أن أبا ذر الغفاري﵁ ـ وهو تلميذ الإسلام النجيب ـ قد لحقه في إحدى المعارك غلام وفرس وشاة، فكان يكلف الغلام بشراء الكلأ لهما، وجاء في أحد الأيام فوجد ذلك الغلام قد أرسل الفرس على كلأ الشاة، فسأله أبو ذر﵁ قائلاً: لماذا فعلت ذلك؟ فقال: أردت أن أغيظك. فقال أبو ذر﵁: والله لأجمعن لك مع الغيظ أجراً، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

فنحن نعرف أن هذا هو تاريخ الإسلام، وهذه المثل هي التي حملها إلينا وقد أفرزتها لنا مدرسة النبي الأكرم ﷺ. فالمسلم الحقيقي هو الذي يطلق عبداً ويعتقه لوجه الله تعالى لا أن يأتي إلى الحر فيستعبده ويطلب منه أن يبايعه على أنه قنّ له. وفعلاً لم يخرج مسرف بن عقبة من المدينة حتى أخذ البيعة من الناس ليزيد على هذا النحو.

حركة الزنج أثر طبيعي لهذه الحالة

ولو أن الباحث المنقب في التأريخ الإسلامي الذي صاغه الأُمويون وجلاوزتهم يطلع على هفوات هذا التأريخ فإنه سيجد نكبات سببتها هذه

العقدة، ومن ذلك ما يحدثنا التأريخ عنه من مسألة حركة الزنج الذين ثاروا لأسباب هي غير تلك الأسباب التي يحدثنا عنها التاريخ. فالأسباب الحقيقية الكامنة وراء تلك الحركة هي أن الزنوج كانوا يشعرون بالنقص بسبب معاملة المجتمع والسلطة لهم، فأرادوا أن يستعيدوا آدميتهم من الناس الذين سلبوهم إحساسهم هذا وعاملوهم كأنهم متاع حقير وليس كبشر خلقهم اللـه تـعالى وهم مثلهم سواء.

فهؤلاء كانوا لا يعترفون بعواطف الرقيق ولا بمشاعرهم، بل لا يعيرونهم أي اهتمام لمجرد أن ألوانهم سود، كما يحدث اليوم مع الكثير من الشعوب السوداء حيث يمنعون من الدخول إلى مدارس البيض ومطاعمهم والاشتراك معهم في أعمالهم.

وهذا ليس من ديدن الإسلام ولا من خلُقه الذي ربى المسلمين عليه، نظر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقّة عليه وقال له: **«يا جويبر لو تزوّجت امرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخـرتك»**. فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي، من يرغب في؟ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأيّة امرأة ترغب في؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **«يا جويبر، إن الله قد وضع بالإسلام من كان فـي الجـاهلية شـريفاً، وشرّف بالإسلام من كان في الجاهليّة وضيعاً، وأعزّ بالإسلام من كان في الجاهليّة ذليلاً»**.

إلى أن قال له: **«فالناس اليوم كلّهم أبيضهم وأسودهم، وقـرشيّهم وعـربيّهم وعجميّهم من آدم، وإن آدم عليه السلام خلقه الله من طين، وإن أحب الناس إلى الله عزّ وجل يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم. وما أعلم يا جويبر لأحد مـن المسـلمين**

عليك اليوم فضلاً إلّا لمن كان أتقى لله منك وأطوع».

ثم قال له: **«انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد فإنه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له: إني رسول رسول الله إليك، وهو يقول لك: زوج جويبراً من ابنتك الدلفاء»**.

قال: فانطلق جويبر برسالة رسول الله ﷺ فقال له زياد: أرسول الله أرسلك إلي بهذا يا جويبر؟ فقال له: نعم، ما كنت لأكذب على رسول الله ﷺ. فقال له زياد: إنا لا نزوّج فتياتنا إلّا أكفاءنا من الأنصار، فانصرف يا جويبر حتى ألقى رسول الله ﷺ، فأُخبره بعذري. فانصرف جويبر ثم بعث زياد رسولاً فلحق به فقال له زياد: يا جويبر مرحبا بك، اطمئن حتى أعود إليك. ثم انطلق زياد إلى رسول الله ﷺ، فقال له: بأبي أنت وأُمّي إن جويبراً أتاني برسالتك، فرأيت لقاءك، ونحن لا نزوّج إلّا أكفاءنا من الأنصار. فقال له رسول الله ﷺ: **«يا زياد، جويبر مؤمن، والمؤمن كفءٌ للمؤمنة، والمسلم كفءٌ للمسلمة، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه»**.

فرجع زياد إلى منزله، ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله ﷺ، فقالت له: إنك إن عصيت رسول الله ﷺ كفرت. فزوّج جويبراً من ابنته[1].

فهو ﷺ يبيّن لهم أن مفهوم التفريق بين الحرّ والعبد قد ألغاه الإسلام؛ لأنه لا يوجد إنسان ولد عبداً. فهذه الحالة فرضت على المجتمع فرضاً بسبب الظروف التي كان يعيشها ولما جاء الإسلام أراد أن يسلخه منها. جاء جماعة

(١) بحار الأنوار ٢٢: ١١٨، أُسد الغابة ٢: ٢٠٢ / ١٩٦٥.

لرسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يارسول الله، نزوّج بناتنا من غلماننا؟ قال: «بلى». فقالوا: سمعاً وطاعة.

وفي هذا الوقت نفسه يزوّج النبي صلى الله عليه وآله عبداً مملوكاً من ابنة عمّته زينب. فالمسألة إذن لم يعالجها الإسلام على صعيد اللفظ، إنه بل عالجها على صعيد العمل، مبتدئاً بالنبي صلى الله عليه وآله الذي قام بتطبيقها على نفسه. فهل يصحّ بعد أن أينعت ثمار هذا الزرع الذي زرعه الرسول صلى الله عليه وآله، وبعد أن آتى أُكله للإنسانيّة كلّها أن يأتي شخص منحرف ليرجع الناس وعجلة الإسلام إلى الوراء بدلاً من أن يكرمهم ويحترم آدميّتهم، ويطبّق أحكام الإسلام[1]؟

وهكذا انتهى الأمر إلى أن تؤخذ البيعة ليزيد من الناس على أنهم عبيد أقنان، والوحيد الذي لم يبايع هذه البيعة هو الإمام السجاد عليه السلام؛ فقد بايع على أنه أخو الخليفة فقط وقبلت بيعته على هذا الأساس، ثم جاء من بعده محمد بن الحسن عليه السلام، فقالوا: لا يبايع إلّا كما بايع ابن عمه.

ثالثاً: قوله صلى الله عليه وآله: «ورجل استأجر أجيراً فبخسه حقه»

قد ذكرت أنه عندما جاء الإسلام فإنه ألغى نظام العبوديّة، وشرّع نظام

---

(١) جلس النبي صلى الله عليه وآله يوماً على منبره وهو واجم، فسأله أصحابه عمّا به، قال صلى الله عليه وآله: «رأيت بني أُمية ينزون على منبري نزو القردة؛ يردّون الناس عن الدين القهقرى». جامع البيان: المجلّد ٩ ج ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٨: ٢١٠. فهبط عليه جبرئيل عليه السلام يحمل سورة القدر، وأخبره أن ما رآه حقّ، وأن مدّة ملك بني أُمية ألف شهر.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُمية. وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

الإجارة، فقال على لسان الرسول ﷺ: **«أعطِ الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه»**[(١)].

نظرية الأجور عند الاشتراكيين والرأسماليين

وأُلفت نظرك هنا إلى أن نظرية الأُجور المعاصرة تقول: «من كل حسب جهده ولكل حسب عمله»، وبعض المعسكرات الشرقيّة تعتبر هذا الشعار مؤقتاً حيث إنها تريد أن تصل إلى شعار «من كل حسب جهده ولكل حسب حاجته». وهذا طبعاً لم يتحقق حتى الآن ولا يمكن تحقّقه؛ لأنه حينما يقرر أنه يعطيه حسب عمله وعمله بالكاد يعيل ثلاثة نفر أو أربعة وهو يعيل أُسرة من عشرة أفراد مثلاً فكيف يتمكن من أن يسد هذه الحاجة لبقية أفراد عائلته؟ فمن الطبيعي جداً أن تتعرض إنسانية هؤلاء إلى الهدر وكذلك كرامتهم.

وفي مقابل هذا هناك النظرية الرأسمالية ـ نظرية الكفاف ـ وهي أن يعطى الإنسان مقدار ما يكفيه، فالعامل يعطى أُجور الكفاف، وهي الأُجور التي تكفي للأكل والشرب والمسكن؛ بدعوى أن هذا الزائد إن أعطوه إيّاه كان له مردودان سلبيّان؛ فهو إن كان ضمن ثمن السلعة فإن ثمن السلعة سيرتفع وعند ذاك لا يمكن المنافسة في الأسواق بسلعة مرتفعة الثمن. ومن ناحية أُخرىٰ أنه يمكن أن يرفّه العامل بهذه الزيادة ـ أي فيما لو أُعطي فوق الكفاف ـ ومعنى هذا زيادة في التوالد عند العاملين، وارتفاع عدد السكان، وبالتالي سوف يزيد عدد العمال ويقلّ الأجر. وهذه كلها دعاوى فارغة

---

(١) الكافي ٥: ٢٨٩ / ٢، سنن ابن ماجة ٢: ٨١٣ / ٢٤٤٣.

وخالية من الإنسانية.

ويتلخّص من هذا أن نظريات الأُجور المعاصرة هي نظريات جائرة لا تنظر إلى إنسانية الإنسان.

نظرية الأُجور في الإسلام

أما في الإسلام فالقانون المعتمد والسائد هو «من كل حسب طاقته ولكل حسب كفايته». ومعنى هذا أنه يؤخذ منه عمله فيعطى بمقداره، فإن لم يكفِه ولم يسدَّ حاجته أُعطي من صندوق الضمان أو صندوق الزكاة أو من الخمس أو غيرها من الموارد المالية المعروفة في الإسلام ما يكمّل حاجته ويتمّمها.

فعرق العامل محترم كثيراً في نظر الإسلام، وهو عرق يجب أن يصان ويحفظ؛ لأنه هو الذي يبني الحياة ويصنعها. فإذا كان العامل صانع الحياة فلابدّ إذن من أن يحترم وأن يعطى ما يسد حاجته وحاجة أُسرته، وأن تعطى له أُجرته قبل أن يجف عرقه[١].

العمالة في المنظار الأموي

وإذا كان الأمر كذلك فلننظر إليه على ضوء تصرفات الأُمويّين وعمّالهم وأُمرائهم، فحينما جاؤوا إلى الحكم، صعد واليهم سعيد بن العاص ـ وكان أمير الكوفة آنذاك ـ وقال: أيها الناس السواد بستان لقريش ـ والسواد أرض العراق لكثرة المزارع فيه[٢] ـ فالذي يريد أن يعمل عندنا فليعمل، والذي لا

---

(١) وقد حثّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على إيفاء الأجير أجره، فقال: «من ظلم أجيراً أجره أحبط الله عمله وحرّم عليه الجنة». الأمالي (الصدوق): ٥١٣.

(٢) لسان العرب ١٢: ٢١ ـ دهم. ومنه قوله تعالىٰ ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ أي مسودّتان لالتفاف أوراقهما.

يريد ذلك فليتدبّر أمره من مكان آخر(١).

وهذا تحدٍّ صارخ لأحكام الشرع الحنيف، ذلك أن المسلمين سُلبوا ملكيّة أرضهم وسلبوا قوتهم، وامتدّت أيديهم إلىٰ رغيف صاحب الكدّ واقتطعته منه. فهذا حينما يقول لهم ذلك فهو إنما يتصوّر أن الدنيا ملك لهم ولذا فإنه قال: ومن أبى فليشرب من البحر.

ونظريتهم هذه معروفة، ففي زمن خلافة الوليد حدث أمر بينه وبين عبد الله بن مسعود ﷺ ترجمان القرآن وأمين بيت المال آنذاك، ذلك أن الوليد بعث إلى عبد الله بن مسعود بحوالة قيمتها ستمئة ألف دينار لأحد ندمائه وهو أبو زبيد، وكان مسيحياً يعاقر الخمرة معه، فما كان من عبد الله إلّا أن حمل المفاتيح وجاء إلى الوليد وأعطاه إياها قائلاً له: إنما أنا خازن بيت مال المسلمين، أمّا إذا أردتني أن أُصبح خازناً عندك فأنا أُفضّل أن أستقيل ولا أُعطي أموال المسلمين إلى أمثال هذا.

وأُلفت نظرك هنا إلى أن عبد الله بن مسعود أراد أن يقول له: إنما أنت شبح يمثل المسلمين ولذلك احترمناك، أمّا إذا أصبحت تمثل نفسك فلا قيمة لك عندنا. وتعرض إثر هذه الحادثة إلى الضرب المبرح حتى أحدثوا به الفتق وأهانوه وأهدروا كرامته. وهكذا انتهى الأمر إلى أن يصبح بيت المال ملكاً للنصارى وسواد العراق ملكاً للأُمويين وندمائهم. فكان الأُمويون يظنّون أن الناس عبيد لهم وأن الدنيا ملك لهم وأن عرق الناس لا قيمة له يعبثون به كما يريدون أو يشاؤون، ولعل هذه الصورة الشعرية التي يقدمها أحد شعراء

(١) تاريخ ابن خلدون ج٢، ق٢: ١٤٠.

العصر الأُموي خير دليل يعكس لنا الحالة التي وصلت إليها الأُمور آنذاك:

فهبها أمّة هلكت ضياعاً ... يزيدُ أميرُها وأبو يزيدِ
معاويَ إننا بشرٌ فأسجِحْ ... فلسنا بالجبالِ ولا الحديدِ
أكلتم أرضَنا فجردتموها ... فهل من قائمٍ أو من حصيدِ
ذروا جورَ الإمارةِ واستقيموا ... وتأميراً على الناسِ العبيدِ
وأعطونا السويّة لا تزرْكم ... جنودٌ مردفاتٌ بالجنودِ[1]

لقد وصلت الأُمور إلى هذا الحد ونحت هذا المنحى الظالم، فهل بعد ذلك يحق لأحد أن يلوم الحسين عليه السلام على خروجه وقيامه بهذه النهضة المباركة، أو يسائله: لماذا ثرت على يزيد؟ وبالمناسبة أود أن أذكر هنا أن أحداً ممن يدعي لنفسه حق هذه المساءلة وهو ممن قاءهم الدهر ولفظتهم الدنيا راح يحاكم الحسين عليه السلام على نهضته، وكأنه لم يقرأ ما كتبه الحسين عليه السلام في وصيّته لأخيه محمد بن الحنفية حيث قال: **«إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا ظالماً ولا مفسداً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله، وأن أسير فيهم بسيرة الحقّ؛ فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بقبول الحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله وهو أحكم الحاكمين»**[2].

وبقيت هذه الوصية عند محمد بن الحنفية، ومرت الليالي والأيام ولم يمنعه من الخروج مع أبي عبد الله عليه السلام إلّا مرضه الذي اشتدّ عليه؛ فقد كان يغمى عليه ساعة ويستفيق أُخرى. وبعد أن انتهت واقعة الطف وجاء النعي

(١) الأبيات لعقيبة الأسدي. تاريخ مدينة دمشق ٢٦: ٤٦، خزانة الأدب ٢: ٢٢٥.
(٢) بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩.

بقتل الحسين وعترته وسبي عائلته فإن أحداً لم يوصل هذه الأخبار إلى محمد رفقاً به وخشية على حياته ورعاية له. لكن لما عادت السبايا يقدمهم بشر بن حذلم وهو ينادي:

يا أهل يثربَ لا مقامَ لكم بها قُتل الحسينُ فأدمعي مدرارُ
الجسمُ منه بكربلاءَ مضرّجٌ والرأسُ منه على القناةِ يدارُ(١)

سمع محمد بن الحنفية هذا النداء فسأل أحد غلمانه: ما لي أرى المدينة تضجّ بأهلها؟ فقال له: سيدي، يقال: إن أخاك الحسين قد رجع والناس يعزونه بابن عمه مسلم بن عقيل. فقال: إذن ما لابن والدي لا يأتي إلي؟ قال: لكثرة الناس عنده. قال: ربما هو ينتظر قدومي، أسرجوا لي جوادي.

فأسرجوا له جواده ونشروا على رأسه حلة للظل، فلما أراد أن يقوم سقط، وقام ثانية فسقط، وكذلك في الثالثة فقال: والله إن فيها لمصائب آل يعقوب. ثم أقبل حتى توسط القوم ولمح مجموعة من الأطفال أقبلوا يهرولون أمام السبايا وهم ينادون: واحسيناه. فنظر محمد إلى ذلك الجمع وقال: لقد فعلتها والله بنو أُمية، وسقط إلى الأرض مغمىً عليه، فهرول الرسول إلى الإمام السجاد وقال له: بادر إلى عمك قبل أن يموت. أقبل إليه السجاد وأخذ رأسه ووضعه في حجره وراح ينضحه بدموع عينيه، ففتح محمد عينيه وقال: من؟ علي هذا؟ قال: **«بلى يا عم»**. قال: بني أين أبوك؟ قال: **«ياعم لقد أتيتك يتيماً»**.

---

(١) مقتل الإمام الحسين (أبو مخنف): ٢٣٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ١١٥.

وهنا أقبلت السبايا إليه وهن يتصايحن:

مـــدينةَ جـــدِّنا لا تـــقبلينا فـــبالحسراتِ والأحـــزانِ جـــينا
خـــرجـنا مـنك بـالأهلين جـمعاً رجـــعنا لا رجـــالَ ولا بـنينا[1]

* * *

اخـوي مـن اطب عـندك دار أرد عـــيني واصـــد فكـــري
أخـــاف اتشـــوف مـــلعبنا الدرجـــنا بـيه مـن صـغري
تـــمرّ اطـــيوفك اعـــليّه مـــثل عـذب الهـوى تـجري

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا وخـــلّفوا فـــي سـويدا القـلب نـيرانـا
نـــذر عـــلي لئـــن عـادوا وإن رجـعوا لأمـــلأن طـــريقَ الطـــفّ ريـــحانا[2]

(١) بحار الأنوار ٤٥: ١٩٨، ينابيع المودّة ٣: ٩٤.
(٢) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

﴿١١٣﴾

الآثار الاجتماعية للصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الصلاة تبني المجتمع الصالح

إن الفرد والأُسرة هما قوام كلّ مجتمع من المجتمعات، وبطبيعة الحال فإن الفرد هو اللبنة الأساس للمجتمع، ثم تأتي بعده الأُسرة في أداء هذا الدور. وهكذا فإننا لا يمكن لنا أن نضمن أُسرة سليمة ما لم نضمن سلامة الفرد؛ لأن الأفراد الذين يكوّنون كل أُسرة إنما يتفاعلون بينهم لأداء وظيفتهم، وبالتالي جعل الأُسرة تؤدي وظيفتها بشكل صحيح، وهم أشبه بلبنات البناء فإذا كان اللبِن منخوراً فسوف لن يقوم البيت ولن تكون عاقبته سوى الانهيار. فكما أن البيت في مثل هذه الحالة يصبح آيلاً للسقوط والانهيار فكذلك الأُسرة تصبح عرضة للضياع والانحدار في هوّة التحلل، فإذا أحسنّا اختيار اللبِنات كان

(١) البقرة: ٢٣٨.

البناء قوياً ثابتاً، وإذا أحسنّا تربية الأفراد استطعنا أن نبني أُسرة صحيحة قائمة على القواعد الإسلامية المرعية والضوابط الإلهيّة التي يريدها منا الدين الحنيف؛ وبالتالي بناء مجتمع مثالي كذلك.

ومسألة اختيار البيت السليم هي من أولويات المشرع الإسلامي، ومن الأهداف التي تأخذ الصدارة في اهتماماته، فكل ما يهدف إليه المشرع هو أن يبني المجتمع عن طريق بناء الفرد والأُسرة.

وهنا لمحة أُحب أن أُلفت النظر إليها وأُوضحها لما فيها من دقة، فهناك البعض من الأنظمة والقوانين التي تغلّب جنبة المجتمع على الفرد، فتضع تشريعات للمجتمع لتهذب الفرد. كما أن هناك بعض الأنظمة والقوانين لها وجهة نظر على العكس من وجهة النظر السابقة. أما في التشريع الإسلامي فإن الأمر ليس كذلك؛ إذ أنه ينطلق من الفرد لبناء المجتمع ـ وليس على حساب المجتمع، أو للمجتمع على حساب الفرد ـ لأنه يعتبره النواة الوحيدة التي يمكن أن تصحح مساره أو تفسده. فإذا ما ضمنّا الفرد وحقّه فإن ذلك سيكون بالتالي ضماناً لحق المجتمع، ثم إنه مع هذا يقيد حق الفرد وحرّيته فلا يصل الأمر إلى حد التعدي على حق المجتمع وحرّيته ولا إلى أن يمسهما؛ فيصبح المجتمع بالتالي عبر هذا التوظيف مجتمعاً سليماً صالحاً.

وبعد هذه المقدمة أقول: إن القرآن الكريم أول ما عني بهذه النقطة وأكد هذا المعنى، وهو كيف نبني المجتمع الصالح عبر بناء الفرد الصالح. فهو يخطط لرسم الطريق السليم والعمل الناجح لبناء المجتمع، وأوّل المهمات المطلوبة هنا في عملية بناء الفرد هي الصلاة؛ حيث إنه اعتبرها الوسيلة الأُولى لتحقيق ذلك الهدف، أعني بناء الفرد، ثم بناء المجتمع. وهذه المسألة

خاضعة لمجموعة من التشريعات ومنظومة من القوانين التي تؤسّس لهذا، فتضمن سلامة البنية البشرية.

أسرار الصلاة

والآن لنتساءل: ماهي الأسرار التي تنطوي عليها الصلاة؟ ربما يجيب على هذا التساؤل من لا يعرف أسرار التشريع الإسلامي ولا خبرة له في هذا المجال بتساؤل آخر فيقول: ماهو الداعي لكل هذا الاهتمام بالصلاة؟ وهل هي أكثر من الوضوء وقراءة بعض الكلمات؟ والواقع أن هذا التساءل الأخير ما هو إلّا مغالطة وتلاعب بالألفاظ، وهو مثله مثل من يقول: ماهو اللسان؟ وهل هو إلّا كقطعة من اللحم؟ مع أنه يعرف أن اللسان هو عبارة عن الآلة المعبّرة عن الإرادة والمعبّرة عن رغبات الإنسان، والعضو الذي لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً من ضرر أو نفع أو خلق مجتمع فاضل أو غير فاضل إلّا به.

وكذلك الأمر هنا بالنسبة للصلاة؛ إذ أنها ليست بضعة ألفاظ، وإنما هي مورد التزام للإنسان بخواصّها وشرائطها؛ ذلك أنها الوسيلة الأُولى لبناء الفرد المسلم الفاضل، وبناء الفرد الفاضل في نظر الإسلام هو غاية الدنيا وثمرة الوجود.

والباحث حينما يتصدّى لدراسة كل التشريعات الموجودة في الدنيا وما يتبعها من علوم وقوانين وأهداف وما ترمي إليه من آداب وسلوكيّات سواء على الصعيد الفردي أو المؤسساتي فإنه سيجد أن كل هذه النُظُم والقوانين والآداب والسلوكيات ترمي إلى بناء الفرد وتهدف إلى صنع الإنسان. فالإنسان السليم جسميّاً وذو الخلق السليمة والآداب الملتزمة يتّصف عادة

بأنه ذو تعايش طبيعي وطيب مع الناس، وهذا هو الذي يريده المجتمع من كل عضو من أعضائه أو فرد من أفراده. وهدف الصلاة حيال الإنسان لا يخرج عن هذه الدائرة ولا يتعدى أُطرها أو محيطها.

فالمشرع الإسلامي إذن حينما شرع الصلاة نظر من جملة ما نظر من أُمور إلى بناء الفرد السليم وبالتالي المجتمع السليم. ولعل أهمّية الصلاة وخطورة دورها نشأا من هذا المعنى واستقيا من هذه الناحية. وبهذا التقريب فإن الصلاة ليست مجرد حركات وألفاظ يأتي بها المصلي بل هي منظومة خلقية تحكمها جملة من الالتزامات التي يريدها المشرع.

المبحث الثاني: آلية المحافظة علىٰ الصلاة

تقول الآية الكريمة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾.

فما هو المقصود بالمحافظة هنا؟ هناك عدة آراء للمفسرين في هذا الخصوص، منها:

الأوّل: المحافظة على كل خواصها

فيقول المفسرون: إن المقصود بها هو المحافظة على كل خواصها، ومن أهم خواص الصلاة أن يوجِد المصلي لها الوعاء النظيف لكي تكون مقبولة وليست مجزئة. فهناك من يجلس في المحراب ويأتي بالصلاة وهو لا يعدو أن يكون عبارة عن وعاء عجيب غريب؛ فهو خليط من الكذب والحقد والنفاق والازدواجيّة وخبث السريرة وسوء الطويّة والرغبة في إلحاق الأذى بالناس والتسبّب بالضرر لهم. وحتماً مثل هذا الوعاء لا تقبل منه صلاة البتة، صحيح أنه حينما يؤدّيها فإنها تسقط عنه، وهو ما يعبّر عنه في علم الأُصول بأنه امتثل الأمر فسقط عنه، لكنه هل تقبل صلاته هذه؟ طبعاً لا؛ لأن مثل

هذه المقاييس لا تقبل عند الله تعالى إطلاقاً. يروى أنه حينما جيء بزيد ابن الإمام موسى بن جعفرعليه السلام إلى أخيه الإمام الرضا سأله الإمامعليه السلام: **«أحسبت أنك لن تحاسب لأنك ابن موسى؟»**.

فهذا يعني أن الإنسان لا بد أن يأتي إلى الصلاة بوعاء نظيف ملؤه الإيمان والانقطاع إلى الله تعالى والوعي بأهداف الصلاة[1].

فهل يمكن أن يستوي مثل هذا مع من يمارس الكذب والدجل والدسيسة، وما أخلاقه إلّا مستنقعاً يحوي كلّ خلق ذميم. وهل يقبل اللّه عزّ وجلّ منه هذه الصلاة؟ والإمام أمير المؤمنينعليه السلام يريد أن يضرب لنا مثلاً من هذا النمط فكان يصرّح بأنه يخشى أن تردّ صلاته ويضرب بها وجهه. وقطعاً أن الإمامعليه السلام واثق من أن صلاته مقبولة لكنه يريد أن يضرب لنا درساً في تعليم الأخلاق والسلوك، ويريد أن يبين لنا أنه لا يكفي في الصلاة مجرّد الألفاظ أو التفوه ببضعة كلمات ثم ينتهي الأمر، بل يريد أن ينبهنا إلى أن الوعاء الذي تنطلق منه الصلاة يجب أن يكون وعاء طاهراً لا شائبة فيه.

الثاني: أن تكون عن قصد ووعي

فهذه الصلاة عندما يريد العبد أن يصليها فالواجب عليه أن يأتيها عن قصد ووعي: **«إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها أو ثلثها أو ربعها أو خمسها، فما يُرفع له إلّا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما أمرنا بالنافلة ليتمّ لهم بها»**[2].

---

(١) قال أمير المؤمنينعليه السلام: «ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر ولا في عبادة ليس فيها تفكّر». الكافي ١: ٣٦ / ٣.

(٢) الكافي ٣: ٣٦٤ / ١، الفقيه ١: ٢٠٩ / ٦٣٢. وفي رواية أُخرى: «من صلى فأقبل على صلاته لم يُحدّث نفسه فيها أو لم يسهَ فيها أقبل الله عليه ما أقبل عليها، فربما رُفع نصفها أو

وهذا واضح، فكلّ من يريد أن يقرأ كتاباً أو قصة أو قصيدة شعر وكان باله مشغولاً عمّا بين يديه فسوف لن يشعر بمعانيه المودعة فيه ولن يكتشفها، ولن ينتبه إلى الهدف من كتابتها؛ وبالتالي لن يحس بطعمها أو بالجوانب الفنية فيها. فهو عبارة عن عيون تقرأ الألفاظ وذهن شارد عنها ولا يساير معانيها، أمّا إذا كان حاضر الذهن مع كل كلمة يقرؤها ويشعر بكل مفردة تقع عينه عليها فإنه سيكتشف ما فيها من معانٍ وما خلفها من صور فنية أو جوانب إبداعية، وبالتالي فهو يحسّ بحلاوة تلك القراءة.

والصلاة كذلك، فمنها ما يكون حال الإنسان معها كحال من يقرأ وهو شارد الذهن، فهو يقرأ ويتلفظ بمفرداتها دون أن يستوحي ما خلفها من مضامين وقصود وأهداف، مع أن كل لفظ فيها له مضمونه الخاص به وليس اللفظ إلّا وسيلة للتعبير عن ذلك المضمون وإيصاله إلى المتلقي. فعلى المصلي أن يفهم تلك المضامين، فحينما يقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] فعليه أن يسأل: لماذا لم أقل: الشكر لله؟ وهل هناك فرق بين الحمد والشكر؟ نعم هناك فرق؛ فالشكر نقيض الكفران والحمد نقيض الذمّ. والحمد قد يكون من غير نعمة، والشكر يختصّ بالنعمة، والشكر مخصوص بما يكون مكافأة، والحمد أعمّ؛ لأنه يقع على الثناء وعلى التحميد، وعلى الشكر والجزاء[2]. ويتضح من هذا أن الحالة الأُولى هي معنى فردي أمّا الحالة الثانية فهي معنى اجتماعي، أي أنه إذا وصل الإنسان الخير قال: الشكر للّه، أمّا إذا لم يصله

☚ ربعها أو ثلثها أو خمسها. وإنما أمرنا بالسنة ليكمل بها ما ذهب من المكتوبة». الكافي ٣: ٢/٣٦٤.

(١) الفاتحة: ٢.

(٢) مجمع البيان ١: ٥٥، معاني القرآن ١: ٥٧.

ووصل إلى المجتمع فإنه لايقول: الشكر لله. فهذا الشاعر يقول:

إذا متّ ظمآناً فلا نزل القطرُ (١)

في حين أن شاعراً غيره يقول:

فلا نزلت علي ولا بأرضي ... سحائبُ ليس تنتظم البلادا

ولو أني حبيت الخلد فرداً ... لما أحببت بالخلد انفرادا

فهناك فرق بين الحالتين، ويجب على المصلي أن يساير معاني الألفاظ التي يقرؤها في صلاته لكي يحس بطعم الصلاة ومذاقها الروحيين، ويشعر أن الصلاة فيها ذوق وأن وراء ألفاظها معاني لها طعمها الخاص الذي يجب أن يُستجلىٰ ويوظف في عملية التربية.

الثالث: إيجاد الجوّ الطاهر لها

فالإنسان حينما يقصد المحراب ويتوجه إلى الله تعالى ويصلي فإنه لا بد له أن يخلق لنفسه جواً طاهراً وأن يرتدي ثياباً نظيفة كي يستقبل الله تعالى بهما. ومعنى الثوب النظيف هنا ليس غسله بالماء فقط وإنما يجب أن يكون نظيفاً من الحرام، فلا يكون قد اشتراه بمال مسروق أو مغصوب، بل إنه يجب ألّا يكون فيه خيط حرام، ولا يكون قد أخذه باعتداء على حقوق الآخرين. وكذلك الماء الذي يطهره به أو يتوضّأ به فإنه يجب أن يكون مأخوذاً بالطريق الحلال المشروع. فثوب الصلاة يجب أن يكون جائياً عن طريق حلال ومشروع.

وهذا يجري أيضاً على مكان الصلاة؛ حيث إنه يجب فيه ألّا يكون

---

(١) ديوان أبي فراس: ١٥٧.

مغصوباً[١]. أذكر لك هذه الحادثة التي وقعت أيّام ثورة القرّاء على الحجّاج، وأُحبّ أن أنوّه هنا إلى أن القرّاء حينما خرجوا على الحجّاج مع عبد الرحمن ابن الأشعث لم يخرجوا معه وهم يعتقدون أنه إمام حقّ، لكنهم لشدة ما رأوا من جور الحجّاج أصبحوا يعتقدون أنهم لو خرجوا ضدّه مع أي كان لكانوا خارجين إلى هدف مقدّس. وكان في طليعة ثورة القرّاء وحملة القرآن سعيد بن جبير، فأرسل إليه الحجاج لمّا ذُكر له قائداً عنده يسمى المتلمّس بن أحوص في عشرين من أهل الشام، وبينما هم يطلبونه إذا هم براهب في صومعته، فسألوه عنه فقال: صفوه لي. فوصفوه فدلّهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي بأعلى صوته، فلمّا دنوا منه وسلموا عليه رفع رأسه فأتمّ بقيّة صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا: إنا رسل الحجّاج إليك، فأجبه. قال: ولا بدّ من الإجابة؟ قالوا: لا بدّ. فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان أصبتم صاحبكم؟ قالوا: نعم. فقال: اصعدوا؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. ففعلوا وأبى سعيد أن يدخل، فقالوا: ما نراك إلّا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. قال: لا ضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني. فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذنب.

---

(١) ورد في الحديث القدسي: «يا موسى، عليك بالصلاة الصلاة؛ فإنها مني بمكان، ولها عندي عهد وثيق، وأُلحق بها ما هو منها زكاة القربان من طيّب المال والطعام؛ فاني لا أقبل إلّا الطيّب يراد به وجهي». الجواهر السنيّة في الأحاديث القدسيّة: ٣٤.

فقال الراهب: فليعطني ما أثق به على طمأنينة. فعرضوا على سعيد أن يعطي الراهب ما يريد، قال، إني أُعطي العظيم الذي لا شريك له، لا أبرح مكاني حتى أُصبح إن شاء الله. فرضي الراهب بذلك، فقال لهم: اصعدوا وأوتروا القسيّ؛ لتنفّروا السباع عن هذا العبد الصالح؛ فإنه كره الدخول في الصومعة. فلما صعدوا وأوتروا القسي، إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلمّا دنت من سعيد تحكّكت به وتمسّحت، ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسّر له سعيد ذلك كلّه، فأسلم.

وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه، ويأخذون التراب الذي وطئه، ويقولون: يا سعيد، حلّفنا الحجاج بالطلاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نُشخصك إليه، فمُرنا بما شئت. فقال: امضوا لأمركم، فإني لائذ بخالقي ولا رادّ لقضائه.

فساروا حتى بلغوا واسطاً، فقال سعيد: قد تحرمت بكم وصحبتكم، ولست أشكّ أن أجلي قد حضر، فدعوني الليلة آخذ أُهبة الموت وأستعدّ لمنكر ونكير وأذكر عذاب القبر، فإذا أصبحتم فالميعاد بيننا المكان الذي تريدون. فقال بعضهم: لا تريدون أثراً بعد عين. وقال آخرون: قد بلغتم أمنكم واستوجبتم جوائز الأمير، فلا تعجزوا عنه. وقالت جماعة ثالثة: يعطيكم ما أعطى الراهب، ويلكم أما لكم عبرة بالأسد؟! ونظروا إلى سعيد قد دمعت عيناه، وشعث رأسه، واغبرّ لونه، ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ يوم لقوه وصحبوه، فقالوا: يا خير أهل الأرض، كيف ابتلينا بك؟ اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر؛ فإنه القاضي الأكبر والعدل الذي لا يجور. قال: ما

أعذرني لكم وأرضاني، لما سبق من علم الله تعالى فيّ.

فلما فرغوا من البكاء والمجاوبة، قال كفيله: أسألك بالله لما زوّدتنا من دعائك وكلامك. ففعل ذلك، فخلّوا سبيله، فغسل رأسه ومدرعته وكساءه، وهم محتفون الليل كلّه، فلمّا انشقّ عمود الصبح، جاءهم سعيد فقرع الباب، فنزلوا وذهبوا به إلى الحجّاج، فقال الحجاج: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا: نعم، وعاينّا منه العجب. فصرف بوجهه عنهم، وقال: أدخلوه عليّ. فخرج المتلمّس فقال لسعيد: أستودعك اللّه، وأقرأ عليك السلام.

فأُدخل عليه. فقال له الحجّاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت شقي بن كسير. قال: بل أُمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت وشقيت أُمّك. قال: الغيب يعلمه غيرك. قال: لأُبدلنّك بالدنيا ناراً تلظّى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً. قال: فما قولك في محمدﷺ؟ قال: نبي الرحمة، وإمام الهدى. قال: فما قولك في علي؛ في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده. قال: أبيت أن تصدقني. فقال: إني لم أُحبّ أن أُكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستوِ القلوب.

قال: ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فجمعه بين يدي سعيد، فقال: إن كنت جمعته لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلّا ففزعة واحدة تذهل كلّ مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلّا ما طاب وزكا. ثم دعا الحجّاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي

بكى، فقال الحجاج: ما يبكيك؟ هو اللهو. فقال: بل هو الحزن، أما النفخ، فذكرني يوم نفخ الصور، وأما العود، فشجرة قطعت من غير حقّ، وأما الأوتار فأمعاء شاة يبعث بها معك يوم القيامة. فقال الحجاج: ويلك يا سعيد. قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأُدخل النار. قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال: اختر أنت لنفسك يا حجّاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلّا قتلتك قتلة في الآخرة. قال: فتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن اللّه، وأما أنت فلا براءة لك ولاعذر. قال: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج من الباب ضحك، فأُخبر الحجاج بذلك، فأمر بردّه، فقال: ما أضحكك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله تعالى وحلمه عنك. فأمر بالنطع فبسط، فقال: اقتلوه. فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]. قال: شدّوا به لغير القبلة. فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٢]. قال: كبوه لوجهه. قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[٣]. قال: اذبحوه. قال: إني أشهد وأُحاجّ أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة. ثم دعا سعيد الله تعالى وقال: اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع.

وفعلاً عاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة، لم يستقرّ فيها لحظة، وكان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو اللّه، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير؟ فلم

---

(١) الأنعام: ٧٩.   (٢) البقرة: ١١٥.
(٣) طه: ٥٥.

ينشب إلّا قليلا حتى مات[1].

وموضع الشاهد من هذه القصة أن هذا الرجل يأبى أن يصعد إلى دير راهب لأنها في نظره دار غير نظيفة.

فأول ما يراد من الصلاة إذن هو المحافظة على النظافة في البدن والثياب والمكان، وكذلك المحافظة على التوجه إلى الله تعالى بالقلب، وأن تكون المحافظة عليها متناسبة مع أهميتها: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى**﴾.

المبحث الثالث: المراد من الصلاة الوسطى

وهنا سؤال يُطرح هو: ما هو وجه عطف ﴿**الصَّلاَةِ الْوُسْطَى**﴾ هنا على قوله: ﴿**الصَّلَوَاتِ**﴾؟ إن الله تبارك وتعالى قد خصّص العام هنا، وهو تعالى حينما يريد أن يخصّص شيئاً من العام فإنما يخصّصه لما فيه من الأهمية. والصلاة الوسطى هي من الصلاة نفسها، وإنما خصها الله تعالى بالذكر وأكّد عليها دون غيرها من الصلوات؛ لأنه تعالى يريد أن يؤكّد عليها وينبّهنا إليها لأهميتها. لكن ما المراد من الصلاة الوسطى؟ هنالك عدة آراء للمفسّرين طرحت للإجابة على هذا السؤال، نذكر منها:

أولاً: أنها صلاة الظهر

وهذا الرأي مستمد مما يروى من أن النبي ﷺ كان يصليها بالهاجرة في الصحراء، وما كان يقف وراءه إلّا صفّ أو صفان لشدة الحر، فقد كانت شديدة عليهم. وهي أول صلاة فرضت على المسلمين عندما شرعت الصلاة،

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٦٠، الطبقات الكبرى ٦: ٢٦٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٢٨، حلية الأولياء ٢: ٢٩٠ / ٤.

كما أنها تقع بين شروق الشمس وغروبها، ومن هنا اتخذت صفة الوسطى.

ثانياً: أنها صلاة الفجر

إن القرآن الكريم يشدّد على صلاة الفجر؛ لأن وقتها يكون عادة وقت راحة للإنسان، فمن الصعب عليه أن يقوم من نومه لهذه الصلاة خصوصاً أيام البرد، وتتركز هذه الحالة أكثر عند الشباب الذين يحتاجون بطبيعة تركيبتهم إلى أوقات أكبر من النوم. فمثل هؤلاء وفي مثل هذه الحالات يصعب عليهم أن يقوموا من نومهم ويتوجهوا إلى الصلاة، ولذا فإن القرآن الكريم يشدد على هذه الصلاة وعلى الإتيان بها في وقتها فيقول: حافظوا على هذه الصلاة. وإنما سميت بالصلاة الوسطى لأنها تقع بين الليل والنهار، ومن جمالها أنها تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فيسجل للعبد أجرها مرتين: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾[1]؛ لأنه يسجل له في الوقتين.

وأكثر المفسرين ـ وخصوصاً المحققين منهم ـ يميلون إلى هذا الرأي، وهو أن المقصود بالصلاة الوسطى صلاة الفجر. فالإنسان حينما ينهض عند الفجر من أحسن ساعات راحته فإنما يفعل من أجل أن يستلهم الخير من الله تعالى، ولأجل أن يبدأ يومه بالصلاة وهي تملأ شفتيه ويواجه حياته الجديدة بهذا الفكر والجوّ الرياضي اللطيف: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2] فإنه إنما يريد أن يقول: اللهم ألهمنا الخير وطهر أرواحنا من الحقد على الناس، وقلوبنا من الغلّ عليهم. فهو إذن يواجه السماء بهذه المعاني الجميلة ويواجه الدنيا بهذا الاستعداد الطيب للاندماج مع المجتمع.

---

(١) الإسراء: ٧٨.
(٢) الفاتحة: ٦.

المبحث الرابع: ماهيّة القيام في الصلاة

ومن الطبيعي أن أهمية الصلاة تبقى قائمةً ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾وهنا يلوح في المقام أمر هو ضرورة بيان معنى قوله تعالىٰ: ﴿قُومُوا لِلَّهِ﴾، فالقيام لا بدّ أن يكون خالصاً لله تعالى، لا لاعتبار آخر؛ لأن المفروض أن الاعتبارات كلها تذهب وتتلاشى، فلا يُدخل في صلاته هذه وفي مطلق عمله شيئاً من الرياء؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يرائي فإن عليه أن يسأل نفسه: لأي شيء أرائي؟ ولأجل من؟ وما هو الشيء الذي يستحق أن أُذيب من أجله كياني؟ هل هي الأموال؟ وما هو دورها؟ لقد خرجت ذات مرة لقضاء حاجة لي فرأيت جنازة تشيع، فأحببت أن أمشي مع المشيعين ثم جلست على قبره ومن غير أن أشعر به من حيث مركزه الاجتماعي، وشهد الله تعالى أنني لم أكن أعلم ما الذي كان عليه، لكن بعد ذلك علمت أنه مليونير، فقلت: سبحان الله هذه هي عاقبة الملايين.

وهل إن الإنسان يرائي من أجل إنسان غيره؟ وهل سيبقى هذا الإنسان بعده أكثر من أيام قلائل ثم ينتقل معه إلى المصير نفسه الذي سوف ينتهي إليه هو؟ أوصى أحد الأعراب بأن تكتب هذه الأبيات على قبره:

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا　　أن الحِمامَ بكم علينا قادمُ
لا تستعزّوا بالحياةِ فإنكم　　تبنون والموتُ المفرّقُ هادمُ
ساوى الردىٰ ما بيننا في حفرةٍ　　حيث المخدّمُ واحدٌ والخادمُ[1]

وهناك ربوات في وادي النجف يقول فيها أحد أدبائنا: إنها «نضائد أكباد»:

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ٥٩٩.

وما الذكوات البيض في جانب الحمى وقد خشعت إلاّ نضائد أكبادِ

وقد ذكرت في إحدى الملحمات هذا الوادي:

تحية أيها الوادي الحبيب إلى ربى إليها النجوم الزهر تنجذبُ
يلوح في لابتيها من أبي حسن وجه ومن قسمات منه تختضبُ
ثوت ملايين آمال بتربتها الـ ـسمراء فهي على أبعادها كتبُ
توحّدت طبقات في قرارتها وهوّم الخصم جنب الخصم واصطحبوا
حتّى تعابير كانت فوق أعينهم ماتت فما ابتعدوا منها وما اقتربوا[1]

نعم تجد العملاق إلى جانب القزم والغني إلى جانب الفقير والملك إلى جانب السوقة، وكلهم سواء، فهل يستحق هذا الإنسان أن يرائي من دون الله تعالى أحداً؟ الحق أنه لا أحد يستحقّ أن يُعبد أو يضحّى لأجله سوى الله عزّ وجلّ؛ ولذا فإنه تعالى قال: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾.

المبحث الخامس: في معنى: ﴿قَانِتِينَ﴾

وفي معنى ﴿قَانِتِينَ﴾ هنا عند المفسرين عدّة آراء، منها:

الأوّل: أنها بمعنى خاشعين

مرّ النبي ﷺ ذات مرّة برجل، فرآه يصلّي، وكان يحكّ رأسه وجسمه ويصلي، فقال: «**ماضر هذا لو خشعت جوارحه؟**». فعلى المصلّي أن يكون ذا وقار أثناء تأديته صلاته. والملاحظ أن بعض المصلين عندما يقف إلى الصلاة يقف وكأنه يريد أن يؤدي عادة اعتاد عليها، فتجده يتلفت ويتحرك بشكل يوحي إليك أنها ليست صلاة وإنما هي ضريبة مفروضة عليه يريد التخلص

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٩٢.

منها؛ فلا تلمس عنده أي نوع من الخشوع أو الخضوع أو الانقطاع إلى الله. ويحقّ للبعض أن يستغرب حينما يقيس هذا الجوّ الذي عليه مثل هذا المصلّي بما كان عليه الإمام السجاد﵇ من حال أثناء صلاته؛ ذلك أنه﵇ كان إذا جن عليه الليل وقف للصلاة لا يتحرّك منه شيء إلّا ما تحرّكه الريح[1].

الثاني: أنه بمعنى القنوت في الصلاة

والمقصود به الدعاء في الصلاة، والثعلبي حينما يأتي إلى تفسير هذه الآية يروي عن العطاردي قوله: صلّى بنا ابن عباس في مسجد البصرة صلاة الغداة، وقبل الركوع من الركعة الثانية رفع ابن عباس يديه وقنت وأخذ يدعو، فلما فرغ قال: هذه الصلاة الوسطى التي أُمرنا أن نقوم فيها قانتين[2]. ويروى عن أنس قوله: قنت النبي ﷺ في صلاة الصبح بعد الركوع ﷺ[3].

ومسألة القنوت لا تكاد تجد له ذكراً عند المذاهب الإسلاميّة فهو عند الشيعة فقط، أمّا حكمه الشرعي فهو مستحب استحباباً مؤكداً مما يعني أن المصلي إذا نسيه فإن عليه استحباباً مؤكداً أن يقضيه. أمّا الدعاء فيه فيكفي منه مسماه. والإنسان في حقيقة حاله أمام اللّه تعالى لا يحتاج؛ لأن يدعو[4]، يخاطب أُميّة بن أبي الصلت عبد الله بن جدعان التيمي بقوله:

أ أذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياءُ

---

(١) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

(٢) عنه في مجمع البيان ٢: ١٢٨، وانظر الجامع لأحكام القرآن ٣: ٢١١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ورد في الدعاء الشريف: «إلهي كفى علمك عن المقال، وكفى كرمك عن السؤال». بحار الأنوار ٩٢: ٢٥٢ / ٣٣ ـ دعاء الحرز اليماني.

وعلمُك بـالأمور وأنت قـرمٌ   لك الحسبُ المهذّبُ والسناءُ
كـريمٌ لا يـغيّره صـباحٌ   عن الخُلُقِ الكريمِ ولا مساءُ
إذا أثنى عـليك المرءُ يـوماً   كفاه من تـعرّضه الثـناءُ(١)

وكذلك الباري جل وعلا فإنه لا يحتاج أن تسأله؛ لأنه يعرف حاجتك قبل أن تتعرض له بالدعاء، ويكفي أن تقول له فقط: يارحمن؛ لأنه رب العـطاء والرحمة والكرم، فهو القائل: **«إن دنا ـ العبد ـ مني شبراً دنوت منه ذراعاً، وإن دنا مني ذراعاً دنوت منه باعاً»**(٢)، والقائل: **«مَنِ استطعمني فلم أُطعمه؟»**. فـيكفي في الانقطاع إليه تعالى مجرد هذا المقدار.

ولو نظرنا إلى أدعية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لوجدناها تشتمل على الحمد والثناء على اللّه، وهكذا أدعية أهل البيت عليهم السلام فهي مفعمة بالحمد والثناء عليه تعالى، قال حماد بن حبيب الكوفي: خرجنا سنة حجّاجاً، فاستقبلتنا ريـح سوداء مظلمة، فتقطّعت القافلة، فتهت في تلك البراري، فانتهيت إلى وادٍ قفر، وجنني الليل، فآويت إلى شجرة، فلمّا اختلط الظلام إذا أنا بشابّ عليه أطمار بيض، فقلت: هذا ولي من أولياء اللّه، متى ما أحسّ بحركتي خشيت نفاره. فأخفيت نفسي، فدنا إلى موضع، فتهيأ للصلاة وقد نبع له ماء، ثم وثب قائماً يقول: **«يا من حازكل شيء ملكوتاً، وقهر كل شيء جبروتاً، صلِّ على محمد وآل محمّد، وأولج قلبي فرح الإقبال إليك، وألحقني بميدان المطيعين لك»**.

ودخل في الصلاة، فتهيأت أيضاً للصلاة، ثم قمت خلفه، وإذا بمحراب قد مُثّل في ذلك الوقت قدّامه، وكان كلّما مرّ بآية فـيها وعـد ووعـيد يـردّدها

(١) مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ١٤١ / ٤٥٨، شرح نهج البلاغة ٦: ١٩٠.
(٢) الدعاء (الطبراني): ٥٢٣، أمالي المرتضى ٢: ٦.

بانتحاب وحنين، فلما تقشّع الظلام قام، فقال: **«يا من قصده الضالّون فأصابوه مرشداً، وأمّه الخائفون فوجدوه معقلاً، ولجأ إليه العائذون فوجدوه موئلاً. متى راحة من نصب لغيرك بدنه؟ ومتى فرح من قصد سواك بهمّته؟ إلهي قد انقشع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً، ولا من حياض مناجاتك صدرَاً، صلِّ على محمد وآل محمّد، وافعل بي أولى الأمرين بك»**.

ثم مرّغ وجهه في التراب ونهض، فتعلّقت به، فقال: **«لو صدق توكّلك ما كنت ضالاً، ولكن اتبعني واقفُ أثري»**. وأخذ بيدي، فخيّل إلي أن الأرض تميد من تحت قدمي. فلما انفجر عمود الصبح قال: **«هذه مكّة»**. فقلت: من أنت بالذي ترجوه؟ فقال: **«أمّا إذا أقسمت، فأنا علي بن الحسين»**[(١)].

فهذا الوجه الذي كان يتمرّغ في التراب من خشية الله تعالى أعطاه الله تعالى كل هذه المنزلة والإشعاع الذي يخترق الدنيا:

تزوّد منه كلُّ عصرٍ كما اشتهى ... وما زال للدنيا بمزودِه ذخرُ[(٢)]

فلا زال فكره إلى الآن يعيش في أذهان كل الأحرار.

الثالث: أنه بمعنى مداومين

ومعنى هذا أن الله تعالى يريد منا أن نداوم على طاعته وعبادته وأن نقوم له وأن نتواصل معه مشتغلين بذكره وبعبادته وبالصلاة له؛ فإنها خير زاد يقدمه الإنسان بين يدي ربه يوم القيامة. وهذا هو الذي دفع الحسين ﷺ وهو في أشد لحظاته الحرجة وأوار الحرب مستعر إلى أن يؤدي الصلاة في وقتها

---

(١) الخرائج والجرائح ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦ / ٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤، بحار الأنوار ٤٦: ٤٠، ٨٤: ٢٣١.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٢٤.

وذلك حينما رفع أبو ثمامة رأسه وقال: سيدي لقد زالت الشمس. فقال له الحسين عليه السلام: **«ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلّين الذاكرين، نعم هذا أوّل وقتها»**.

ثم قال عليه السلام: **«سلوهم أن يكفّوا عنّا حتى نصلّي»**. فقال لهم الحصين بن تميم: إنها لا تقبل. فقال له حبيب بن مظاهر. لا تقبل؟ زعمت الصلاة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تقبل، وتقبل منك يا حمار[1]؟

فوقف الحسين عليه السلام وصلى بأصحابه، ووقف هذا الرجل دونه يحميه بجسده إلى أن فرغ من صلاته وكان في جسد هذا الرجل اثنا عشر سهماً غير طعنات الرماح والنبال، وقد سقط على الأرض، حيث التفت إلى الحسين عليه السلام وقال له: أوفيت يا أبا عبد الله؟ فقال الحسين عليه السلام: **«بلى، أقرئ جدي رسول الله عني السلام وقل له: لقد خلّفت حسيناً بالأثر»**.

وفعلاً بعد لحظات كانت شفتا الحسين عليه السلام تتحركان وهو يرمق السماء بطرفه: **«لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»**[2].

لقد أعطىٰ عليه السلام إرضاءً لله، فهو الذي رفع رأسه ليقول:

تركت الخلق طرّاً في هواكا ... وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطّعتني بالحبّ إرباً ... لما مال الفؤاد إلىٰ سواكا[3]

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٢١، تاريخ الطبري ٤: ٣٣٤، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٤٢.

(٢) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

(٣) لم نعثر على من ينسبهما للإمام الحسين عليه السلام، بل هما ينسبان لابنٍ لإبراهيم بن أدهم.

لقد فعل مصاب هذا الرجل العظيم المنقطع إلى الله بأُخته زينب فعلاً عظيماً وأخذ منها كل مأخذ، وذلك حينما رجعت إلى المدينة فرأت محرابه خالياً فلم تكن تهدأ ليلاً أو نهاراً؛ إذ تعن لها الذكريات فتظل ملازمة لمحراب الحسين عليه السلام كأن صورته لا تبارح ذهنها:

انچان تريدني أنسه وابطل النوح ونيني
اخذ ذكراك من كلبي واخذ صورتك من عيني
أيام الچنت ويّاك أناغيك وتناغيني
شبيدي عايشه ويّاي من ذيج الايام اشباح

* * *

عمر ما فاركيتك بيه تذكر يوم واحنه صغار
من حضن امّي الزهره الجوانح حيدر الكرار
عيني اتبحّر بوجهك وروحي وياك ليل انهار

* * *

قوموا إلى التوديع إن أخي دعا بجواده إن الفراق طويلُ
فبرزن ربّات الحجال حواسراً وغدا لها حول الحسين عويلُ

☚ تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

﴿ ١١٤ ﴾

ذكر الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: معنى الذكر

تتناول هذه الآية الكريمة موضوعاً يعتبر من أهم المواضيع التي تعرض للإنسان. وقبل كل شيء لنحاول أن نصور معنى الذكر، إن ذكر الشيء هو عبارة عن استحضار صورته أو معناه في الذهن. والعلم حتى الآن لم يتمكن من تحديد أبعاد الذهن الصحيحة، فهل هو (الذهن) يعني الذاكرة أم لا؟ وان كان كذلك فحتى موضوع الذاكرة لم يكن ضمن نطاق النظريات العلمية؛ لأن النظريات العلمية تريد أن تجعل كل فعاليات الإنسان انعكاساً عن المادة، أي أن كل شيء ـ حتى العقل ـ يعتبر من وجهة نظر هذه النظريات تطوّراً ضمن نطاق المادّة.

---

(١) البقرة: ١٥٢.

وهناك نظريات كثيرة في هذا المعنى لا أُريد أن أخوض فيها، لكن لو أردنا أن نطبق موضوع الذاكرة على الجانب المادي لما تمكنا من هذا؛ لأن ماهية الأشياء التي يذكرها الإنسان في ذهنه غير واضحة المعالم، فما هي ماهيتها؟ وما هي حقيقتها؟ وعلى أي نحو تكون؟ هل هي على نحو الانطباع؛ بحيث إن هذه المعلومات تكتب كما تكتب في الكتاب أم لا؟ ولو كان كذلك لأصبح حجم المخ كيلو متراً مكعباً؛ لأننا نعرف أن بعض الناس عندهم ذاكرة جبارة تحفظ ما لا يحصى من فنون الفكر والعلم والأدب والنظريات الأُخرىٰ والأخبار، ولو أردنا أن نطبعها لاستغرق ذلك عشرات الكتب.

إن العلم يقول: إن مركز الذاكرة هو المخ والمختصون في هذا المجال حينما يشرحون المخ يعبرون عنه بأنه مركز الذاكرة. ومعلوم أن حجم المخ صغير جداً قياسا إلى ما يختزن فيه من معلومات، ولو افترضنا أن أحداً أراد أن يطبع عليه معلومات فإنه سوف لن يتسع لأكثر من صفحة واحدة ثم يمتلئ، إذن كيف نستطيع أن نوجه هذا الكم الهائل من المعلومات الموجودة فيه مع هذا الحجم الصغير؟ إن هذا الأمر يحتم علينا أن نعتبر أن الذاكرة ليست شيئاً عادياً.

ثم إن هناك تساؤلاً آخر وهو: لماذا لا ينسى الإنسان بعض الصور التي مرت به مع أنها قد تكون من أيام طفولته؟ إن هذا الأمر يتعلق فهمه بفهم طبيعة المخ أو الذهن؛ ذلك أنه لو كان الذهن شيئاً مادياً لتم محو الصورة الأُولى بكتابة الصورة الثانية عليها، والحال أنه ليس كذلك؛ إذ تمر كل يوم على الإنسان آلاف الصور التي يستحضرها الإنسان متى شاء. إذن لماذا لم تمحَ هذه الصور من الذهن؟ إن هذا الشيء يؤكد أن الذهن ليس شيئاً مادياً؛

لأن الجسم المادي لا يقبل إلّا صورة واحدة على التعاقب.

المبحث الثاني: آلية التذكر عند الباري تعالى

وعلى ضوء هذا التقرير لنا أن نتساءل: كيف يمكن أن يتصور وجود الذاكرة عند الله؟ فالله تعالى حينما يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فهنا نسأل: هل إن الله عزّ وجلّ ينسى، والقرآن يقول: ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾[1]؟ وما الذي تعنيه الآية بقوله تعالى ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾؟ وما هو الهدف من قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾؟

ونذكر هنا للإجابة على هذين السؤالين أن في علم البديع باب يدعى باب التقابل، فمثلاً قوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[2]، افرض أن شخصاً اعتدى على شخص آخر وقطع إصبعه، وحينما يريد المعتدى عليه أن يقتصّ من المعتدي بأن يقطع إصبعه، فلماذا تسمى هذه الحالة سيّئة في المنظور القرآني مع أن هذا مظلوم قد اقتص من ظالمه؟ الذي تعارف عليه العقلاء أن هذا ليس بسيئة؛ لأنه قصاص [3].

إن هذه التسمية جاءت من باب التقابل اللفظي وليس التقابل المعنوي بمعنى أن ذلك الشخص حينما اعتدى على الثاني وقطع إصبعه فعلى الثاني أن يقتص منه بمثل ما اعتدى به عليه ويقابله بالمثل. هذا هو التقريب لهذه الفكرة، وإلّا فإن المقتص ليس ظالماً حتى يمكن أن يوصف عمله بأنه سيئة. فالله تعالى إنما أسماها كذلك فمن باب ما يسمى بالتقابل اللفظي حسب

---

(١) طه: ٥٢.
(٢) الشورى: ٤٠.
(٣) قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩.

تعبيراتنا اليومية.

إذن التعبير بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ هو من باب التقابل اللفظي، وإلّا فإنه ليس هناك شيء غائب عن علم الله؛ لأن العوالم كلها مطويات بيمينه بما تشتمل عليه من هذه المجاميع الهائلة بذواتها وأنفسها. وهذا ما يعبر عنه بالعلم الحضوري، وهو مقابل العلم الحصولي الذي يكون عندنا، فالإنسان يعلم بالأعمّ الأغلب من الأشياء علماً حصولياً، أي أن صور الأشياء تنطبع في ذهنه بخلاف الباري؛ فإن علمه بالأشياء ليس كذلك بل إنها حاضرة بأنفسها لديه؛ إذ لا يوجد في عالم الوجود شيء غائب عن علمه تعالىٰ: ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ﴾[1].

إذن فالمقصود من قوله تعالىٰ: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ هو التقابل اللفظي، وليس معناه أن الله تعالى ينسى أو يسهو أو يغيب عن علمه شيء. والآن لنرَ ماهو الهدف الذي ندبنا الباري لكي نتذكر من أجله؟ وما هو الشي الواجب علينا تذكّره؟ إن الذي يمكن أن يذكر في هذا المقام أُمور:

الأمر الأوّل: صنع الإنسان الصالح

إن الله تعالى يريد أن يصنع الشخصية الإسلاميّة من داخلها؛ ذلك أن الشخصية لها غطاؤها وغلافها الذي يكتنفها، وهو الجسد بما فيه من فعاليات، والله تعالى حينما يندبنا إلى بناء الشخصيّة بناء إيمانياً متيناً وبناء خلقياً رصيناً فإنه إنما يحثنا على اتّباع هذا الطريق، والتزام ما أراده منا، ممّا يدخل في صلب عملية البناء هذه.

---

(١) سبأ: ٣.

طرق بناء الشخصيّة

وعليه فإن عندنا طريقين لتحقيق هذا الهدف، أعني بناء الشخصيّة الإسلاميّة بناء سليماً، هما:

الطريق الأول: أن نقوم ببناء الشخصيّة من الداخل. وهو ما سيُطرح خلال موضوع محاضرتنا هذه على امتداد مساحتها.

الطريق الثاني: أن نفرض على الشخصيّة بناء من الخارج؛ لأن الشخصية تتميز بأن لها استعداداً ضخماً للفساد بما فيها من غرائز ملغومة ورغبات عمياء لا تعرف العنصر الخلقي إطلاقاً؛ فغريزة الجمع تطالب بالإشباع، وغريزة الجنس تطالب بالإشباع أيضاً، وكذلك غريزة الأنانية التي توجد عند بعض الناس دون أن يهمّهم مصالح الآخرين بل كل ما يهمهم هو أنفسهم وإشباع أنانيتهم. فالذي يستحوذ على أمثال هؤلاء هو الغرور والتعالي والانقياد للنفس ورغائبها فيعتدي على العدل والإنسانية والمجتمع إرضاء لغروره. فالغرائز كما قلنا عمياء لا تعرف ما يوجهها.

الأمر الثاني: وظيفة العقل والضمير في حياة الإنسان

أما العقل فلا علاقة له بالغرائز، ولا يتدخل في العنصر الخلقي بل إنه يتعامل مع المحيط ليحافظ على الشخصية أن تتحطم. وهو لا يقرر أن السرقة حرام لكنه يوجه صاحبه إلى خطورتها ويبين له أن السرقة عاقبتها قطع اليد مثلاً أو السجن، أي أنه سيتعرض للعقاب. فوظيفة العقل إذن هي التعامل مع المحيط والبيئة الخارجية دون أن يكون له تدخل في توجيه الجانب الأخلاقي، كما أنه لا تعامل له مع العنصر الأخلاقي أبداً. إن عنصر الأخلاق هو مهمة الضمير الذي يحدد طبيعة عمل الإنسان فيما إذا كان صالحاً أو

طالحاً، فهو مثلاً ينبه صاحبه إلى أن السرقة أمر غير محبذ بل هو أمر مذموم وبالتالي يجب عليه اجتنابه.

ومن هنا فإن وظيفة العقل تحديد الشخصية وحفظها، ولذا كان التعامل العقلي جامداً ليس فيه أريحية الخلق، أمّا الضمير فهو الذي يتوفر على هذه الأريحية والذي يبين أن هذا الفعل صحيح وهذا الفعل قبيح.

إذن فالقرآن الكريم يريد بناءنا من الداخل؛ لأن البناء إذا كان من الخارج فقط كان بناء فاشلاً غير صحي، وأكبر دليل على هذا هو حال البشرية كلها، فلو أردنا أن نعرف كم فيها من الناس الطاهري الذيل لوجدنا أنهم قلة. أمّا الأصناف غير الطاهرة فهم للأسف الكثرة الغالبة. وهذا شيء مؤلم؛ إذ أن المفروض بالإنسان أن يكون فيه قابلية النمو، لا أن يستمر في الهبوط دون أن يستثمر تلك القابلية في الارتقاء إلى مصافّ الملائكة عبر تنمية الخلق والكرامة والإيمان. إن من يلتزم بذلك يعدون قلائل إذا ما قيسوا بعامة الناس؛ ولذا تجد أن القرآن الكريم يذكر هذا ويقرّره بقوله: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**﴾[1].

فالدين يقول: إن هذه المؤسسات الموجودة هي من صنع الإنسان والمحيط؛ ولذا فإنها فشلت في صنع الإنسان الصالح؛ فالمدرسة فشلت في ذلك وكذلك المصنع. ففي المدرسة تجد النابغة العبقري الذي يحصد العلامات العالية، ثم يدخل المصنع بما يمتلك من أصابع سحرية في مختلف أبعاد المعرفة، لكنه عندما يخرج إلى المجتمع فإنه يكشر عن طبيعته التي لا تكون

---

(١) ص: ٢٤.

بمستوى أدنى من مستوى الوحش الكاسر. على أية حال إن مثل هذا يكون كل همه أن يحقّق مصلحته الشخصية حتى ولو هلك شعب بكامله. وهذا هو خلق المستعمر الذي يتعامل به الآن مع الشعوب المستضعفة؛ ذلك أن كل همه أن يجد سوقاً لتصريف بضائعه ومنتجاته ولو كان ثمن ذلك قتل الناس. فالمهم أن يجد مجالاً لاستثمار طاقاته ولو كان على حساب الناس.

إن العلم بما يمتلكه من إمكانات لم يستطع أن يبني الإنسان كما يراد له أن يُبنىٰ حتى الآن، وهذه أُوروبا يشهد تاريخها على ذلك مع أنها قد مرت بأدوار حضارية من المفروض أن يصل فيها الإنسان إلى مصاف الملائكة. غير أن واقعه خلاف ذلك، فهم يتعاملون مع الإنسان بلغة (How much?) أي (كم تملك؟)، في حين أن المقابل إنسان له كرامة يجب أن تراعى، وإنسانيّة ينبغي المحافظة عليها، وأن كل هذه الأشياء التي تقاس بالمقياس المادي ستذهب؛ لأنها أشياء تافهة.

وهذه اللغة (كم تملك؟) لا تخلق الإنسان عبر الحياة، بل الذي يخلقه هو الموقف السامي والخلق الإنساني؛ ولذلك تجد الأنبياءعليهم السلام أعلاماً واضحة على الطريق؛ إذ أنهم صنعوا الإنسان المؤمن الصالح، في حين أن الحضارات صنعت الإنسان المادي الذي يتعامل مع كل الموجودات تعاملاً مادياً بعيداً عن التعامل الروحي النابع من الإنسان الروحي الذي صنعته النبوات.

فالإنسان الأُوروبي اليومَ تجد أن خلقه مبنية على أساس مصلحي؛ لكي يجذبك ويستفيد منك كبضاعة في سوق تصدير بضائعه، وفي أحسن الأحوال يتعامل معك كمستهلك لتلك البضاعة. فالأخلاق في نظره وسيلة للتعامل مع الطرف الثاني لكي يكسبه، في حين أن الأخلاق التي تصنعها

النبوّات هي: «**إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكنني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[(١)]. فهذا هو ماتصنعه النبوّات: «**ما صنعت الجميل إلّا لأني رأيته جميلاً**».

إذن فالقرآن الكريم يريد منا أن نبني شخصيتنا من الداخل، وأن يبيّن لنا أن التربية التي تعتمد على ضوابط إنسانية بعيدة عن الدين هي تربية فاشلة؛ حيث إن المدرسة والمصنع والشارع قد فشلت كلها في تحقيق ذلك. أما الحضارة التي صاغت الشخصية فهي لم تقم بشيء سوى تعميق القيم المادية فقط، في حين أنها لم تتمكن من تخليق الإنسان بالشكل الذي يريده الله تعالى. فتعالوا إذن وعمّروا قلوبكم بالصلاة؛ كي تُفتح لكم ويُسرج فيها سراج الإيمان؛ حتى لا تعيشوا في ظلمة.

إن هذا السراج هو ذكر الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فاجعلوا في قلوبكم هذا السراج، وأنيروا كهوفها المظلمة بضياء الإيمان والحق؛ حتى تسترشدوا في مسيرة الحياة.

المبحث الثالث: معنى ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

لكن ما يقول المفسرون في تفسير هذا المقطع من هذه الآية، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾؟ إن للمفسرين في هذا المقطع عدّة آراء منها:

الرأي الأول: أنه اذكروني بالرخاء أذكركم بالشدة

ويستدلّون على ذلك بما روي في كتب الصحاح من أن ثلاثة رهط ممن كان قبلنا انطلقوا، فبينما كانوا يتمشّون إذ أخذهم المطر فأووا إلى غار،

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٠، ٢: ١١ / ١٨.

فدخلوه ليبيتوا فيه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلّا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.

فقال رجل منهم: قد عملت حسنة مرة، اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيء يوماً، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً. فلبثت والقدح على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه أمر الصخرة. فانفرجت شيئاً يسيراً لا يستطيعون الخروج معه.

وقال الآخر: قد عملت حسنة مرّة، كان لي فضل فأصابت الناس شدّة، فجاءتنى امرأة تطلب مني معروفاً فقلت: والله ما هو دون نفسك. فأبت عليّ، فذهبت ثم رجعت فذكرتني باللّه، فأبيت عليها وقلت: لا والله ما هو دون نفسك. فأبت عليّ وذهبت، فذكرت ذلك لزوجها، فقال لها: أعطيه نفسك واغني عيالك. فرجعت إليّ، فناشدتني باللّه، فأبيت عليها وقلت: والله ما هو دون نفسك. فلما رأت ذلك أسلمت إليّ نفسها، فلما تكشّفتها وهممت بها، ارتعدت من تحتي، فقلت لها: ما شأنك قالت: أخاف الله رب العالمين. فقلت لها: خفتيه في الشدّة ولم أخفه في الرخاء؟ فتركتها وأعطيتها ما يحقّ علي مما تكشّفتها. اللهم إن كنت تعلم أني قد صنعت ذلك لوجهك ففرّج عنا ما نحن فيه. فانصدع الجبل وانفرجت الصخرة حتى عرفوا وتبيّن لهم، غير أنهم لم يكونوا يستطيعون الخروج.

وقال الثالث: قد عملت حسنة مرّة، اللهم إنك تعلم أني استأجرت أُجَراء

يعملون كل رجل منهم بأجر معلوم، فجاءني رجل ذات يوم نصف النهار، فاستأجرته بشرط أصحابه فعمل في بقيّة نهاره كما عمل الرجل منهم في نهاره كلّه، فرأيت علي في الذمام ألّا أُنقصه مما استأجرت به أصحابه؛ لما جهد في عمله، فقال رجل منهم: تعطي هذا مثل ما أعطيتني؟ فقلت: يا عبد اللّه، لم أبخسك شيئاً من شرطك، وإنما هو مالي أحكم به بما شئت. قال: فغضب وذهب وترك أجره، فوضعت حقّه في جانب البيت ما شاء اللّه، ثم مرّ بي بقر، فاشتريت به فصيلة من البقر، فبلغت ما شاء اللّه، فمرّ بي بعد حين شيخ ضعيف لا أعرفه، فقال: إن لي عليك حقاً. فذكّرنيه حتى عرفته، فقلت: إيّاك أبغي، هذا حقك. فعرضتها عليه جميعاً، فقال: يا عبد اللّه، لا تسخر بي، إن لم تصدق علي فأعطني حقّي. فقلت: والله ما أسخر بك، إنها لحقّك مالي منها شيء. فدفعتها إليه جميعاً. اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك ففرّج عنا. فانصدع الجبل وانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون»[1].

فالمهم أن كل واحد من هؤلاء يقول: قد ذكرت الله تعالى في هذه اللحظة، وهذا هو معنى ما ورد: **«تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك الله في الشدة»**[2].

---

(١) صحيح البخاري ٣: ٥١، ٩٦، صحيح مسلم ٨: ٨٩.

(٢) الكافي ٢: ٤٧٢ / ١، الدعوات: ٢١ / ٢١، مسند أحمد ١: ٣٠٧.

وقد وردت عن أيمّة أهل البيت﵈ روايات كثيرة في الحثّ على الدعاء في الشدة قبل الرخاء، منها:

عن أبي عبد الله﵇ قال: «من تقدم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة: صوت معروف ولم يحجب عن السماء، ومن لم يتقدم في الدعاء لم يستجَب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة: إن ذا الصوت لا نعرفه».

الرأي الثاني: اذكروني فوق الأرض أذكركم تحت الأرض

وهذا الرأي مروي عن الجبّائي ومجموعة من المفسّرين. ومعنى ذلك أن الإنسان يجب أن يذكر الله تعالى في حياته كي يذكره الله تعالى بعد موته، فهو مازال في الحياة فإنه يملك أن يتكلم وأن يعمل، وبالتالي فإن عنده فرصة للذكر والعبادة فإذا مات ذهبت هذه الفرصة وغلق بابها. تقول الرواية: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قيل: يا أهل الجنة، فيشرفون وينظرون، وقيل: يا أهل النار، فيشرفون وينظرون، فيجاء بالموت كأنه كبش أملح فيقال لهم: تعرفون الموت؟ فيقولون: هو هذا، وكل قد عرفه. فيقدّم ويذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[1]»**[2].

فاللسان الذي يذكر الله تعالى به يعد لسانا نظيفاً طاهراً ذا مناعة عن المعصية، أما اللسان الذي لا يجري عليه غير الألفاظ النابية التي يأباها الشرع والخلق فإنه لا يعدو أن يكون في حالة ثرثرة؛ لأن الذكر الواقعي

☚ وعنه عليه السلام أنه قال: «من تخوف من بلاء يصيبه فتقدم فيه بالدعاء لم يُره الله ذلك البلاء أبداً».

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الدعاء في الرخاء يستخرج الحوائج في البلاء».

وعنه عليه السلام أنه قال: «من سره أن يستجاب له في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء».

وعنه عليه السلام أنه قال: «كان جدي يقول: تقدّموا في الدعاء؛ فإن العبد إذا كان دعّاء فنزل به البلاء فدعا قيل: صوت معروف، وإذا لم يكن دعّاء فنزل به بلاء فدعا قيل: أين كنت قبل اليوم؟».

وعنه عليه السلام أنه قال: «كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول: الدعاء بعدما ينزل البلاء لا ينتفع به».

الكافي ٢: ٤٧٢ / ١ ـ ٦.

(١) مريم: ٣٩.

(٢) بحار الأنوار ٨: ٣٤٤، مسند أحمد ٣: ٩، صحيح البخاري ٥: ٢٣٦.

ينظف اللسان عن كل ما نهى الله تعالى عنه.

فكأن القرآن الكريم يخاطب الناس بقوله لهم: أنتم الآن في حال الحياة تملكون الفرصة والطاقة والقدرة وكل الإمكانات المتاحة لكم فاستغلوها في ذكري كي أذكركم بعد الموت في حساب القبر وفي الموقف.. اليوم الذي تبقى الروح فيه منتظرة رحمة خالقها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1].

معنى ذكر الله الإنسان تحت التراب

إن معنى أن يذكر الله تعالى الإنسان تحت التراب هو إيصال الخيرات إلى روحه، أما موضوع الجسد حينها وهل أنه يشعر بالألم أم لا فهذا شيء آخر، وهو ليس مهماً ذلك أن الجسد غير معروض للصورة في هذه المسألة. وحتى لو قدر أنه انتهى وصار تراباً لكن تبقى المسألة عملية تذكير لنا بمآل هذا الجسد، فالقرآن يريد أن يذكرنا بأن أعظم مشاكلنا تأتي من هذا الجسد، فهو إن جاع فيجب أن نشبعه وإن عري فيجب أن نكسوه، ويجب أن نسكنه في قصر أنيق وأن نركبه في سيارة فخمة وأن نشبع كل غرائزه. وكل هذه الأمور هي في حقيقتها مناشئ للمشاكل، أي أن الجسد بالنتيجة هو السبب الوحيد لهذه المشاكل، لكن ما هو مصير هذا الجسد؟ إننا في النتيجة نرميه لقمة سائغة تحت الأرض للديدان تعبث به؛ حيث ينتهي به في نهاية المطاف إلى هذا المصير المؤلم:

ولقد قلت لنفسي وأنا بين المقابرْ هل رأيت الأمن والراحة إلا في الحفائرْ

فأشارت وإذا للدود عبثٌ بالمحاجرْ

---

(١) القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

الرأي الثالث: أنه اذكروني بالطاعة أذكركم بالرحمة

إن عندنا نوعين من الذكر: ذكر باللسان وذكر بالعمل، ويجب على الإنسان أن يساوق ذكرُه اللساني ذكرَه العملي، فإن كان الحال خلاف ذلك لم يكن صاحبهما مؤمناً، ولذلك فإن بعض الناس تجده يذكر الله تعالى بلسانه أما عمله فهو عمل ذئب وربما أشد. ومعنى الذكر بالعمل أن يخلص الإنسان في عمله للّه، وأن تكون يده نظيفة ولا يضيّع شيئاً من وقته بأُمور تافهة تشغله عن ذكر اللّه، وخلاصة الأمر يجعل عمله كلّه خالصاً لوجه الله تعالى سواء كان هذا العمل زيارة مريض أو عطفاً على ضعيف. فكل هذه الأُمور هي ذكر لله تعالى وهو من أعظم أنواع الذكر. يقول الله تعالى في الحديث القدسي: **«يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي»**[١].

إشكال

لكن يبقى أمر لا بدّ من توضيحه هو أن الإنسان لا يستطيع أن يشخّص الرحمة، أو أن يشخّص لوازمها؛ فربما يتساءل: أين هي الرحمة وهناك أُناس يسعون بالشر، وهم مع ذلك يملكون الصحة والمال وكل شيء؟ وهذه الأُمور يكون منشؤها عندنا النظرة القاصرة التي لا تدرك حقيقة الأشياء وما وراء الأشياء من حقائق، فهي نظرة محدودة ويجب ألّا نقيس الأمور بمقاييسنا الخاصة. فالله تبارك وتعالى عندما يعطي ويمنع أو يصحّ ويسقم أو يفقر ويغني فإنما يفعل كل ذلك لحكمة، فالعطاء لمصلحة تقوم بتنظيم المجتمع قد يجهلها الإنسان.

---

(١) الكافي ٨: ١٣٨ / ٢،وقريب منه في المحاسن ١: ٣٩ / ٤٤، الكافي ٢: ٤٩٨ / ١٢.

المبحث الرابع: حقيقة الشكر

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾، الشكر هـو مـقابلة النعمة والإنفاق منها، فهناك ممن أنعم الله تعالى عليهم من يبارزه بالمعصية صباحَ مساءَ، ويكفر به ويضع نعمه في غير مواضعها في حـين أن البـعض الآخر يفعل عكس ذلك فهو يشكر الله جل وعلا على كل نعمة، ويضع نعمه في مواضعها. هذا الأمر يجب أن يجري في الدنيا مع الإنسان أيضاً، فيشكر أخاه إذا أنعم عليه: «من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق»[١].

غير أن بعض البشر ممن لا تحكمه القواعد الخلقية أو الضوابـط الديـنية حينما يقدم له أخوه الإنسان خـيراً أو يـنعم عـليه بـنعمة فـإنه يـقابل ذلك بالإساءة وإلحاق الأذى بمن أحسن إليه، وكأن هذه النعمة أو هذه المساعدة تزيده لوناً من الحقد على الآخرين وعلى المنعم نفسه. ومثل هذا الشخص لا يعدو أن يكون جملة من العُقَد والازدواجية وأن يكون عبارة عن قطعة من الشر؛ ولذلك فإن الحيوانات في بعض الحالات تفضل على الإنسان فيما إذا كان بهذه الصفة الآنفة. يروى أنه كان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديد المحبّة لهم، فخرج في بعض متنزّهاته ومعه ندماؤه، فتخلف منهم واحد، فدخل على زوجته، فأكلا وشربا، ثم اضطجعا، فوثب الكلب عليهما فقتلهما، فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين، فعرف الأمر، فأنشأ يقول:

فـيا عـجباً لـلخلّ يـهتك حـرمتي ... ويـا عـجباً للكلب كـيف يـصونُ

---

(١) الروضة البهيّة شرح اللمعة الدمشقية ١٠: ٦، تاريخ مدينة دمشق ٢٢: ٢٦٢.

وما زال يرعى ذمّتي ويحوطني ويحفظ عرسي والخليل يخونُ[١]

فلك أن تتصور أن الحيوانات يكون عندها أحياناً للنعمة وقع حسن، بخلاف بعض الناس الذين يُحدث عندهم الإحسان ردة فعل سلبية تجاه المحسن إليهم. إن الأخلاق والدين وقواعد الإنسانية تأمرنا أن نحسن إلى من يحسن إلينا، وأن نستثمر هذا المقلع الإحساني الذي يقبع داخل نفس الإنسان المحسن، ولا نضطره إلى أن يتعامل معنا بعد ذلك تعاملاً سلبياً فيما لو قابلنا إحسانه بالإساءة. فسوء التربية هو الذي سينتهي بالإنسان حتماً إلى ألّا يشكر، مع أن الشكر هو من أبرز المظاهر السليمة في السلوك الإنساني تجاه كل إحسان تقصد به الإنسانية.

والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿اشْكُرُوا لِي﴾ فليس معناه أن الله تعالى مفتقر إلى الشكر، وإن فسّر ذلك بهذا المعنى فهذا يدل على طبيعة فهمنا المخطوء لحقيقة الشكر، ومن هذا ما يتصوره البعض من أن الشكر هو قول الإنسان: الحمد للّه، حينما ينتهي من طعامه مثلاً، والواقع خلاف هذا؛ إذ أن الشكر هو تعبير عن إظهار النعمة؛ فإننا قد أُمرنا بأن نظهر آثار نعمة اللّه علينا[٢].

يروى أن الرشيد كان عندما يخرج من قصره يخرج العبيد معه وهم يحملون بِدر الدنانير، فكان كلّما مرّ على شاعر جلس قربه واستمع إلى شعره ثم أعطاه بِدرة، وكذلك يفعل مع الأدباء وغيرهم من أهل الفن. وقد مرّ ذات

(١) بحار الأنوار ٢٦:٥٨.

(٢) قال الله تعالىَ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى: ١١.

يوم بمنزل الأصمعي، فقال لجعفر: هيا بنا لنمضيَ إليه. فمضيا إليه خفية ومعهما خادم معه ألف دينار؛ ليدفع ذلك إليه، فدخلا داره فوجدا كساء جرداء، وبارية سملاء، وحصيراً مقطوعاً، وخباء قديمة، وأباريق من خزف، ودواة من زجاج، ودفاتر عليها التراب، وحيطاناً مملوءة من نسج العناكب، فوجم الرشيد، وسأله مسائل غثة لم تكن من غرضه، وإنما قطع بها خجله، وقال الرشيد لجعفر: ألا ترى إلى نفس هذا المهين، قد بررناه بأكثر من خمسين ألف دينار وهذه حاله، لم تظهر عليه آثار نعمتنا؟ والله لا دفعت إليه شيئاً. وخروج من عنده ولم يعطِه[1].

فلسان النعمة يجب أن يكون ناطقاً بالشكر، أي أن الله تعالى إذا أنعم على عبد بنعمة وجب على الإنسان أن يعتقد بجملة أُمور، منها أن هذه النعمة من الله جل وعلا تفضلاً عليه؛ ذلك أن بعض الناس يظن أنه إنما رزق هذه الأموال لما يملك من علم وعبقرية فهو بعلمه وعبقريته جمع هذه الأموال وكدسها. مع أن مسألة الرزق ليس لها علاقة بالعبقرية أبداً، إذ من الممكن أن تجد أحداً لا يعقل يمينه من شماله وهو يملك الأموال الطائلة وقد تجد عبقرياً يعوزه الرغيف.

ومن الأُمور التي يجب على الإنسان محل النعمة أن يعتقد بها هو أداء حق هذه النعمة بالشكر. والشكر ليس فقط في القلب أيضاً، بل يجب أن يصاحبه شكر اللسان، فلسان المرء يجب أن يلهج دائماً بذكر الله تعالى واليد كذلك يجب أن تساهم في عملية الشكر هذه بأن تمتد إلى المحتاج والجائع والقلب

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ٤٧.

الكسير والمرأة البائسة يد العون وكلّ مساعدة، أو إلى عائلة لتنقذها من أن تقع في أحضان الشيطان. وهذا هو المعنى الذي يصوّره الشاعر، فيقول:

أفـــادتكمُ النـعماء مـنّي ثـلاثةً يدي ولساني والضميرَ المحجّبا(١)

إذن فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ فإنما يـريد من الشكر أن يأخذ عندنا أبعاداً واسعة متفرقة. ومن أبعاد الشكر الإنـفاق، وقد وصل الأمر عند البعض أن يكون شكرهم إنفاق نفوسهم:

كم بين قوم إنـما نـفقاتُهم مالٌ وقومٌ ينفقون نفوسا(٢)

وأبرز مصاديق هذا الإنفاق هو شكر الإمام الحسين‌عليه‌السلام اللّهَ على عـطائه تعالى له، وكان عاقبة ذلك الشكر ما نراه الآن من أمر الحسين‌عليه‌السلام الذي نظر إلى الأجيال نظرة بعيدة، وأدرك أنها سوف تحتضنه فكرة في الرؤوس وشعاراً على الأفواه وروحاً في الضمائر. إن كل هذه الأشياء كان يدركها الحسين‌عليه‌السلام. لكن ماذا قدم شكراً على هذه النعمة؟ لقد قدّم نفسه الشريفة المقدسة، وقدم الشباب من آل محمد صلى‌الله‌عليه‌وآله شكراً عليها، وكان أن قدم ولده علياً الأكبر الذي رجع به من أرض المعركة بعد أن سقط شهيداً وهو يحمله على يديه ثم وضعه في الخيمة مع الشهداء من القرابين التي قدمها بين يدي الله جل وعـلا ثـم جلس عندها وأخذ يطيل النظر إليها وقد غطّى الدم كلّ محاسنهم، فهرولت إليه ليلى قائلة:

---

(١) البيت للإمام الشيباني الشافعي. تفسير القرآن العظيم ١: ٢٤، ٣: ٥٣٦، البداية والنـهاية ١: ١٣٥.

(٢) البيت لأبي تمّام. ديوان الحماسة ١: ١٨٩، شرح نهج البلاغة ٣: ٢٦٣.

شــــالفايده ويـــاك يـــبني   أنـــا الوالده وهـــيّن تـــذبني

ردتـك عليه البيت تبـنـي

يـبني علـي يـا فـتشة العـين   يـبني صـواب الضـاهدك ويـن

* * *

عـمود الوســط يـالشايل البـيت   آنــه بـيش اجـيت وبـيش ردّيت

يـا واحـدي عنـدي شـخلّـيت

* * *

ومـحا الردى يـا قـاتل اللّـه الردىٰ   مـنه هـلال دجـىً وغـرةَ فـرقدِ

يا نـجعةَ الحـيّينِ هـاشم والنـدىٰ   وحـمى الذمـارين العُـلا والسـؤددِ

فلتذهبِ الدنـيا عـلى الدنـيا العـفا   مـا بــعد يـومِك من زمـانٍ أرغـدِ

﴿ ١١٥ ﴾

القصص القرآني والعبرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: أسرار التاريخ

هذه الآية الكريمة نصّت على هدف من أهداف القرآن الكريم التي يريد أن يوجهنا بها. ونحن نعرف أن القرآن الكريم فيه قصص وجوانب تاريخية إضافة إلى ما فيه من أحكام ونصائح وإرشادات ووسائل هدى. فكلّ قصة وردت في القرآن الكريم لها هدف معين يحدد طبيعتها؛ وليس هذا مختصاً بالقصص أو الحوادث التاريخية وحدها بل إن كل ما في القرآن هادف، بمعنى أن الهدف الموجود في القصص القرآنية هو عينه الموجود في كتابة

---

(١) يوسف: ١١١.

التاريخ، فقراءة التاريخ يراد منها الاتعاظ والاستعبار بما فيه من حوادث وتجارب مرت بها الأُمم السابقة وكذلك الحال مع القصص القرآني فهي تعكس تجارب السابقين للّاحقين فيسجل اللاحق تاريخه ليصبح وسيلة من وسائل العبرة له ولمن يأتي بعده.

وفي التاريخ أسرار وحكم وخفايا يجب على كل فرد أن يطبقها على المستقبل ليستفيد منها، وهذا هو الهدف من دراسة التاريخ دراسة معمقة؛ حيث يحاول هذا الدارس أن يستفيد العظة والعبرة منه ثم يستنبط منه قاعدة يستطيع من خلالها أن يفسر الكثير من الحوادث اللاحقة أو حتى التنبؤ بها.

وكثير من دارسي التاريخ يتخذ له مثلاً أعلى من إحدى الشخصيات التي يجعلها مجالاً لدراسته ويخضعها لأبحاثه، ويحاول أن يجسد شخصية هذا المثل الأعلى. فحينما يقرأ أحدنا سيرة أمير المؤمنين؈ أو سيرة أي بطل آخر أو سيرة أي إنسان عاش في الجاهلية فلابد أن يكون لديه هدف واضح دفعه إلى قراءة سيرته، وهذا قد يفسره أنه يريد أن يتّخذ من هذا الشخص مثلاً أعلى له في الحياة يحذو حذوه ويسير على خطاه وينتهج منهجه. ولذلك فإن بعض الناس حينما تسأله عن مثله الأعلى فإنه يجيبك على الفور بأنه البطل الفلاني أو العالم الفلاني، أو الأديب الفلاني أو غير ذلك.

إذن هناك عظة وعبرة في التاريخ الذي يشتمل أيضاً على حوادث هي عبارة عن أضواء تنير طريق الإنسانية أمامها. فالإنسان حينما يرى حادثة فإنه يمكن أن يستفيد منها ويتعظ ويعتبر؛ حتى لا تتكرر في حياته سيما إذا كانت عاقبتها غير حميدة. فالإنسان العاقل هو من يتّعظ بغيره، ويجتنب تكرار التجارب غير الحسنة، وذلك مثله كمثل من يمشي خلف إنسان ثم يراه

يقع في بئر فإن عقله يجب أن يملي عليه ألّا يتقدم في الطريق نفسه ويقع فيما وقع فيه. وبعبارة أُخرى أنه يتخذ منه قدوة في هذه الحالة.

المبحث الثاني: فلسفة القصص

إن القرآن الكريم يريد أن يلخص لنا تلك التجارب ويخرج منها بـنتيجة نستفيد منها في حياتنا، وهو ما يسمى بفلسفة القصص أو فـلسفة التـاريخ. فمثلاً قصة هابيل وقابيل وقصة إبراهيمعليه السلام وقصة نوحعليه السلام حينما صنع السفينة وأخذ قومه يستهزئون به، وقصة يوسفعليه السلام، وكذلك العشرات من القـصص غيرها يريد الله تعالى منّا أن نأخذ منها العبرة والفائدة. ونحن بدورنا يجب ألّا نقرأ تلك القصص قراءة سطحية، وألّا تمر علينا ونحن نتسلى بـقراءتـها فقط، بل الواجب علينا أن نتواصل معها لاستنباط السنن المودعة فيها.

وهذا هو شأن الكثير من الناس مع القصص التي وردت في القرآن، بـل ربما تعدى الأمر ذلك إلى مسألة هجر القرآن وعدم القراءة فيه، فيُقصر مقتنيه اقتناءه على البركة ولأجلها أما أن يقرأ به كل يوم ويناجي الله تعالى عبره كل صباح فهذا غير وارد في عرف البعض. فالقرآن لم ينزله الله تـعالى لأجـل البركة فقط ولا أُنزل لأجل أن يفرغ محتواه الاجتماعي. إن هذه المحاولات التي ترمي إلى هذا الهدف هي محاولات مدسوسة ولازالت قائمة حتى الآن؛ حيث إن الكثير من الناس يحاول أن يصرف القرآن عن أهدافه وأن يـفرغه من محتواه.

وتحضرني هنا قصة من القصص ذات العلاقة بهذا الشأن، ذلك أن مروان آخر خلفاء بني أُمية حينما خرج بجيشه لقتال جيش العبّاسيّين، كان تعداد جيشه مئتي ألف مقاتل، وبعد أن تقابل الجيشان، أخذ يفكّر بطريقة يتغلّب

بها على جيوش العبّاسيّين، فانقدحت في ذهنه فكرة استدعى علـى إثـرها خازن أمواله وسأله عن مقدار ما معه من أموال، فأجابه بأنها كثيرة، فأمره أن يُخرجها فيضعها بين يدي العسكر وسط المعركة، ثم أمر مناديه أن ينادي بأنه قد خصّص لكلّ من يأتيه برأس جندي من جيش العدوّ مبلغ مئة درهم من المال، ولمن يأتيه برأس قائد منهم مبلغ ألف درهم. وهو بهذا يتصوّر أنه يشحذ همم الجنود المقاتلين، ويحرز النصر.

فلما أُلقيت الأموال إلى جنب الجند ورأوها مالوا عليها ينتهبونها، فرآهم معسكر العباسيّين فتصوّروا أنهم انهزموا، فكرّوا عليهم بسيوفهم كرّة عـنيفة فانهزموا وقتلوا منهم مقتلة كبيرة، فهرب مروان مع عائلته إلى قرية اسمها أبو صير قرب الفيوم في مصر، وهي منطقة أقباط، فدخل إحدى الكنائس هـو وعائلته، لكن القائد العباسي عامر بن إسماعيل لحقه بعد أن نمّ عليه أحـد غلمانه كما يقول المؤرخون، وكان أن أمر بهذا الغلام فطرح فـاستلّ لسـانه ورمي به.

ولما انتهى عامر بن إسماعيل إلى بوصير، هرب مروان بين يديه في نفر يسير من أهله وأصحابه، ولم يكن قد تخلّف معه كثير منهم، فانتهوا في غبش الصبح إلى قنطرة هناك على نهر عميق، ليس للخيل عبور إلّا عليها، وعامر وراءهم حتى أدركهم، فلوى مروان دابته إليهم وحاربهم فقتل. وبـعد مـقتل مروان ثُقف رأسه ونفض مخّه، وقطع لسانه وأُلقي مع لحم عنقه، فجاء كلب فأخذ اللسان.

ولما قعد عامر بن إسماعيل علىٰ فراش مروان، وطلب أن يـؤتىٰ بـابنته الكبرىٰ، جاءت مختنقة بعبرتها، ثم قالت له: إن دهراً أنزل مروان عن عرشه

وأجلسك على فراشه، وتركك تنادم كبرى بناته لدهر أسدى إليك عظة وعبرة[1].

ولذا فإن القرآن الكريم يحاول أن يبين لنا أنه ليس لمجرد التبرك بل إن فيه أبعاداً يجب على الإنسان أن يستشفها بعيداً عن جعله حرزاً يعلق على الأعناق. فالأمر الذي لا بد من الإذعان به هو أن القصص لا تعدو أن تكون عظات وعبر؛ وما الدنيا إلّا مخزن هائل ومنجم من العظات التي يجب على الإنسان أن يقتلع منها كل حين ما يريد. فالقرآن الكريم في حقيقته هو مدرسة تتجلى فيها كل تجارب الآخرين، وكل العلوم التي كان بالإمكان التعرض إليها في ذلك الوقت. والقرآن الكريم هو معلم ومربٍّ ومهذب يجب أن نأخذ منه الاعتبار كما نأخذ منه الأحكام الشرعية والقواعد الأخلاقية وغيرها.

المبحث الثالث: التفسير التخصّصي للقرآن

وقد يسأل سائل فيقول: كيف يمكن أن نستوحي العبرة ونستنبطها من القرآن؟ وما هي الطريقة المثلى لذلك؟ هل نأخذه من التفسير والتفسير ربما كان معقداً نوعاً ما حينما يقرؤه القارئ العادي فإنه لا يتمكن من فهمه، كما أن بعض كتب التفسير قد يغلب عليها طابع معين، فعلى سبيل المثال كتاب (التفسير الكبير) للفخر الرازي تفسير ضخم لكنك حينما تقرؤه فإنما تقرأ كتاباً فلسفياً بما فيه من دقة المعاني. وحينما تقرأ تفسير (الكشاف) فإنك تجد كتاب معانٍ وبيان، وعندما تقرأ تفسير (التبيان) للشيخ الطوسي فإنما تقرأ

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٤٦، شرح نهج البلاغة ٧: ١٣٠، ١٦٠، ١٨: ٣٦٥.

كتاب لغة وأدب. ولعل أفضل التفاسير من حيث كونه جامعاً هو تفسير (مجمع البيان) للطبرسي؛ لما فيه من تبويب وتفصيل. لكن هل هو تفسير وافٍ بالغرض؟ الجواب: لا، ولقد أشرت أكثر من مرة فيما سبق إلى أن مسألة تفسير القرآن يجب أن يوضع لها منهج غير هذا المنهج المتبع حالياً، وعلماء الإسلام طبعاً هم المسؤولون عن هذا الأمر وتنفيذ هذا المشروع.

والذي أُريده من هذا أنه ليس من المفروض أن يقوم بتفسير القرآن رجل واحد متخصص بجهة واحدة فيفسر القرآن على ضوء تخصصه؛ لأن القرآن ليس فيه جهة واحدة بل هو عالم متكامل. ولنفرض أن عالماً مختصاً بالتفسير يقوم بتفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾[1] الذي معناه: اقصد التراب النظيف وتيمّم منه، فإن هذا العالم سوف يشرح هذا المعنى بشيء من الفقه ويذكر الحكم الشرعي المناسب؛ لأن وظيفته هي أن يذكر الحكم الشرعي الموجود في الآية. لكن ربما كانت تلك الآية تشتمل على جوانب علمية أو طبية أو اقتصادية أو اجتماعية أو قانونية أو كان لها علاقة بعلم الفلك؛ فلذا كان لا بد من أن تكون هنالك لجنة تشمل كل الاختصاصات لتقوم بتفسير القرآن الكريم تفسيراً تخصّصياً قائماً علىٰ أساس التنوّع في جهات كل آية وفي جوانبها.

وأنا لا أدعي أن القرآن الكريم هو كتاب علمي التخصص، لكن أقول: إنه يشير إلى القوانين العلمية غالباً، والمفسر الواحد ذو الاختصاص الواحد لا يستطيع أن يحل مشاكل الدنيا كلها، ولو قمنا بهذا لكنا قد أوقعنا أنفسنا في

(١) النساء: ٤٣.

عمل لا يعد ولا يعتبر عملاً علمياً كاملاً. فالواجب إذن أن تجزأ الآية وتشرح من كل جوانبها المحتملة؛ ليرى ما إذا كان فيها أمور علمية تطبيقية أو قواعد اجتماعية أم لا. فإن كانت كذلك كلف كل طرف في تلك اللجنة بمعالجة الجانب الذي يقع في مجال اختصاصه من الآية.

القرآن ولجان التفسير

إن هنا نقطتين أود أن أشير إليهما:

الأولى: ضرورة معرفة دقائق اللغة العربيّة قبل الإقدام على التفسير

وكمثال على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾[1] فإنه قد يرد تساؤل هو لماذا كانت كلمة ﴿وَفُرَادَى﴾؟ إن ما يمكن أن يقال هنا هو أن الفرد إذا ترك يفكر لوحده فإن تفكيره سيتصف بطابع الموضوعية والاتّزان بشكل أكبر مما لو لم يترك لوحده؛ ذلك أن لغة السلوك الجمعي سوف تؤثر فيه وفي آرائه، وسوف يطغى عليه ذلك السلوك مما يؤدي به إلى أن ينسخ شخصيته دون أن يكون له رأي.

السلوك الجمعي

لقد ذكرت أكثر من مرة أني رأيت رجلاً ذات مرّة يجري في السوق بسرعة وهو ينادي: «خلفهم، خلفهم» أي اعدوا خلفهم واتبعوهم. فقلنا له: من هؤلاء؟ قال: لا أدري، الناس يقولون هذا.

إن هذا المثل يعبر بشكل واضح عن السلوك الجمعي الذي يجذب الإنسان فيجعله لا يعي تصرفاته ولا يشعر بما حوله. والقرآن الكريم قد أشار إلى هذه

---

(١) سبأ: ٤٦.

الظاهرة النفسية وحدد هذا القانون (قانون السلوك الجمعي)، فالواجب هنا إذن أن نعطي هذا المقطع من الكتاب الكريم إلى عالم النفس أو عالم الاجتماع ليشرح لنا قوانين السلوك الجمعي ويبين لنا طبيعته؛ كي يفسر لنا على ضوئه هذا المقطع الشريف، ويزيح الغبار عن غامض معناه. أما إذا أعطينا الكتاب الشريف إلى عالم واحد أو مفسر واحد فإننا يمكن أن نجزم بأننا سوف لن نضمن أن يكون التفسير كاملاً شاملاً؛ لأن قدرات المفسر الواحد محدودة ولا تنهض به لكي يفسر هذا الكتاب العظيم.. القرآن، بل إن مضامين القرآن ستتجاوز قدراته تلك وبالنتيجة لن يكون هناك تفسير صحيح؛ وستبقى الكثير من الجوانب خالية بهذا اللحاظ.

الثانية: أن القرآن الكريم لابدّ لتفسيره من عمل جماعي

وهي نقطة هامة مترتبة علىٰ النقطة الأُولىٰ ونتيجة لها؛ ولذا ينبغي التنبيه إليها، وهي أنه لابد أن تشرف على تفسير القرآن لجنة تتصف بروح الموضوعية؛ لأن هنالك بعض الآيات التي يمر بها بعض المفسرين فيتجاهلونها ولا يشيرون إليها أبداً. فمثلاً تفسير (صفوة البيان) لمحمد حسنين مخلوف ـ وهو من شيوخ الأزهر ـ حينما يصل صاحبه فيه إلى قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١)، فإنه يتجاوزه ولا يذكره أبداً.

---

(١) المائدة: ٥٤.

والسبب واضح لا يحتاج إلى بيان؛ لأنها نزلت في أمير المؤمنين﴿ع﴾، والمفروض أن المفسر حينما يتصدى لهذا الأمر فإنه يجب أن يكون موضوعياً ولا يميل لجانب على حساب جانب آخر. فالآية سواءً كانت نازلة في أمير المؤمنين﴿ع﴾ أو في أبي بكر أو في عمر فإن المفسر يجب عليه ألّا يتجاوزها بل يفسرها على ضوء ما يمليه عليه ضميره. أما نفي هذا الأمر عن هذا الشخص أو إثباته له فإن ذلك يعتمد على الدليل الذي يكون هو الحكم الفصل في هذا الشأن. وعليه يجب أن تُشرح الآية ولا يُبخس أحد حقه إذا كانت نازلة فيه، لا أن تُتجاوز، وغاية ما يحق للمفسر هو أن ينفي صحة هذه النسبة إلى هذا الشخص شريطة أن يكون نفيه مستنداً إلى أدلة لا يرقى إليها الشك ولا يطالها النقض.

ولنا أن نتساءل فنقول: ما الذي يجعل المفسر يتجاوز تفسير آية نزلت في أمير المؤمنين﴿ع﴾؟ ولماذا هذا الحقد؟ إن القرآن الكريم يجب أن يكون المرآة العالية الصافية التي تعكس عليها المعاني العالية والأخلاق السامية والصفات الصافية، والذي من خلاله نتفاعل مع الدنيا بأكملها، لا أن نملأه حقداً أو نغمر حقائقه ونطمس معالمه.

على أية حال إن الآية الكريمة تقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾، فهي تريد أن تنبهنا إلى أن القرآن حينما يجيء بالقصة فإنه لم يجئ بها لأجل أن يتسلى بها قارئها حينما يقرؤها أو ليتبرك بها، بل يريد منه أن يستنبط منها ما تحوي من خبرة وتجربة؛ لكي يتحقق الهدف من نزول القرآن ومن قراءته. ذلك أن قارئ القرآن الذي لا يمكن أن يفهم حدود القرآن لا يستطيع أن يحقّق الهدف من تنزيل القرآن.

التفرّد في دراسة الحوادث التاريخية

وها نحن قد فهمنا مراد الله تعالى من قراءة القرآن وأنه فهم فلسفة التاريخ ودراسة التاريخ دراسة شاملة واعية ذات عوامل متعددة، لا أنها تعتمد على عامل واحد كما فعل البعض حيث إنهم نظروا إلى جانب واحد وأغفلوا بقية الجوانب الأُخرىٰ التي لا يصحّ إغفالها؛ فماركس مثلاً يفسّر التاريخ تفسيراً مادياً بعيداً عن الدين، وفرويد يفسّره بالعامل الجنسي، وقد تجد ثالثاً يفسّره بالعامل الديني دون لحاظ أثر الجانب المادي أو أثر الجوانب الأُخرى، لكن بقي علينا أن نشير إلىٰ أن النظر إلىٰ القرآن من جهة واحدة هو أمر مغلوط ونظر للأُمور بعين واحدة. فالذي يريده القرآن الكريم هو أن يوضع منهجاً متكاملاً في تفسير أي حادثة تاريخية، فهو حينما يتناول حادثة ما فإنه يضع أصابعه على الأضواء وعلى الظلال. وبالنتيجة فإنه يعالج المشكلة على ضوء العامل المادي والعامل الاقتصادي والعامل الاجتماعي وإلى ما هناك من عوامل يمكن أن توجد في إطار تلك الحادثة.

ولو أخذنا قصة قابيل وهابيل وتأملنا فيها على ضوء المنظار القرآني لها؛ لوجدنا أن القرآن قد شرحها شرحاً كاملاً وبين أسباب قتل هابيل، وصرّح بأنها الحسد، وذلك حينما قرّبا قربانين فتقبل الله تعالى قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل. لكنه من جانب آخر وضع يده على منطقة الخير في نفس الإنسان، وذلك حينما راح صراع الضمير الذي اعتلج عند قابيل يخزه بعد أن قتل أخاه ظلماً. كما أنه وضع يده على عامل ثالث فبين كيف يمكن أن يبتعد الإنسان عن مواضع الحسد وهكذا.

وهكذا نلاحظ هنا أن القرآن الكريم هو عبارة عن منهج متكامل لا يفسّر

أحداث التاريخ على ضوء عامل واحد، مما يستلزم بالنتيجة إغفال بقية العوامل الأُخرى التي ربما يكون تأثيرها أشد وأكبر من ذلك العامل المنظور.

المبحث الرابع: أن القرآن مصدّق لما بين يديه من كتب

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وهذا أول هدف من أهداف القرآن، وهو العامل الذي تتصف فيه روحه دائماً؛ بأنه إنما جاء ليؤيد الكتب السماوية التي جاءت قبله؛ ليدعم الأُمم السابقة ويكرمها بذكر أحداثها وطلب الاتعاظ بها. فقد ذكر القرآن أُمّة موسى عليه السلام وأُمّة عيسى عليه السلام وأُمّة إبراهيم عليه السلام، وذكر الجو المحيط بآدم عليه السلام وذكر الأحكام مقتبساً منها الكثير مما هو في التوراة أو في الإنجيل وعرضها. وهكذا يكون القرآن قد جاء ليصدق الذي بين يديه.

وهذا يعني أن القرآن لم يأتِ ليعادي الأنبياء عليهم السلام الذين عاشوا قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو يعادي كتبهم أو يصطدم بها أبداً، و إنما جاء ليبين ما تبقى من شريعة عيسى عليه السلام فما كان منه صالحاً للحياة أبقاه، وكذلك الحال مع شريعة موسى عليه السلام، أما إذا كان الحكم في هاتين الشريعتين مثلاً لا يصلح للزمن الذي نزل فيه القرآن فإنه سينسخ.

وعليه فإن القرآن إنما جاء مصدقاً لما بين يديه من كتب منزلة من السماء. هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى إن هذه الشرائع التي جاءت قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما عالجت المشاكل التي وقعت في وقت أُولئك الأنبياء عليهم السلام أما الآن ـ زمن نزول القرآن ـ وقد تطورت الحياة واتسعت وازدادت متطلباتها فإن تلك الشرائع لم تعد كافية لوضع حلول لهذه المشاكل المستحدثة؛ فلذا جاء القرآن الكريم ليضع هذا العلاج لها.

إن هذا هو موقفنا من الأديان السابقة، ونحن نسأل: هل وقفت الأديان السابقة منا هذا الموقف؟ الجواب طبعاً: لا؛ لأن أقل نظرة إلى تاريخ أُوروبا وهو يمر بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم نكتشف أنه لا يذكره صلى الله عليه وآله وسلم بما ينبغي عليه أن يذكره من التبجيل والإجلال، فهو لا يحترمه فضلاً عن أن يؤمن بأن رسالته من السماء، فالمستشرقون مثلاً حاولوا جاهدين أن يغلغلوا الشك في نفوس المسلمين عبر إثارة بعض القضايا، ومنها ما حاولوا تصويره من أن القرآن ليس كتاباً نازلاً من السماء و إنما هو من اختراع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بدؤوا يبثون تلك الكذبة بين المسلمين.

وحينما كانوا يتناولون شخصيته صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم يصورونه على أنه رجل بدوي، وأن تعاليمه تعاليم غليظة وأنه ليس ذا خلفية حضارية عالية؛ لأنه يعيش في محيط كله بداوة وغلظة، فجاء هو ورجاله وهجموا هجمة بربرية فحطموا الحضارات والتطور وذبحوا العلم والعلماء وأحرقوا المكتبات ومسخوا الدنيا مسخاً.

وحينما تقرأ تاريخ المستشرقين لحقبة الإسلام تجده لا يعدو الذي ذكرنا، غير أن هذا يهون قياساً إلى مصيبتنا العظمى وهي تلمذة أبنائنا لهم، وتأثّرهم الكبير بأفكارهم. وللسامع أن يتصور أبناءنا الذين يدرسون في أُوروبا وهم يغتذون من هذا الفكر ويحملونه، أو أنهم حينما يدخلون إلى مكتبة ضخمة ويستمعون إلى بروفيسور كبير ويأخذون عنه فكره ونظريته ثم يبدؤون بمقارنة ما عليه هؤلاء من تطور وما نحن عليه من تخلف وجهل حيث إنهم سيعترضون بأُمور ـ هي من صنع المستشرقين أنفسهم ـ لعل أولها هو قولهم لنا: إن هؤلاء قد وصلوا إلى القمر، وفتحوا فتوحات واسعة في العلم، وأنتم

لازلتم تتكلمون في مسائل الحلال والحرام وتضيعون وقتكم فيها.

إن مثل هذا التفكير يصعب معه إقناع صاحبه بأن هذا الحلال والحرام إنما هو علم من العلوم؛ فكما أن لديهم تخصصات في مجالات علمية فإن لنا مجالات تخصصنا كذلك، وهذا لا يعني أنه إذا جاءك ذلك الغربي بنظرية صحيحة فإن كل نظرياته التي سوف يطرحها لاحقاً هي نظريات صحيحة، بل يجب أن تنتبه إلى أن وراء هذه النظريات هدفاً استعمارياً. صحيح أنه يطرح عليك أول ما يطرح نظريات وراءها أهداف تربوية لكن الغرض من هذا هو استلال الإنسان من دينه، ثم بعد ذلك تطرح النظريات ذات الهدف الاستعماري لتؤدي دورها ولتفعل فعلها حينها، وبالتالي تحول الإنسان إلى المسيحية.

وسائل المستشرقين للنيل من الإسلام

وهم يقومون بكل شيء مقابل هذا، فيشوهون التاريخ من أجل أن يشوهوا الدين الإسلامي، ويحرفوا المسلم عن دينه إلى الديانة المسيحية.

قضية الرق

وبعض الكتاب الآن يستغلون نقاط عدة في هذا المجال، ومن هذه النقاط قضية العبيد حيث كان هناك بعض التجار الذين يذهبون إلى أفريقيا ويقولون للناس: إن الإسلام يعتبركم مثل البهائم تباعون وتشرون، وكأنما نيرون الذي يتلذذ بحرق العبيد هو منا، أو كأن ملاعب روما التي كانت تسيل عليها دماء العبيد هي ملاعبنا، وكأننا لسنا الذين زوجنا العبد من بنت عبد المطلب[1].

---

(١) أي زواج زيد بن حارثة ربيب رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش.

ولا نحن الذين جعلنا العبد رئيس أركان جيش المسلمين كله، وهو أُسامة الذي كان مملوكاً.

فهؤلاء كانوا يحاولون تشويه صورة الإسلام بكل ما يستطيعون، فهم يأتون إلى كتب الفقه عندنا ويقولون: إن في هذه الكتب باباً مخصصاً لبيع وشراء العبيد. وهؤلاء يتناسون أن هذا الباب موجود فعلاً لكنه ليس من وضع الإسلام؛ فقانون الرقّ موجود قبل الإسلام، وحينما جاء الإسلام وجده كذلك، وكان العبيد يباعون ويشرون. فعالج هذه المشكلة بشكل تدريجي ولم يعالجها دفعة واحدة. فهؤلاء المستشرقون استغلوا هذه الظاهرة من أجل أن يثيروا الناس على المسلمين.

قضيّة الشهادة

ومن القضايا التي أثاروها أيضاً قضية المرأة، حيث إن الإسلام اشترط شهادة امرأتين مقابل رجل واحد. فاستغلّوا هذا الأمر وقالوا: هذا دليل على أن الإسلام يعتبرها نصف الرجل. وهذه مغالطة؛ لأن من الفروق بين الرجل والمرأة، أن المرأة أكثر عاطفة من الرجل؛ وذلك لأن بناء الأُسرة يحتاج إلى جوّ عاطفي وهو مناط دور المرأة داخل الأُسرة.

إن خطورة الشهادة في بعض المواطن اقتضت مثل هذا الشرط، إذ أن المرأة في مواطن أُخرىٰ تقبل شهادتها لوحدها، ففي حالة الولادة، مثلاً يعتمد في شهادة أن هذا الولد هو ابن هذه المرأة أو العكس علىٰ شهادتها لوحدها.

قضيّة الميراث

أما عن موقف الإسلام من ميراث المرأة، كونه جعل لها النصف، فيجب النظر إليه من منطلق كلّي وليس من منطلق جزئي. فنظريّة الاقتصاد

الإسلامي لم تكبّد المرأة أي أعباء ماليّة مثلما تكبّد الرجل من صرفيّات السكن وغيرها، ذلك أن دخل الرجل يصرفه ١٠٠٪ على المرأة وعلىٰ المنزل، وبغير هذا التمايز لا تكون في ذلك عدالة؛ إذ الرجل هو المسؤول عن احتياجات المرأة، ذلك أن للرجل الولاية العامة علىٰ المرأة وليس لها ذلك؛ لأن الإسلام خصّها بدور آخر داخل الأُسرة، والولاية العامّة تحتاج إلىٰ أعصاب أقوىٰ من أعصاب المرأة.

وعلىٰ ذلك فإن موقف الإسلام من المرأة ليس موقف تفضيل وإنما هو موقف تفصيل وتقسيم الواجبات والحقوق. هذا في حين أن قانون الإسلام يضع قدم المرأة على رأس الرجل ويضع الجنة تحت أقدامها: **«الجنة تحت أقدام الأُمّهات»**(١).

وهذا تاريخنا يشهد على احترام الإسلام للمرأة، غير أن الأقلام المغرضة تحاول أن تستغل بعض الأُمور لتسيء بها إلى ديننا كالشهادة مثلاً. فهؤلاء يشكلون على مسألة جعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجل، وهذا أمر نظر فيه الإسلام إلى جوانب أُخرى لم ينظر هؤلاء من خلالها إلى هذه المسألة، وذلك يتعلق بأسباب عاطفية ودواعٍ تكوينية تتصف بها المرأة، وهو الذي جعل شهادتها بهذه المنزلة. وبالنتيجة فإن هذا لا يعني أن الإسلام ينتقص المرأة و إنما هي مسألة تصنيف ليس إلّا.

إن موقف القرآن الكريم من الأديان الأُخرى هو موقف إيجابي كامل فهو يمجد عيسى عليه السلام ويمجّد أُمّه البتول مريم عليها السلام، وهذا خلاف ما عليه اليهود

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب اللباب للقطب الراوندي، مسند الشهاب ١: ١٠٢/١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٦١/٤٥٤٣٩.

حيث إنهم بهتوها ورموها بالزنا (تنزّهت عن ذلك). أما القرآن الكريم كما قلنا فقد كرمها ونزهها ومجدها، لكن ما نراه الآن هو أن المسيحيين يقفون مع اليهود ويبرّئونهم من دم عيسى عليه السلام ويحمّلون المسلمين أوزار الأولين والآخرين. وأبرز مثالٍ على هذا هو موقف الأُمم المتحدة المتفرج على مآسينا ومصائبنا دون أن تحرك ساكنا أو أن تفعل شيئاً حيال ما يجري على المسلمين في بلادهم، فهناك الكثير من القضايا المصيرية قد بقيت معلقة دون أن تجد لها حلاً عشرات السنين في حين أن القرآن جاء ليصدق ما بين يديه من كتب سابقة.

وعندما تقرأ تاريخ الأندلس تجد كيف كان المسيحيون يعاملون المسلمين، وكيف كانت النساء تتعرض للاغتصاب والأموال للنهب والشباب للذبح وكيف كانت الدماء تسيل فتلعن الإنسانية كلها. فكانت محاكم التفتيش أكبر جريمة ارتكبتها الإنسانية في ذلك الوقت. هذا في حين أن موقف المسلمين بقي ذلك الموقف الرائع، وكان قائد جيش المسلمين قبل أن ينزل إلى ساحة المعركة يوصي جنده قائلاً: لا تتعرضوا للرجال في الصوامع من أحبار ورهبان.

ولما جاء وفد نصارى نجران إلى النبي صلى الله عليه وآله وقفوا بباب المسجد وقد حانت صلاتهم، فصلوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وأراد المسلمون منعهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : **«دعوهم»**. فصلّوا إلى المشرق، فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله : يا محمّد، لم تذكر صاحبنا؟ قال: **«ومن صاحبكم؟»**. قالوا: عيسى بن مريم، تزعم أنه عبد الله؟ قال: **«أجل، هو عبد الله»**. قالوا: فأرنا فيمن خلقه الله عبداً مثله. فهل رأيت مولوداً يولد من غير أب؟ ثمّ قال السيد والعاقب: فمن أبوه

يا محمد؟ فصمت ﷺ ولم يجبهما وأعرض عنهما، ونزل جبرائيل عليه السلام فقال: **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾**[1].

فقال لهم ذلك، فقالا: أما إنه ليس كما تقول. فقال لهما رسول الله ﷺ: **«أسلما»**. قالا: قد أسلمنا. قال ﷺ: **«إنكما لم تسلما، فأسلِما»**. قالا: بلى قد أسلمنا قبلك. فقال ﷺ: **«كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير»**. ثمّ قال لهم: **«فإن الله عزّ وجل يقول: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[2]»**. فقالوا: نلاعنك.

فخرج رسول الله ﷺ إليهم وقد أخذ بيد علي عليه السلام ومعهما فاطمة والحسن والحسين عليهما السلام، فقال رسول الله ﷺ: **«هؤلاء أبناؤنا ونساؤنا وأنفسنا»**. فهمّوا أن يلاعنوه، فسأل أحدهم: من هؤلاء؟ فأُخبر بهم، فقال لأصحابه: واللّه، إني أرىٰ أن مع محمد وجوهاً لو أقسم بهم علىٰ اللّه أن يزيل جبلاً من مكانه لفعل، فلا تباهلوهم فتهلكوا. واللّه لئن باهلتموهم لا يدور الحول عليكم ومن النصارىٰ عين تطرف. فامتنع النصارىٰ عن المباهلة وصالحوا النبي ﷺ[3].

---

(١) آل عمران: ٥٩ ـ ٦١. (٢) آل عمران: ٦١.

(٣) انظر: روضة الواعظين: ١٦٤، شرح الأخبار ٢: ٣٣٩، التبيان ٢: ٤٨٤، شواهد التنزيل ١: ١٦٣ ـ ١٦٤ / ١٧٤، عيون الأثر (ابن سيد الناس) ١: ٢٩٠.

وموضع الشاهد هنا أنهم لما جاؤوا استقبلهم النبي ﷺ وأدخلهم إلى المسجد ومنحهم كامل الحرية في الحديث والنقاش والاعتراض. ونحن نعرف أن المسيحية عاشت على امتداد تأريخها في ظل الإسلام وتنعمت بوجوده وهي تمارس شعائرها وعباداتها في منتهى الحرية، وكذلك اليهود حيث كانوا يعيشون في المدينة المنورة آمنين يمارسون طقوسهم ولم يخرجهم النبي ﷺ منها حتى بدؤوا يعيثون فيها وحاولوا الإيقاع بين الأوس والخزرج[1] وما تلا ذلك من نقض صلحهم مع الرسول الأكرم ﷺ ودسوا له الدسائس وخلقوا له ألف مؤامرة[2]، وإلّا فإنهم كانوا يعيشون ملء إرادتهم.

---

(١) كان شاس بن قيس يهوديّاً، وكان شديد الكفر والظغن علىٰ المسلمين، مرّ يوماً علىٰ نفر من الأوس والخزرج من أصحاب رسول الله ﷺ في مجلس من مجالسهم يتحدّثون مع بعضهم بحبّ ومودّة، فغاظه ما رأىٰ من إلفتهم ومودّتهم وصلاح ذات بينهم، فقال: «قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إن بقوا علىٰ هذا من قرار». ثم أمر شابّاً من اليهود كان معه أن يجلس معهم، ويذكّرهم بيوم (بعاث) [بعاث: موضع في نواحي المدينة، دارت به معركة كبيرة بين الأوس والخزرج. وسببها أن الخزرج لمّا سمعوا بأن اليهود قد عاهدوا الأوس علىٰ قتالهم، أعدّوا العدة واستنفروا القبائل معهم، وكذلك فعلت الأوس. انتهت المعركة بانتصار الأوس وقتل قائد الخزرج عمرو بن النعمان البياضي. أيام العرب: ٧٣ ـ ٨٥] وما قبله من أيّام الحروب الطاحنة بينهم، وأن ينشدهم من الشعر بعض ما قالوه في تلك الحروب، ففعل الشابّ ما أمره به، فتكلّم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتىٰ تواثبوا وكلّ يقول: إن شئتم عدنا إلىٰ ما كنا فيه.

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم بمن معه، فصاح بهم: «الله الله يا معاشر المسلمين، أبدعوىٰ الجاهليّة وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع عنكم أمر الجاهليّة، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم؟!».

فانتبهوا وعرفوا أنها نزغة من الشيطان، فبكوا وأقبلوا يعانق بعضهم البعض. الدرّ المنثور ٢ ص١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢) ومن ذلك أن النبي الأعظم ﷺ حينما خرج إلى غزاة تبوك استخلف على المدينة أمير

فقوله تعالىٰ : ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ بمعنى أن القرآن جاء دعماً لفكرة رسالة السماء العامة التي نزلت على عيسى وموسىﷺ، ودعماً لكل رسالات السماء التي سبقتهما، في حين أننا نرى من أتباعهماﷺ عكس ذلك؛ فهم يقفون موقفاً سلبياً من الإسلام ومناوئاً له. وهذا الموقف السلبي اتخذ أبعاداً عدة أخطرها ما كان منها على مستوى التشكيك بالعقيدة وتزوير التاريخ والقتال والحروب التي شنوها على مر التاريخ.

المبحث الخامس: الفهم المخطوء لظاهر القرآن

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فما الذي يعنيه ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؟ الحقيقة أن فهم ظاهر القرآن فهماً سطحياً يؤدي إلى استخدامه بشكل يسيء إلى القرآن أحياناً، فقد تجد أن بعض الناس يحاول أن يكتب حول معنى من المعاني ويريد أن يجد له سنداً يثبت به صحته فيلجأ إلى القرآن ليأخذ منه ما يحلو له من إثباتاتٍ وأدلّة بحجة أن في القرآن ﴿تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فيزج القرآن الكريم في متاهة المعنى الذي يريده. وهناك آراء مضحكة حينما يقرؤها الإنسان لا يملك لنفسه إلّا أن يستغرق في الضحك فيما فيها، فمثلاً حول قوله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ

☚ المؤمنينﷺ؛ لأنهﷺ خاف علىٰ دار هجرته، وعاصمة دولته ممّن وترهم. وكان أكثر تخوّفه من المنافقين الذين تخلّفوا فيها عنهﷺ لمقاصدهم السيّئة. وفيها قال له الرسول الأكرمﷺ: «خلّفتك لما تركت ورائي، فارجع فإن المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي، أما ترضىٰ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إنّه لا نبي بعدي؟». انظر: التفسير الكاشف ٤: ٤٣، فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣، ١٤، بعدة طرق، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، ١٢١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٢/ ٣٨٠٨، ٣٠٤/ ٣٨١٣ ـ ٣٨١٤.

﴿وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1] يكتب أحد المفسرين أربعين صفحة عن النملة وعن اسمها وصفاتها وجنسها. وهكذا غيره ممن يشرح أشياء غريبة ويلصقها بالقرآن.

ومن أراد أن يطلع أكثر على هذه الأُمور فليرجع إلى تفسير الطنطاوي وليقرأها بنفسه، ومن هذا قوله: إن من الاستدلال على وجود الله تعالى الاستدلال بالركوع؛ لأن الراكع حينما يركع يرَ الأرض، وحينما يرفع رأسه منه يرَ السماء، ومعنى هذا أن المصلي سيفكر بأن وراء الأرض والسماء إلهاً وهو الله. وهذا في الحقيقة تفسير غريب ورأي أغرب؛ لأن الإنسان يستطيع أن يرى السماء والأرض في كل الأحوال وليس فقط في حالة الركوع انحناء وقياماً.

وهذه الآراء موجودة حتى عندنا نحن الشيعة فأنت تجد من يفسر لك ﴿كهيعص﴾[2] بأن الكاف كربلاء والهاء هلاك العترة والعين عطش الحسين﵇ وهكذا. وهذه الآراء موجودة عند بعض المفسّرين، وهي في حقيقتها بعيدة عن روح القرآن؛ لأن القرآن عطاء ضخم لا يأتي بمثل هذه المحاولات البسيطة التي لا تعدو أن تكون من تهيؤات امرأة تغزل بمغزلها. وهذا اللون من التفسير لا يُقبل بأي حال؛ لأنه لا يعدو أن يكون من شطحات الصوفية. وكمثال آخر تجد من يفسّر ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾[3] بقوله: ذل من الذل وذي يعني النفس ويشفَ من الشفاء، والعين في قوله تعالىٰ: ﴿يَشْفَعُ﴾ من الوعي، وهكذا. فيكون المعنى من ذلّ نفسه يشفَ من الأمراض

---

(١) النمل: ١٨. (٢) مريم: ١.
(٣) البقرة: ٢٥٥.

النفسية، فافهموا وعوا[١].

وهذا كلام غريب لا يقبل بحال ولا يؤخذ تفسيراً للقرآن الكـريم. كـان الأصمعي في طريقه إلىٰ البصرة، وكان معه شخص يضمر له عدواة، فأراد أن ينتقم منه فقال له: أخبرني عن قوله تعالىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾[٢]، ما المراد بقوله: ﴿قُـوا﴾؟ قال: هو فعل أمر من الوقاية. قال: فكيف يكـون للمثنىٰ؟ قال: قيا. قال: فللمفرد؟ قال: قِ. قال فلجمع الإناث؟ قال: قين. قال فاجمعها في جـملة. فـقال الأصـمعي: قِ، قـيا، قـوا، قـين. فـقال له الملّاحون: يابن اللخناء تقرأ القرآن بحروف الدجاج؟ ثمّ راحـوا يـضربونه حتىٰ أغرقوه في النهر. وفي الواقع هناك الكثير من هذه الأنماط الغريبة من التفاسير، مع أن المفروض بنا أن نجعل القرآن أسمى من هذه المسـتويات. صحيح أن القرآن فيه تفسير كل شيء لكن ليس بالشكل الذي يرسمه البعض الذين يحاولون أن يصوروا القرآن على أنه حاوٍ لكل شيء كما يمليه عـليه ذوقه.

المبحث السادس: التخلّق بروح القرآن

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الهدى: مـن الهـدايـة؛ لأن مسيرة الإنسانية كلها عثرات، فكل إنسان يتعثر في دربه وفي سلوكه وفـي أخلاقه؛ فكان لابد أن يكون هناك من يأخذ بيد الإنسانية ويـجنبها العـثار ويدلها على مكارم الأخلاق والروح العالية. فالإنسان العادي بحكم طبيعته وتركيبته حينما يساء إليه فإن حقده سيدفعه إلى الانتقام ممن أساء إليه لكن

(١) مجمع البيان ١: ١٩.
(٢) التحريم: ٦.

القرآن يقول له: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[١].

وهذا المضمون قد جسده الرسول الأكرم‏ﷺ عبر سيرته العطرة وحياته الشريفة. يقول أحد أصحاب رسول الله‏ﷺ ممن شهد معه حنيناً: إني والله لأسير إلى جنب رسول الله‏ﷺ على ناقة لي، وفي رجلي نعل لي غليظة، إذ زحمت ناقتي ناقة رسول الله‏ﷺ، ووقع حرف نعلي على ساق رسول الله‏ﷺ، فأوجعه، قال: فقرع قدمي في السوط، وقال: **«أوجعتني؛ فأخر عني»**. قال: فانصرفت، فلمّا كان من الغد إذا رسول الله‏ﷺ يلتمسني، فقلت: هذا والله لما كنت أصبت من رجل رسول الله‏ﷺ بالأمس، قال: فجئته وأنا أتوقّع أن يوبّخني، فقال لي: **«إنك قد كنت أصبت رجلي أمسِ بنعلك فأوجعتني، فقرعت قدمك بالسوط، فدعوتك لأعوّضك»**. قال: فأعطاني رسول الله‏ﷺ ثمانين نعجة بالضربة التي ضربني[٢].

والقارئ حينما يقرأ السيرة العطرة للرسول الأكرم‏ﷺ يلمس فيها هذا الخلق السامي والشعور النبيل واضحين على كل حرف من حروفها، فالخلق النبوي العالي يجسد لنا بحق كل تعاليم القرآن.

فالقرآن الكريم يريد أن يأخذ بأيدينا إلى جادة مقابلة الإساءة بالإحسان، ويعلمنا أن في الحياة شيئاً من الأريحية وشيئاً من العفو، وأن فيها جانباً مهماً جداً هو جانب الخلق.

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) مكارم الأخلاق (ابن أبي الدنيا): ١٢٣ / ٤٠٨، تاريخ الطبري ٢: ٣٦٠، البداية والنهاية ٤: ٤٠٧.

فـ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ تعني أن رحمة القرآن تعكس رحمة اللّه . يقول الرسول الأكرمﷺ : **«إن لله مئة رحمة؛ أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها ، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»**[1] .

وقد قرأت مرة مقولة لأعرابي أعجبتني كثيراً ذلك أنه حضرته الوفاة فراح أهله ينوحون عليه ، فقال لهم : لماذا تبكون؟ قالوا : لأنك ستموت . قال : والذي يموت ، أين يذهب؟ قالوا : إلى الله . فقال : من يذهب إلى الله فلا خوف عليه ، فلا تبكوا . أي أن هذا الموطن برأيه موطنُ فرح لا ترح؛ لأنه سيفد على كريم . وسينتقل إلى مصدر الرحمة والعطاء والخير والامتنان . يقول أحد الشعراء :

ربِّ روحي طليقة في مناجا ... تك والجسم مصْفَدٌ مكبولُ
بَعُدَ الفرق بين روحي وجسمي ... جسدي آثمٌ وروحي بتولُ
وأنا السائل الملحّ ويجلو ... وحشة الذلّ أنك المسؤولُ

فهو يخاطب الله تعالى ويناجيه بقوله : أنا لا أشعر بوحشة الذل حينما أسألك؛ لأنك أنت المسؤول وإن كنت سائلاً ملحّاً . وكذلك هذا الأعرابي يقول لهم : لا تبكوا علي ، بل افرحوا لأني سأفد على الله . وألمّ بهذا المعنى شاعر الطف عندما أخذ يخاطب أمير المؤمنينعليه السلام قوله :

أبا حسنٍ يهنيك ما أصبحوا به ... وإن كان للقتلى تقام المآتمُ
لأورثتهم مجداً وما كان حبوة ... ولكن نصباً في بنيك المكارمُ

---

(١) الغارات ١ : ٢٤٠ ، الطرائف : ٣٢٢ ، مسند أحمد ٣ : ٥٦ ، صحيح مسلم ٨ : ٩٦ .

فالواقع أن هذا الجانب الذي ينقله هو جانب مهم، لكن هذا لا ينفي جانب اللوعة في الحدث ولا ينافيه؛ فهذه الثلة الطاهرة في الوقت الذي افترعت به المجد افتراعاً سقطت على الأرض تخضب صعيد الطف بدم الشباب .. خضبوا التربة الطاهرة بدماء آل محمد ﷺ وأنصارهم .. الدماء التي غمرت الثرى في كربلاء .. الدم الذي سال كل مسيل .. الدم الذي يشير إليه أيضاً أحد شعراء الطفّ وهو الكوّاز حيث يقول:

خضبوا وما شابوا وكان خضابُهم ... بدم من الأوداجِ لا الحنّاءِ

ومغسّلين ولا مياهَ لهم سوى ... عبراتِ ثكلى حَرّةِ الأحشاءِ

أصواتُها بُحّت فهن نوائح ... يندبن قتلاهن بالإيماءِ(١)

(١) ديوان الشيخ صالح الكواز / العلويات / القصيدة الأُولى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ومنها:

تلك الوجوهُ المشرقاتُ كأنها الـ ... أقمارُ تسبحُ في غديرِ دماءِ

رقدوا وما مرّت بهم سِنةُ الكرى ... وغفت جفونهُمُ بلا إغفاءِ

متوسّدين من الصعيدِ صخورَه ... متمهّدين خشونةَ الحصباءِ

مدّثّرين بكربلا سلب القنا ... مزّمّلين على الرّبى بدماءِ

أطفالُهم بلغوا الحلومَ بقربهم ... شوقاً من الهيجاءِ لا الحسناءِ

ومغسّلين ولا مياهَ لهم سوى ... عبراتِ ثكلى حَرّةِ الأحشاءِ

﴿ ١١٦ ﴾

المسجد الحرام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: ضرورة الارتباط بمهد الدعوة

إن مَهمّة فكرة الحجّ من وجهة نظر الإسلام أساساً أنها ترتبط بعملية وصل المسلمين وربطهم مع بعضهم بمهد الدعوة. فلقد اختطّ الإسلام جملة من المشاعر كانت مهمتها ووظيفتها هي أن يجتمع المسلمون حولها فيوحدوا مشاعرهم تجاه مكان ليس هناك مكان آخر يقاربه منزلة أو هو أعظم منه، وهو مكة المكرمة. والإنسان تارة يعيش الفكرة ضمن مشاعره وتارة يقف عليها وقوفاً ميدانياً أشبه ما يكون بوقوف المتفرّج. والوقوف الميداني

---

(١) الحجّ: ٢٥.

لا يهدف إليه الإسلام ولا يريد للمسلمين أن يكونوا عليه أو تحت طائلته، بل إنه يريد منهم أن يعيشوا الفكرة بكل أبعادها وأهدافها ضمن مشاعرهم وأحاسيسهم وقلوبهم. وهذه هي وظيفة الحجّ، تلك الشعيرة التي تستهدف كل مسلم لتهذبه ولتعود به إلى مهد الدعوة التي انطلقت منه كلمة **«لا إله إلّا اللّه، محمد رسول الله»**، المهد الذي انطلق منه صوت بلال وارتفعت منه دعوة التوحيد.

وهذه المنطقة بالذات يعتبر الوقوف عليها أمراً يشد المسلم إلى ذلك المهد الأوّل.. مكة المكرمة التي هي في الواقع الأُم الروحية لكل مسلم حيث إنه يأوي إليها ويزورها ويشد الرحال إليها؛ لأنها كما قلنا منبع صوت الحق وصوت التوحيد الذي استهدف أن يسبك المسلمين في قناة واحدة هي بوتقة الإيمان. وهذا الهدف هو هدف كبير جداً استهدف من ورائه المشرع أن يجعل كل مسلم مشدوداً بقناة إيمانية إلى هذه البقعة المباركة.

ومن بعد هذا البيان أودّ أن أُشير إلى أنه يلاحظ على أهمّ سمة من سمات هذه الآية الكريمة أنها جاءت بمضمون يدور حول الكعبة الشريفة. وهي بذلك تتضمّن مجموعة من الأبحاث أعرض لها تباعاً إن شاء اللّه:

المبحث الثاني: كيف يعقّ الإنسان إنسانيته

فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشير إلى أن كفار مكة أُناس عقّوا إنسانيتهم وأساؤوا إلى فطرتهم، بمعنى أنهم بتصرفهم هذا لا يسيئون إلى الله عزّ وجلّ بل إنما يسيئون لفطرتهم وإنسانيتهم؛ لأن هذا الكافر في واقع أمره لا يضير كفره الإسلام بشيء، فهو بكفره لن يزيل السماء عن مكانها ولن يزحزح الأرض ويخرجها عن مدارها، ولن يغير نظام الكون ولن يوجِد فيه

أي اختلاف. إن شيئاً من هذا لا يمكن أن يحدث أبداً، وكل ما في الأمر أن هذا الكافر إنما يزري بعقله وفكره ومشاعره؛ لأن الإنسان الذي ليس لديه عقل يقوده إلى العلة الأُولى يكون بطبيعة الحال هو والبهيمة على حد سواء؛ إذ أن من المفروض بالعقل أن يكون دليلاً ومرشداً يقود الإنسان إلى الاعتراف بوجود الله تعالى ويوصله إلى الإقرار بوحدانيته.

فالإنسان حينما منحه الله تعالى العقل فإن من المفروض عليه أن يستخدمه في عملية التفكير بالكون ومنه إلى التفكير بالمكوِّن، وبعبارة أُخرى يوصله إلى حالة الانتقال من الأثر إلى المؤثّر. فإذا كفر الإنسان بهذه المقوّمات فهذا يعني أنه كفر بفطرته؛ لأن الإنسان يولد وتولد معه فطرته وهي إقراره بالعلة الأُولى.

إن علماء الاجتماع يتنازعون حول الطفل لحظة ولادته وقبل أن يتفاعل مع المجتمع ويدرك الجزئيات، فإنك حينما تعطيه شيئاً ثم تحاول أن تأخذه منه فإنه سيبكي ويمتنع عن التنازل عنه؛ وهذا يدل على وجود غريزة مولودة معه، أي أنه يولد معه شيء آخر وهو العلة الأُولى أو ما يسمى بقانون السببية الذي يتصرف على ضوئه في كل جزئيات حياته. فبمجرد أن تعطيه لعبة فإنه يسألك عن المصدر الذي جئت بها منه، وحينما تقول له: اشتريتها أو استعرتها فإنه سيسكت عن السؤال؛ لأنه يدرك أن هذه اللعبة لم تأتِ من لا شيء، بل إن لها سبباً هو الذي أوجدها، فهو يولد ويولد معه الإحساس بوجود العلّة الأُولى وبقانون السببيّة.

إذن فالإنسان بفطرته يؤمن أن هناك سبباً ومسبباً، وعندما يكفر بوجود الله تعالى فإنما يكفر بفطرته، أي بشعوره الذي يولد معه وبإنسانيته. والقرآن

الكريم ينعى على هؤلاء كفرهم بفطرتهم وبإنسانيتهم.

المبحث الثالث: معنى الصدّ عن ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأقسامه

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فهؤلاء كفروا بفطرتهم أوّلاً، ثم صدّوا عن ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ثانياً. والمقصود بـ ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هنا أمور:

الأوّل: منع المسلمين من الوصول إلى البيت الحرام

فالمقصود به هنا هو منعهم عام الحديبية قبل الصلح من الوصول إلى بيت الله الحرام؛ حيث وقفوا دونهم والبيت.

الثاني: منعهم المسلمين الأوائل من الالتحاق بالرسول ﷺ

وبعد ذلك قاموا بمنع الرواد المسلمين الأوائل من الالتحاق بالرسول الأكرم ﷺ. وهم بهذا لم يكتفوا بأن منعوهم عن الحجّ، وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فصدّوهم عن سبيل الله تعالى والولوج في دينه والالتحاق بنبيه ﷺ. ومن هذا نعرف السبب الذي من أجله كان العبء الأكبر على عواتق المسلمين الأوائل ومنهم خباب بن الأرتّ﵁ الذي جاؤوا به إلى الصحراء ورفعوا ظهره عن مستوى الرمل ووضعوا حطباً تحت ظهره وأوقدوه حتى أطفأ ودك ظهره النار، وهم يقولون له قل: أشهد أن اللّات والعزّى حق. فيقول: فرد أحد، لم يلد ولم يولد. وبقي على هذا الموقف لم يتزعزع عنه.

ومنهم بلال الحبشي﵁ وهو مؤذن الرسول ومؤذن المسلمين، وكان من أمره أن أميّة بن خلف كان يخرجه إلى الصحراء ويضعه على صخرة حارّة، ويسلّط عليه السياط حتى يرتفع لحمه معها، ويطلب منه أن يكفر، فيقول: أحد أحد.

ومن هؤلاء أيضاً عمار بن ياسر وأبواه ياسر وسمية (رضوان الله عليهم)،

الذين أسلموا وتعرضوا لأشد أنواع العذاب فكان أن استشهد ياسر وسمية تحت وطأة التعذيب والقسوة في سبيل العقيدة والمبدأ.

وهكذا كان حال كل الأوائل من المسلمين الذين عرضوا لمثل هذا، فلم يهنوا ولم يركنوا إلى الذين كفروا.. تحملوا كل ذلك بما كانوا عليه من صلابة؛ لأنهم يشعرون أن هذا العبء ملقى على عواتقهم ولا بد من أن يقوموا به. ولذا حاربهم المشركون ومنعوهم من الالتحاق بالرسول الأكرمﷺ.

الثالث: الصد عن الإيمان بالمشاعر

وهذه الآية فيها إطلاق كما يقول علماء الأُصول، ومتعلّق هذا الإطلاق متعدّد، وأحد أقسامه هو الصدّ عن الإيمان بهذه المشاعر. وذلك كأن يقول أحد لشخص يريد الحجّ: إنك إنما تبذل هذه الأموال الطائلة وتقطع آلاف الأميال وتتحمل الألم والمشقة من أجل أن تذهب لتلتمس حجراً، فهل عندك قدر من التعقل وأنت تفعل هذا؟ إن هذا هو منهج الإلحاد الذي يبتني على التشكيك عبر طرح أسبابه لإبعاد المسلمين عن عقائدهم وعباداتهم التي من جملتها الحج.

أقسام التكاليف الشرعية

فهؤلاء يقولون: إن ما تقصدونه في الحج ماهو إلّا مجموعة من الأحجار يطوف الإنسان حولها، وهو لا يعي ما يفعل دون أن يرجع إلى عقله ويفكر في المبرر الواقعي لهذا الفعل. ويرد على هذا أن التكاليف الشرعية نوعان:

النوع الأوّل: التكاليف التي فيها مساحة للعقل

إن هذا القسم من التكاليف يترك فيه مجال للعقل أن يتحكم به، ومثاله الزكاة فإن الله تعالى حينما أمرنا بإخراج الزكاة وأدائها فإننا نعرف أنه تعالى

إنما أمرنا بها تحقيقاً لمبدأ إعادة توزيع الثروة وتضخّمها؛ وذلك للقضاء على حالة سوء التوزيع التي تتخم العالم، فلا يبقى هناك جانب متخوم وجانب محروم، وتتحقق العدالة بإعادة التوزيع هذه والقضاء على وجود كل مظاهر الفقر والفاقة والحاجة. وبعنوان آخر إن الإسلام لا يريد أن يبقى هناك بائس أبداً. وهذه المعدة التي قد تسبب مشاكل للمجتمع على المجتمع المتخم أن يشبعها ويسد حاجتها كيلا يسمح لها أن تتحول إلى عنصر إثارة قد تؤدي إلى خلق المشاكل له.

ومثال تلك الأحكام أيضاً الصوم، فنحن نعرف مثلاً أن الهدف من الصوم هو تنظيم أمر الجسم وخلق إرادة قوية عند الإنسان وأن يشعر بالتساوي ما بينه وبين المسلمين كافة باشتراكهم في ساعات الصوم والجوع، وذلك لحظة انتظار كل مسلم غروب الشمس حيث تمتد الأيدي إلى السماء وهي تدعو وتنتظر الإفطار. فهنا يوجد أيضاً مساحة للعقل ولتحكيم قوانينه.

النوع الثاني: التكاليف التي ليس فيها مساحة للعقل

وهناك تكاليف لم يترك فيها أي مجال للعقل ليحكم بها، والسبب في هذا أن الله تعالى أراد أن يتعبد العقول ويخاطبها ليبين لها بأنها لا يمكن أن تدرك أسرار كل شيء. وفي هذا إشارة إلى أن العقل يجب ألّا يطغى ولا تطغيه حالاته التي هو فيها وما خصّ به من تقدير؛ لأن العقل إذا طغى على ربه فمعنى هذا أن العقل قد أصبح رباً.

إذن فالعقل ينبغي أن يقف عند حد معين لا يتجاوزه، وليس له أن يتحكم، بل عليه أن يذعن بما تعبده المولى به ويشعر صاحبه بضرورة الطاعة للّه تعالىٰ، ويغرس عنده حب الامتثال والانقياد. وذلك مثل التقاط الحصى

ورجم الشيطان به، فمثل هذا العمل لا يملك العقل أن يتدخل فيه بل عليه أن يقر بما تعبده الله تعالى به.

وما ورد في آية المقام هو أحد المجالات التي يريد الله عزّ وجلّ أن يعوّدنا فيها على النظام وعلى التعبد وعلى تسيير العقل. وهناك كثير من العبادات التي تدخل في هذا المعنى: معنى سحب العقل إلى ساحة التعبد. وفي مثل هذه الحالة فإننا عندما نلتمس الحجر أو نرجم الشيطان فإنما نمتثل لأمر الله. هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى إنه ورد أن الحجر يحشر ويشهد لمن التمسه[1].

وحتى مع غير ذلك فإن الله جل وعلا هو سيد الموجودات والمتصرف فيها، فحينما يأمرنا فإن علينا أن نقف امتثالاً لأمره. فالمسألة إذن هي مسألة امتثال أوامر السماء وليست مسألة حجر ملموس، فعلينا أن نمتثل للآمر الذي بعثنا ودعانا إلى اللمس وهو الله تعالى.

وفي واقع الأمر أن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم ملحدين ويهزؤون بمن يلتمس الحجر والشعائر أو غير ذلك من الشعائر عندما يرجع أحدنا إليهم فإنه سيجد عندهم نوع أُلوهية داخل أنفسهم وإن كانوا هم لا يعبرون عنها كذلك. فحتى أشدّ الفرق إلحاداً في الدنيا لا يمكن أن تخلو في قرارة نفسها من وجه من وجوه الإحساس بحالة من حالات العبادة. ولو فرضنا أن شخصاً يعبد المادة فتسأله: هل لك أن تفسر لنا هذا الكون وكيف نشأ؟ فإنه سيجيبك بأنه خلق وفق قوانين ووفق مادة لم تستحدث ولن تفنى. ولو سألته ثانية: هل إن هذه المادة لها صفة عقلية أم هي جامدة؟ لأجابك بأنها ذات صفة عقلية؛

(١) شرح الأزهار ٢: ١٠٧، الدر المنثور ١: ١٣٥.

لأنها إن كانت جامدة فهذا غير معقول؛ لأن الجامد لا يصدر عنه هذا الإنتاج الضخم، وإن كانت عاقلة كانت هي الله تبارك وتعالى، ويتحول النزاع حينها إلى ما يسمى بالنزاع اللفظي.

فالملحد هذا في قرارة نفسه يؤمن بوجود محرك أوجد كل هذا الكون ويؤمن بضرورة العبادة، غير أنه يترك عباداته حتى لا يقال عنه: إن هذا تمسّك بما يتمسّك به الرجعيون مثلاً. فهو يريد أن يعطي نفسه لوناً من الحداثة، وإلّا فإنه في قرارة نفسه يملك قيماً وأخلاقيات وتوجهاً للعبادة أو قيمة من القيم الاجتماعية أو قانوناً من القوانين العلمية، وهذه كلها آثار المبدع الخالق تبارك وتعالى.

إذن فهؤلاء يصدون عن سبيل الله تعالى بواسطة غرس الشك في نفسية المسلم بما يقوم به من شعائر وعبادات.

المبحث الرابع: سبب التسمية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ و إنما سمي مسجداً حراماً لأنه يحرم أن يفعل فيه القبيح، وهو مشتق من الحرمة. وأُلفت نظرك هنا لنقطة مهمة وهي أن الله تعالى لا يعاقب الإنسان على نواياه، وذلك منصوص عليه في الفقه الإسلامي، و إنما يعاقب المتلبس بها والذي يمارس الفعل واقعاً. فإذا نوى شخص أن يسرق دون أن ينفذ السرقة فإنه لن يعاقب على نيته، نعم يعاقب عليها فيما إذا وجد متلبساً بالسرقة أو قام الدليل على أنه قد فعلها.

هذا في غير مكة المكرمة أما فيها فإن الأمر يختلف، ذلك أن جماعة كبيرة من الفقهاء يذكرون أن من نوى فيها شراً يحاسب على نيته وإن لم

يخرجها إلى الواقع؛ لأن مكة بلد حرام لها من الحرمة والمكانة ما ليس لغيرها من البلاد. فكل من قرّ في نفسه لون من السوء عاقبه الله تعالى عليه على هذا الرأي؛ ومن هنا جاءت تسميتها بالبلد الحرام، كما أنها من جهة أُخرى أُمنا العقيدية؛ كونها منبع الرسالة ومهدها.

فالأُم المادية يعطيها الإسلام لوناً من الحصانة أو يعطيها سياجاً يحمي مكانتها من أن تتعرض للاعتداء، فما بالك بالأُم الروحية العقيدية؟ فالقرآن الكريم حينما يعطي الأُم المادية تلك المنزلة ويجعل الجنة تحت أقدامها، فإنه حتماً سيعطي الأُم الروحية قدراً أكبر من المكانة والاحترام والقداسة؛ لما هي عليه من سيادة الإنسان المسلم وجعله بالكيفية التي تدفعه لاحترام أُمه المادية. يروى أن الإسكندر كان يحترم معلّمه أكثر من احترامه لأبيه، فقيل له: لماذا؟ فقال ما حاصله: لأن أبي أخرجني جسداً من دم ولحم، وهذا ليس وجوداً مشرّفاً لأنني أُشارك فيه حتى الحشرات، كما أنه أخرجني إلى عالم الظلمة والفساد، أما المعلّم فقد أخرجني من عالم الظلمة إلى عالم النور، وأنشأني فكراً، والإنسان إنما يكون إنساناً بفكره لا بدمه ولحمه.

فالمعلم أخرجني من كون الجهل إلى كون النور ومن ظلام الجهل إلى نور العلم والعطاء والفكر، فهذا أولى أن أحترمه؛ وهو أحق بالاحترام من أبي المادي.

إذن فمكة هي أُمنا التي أخرجتنا من الإلحاد والضلال والشرك إلى عالم النور والإيمان والهداية؛ حيث ارتفع منها صوت «لا إله إلّا الله». فهي من هذه الناحية أجدر باحترام الأُم التي ولدتنا، وعليه فالإساءة فيها تصل إلى حد

الفظاعة؛ بحيث إنها تعد أكبر من الإساءة إلى الأم المادية.

والغريب أن بعض مؤرخينا حينما يمرون بمن أساؤوا إلى مكة تجدهم يقفون منهم موقفاً إيجابياً في غاية البرودة، أي أنك لا تجد ذلك الحماس الذي ينبغي أن يكون عندما تتعرض مكّة إلى الاعتداء.. الحماس في إعطاء هؤلاء ما يستحقون وإعطاء مكة ما تستحق من الدفاع عنها. وإلّا فإن الشخص الذي يأمر بأن توجّه المنجنيقات إلى مكة وهدمها وإحراقها وهدر حرمتها، ويصل الأمر حد إخراج عبد الله بن الزبير وابن ذات النطاقين وصلْبه فيها وجعْل دمائه تسيل عليها[1] هل يمكن بحال من الأحوال أن يسمى أمير المؤمنين؟

إن هناك في تاريخنا الكثير من المفارقات التي يصعب عدم التوقف عندها أو المرور بها مرور الكرام، ونحن لسنا بحاجة إلى جانب الكم من التاريخ بقدر ما نحن بحاجة إلى جانب الكيف فيه، وهذا بعيد عن كتبنا التاريخية ومن كتبها.

إذن من هذا نستطيع أن نفهم تسمية مكة المكرمة بالبيت الحرام، فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنه يريد أن ينبّه إلى هذا المعنى.

---

(١) انظر: التاريخ الكبير ٣: ٤ / ١٢، سنن ابن ماجة ١: ٦٢٣ / ١٩٣٦، تاريخ الطبري ٥: ٣٠، وقد ضعّف السند، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥١ – ٢٥٢، ٢٦٦، الأخبار الطوال: ٣١٤، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٨٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٤٨ / ١٣٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٧٤، فتح الباري ٨: ٢٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٤ / ٣٨٨، ١٨٧ / ٣٣٨، ١٠: ١٤١ / ٢٩٧، ١١: ٣١٦ / ٦٠٠، ينابيع المودّة ٣: ٣٦، الكامل في التاريخ ٢: ١٣٥ / ٣، البداية والنهاية ٨: ٣٦٣، سبل الهدى والرشاد ٦: ٢١٤.

المبحث الخامس: أحكام التملك في البيت الحرام

ثم قال تعالىٰ : ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، وهذا المقطع الشريف فيه معركة بين الفقهاء، فحينما نرجع إلى الفقه الإسلامي نجد أن فقهاء المذاهب الإسلامية كافّة ينقسمون علىٰ رأيين حوله:

الرأي الأوّل: أن المقصود مكة المكرمة كلّها

فهؤلاء يقولون: إن هذه الآية تتناول مكة بأكملها على أنها بلد حرام فهي حرام لجميع الناس سواء كانوا عاكفين أو بادين. فجميع الحرم هو للناس سواء، ويرتبون على ذلك حكماً مؤداه أن جميع بيوت الحرم لا تملك ولا تباع ولا تشرى ولا تؤجر، ومن حقّ من يرد مكّة أن يدخل في أي بيت من بيوتها وليس لساكن البيت أن يمنعه، بل إن عليه أن يضيفه؛ لأن هذه الدار من ضمن الدور المشمولة في الآية. وعلى هذا الرأي بعض الفقهاء كعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس وسفيان الثوري ومجاهد وجملة من علماء الإمامية.

ووفق هذا الرأي تكون ملكيّة هذه البيوت ملكية مسلوبة، فقوله تعالىٰ : ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ يحتم هذا المعنى، أما إذا كان هنالك ملكية فإن هذه الدور لم تصبح سواء أبداً، وهو خلاف تصريح القرآن الكريم. فالذي يملك والذي لا يملك ليسا سواء.

ففرض المسألة هنا على هذا الرأي هو أن تلغى الملكية والكراء. وسنبين لاحقاً إن شاء الله تعالىٰ ، السر في ذهاب هؤلاء إلى هذا الرأي.

الرأي الثاني: أن المقصود به المسجد الحرام فقط وأدلّته

وعلى هذا الرأي فإنه ليس لابن مكة الحق في أن يحرم البادي من

الصلاة بالمسجد أو الطواف فيه، بل كلهم سواء في هذه الناحية وليست هنالك أولوية لأحد على أحد البتة. ومعنى هذا أن الناس متساوون في إقامة الشعائر والعبادات، أما أرض مكة وبيوتها فإنها تملك وتباع وتشترى ويحق كرايتها.

ويستدلون على هذا بأمور، منها:

الأوّل: قوله تعالىٰ: ﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾

فاللّه تعالىٰ يقول: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[1]، وهو تعالىٰ أضاف هنا الديار إلى المسلمين الذين أخرجتهم قريش، ولو لم يكونوا يملكونها لما صحّت هذه الإضافة.

الثاني: قوله ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟»

فالرسول الأكرم ﷺ حينما دخل مكة عام الفتح قال له أصحابه: أين تنزل يارسول اللّه؟ فقال ﷺ: **«وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟»**[2].

ذلك أن عقيلاً باع كل منازلهم، مما يدل على أنهم كانوا يملكونها، ولذا عبّر عنها بلسان الملكية.

الثالث: شراء عمر داراً للسجن فيها

إذ أن هؤلاء يستندون إلىٰ ما يروى من أن عمر بن الخطاب اشترى بها داراً بأربعة آلاف درهم، وجعلها سجناً[3].

وهذه الأدلّة صريحة في أن بيوت مكة تقع ضمن دائرة الملكية الفردية.

---

(١) الحجّ: ٤٠.

(٢) صحيح مسلم ٤: ١٠٨، فتح الباري ٣: ٣٦٠.

(٣) تلخيص الحبير ٨: ٢٣٢، السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ٣٤، عون المعبود ٨: ١٧٨.

منشا الرأيين

وهذا الرأيان نشأا من اختلاف الآراء حول فتح مكّة ، وهل أنـها فـتحت عنوة أم أنها فتحت صلحاً، أي أن الرسول الأكرمﷺ استولى عليها وصالح أهلها على البقاء بها؛ والمؤرخون هنا قسمان: قسم يذهب إلى أنـها فـتحت عنوة بدليل أن الرسول الأكرمﷺ قتل بعض الناس حـينما فـتحها، وأمـر بملاحقة البعض حتى لو كانوا متعلّقين في أهم الأمكنة. فهذا دليلهم على أنها فتحت عنوة.

وقسم يذهب إلى أنها فتحت صلحاً وبقيت على هذا. وهذا الرأي يذهب إليه الشافعي والحسن وجملة من الفقهاء من الإمامية[١] وغـير الإمـامية[٢]. ومعنى هذا أن ديار مكة تملك ويحق لمالكها أن يتصرف بها.

وهذا الرأي هو السائد الذي عليه العمل الآن، وعليه يكون المراد من الآية أن الناس سواء داخل الحرم؛ فلا يحق لأحد من داخل المسجد أن يمنع أحداً من خارجه من الصـلاة فـيه أو الطـواف فـي أي وقت مـن الأوقـات؛ لأن المفروض أن المساجد لله تعالى والناس عباد الله تعالى ومكّـة حـرمه وأُم البلدان، والأُم الروحية للمسلمين، والمهد الأول للدين الحنيف. فعلى ضوء هذه الامتيازات التي خصّت بها مكة المكرّمة كان لابدّ من التسوية فيها بين المسلمين.

والمقصود من التسوية بينهم هو احترام آدميتهم وإسلامهم وعقائدهم، وألّا

---

(١) جامع المقاصد ٤: ٩٧.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذّب ٧: ١١٥، ٤٦٦، ٩: ٢٤٨، فتح الوهـاب ٢: ٣٠٦، مغني المحتاج ٤: ٢٣٦.

يتطفل البعض فيرقى المنابر في مكة ويوحي للناس بأنه يحمل راية **«لا إله إلّا اللّه»**، وهو في حقيقته لا يحمل في داخله إلّا الحقد والكراهية لأتباع راية **«لا إله إلّا اللّه، محمد رسول الله»**. ونحن ببالغ الأسف مصيبتنا ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد عبده ـ هي أن الإسلام يؤخذ على أنه المذاهب الإسلامية عينها والمسلمون ينظرون إلى هذا المذهب أو ذاك على أنه دين اللّه تعالى مع أن هناك فرقاً بين الإسلام وبين المذاهب الإسلامية؛ لأن المذهب غير مقصود لذاته بل المفروض أنه طريق مؤدّية إلى الشرع. فالمذهب ليس غاية وإنما هو وسيلة وطريق تؤدّي إلى الوحدة لا إلى تمزّق المسلمين؛ فتكون المذاهب روافد متعدّدة تؤدّي إلى غرض واحد هو الإسلام.

فالفقيه ليست له وظيفة غير نقل الحكم الشرعي بعد بيان دليله، ونحن يجب ألّا نعبد الفقهاء، وعليه فإذا كان رأي الفقيه يخالف الخطوط العامة للدين فعلينا ألّا نأخذ به. وبالمناسبة أذكر هنا موقفاً لأحد المسلمين مع أمير المؤمنين﵇ حيث إنه﵇ كان خارجاً من المسجد فرآه خارجه، فسأله عن سبب تخلّفه عن الجماعة، فقال له: أنا لا أبايعك، ولا أخرج معك لقتال، ولا أجتمع معك في جمعة أو جماعة. فقال له أمير المؤمنين﵇: **«وأنا لا أكرهك، ولا أمنع عنك عطاءك ما دام المسلمون منك في أمان»**(١).

وهذا نابع من كون الهدف من طاعة الفرد للإمام هو حفظ النظام، فإذا كان المسلمون في أمان من شخص ما ولم يكن يشكل خطراً على مصالحهم أو

---

(١) مرّ هذا ولم نعثر عليه، وذكرنا هناك أن قريباً منه ما في (الإصابة) في ترجمة سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب. انظر: الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤، وج١ ص٢٠٠ من كتابنا هذا.

مصالح دينهم فليس للإمام أن يعاقبه وإن لم يخرج معه. فتأمل هذه النفس الكبيرة التي اتصف بهاﷺ، أو بالأحرى هذا الفهم المعمق لطبيعة الإدارة والحاكم والمحكوم. فالمسألة ليست شخصية أبداً.

على أية حال نحن لا نعبد شخصيات مطلقاً بل نعبد الله تعالى عن طريق المذهب الذي تعبّدنا الله تعالى به. فعبادة الله تعالى هي الغاية، والمذهب وسيلة يوصلنا إلى تلك الغاية. والله تعالى غداً يسائلنا عن اتّباعنا دينه لا عن اتّباعنا مذهباً من المذاهب. غاية ما في الأمر أن البعض يرى أن الطريق إلى دين الله تعالى يكون عبر هذا المذهب، والبعض الآخر يرى أنه يكون عن طريق مذهب غيره وهكذا، لكن المفروض أن الأمر لا يتعدى هذا ويصل إلى حدّ تأليه الشخصيات وجعل المذاهب ديناً. هنالك حادثة ذكرتها كثيراً، وهي ـ كما يرويها الخطيب البغدادي ـ أن الإمام علي بن أبي طالبؑ حين توجّه إلى الشام، وبعد أن وصل إلى المدائن قال جرير بن سهم التميمي (شاعر الإمامؑ وأحد أصحابه):

عفت الرياح على رسوم ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعادِ

وإذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوماً يصير إلى بلى ونفادِ

فقال له الإمامؑ: **«أفلا قلت: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾[1]؟ أي أن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين، إن هؤلاء كفروا النعم فحلت بهم النقم». ثم قال: «إياكم وكفر النعم ـ ثلاثاً ـ فتحلّ بكم النقم».**

---

(١) الدخان: ٢٨.

ثم نزل وقال: «هيّئوا لي ماء أصبّ عليّ». فهيؤوا له ماء، فدخل فإذا صور في الحائط، قال: «كأن هذه كانت كنيسة؟». قالوا: نعم كان يشرك بالله فيها كثيراً. فقال: «وكان يذكر فيها الله كثيراً»[1].

فهو ﵇ يبين لهذا القائل: أنها أيضاً كانت يعبد الله تعالى فيها؛ فالمسلم يعبده تعالىٰ عن طريق المسجد، وذاك المسيحي يبحث عن الله تعالى ويعبده عن طريق الكنيسة. فهو ﵇ يطلب منه أن يكون أُفقه واسعاً وأكبر مما هو عليه كي يستطيع أن يرى الأشياء على حقيقتها.

ويتساءل أحد الكتّاب فيقول: كيف لهذه الصحراء أن تخرج مثل هذا النتاج؟ يقصد به أمير المؤمنين ﵇ حيث إنه يتمتع بأُفق غريب لا يقف عند حد.

على أية حال فإن المفروض بنا حينما نتبع مذهباً من المذاهب ألّا نجعل المذهب هدفاً لنا، و إنما ينبغي ألّا نعطيه أكثر من صفة الوسيلة التي توصلنا إلىٰ أحكام الإسلام وتشريعاته. وإذا كان الأمر كذلك فينبغي إذن أن نعبر الحواجز إلى اللباب، وألّا نقف دونه متمسّكين بالقشور التي تبعدنا عن الإسلام وحقائقه.

أُمنية

أعود للموضوع، فقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ يأمرنا بعدم التفريق بين أهل مكة ومن هم خارجها فلا يمنع ذاك هذا عن الصلاة في المسجد والطواف فيه. وهذا الذي نتمناه ونتوق إليه وتصبو النفس

---

(١) تاريخ بغداد ٩: ٢١١ / ٤٧٩٠.

إلى تحققّه، لكن الهم الإسلامي الغالب على هؤلاء لم يجد من يقدره؛ لأن من يبذل أمواله وجهده ويجيء إلى مكة حاملاً على كاهله عبء ثمانين سنة لأداء المناسك التي فرضها الله تعالى عليه لا بدّ من أن ينال تقديره واحترامه اللائقين به؛ لأنه إنما جاء لله وفي طاعة الله. وهذا يجب أن يقدر لا أن يتّخذ أمر الاختلاف معه في الرأي وسيلة وذريعة لتكفيره ومحاربته ووصمه بسمة الانحراف أو لصق لقب من الألقاب التي لا يقرها الإسلام به.

إذن الهم الإسلامي والحس الإسلامي الواعيان هما اللذان ينبغي أن يكونا طاغيين في تلك اللحظات، وينبغي على المسلم أن يتصرف حينها على ضوء ذلك فيحترم المكان الذي جمع فيه ﷺ المسلمين، ويراعي حرمة المكان الذي كان ولازال منطلق الوحدة بين المسلمين. فيجب ألّا تمحى عنه صفة أنه منطلق الوحدة، ولا يحول إلى مكان للنفرة والتباغض بين المسلمين.

المبحث السادس: في معنى الإلحاد في الآية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ومعنى الإلحاد هنا هو الميل، يقال: ألحد أي مال وانحرف عن الصواب[1]. فما المقصود به هنا؟ هنالك عدة آراء للمفسرين في هذا المورد نذكر منها:

الرأي الأوّل: أنه الشرك

فالمشرك بطبيعة الحال يعرض نفسه إلى عذاب أليم نتيجة ما اقترفه في حق نفسه وحق ربه. والشرك نوعان: فتارة يشرك الإنسان بربه ثم يتحداه بشركه ويبارزه المعصية، وتارة يشرك بالله في قرارة نفسه لكنه ظاهراً مع

(١) العين ٣: ١٨٢ ـ لحد.

المسلمين يظهر الإسلام ويتعبد معهم في مساجدهم ويقول: «**لا إله إلّا اللّه، محمد رسول الله**». ومثل هذا لا يضر المسلمين أمره مادام لم يستغلّ حالته تلك ضدّهم لصالح عدوهم كأن يتجسس عليهم له، أو يقوم بمحاولة تفتيت الجبهة الداخلية بما يبث من دعايات وإشاعات. فإن لم يكن كذلك فلا شأن للمسلمين به بل يترك هو وربه، وكذلك يجب ألّا يبارز الله تعالى بالمعصية. إن البعض من هؤلاء يحاول أن يتحدى مشاعر أُمّة بأكملها في سبيل تحقيق رغباته أو رغبات أعداء الإسلام.

الرأي الثاني: أنه دخول مكة بدون إحرام

وهذا الرأي عليه جملة من الفقهاء والمفسرين، وكأن الآية ـ على ضوء هذا التفسير ـ ترد على من يقول: لماذا لابدّ من دخول مكة بالإحرام؟ إن مثل هذا المتسائل ينكر هذه الشعيرة الواجب الاعتقاد بها؛ وهو بهذا يكون كافراً، أما إذا كان الامتناع عن الإحرام تهاوناً في أمره وليس إنكاراً لوجوده وحقيقته فصاحبه يعد عاصياً، والعاصي يعزر ويعاقب. فالبعض يحمل هذه الفكرة؛ ولذا فإن أصحاب هذا الرأي يؤكّدون على أن الآية واردة في مقام ذمّ من يدخل مكّة بدون إحرام.

الرأي الثالث: أنه طواف المشركين بمكة عراة

وهنا يمكن أن يكون في الآية إشارة لمعنى آخر وهو ذم من يطوف بمكة عارياً، فقد ورث بعض العرب هذه الصفة الذميمة من عادات الجاهلية وبقوا عليها، فكانوا يطوفون بالبيت عراة بحجة أنهم يتقرّبون إلى اللّه بهذا. فالعاري يطوف وليس على بدنه ثوب فيه شبهة؛ لأنهم كانوا يرون أن هذه الثياب التي يرتدونها إنما كانت عليهم حين ارتكابهم المعاصي، أي أنها ملوّثة بالذنوب،

ولكي يتخلّصوا من هذه الحالة كان عليهم التجرّد منها، كيلا يواجهوا اللّه تعالى بثوب ارتكبت فيه المعصية[1].

فهم يتصورون أن عملهم هذا صحيح، مع أن الحقيقة خلاف هذا؛ لأن الله عزّ وجلّ تعبدنا بالظاهر فقال لنا: إن هذا الثوب طاهر وهذا المكان طاهر فالبس هذا الثوب ولا تشكّ في طهارته. وهذه المسألة تنسحب على كثير من العبادات، ذلك أن البعض ممّن يريد أن يتوضأ مثلاً تجده يعاني من مسائل الشك فيظل يتساءل: هل وصل الماء إلى تمام البشرة؟ وهكذا تراه يعيد الغسل بعد الغسل. مع أنه يدرك أن الله تعالى أكبر من هذا؛ ولذا فإنه يجب علينا أن نسكب الماء كما أمرنا الله؛ ذلك أنه تعالى تعبّدنا بهذا الفرض الظاهر، فليس من مسؤوليّتنا أن ننظر فيما إذا كان الماء قد وصل إلى قرارة كلّ شعرة أم لا.

أو أن يقول قائل: هل يجب أن أُخرج الضاد من مخرجها عندما أقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[2] أم لا؟ يروي المحدّثون أن رسول اللهﷺ كان في غزاة، فأشرفوا على وادٍ، فجعل الناس يهلّلون ويكبّرون ويرفعون أصواتهم، فقالﷺ: **«أيها الناس أربعوا على أنفسكم، أما إنكم لا**

---

(١) كانت ضباعة بنت عامر بن قرط تطوف بالبيت وهي عريانة، وتقول: من يعيرني تطوافاً؟ ثم تنشد:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه ... وما بدا منه فلا أُحلّه

فنزلت هذه الآية: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف: ٣١. انظر الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٨٩.

(٢) الفاتحة: ٧.

تدعون أصمّ ولا غائباً، وإنما تدعون سميعاً قريباً معكم»[١].

فهو ﷺ يقول لهم: تجاوزوا هذه الشكليات واجعلوا الروح هي التي تتحكم بكم لا الشكليات مطلقاً وفي كل حال، مع أن الشكليات قد تكون مطلوبة نوعاً ما في بعض الأحيان لكن على ألّا تصل إلى درجة الهوس.

إذن البعض يقول: لماذا أدخل إلى مكة محرماً بملابس فيها شبهة حرام؟ فيكون جواب القرآن هو: اترك عنك هذه الوساوس، ودع عنك هذا الشك وتعبد الله تعالى بالظاهر، الله تعالى الذي أمرك أن تأكل من الحلال وأن تلبس هذا الثوب من حلال، وهذا يكفي.

الرأي الرابع: أنه الصيد داخل الحرم

فهذه المنطقة أراد لها الله عزّ وجلّ أن تكون آمنة، أي يأمن فيها كل حي، فحتى الشجر لا يجوز قطعه فيها. والغرض من هذا هو أن يعوّد الله تعالى المسلمين فيها على مشاعر إسلامية تقوم على احترام الدم داخل البلد الحرام؛ لأن هؤلاء كانوا يعيشون على الدم وفيه إلى أنوفهم، بل أكثر من هذا أن أحدهم إذا شرب الماء ولم تكن فيه رائحة الدم فإنه يراه شراباً ليس فيه بطولة. ودونك نصوصهم الشعرية التي تؤكد هذا المعنى:

وما يريدُ بنو الأقيالِ من رجلٍ ... بالنبلِ مشتملٍ بالجمرِ مكتحلِ
لا يشربُ الماءَ إلّا من قليبِ دمٍ ... ولا ينامُ له جارٌ على وجلِ

وهذا اللون من الاستهتار بالدم وعدم حفظه وعدم إعطائه أية حرمة

---

(١) بحار الأنوار ٩: ٣٤٣، مسند أحمد ٤: ٣٩٤، ٤٠٣، ٤٠٧، ٤١٨، صحيح البخاري ٤: ١٦، ٧٥، ١٢٦، ٧: ١٦٢، ١٦٩، ٢١٣، ٨: ١٦٨.

عندهم؛ بحيث إن الأعراض كانت تهتك والدماء تسفك والأموال تنتهب، هذا اللون أراد الإسلام أن يغيره فوضع لهم هذه الشعيرة في مكّة، وأمرهم باحترام الدم حتى إذا كان دم بعوضة.

إن هذه المحاولة هي ترويض للطباع الجانحة على احترام الدم، وغرس السلام داخل نفوسهم حتى يترعرع فيها وينبع منها. وليس في هذا الترويض أي سلب أو هدر لرجولتهم أبداً، فرجولتهم محفوظة لكن سفك الدم في غير مكانه لا يريده الإسلام بحال. وهذا هو الذي يعبّر عنه القرآن فيقول: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

المبحث السابع: دواعي الثورة الحسينية

وهذا المعنى المارّ في المبحث السابق هو الذي حتم على الحسين عليه السلام أن يخرج من مكة؛ لأنه عليه السلام عندما دخل إليها وطاف مع الناس أعلن على رؤوسهم أنه في طريقه إلى التضحية: «**خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني عن أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً[1]. لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أجور الصابرين. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله**»[2].

وبمجرد أن خرج من الكعبة سأله عبد الله بن مطيع وجماعة: يابن رسول

---

(١) السغب: الجوع. مختار الصحاح: ١٦١ ـ سغب.

(٢) كشف الغمّة ٢: ٢٣٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٣٨، مثير الأحزان: ٢٩، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦.

الله، لِمَ تخرج من مكّة الآن، وبينك وبين الحجّ سويعات؟ فقال﴿عليه السلام﴾: **«لو لم أُعجّل لأخذت»**(١). وقال: **«إن أبي حدّثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما أُحبّ أن أكون ذلك الكبش»**(٢).

فهو﴿عليه السلام﴾ يبيّن له أنه لا يريد أن تهتك حرمة مكّة بسببه أو أن تنتهك قدسية هذا البيت الطاهر بقتله فيه، وأنه﴿عليه السلام﴾ يريد أن يحافظ على حرمة الكعبة في مشاعر الناس؛ ذلك أن هؤلاء لا مانع عندهم من أن يقتلوه داخل الكعبة وإن كان متعلقاً بأستارها؛ لأن الدم لا حرمة له عندهم وحفظ كرامة الناس غير واردة في منهجهم. وبالفعل فإن هذا هو الذي حدث في أكثر من مورد؛ ففي واقعة الحرة وصلت الدماء إلىٰ قبر الرسول﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وفي مكة المكرمة كذلك. ولذلك أراد الحسين﴿عليه السلام﴾ أن يرسخ فكرة احترام الكعبة في أذهان المسلمين ويعمق نظرية الحفاظ على كرامتها وقدسيتها وطهارتها.

إن الحسين﴿عليه السلام﴾ ضرب لنا بهذا المثلَ الساميَ الذي يجب أن يحتذى في إعظام شعائر الله تعالى واحترام قدسيّتها. ولما كان الحسين﴿عليه السلام﴾ بهذا المستوى من التفكير الرسالي السامي أراد الله تعالى أن يكافئه على ذلك بأن جعل له بيتاً محترماً في قلوب الناس وفي نفوسهم، ومشهداً يؤمه الملايين من المسلمين للزيارة والدعاء واستذكار الواقعة والهدف السامي الذي قامت من أجله. وفعلاً فإن الله تعالى جعل له هذا البيت؛ لأن الله تعالى هو رب الوفاء ورب الكرم والعطاء:

---

(١) مثير الأحزان: ٢٨.

(٢) شجرة طوبى ١: ١٢٥، تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩، البداية والنهاية ٨: ١٧٩، مقتل الحسين﴿عليه السلام﴾ (أبو مخنف): ٦٦.

إن تهاوى الضريحُ والجدرانُ ما تهاوى الشموخ والعنفوانُ
إنما تهدم الحجارة والمضـ ـمون يبقى مع المدى ويُصانُ

فالمسألة إذن ليست أحجاراً تشيد على الأرض، و إنما هي مكانة ومكان له وضعهما اللّه تعالىٰ في مشاعر الناس وقلوبهم، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليه، يقول أحد الأُدباء:

لا تطلبوا قبر الحسيـ ـن بشرق أرض أو بغربِ
ودعوا الجميع وعرّجوا نحوي فمشهده بقلبي

نعم هو في مشاعر الناس وقلوبهم؛ لأنه حمل كل هموم الناس وقتل من أجل أن يدافع عنها وعنهم.. حمل آلام المجتمع ومعاناته وقتل من أجلها، فأعطاه الله عزّ وجلّ مكانة في مشاعر الناس وجعل ضريحه مهوى تلك المشاعر، تطوف الأفئدة حوله وتقف على هذا الثرى الذي جسد موقفاً هو من أروع المواقف التي يمكن أن يمر بها التاريخ فيقف عندها ليتحدث عنها. إن الزائر لا يقف على الثرى و إنما يقف على هذا الموقف الذي جسده الحسينعليه السلام، فهو ثرى مشبع بالمواقف الرجولية النبيلة التي احتضنت كل مشاعر الإنسان وأقامت الدين وأنقذته من الضياع. إنه تراب مشبع بالبطولات، وصعيد أُريقت عليه دماء زاكيات وهي تدافع عن المبدأ والعقيدة:

فدمُ أرَقتَ كأنه من جِدَّةٍ للآن يعبِقُ بالثَّرىٰ ويُخضِّبُ
وتركتَ للأجيالِ حِينَ يَلُزُّهَا عَنَتُ السُّرىٰ ويَضيقُ عنها المهرَبُ
جُثَثَ الضَّحَايَا من بنيكَ تُريهُمْ أنَّ الحقُوقَ بمثلِ ذلكَ تطلَبُ

إذن نحن لا نطوف على تراب ولا على عظام، و إنما نطوف على دم طاهر

وصوت يسمع وهو ينبعث من التراب: **«والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرُّ فرار العبيد»**(١). وأول من طاف على هذه الشاكلة حول قبر الحسين عليه السلام هم عائلته الشريفة وذلك عندما رجعت من السبي ولاحت لها أعلام كربلاء، فقالت زينب (سلام الله عليها): يابن أخي قل للدليل فليعرّج بنا علىٰ كربلاء. فعرّج الدليل بهم، وما كادت تلوح لها قبور أهليها وأنصارهم حتىٰ نزلت من علىٰ ظهر الناقة، وأقبلت من ورائها مسبيّات الطفّ، يدفقن دفّاً إلىٰ قبر الحسين عليه السلام وما إن وصلته حتىٰ احتضنته:

واعيونك يبو السجّاد ... لون يمّك يخلّوني
أحط راسي علىٰ كبرك ... وارشّه بدمعة عيوني
واكضي العمر كلّه اهناك ... واكلهم للـيلوموني
شلّي بالعمر بعدك ... شنهو عيشتي بليّاك

* * *

يا نازلين بكربلا هل عندكم ... خبر بقتلانا وما أعلامُها
ما حالُ جثةِ ميتٍ في أرضِكم ... بقيت ثلاثاً لا يزار مقامُها
باللهِ هل واريتموها في الثرى ... وهل استقرّت في اللحودِ رمامُها(٢)

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها: أقرّ إقرار.
(٢) وفيات الأئمة: ١٦٧.

﴿١١٧﴾

دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأوّل: علاقة النص القرآني مع البيئة التي ينزل فيها

مما يجدر ذكره والتنويه إليه أن قضية تفسير كتاب اللّه جلّ وعلا هي قضية مشكلة؛ ذلك أن إناطة تفسير بعض النصوص القرآنية بالإنسان يعدّ عملاً غير علمي وغير منهجي فيما إذا كان ممّن لا يملك إلماماً بوضع الجزيرة العربية قبل الإسلام. والسبب في ذلك أن الآيات الكريمة عادة تكون مرتبطة بالبيئة التي تنزل فيها، وبالخصوص منطقة شبه الجزيرة العربية التي كانت تميّزها خصوصيّاتها في مجال الميراث العقيدي والاجتماعي وغيرهما، إضافة إلىٰ أنها كانت مسكناً لليهود الذين كانوا يمسكون بالجانب العلمي

---

(١) الشعراء: ١٩٧ ـ ١٩٩.

وفق المستوىٰ السائد آنذاك باعتبارهم أهل كتاب وعندهم التوراة. وكانوا يعدّون ممّن اختصّوا بمعرفة التاريخ والحوادث التاريخية.

وبهذا كانوا يعدّون أهم مرجع في هذا المجال، بحيث إن أي أحد من سكان الجزيرة العربية كان إذا عرضت له مشكلة يلجأ إليهم مستفسراً منهم عن حلّها.

وهذا الأمر بقي حتىٰ نهاية القرن الأوّل من التاريخ الإسلامي تقريباً، وكمثال علىٰ هذا كعب الأحبار الذي بقي متمسّكاً بهذا، وقد سأل أحدهم في مجلس عثمان: هل يجب علىٰ من دفع زكاة أمواله في حول أن يدفعها ثانياً في حول ثانٍ؟ فتسرّع كعب وقال: لا؟ وكان أبو ذر جالساً فرفع عصاه وضرب بها رأس كعب وقال له: يابن اليهودية، من الذي جرّأك علىٰ الفتيا في ديننا[1]؟

وموضع الشاهد هنا أن هؤلاء كانوا يأخذون بأزمّة الأُمور العلميّة حتّىٰ في عصر صدر الإسلام وما بعده.

القرآن يوظف معرفة اليهود لإثبات النبوّة

وقد وظف القرآن الكريم هذه الظاهرة، كيف؟ أمر العرب بالرجوع إليهم كونهم ممّن يعتقدون بنزول القرآن من السماء، فأراد القرآن الكريم إلزام العرب عن هذا الطريق، فهو يقول لهم: إذا كان هؤلاء مرجعكم الذي ترجعون إليه فاسألوهم عن القرآن: كيف نزل؟ ومن أين نزل؟ وهل نزل من اللّه أم

---

(١) بحار الأنوار ٣١: ٢٧٢، نقلاً عن تاريخ الثقفي، الفتنة ووقعة الجمل: ٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ١٩٧ ـ ١٩٨، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٤١٧، ٤١٨، سير أعلام النبلاء ٢: ٦٨.

لا؟ لقد كان لهؤلاء بصمات واضحة علىٰ تاريخنا وفقهائنا، وهي بصمات مرّة؛ لأنهم نقلوا ما عندهم من سلبيات وأفكار منحلّة ورواسب مزيّفة محرّفة في أذهانهم وسكبوها في تاريخنا وعقائدنا وفي تفاسيرنا.

وهناك جملة من المراجع الإسلامية قد تأثّرت بالفكر الإسرائيلي تأثراً بالغاً وصل إلىٰ الحدّ الذي ينبغي معه علىٰ العلماء التحرك نحو غربلة هذا التراث وتسليط الأضواء عليه لتنقيته من هذه الشوائب والمظاهر. ودعني أضرب لك مثلاً من هذه الإسرائيليات التي غرست في فكرنا ومؤلفاتنا عبر اليهود الذين أسلموا وانضووا تحت راية المذاهب الإسلامية، وكان هؤلاء يتدخلون في موضوع العقائد والأحكام والتاريخ، ومن هذا ما يرويه مسلم[١] والبخاري[٢] في صحيحيهما من أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت، وإني لا أراها إلّا الفأر، إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وضع لها ألبان الشاه شربت»**. والأُمّة: الجماعة من الناس، قال تعالىٰ: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**﴾[٣].

ثمّ يعقّب النووي علىٰ هذه الرواية فيقول: «معنى هذا أن لحوم الإبل وألبانها حرّمت على بني إسرائيل دون لحوم الغنم وألبانها؛ فدلّ بامتناع الفأرة من لبن الإبل دون الغنم على أنها مسخ من بني إسرائيل»[٤].

وأنا لا أدري فيما إذا كان هذا قد ساءل عقله: هل إن الفار مكلّف حتىٰ

---

(١) صحيح مسلم ٨: ٢٢٦. (٢) صحيح البخاري ٤: ٩٨.

(٣) آل عمران: ١٠٤.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٨: ١٢٤، فهل الممسوخ مطيع للّه؟ ولو كان مطيعاً للّه فكيف مسخه؟ فكيف يمتنع إذن عن لحوم الإبل وألبانها طاعةً للّه من عصى اللّه فمسخه فأراً؟ هذا فضلاً عن مسألة التكليف التي أوردها المحاضر.

يحرم عليه شرب لبن الإبل ؟ إن هذه الرواية وأمثالها من الروايات تدفعنا إلىٰ الدعوة إلىٰ تنظيف تراثنا وفكرنا من هذه الإسرائيليات، وهذا اللون من الإسفاف.

ومثال آخر ما يروىٰ عن زيد بن أسلم أن النبي نوحاً عليه السلام لما سلك في السفينة من كل زوجين اثنين شكا له أصحابه الفأرة، فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله تعالى إليه أن امسح جبهة الأسد فمسحها فخرج منه سنّوران ذكر وأنثى، فأكلا الفار إلّا ما أراد الله أن يبقى منه، فاختبأت الفأرة منهما. ثم تأذّوا بأذى أهل السفينة، فشكا النبي نوح عليه السلام ذلك إلى اللّه، فأوحى الله إليه أن امسح ذنب الفيل، فمسحه فخرج منه خنزيران، فأكلا الفضلات[1].

البخاري والإمام الصادق عليه السلام

فهذا الذي لا تطاوعه نفسه أن يروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أو أحدٍ من الأيمّة من ولده، بل ويأبىٰ ذلك، نراه يروي أمثال هذه الروايات التي يصفها بعض الأُدباء بقوله:

قـضية أشـبهُ بـالمرزئهْ ... هـذا البـخاريّ إمـام الفـئهْ
بالصادقِ الصديقِ ما احتجّ في ... صـحيحه واحـتجّ بـالمرجـئهْ
ومـثل عـمرانَ بـنِ حـطانَ أو ... مـروان وابـن المـرأة المـخطئهْ
مشكـلةٌ ذاتُ عُـوارٍ إلى ... حـيرةِ أربـابِ النـهى ملجئهْ
وحـقّ بـيت يـمّمته الورى ... مـغذّةً فـي السيرِ أو مـبطئهْ

(١) الدر المنثور ٣: ٣٣١، وفي الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٧ عن ابن عباس.

إن الإمامَ الصادقَ المجتبى ... بفضلِهِ الآيُ أتت منبئهْ
أجلّ من في عصره رتبةً ... لم يقترف في عمره سيّئهْ
قلامة من ظفرِ إبهامِه ... تعدلُ من مثلِ البخاريْ مئهْ[1]

وإلّا فإن هذا الكتاب الذي يُنظر إليه علىٰ أنه أصحّ كتاب بعد كتاب اللّه تعالىٰ ـ بحيث إنه وصل بهم الأمر إلىٰ القول بأن من روىٰ عنه البخاري جاز

---

(١) النصائح الكافية : ١١٩. قال ابن أبي عقيل قبلها : «وإليك بعض ما ذكروا عنه ، أي الإمام الصادق عليه السلام :

قال في (تهذيب التهذيب): «سئل يحيى بن سعيد القطان عن جعفر الصادق فقال : في نفسي منه شيء ، ومجالد أحبّ إلي منه. وقيل لأبي بكر بن عيّاش : مالك لم تسمع من جعفر وقد أدركته؟ قال : سألته عما يحدث به من الأحاديث : أشيء سمعته؟ قال : «لا ، ولكنها رواية رويناها عن آبائنا». وقال ابن سعد : كان جعفر كثير الحديث ولا يحتجّ به ، ويستضعف؛ سئل مرة : هل سمعت هذه الأحاديث عن أبيك؟ قال : «نعم». وسئل مرة ، فقال : «إنما وجدتها في كتبه»...» .

ثم قال ـ يعني ابن حجر ـ : «يحتمل أن يكون السؤالان وقعا عن أحاديث مختلفة ، فذكر فيما سمعه أنه سمعه وفيما لم يسمعه أنه وجده. وهذا يدلّ على تثبّته ...» . تهذيب التهذيب ٢ : ٨٨ ـ ٨٩ / ٥٦.

قلت : احتجّ الستّة في صحاحهم بجعفر الصادق إلّا البخاري ، فكأنه اغترّ بما بلغه عن ابن سعد وابن عياش وابن القطان في حقّه ، على أنه احتجّ بمن قدمنا ذكرهم ، وهنا يتحيّر العاقل ولا ندري بماذا يُعتذر عن البخاري».

ثم نقل الأبيات الآنفة ثم قال : «إن ما أصاب أهل البيت النبوي وشيعتهم أساسه وأصله معاوية الطاغية ، وما بثّه ونشره وأيّده بقوّة السيف من سبّ علي وأهل بيته ، وانتقاصهم. ووبال ذلك كلّه عائد عليه في الآخرة .. ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ﴾ آل عمران : ٣٠». انتهى كلام ابن أبي عقيل .

وليعلم أن البخاري في صحيحه ٢ : ٤ / باب العيدين والتجمّل فيهما ، يروي بسند فيه عبد الله بن أبي سرح الذي أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بقتله مع جماعة ولو كانوا متعلّقين بأستار الكعبة ، كما سيأتي ذلك في ذكر جملة من أحواله في محاضرة (النصرة والقرابة).

القنطرة[١] وصل بهم سابقاً أنهم إذا نزل الطاعون في بلد فإنهم لا يقرؤون القرآن، بل يقرؤون (صحيح البخاري) حتىٰ يذهب عنهم البلاء والداء[٢] ـ والذي يحظىٰ بهذه الأهمية والاعتبار نجده يروي مثل هذه الرواية. في السنة الماضية[٣] وقف أحد المحدّثين وقال: إنما لم يروِ البخاري عن الصادق لأنه لم يجد طريقاً صحيحاً إليه، مع أن الوشاء يقول: دخلت مسجد الكوفة فوجدت أربعة آلاف شيخ في حلقات درسهم كلّاً يقول: حدثني جعفر بن محمّد الصادق[٤]، فهل ليس من هؤلاء الأربعة آلاف شيخ ثقة ينقل عنه البخاري ويصحّح طريقه إلىٰ الإمام الصادق﴿ع﴾، لكن أن يخرج فأر من عطسة فيل يعتبر طريقها صحيحاً؟

والمأساة تكمن هنا، وهي ليست علىٰ مستوىٰ قضيتنا نحن كشيعة، بل علىٰ مستوىٰ الإسلام كلّه، وإلّا فإن المستشرق حينما يأتي ليدرس ديننا، ثمّ يسأل عن أهمّ كتاب عند المسلمين تؤخذ منه الأحكام فيرشد إلىٰ (صحيح البخاري)، فما هو الحال الذي سيكون عليه تصوّره وانطباعه عن هذا الدين؟ فهل هذه هي المضامين الصحيحة؟

شيخ البخاري: الرسول صلّىٰ إلىٰ قبيلة عنزة

أحد شيوخ البخاري وهو محمّد بن مثنىٰ العنزي يقول ـ كما ينقل عنه في

---

(١) انظر: إرشاد الساري ١: ٢١، هدي الساري: ٣٨١.

(٢) قواعد التحديث (القاسمي): ٢٤١.

(٣) تاريخ هذه المحاضرة هو الحادي عشر من صفر عام إحدى وعشرين وأربعمئة وألف هجريّة (على مهاجرها أفضل الصلاة وأتمّ التحيّة).

(٤) رجال النجاشي: ٤٠ / ٨٠، وفيه: تسعمئة شيخ.

ترجمته ـ : نحن قوم لنا منزلة وكرامة. فقالوا له: كيف؟ قال: إن رسول الله ﷺ قد صلّىٰ إلينا[١].

لكن أتدري ما هي القصة؟ إن القصّة تكمن في أن رسول الله ﷺ كان يخرج أحياناً إلىٰ المقابر يقرأ لهم الفاتحة وشيئاً من القرآن، وكان ﷺ أحياناً يرغب في الصلاة هناك، وبما أن الصلاة بين القبور مكروهة، فلذا كان ﷺ يضع عنزة ـ أي عصا[٢] ـ بينه وبين القبر الذي يصلّي إليه كحاجز عرفي، ثمّ يصلّي[٣]. فكان أن تصوّر هذا الشيخ أن الرواية حينما تقول: صلىٰ إلىٰ عنزة فإنما تقصد قبيلته.

وهذه فعلاً مأساة، وإلّا فأنت حينما ترجع إلىٰ تراثنا الإسلامي وتجده يأتي عن مثل هذا الطرق أو عبر هذه المضامين فإنك ستشعر بالأسىٰ والألم والمرارة، بل ويبعث علىٰ الألم، لأن من يمتنع عن الرواية عن أهل البيت عليهم السلام فإنما يمتنع عن الرواية عن عِدل الكتاب وآل بيت النبي ﷺ الذين يعبّر عنهم أبو العلاء بقوله:

أحدُ الخمسةِ الذين هُمُ الأشـ ـباحُ في كلِّ منطقٍ والمعاني[٤]

رجع

فعلماء بني إسرائيل الذي يحفظون الكثير من هذه الروايات قاموا بدسّها في تراثنا، وهؤلاء ورواياتهم حقائق ثابتة لا يمكن إنكارها أو نفي وجودها،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢: ١٢٥، وادعىٰ أنه قالها مازحاً.

(٢) العين ١: ٣٥٦ ـ عنز.

(٣) مسند أحمد ٤: ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، صحيح البخاري ١: ١٢٧، ٤: ١٧٥.

(٤) ديوان سقط الزند: ٩٤.

لكن الأدهىٰ والأمرّ أنهم قلبوا الأمر ضد الشيعة فقاموا باختراع شخصية وهمية ادعوا أن اسمها عبد اللّه بن سبأ فاخترعوا له وبه ما اخترعوا، ثمّ نسبوا المذهب الشيعي له، وجعلوا كل العقائد الشيعية يهودية المنشأ والأصل لأن عندهم عبد اللّه بن سبأ. وهذا من أعجب العجب، فمن في علمائه ورواته أكثر من عشرين يهودياً لا يعدّ فكره وعقائده يهودية أما نحن فمن فرية شخص واحد يهودي جعلت كل عقائد الشيعة يهودية.

وعلىٰ أي حال فإن القرآن يصف هؤلاء بأنهم علماء؛ لأن لهم أثارة من علم، فهم يتوفّرون علىٰ جنبة علمية نسبية استقوها من التوراة. وهذا إن دلّ علىٰ شيءٍ فإنما يدلّ علىٰ أن الإسلام لا يبخس أحداً حقّه أبداً، ولذا وصفهم بما وصفهم من العلم.

نبل الإسلام مع أهل الكتاب

ثمّ إنه لم يكتف بذلك بل عطف عليهم وتعاطف معهم، ومن ذلك أن المسلمين كانوا يسألون الرسول الأكرم ﷺ حول إعطاء أهل الكتاب من المحتاجين والمعوزين، فكان الرسول ﷺ يأمر بأن يعطوا من الصدقات المستحبة فقط، أمّا والواجبة فلا يجوز إعطاؤهم منها. وهذا رأي أيّمتنا وعلمائنا قاطبة، وهذا هو رأي القرآن الكريم: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إلَيْهِمْ﴾**[١]. وهذا موقف في غاية النبل والمروءة. وممّا يروى في هذا الصدد أن الشريفين المرتضى والرضي كانا يقودان حركة علمية في بغداد، وكانت تعد من أكبر

---

(١) الممتحنة: ٨.

الحركات العلمية المعروفة آنذاك. وكان من أمرهما أن الشيخ المفيد رأى في منامه كأن فاطمة بنت رسول الله ﷺ دخلت عليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها ولداها الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين، فسلّمتهما إليه وقالت له: علّمهما الفقه. فانتبه متعجّباً من ذلك، فلما تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت عليه المسجد فاطمة بنت الناصر وحولها جواريها وبين يديها ابناها محمد الرضي وعلي المرتضى وهما صغيران، فقام إليها وسلم عليها، فقالت له: أيها الشيخ، هذان ولداي قد أحضرتهما لتعلّمهما الفقه. فبكى أبو عبد الله وقال: هذا تأويل رؤياي، ثم قص عليها المنام، وتولّى تعليمهما الفقه وأنعم الله عليهما، وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا، وهو باقٍ ما بقي الدهر[1]، وكان هذا ببركة الزهراء عليها السلام.

المهم أن المرتضىٰ رحمه الله أصبح يقود بعد ذلك أكبر حركة علميّة وأضخم معهد علمي وديني آنذاك، وكان من أبناء هذه المدرسة وروّادها الأوائل الشيخ الطوسي رحمه الله، فكان يأخذ عطاءه اثني عشر ديناراً ذهباً، وكذلك من أبنائها القاضي ابن البرّاج وكان يتقاضىٰ راتباً شهرياً مقداره ثمانية دنانير ذهبية، وهكذا كل من فيها من الطلاب. وفوق هذا وضع لهم في المدرسة مخزناً يؤمّه الطلاب كلما احتاجوا لشيء من الأطعمة والوقود وأدوات الكتابة وغيرها، وكان أمين المخزن يتولىٰ تلبية حاجاتهم وتوفيرها لهم. وكان هناك بعض اليهود المعوزين الذين انتحلوا صفة طالب العلم كي يحصلوا علىٰ هذا العطاء

---

(١) الدرجات الرفيعة: ٤٥٩، لسان الميزان ٤: ٢٢٣، شرح نهج البلاغة ١: ٤١.

الضخم ـ وفق حسابات تلك الفترة ـ غير أن الشريف المرتضىٰ﵀ لم يفرقهم عن الآخرين مع علمه بحقيقة حالهم، فأمضىٰ جرايتهم اليومية أو الشهرية واستمرّ معهم إلىٰ أن أسلم بعضهم.

فالواقع أن الإسلام أظهر تعاطفاً واضحاً معهم ولم ينظر إلىٰ غير الحربيين منهم نظرة تدلّ علىٰ احتقارهم أو ازدرائهم، بل علىٰ العكس كان ينظر إليهم نظرة رحمة وعطف وتودّد حتىٰ استطاع بهذا أن يكسب بعضهم إلىٰ الإسلام، مع أن هذا كان علىٰ عكس موقفهم من ديننا حيث حاولوا جهدهم تضليل الناس عبر دسّ الكثير من عقائدهم الفاسدة في عقائدنا وكتبنا، وكان موقفهم سلبياً إزاء هذا؛ ولذلك تجد أن المستشرقين قد تأثروا بالأقلام الحاقدة علىٰ الطائفة الإمامية، وكتبوا عنها كتابات غير صحيحة. وهذا كما قلنا ناشئ عن تأثرهم ببعض الكتاب الحاقدين الذين كتبوا عنّا بدوافع من الحقد الأعمىٰ.

فقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: أليس في هذا دليل علىٰ أن القرآن الكريم هو من اللّه؟ وفيه إشارة إلىٰ أنهم يجب أن يطمئنوا إلىٰ هذه الحقيقة؛ لأنهم لمّا كانوا يرجعون إليهم في قضاياهم ومسائلهم، ويطمئنّون إليهم في إجاباتهم، فليرجعوا إليهم في هذه المسألة أيضاً؛ فهم أعلم بحقيقة أن القرآن هو كتاب اللّه تعالىٰ المنزّل؛ لأنهم قد شهدوا بهذا[1].

المبحث الثاني: لماذا لم ينزل القرآن علىٰ أعجمي؟

ثمّ قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾، والمقصود بالأعجمي:

---

(١) وهو ما صرّح به تعالىبقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آل عمران: ٧١.

غير العربي، سواء كان كردياً أو إيرانياً فارسياً أو تركياً أو غير ذلك[١]. وإنما عبّر عنهم القرآن بـ﴿الأعْجَمِينَ﴾ لأنهم لا يعربون كلامهم، أي ليس لهم القدرة علىٰ الإفصاح والإعراب عن معاني القرآن بلغتهم. وكلّ من لا يستطيع أن يعبّر عن مقاصده فهو أعجمي وإن كان عربياً[٢].

تداعيات حكم النبي سليمان عليه السلام في قضية الزرع

وأحبّ أن أشير لك إلىٰ مسألة نصّ عليها القرآن الكريم في بعض قصصه التي ساقها لنا، فقد قال تعالىٰ: **﴿وَداوُدَ وَسُلَيْمانَ إذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾**[٣]، والنفش هو أن تعيث الحيوانات في الزرع فساداً ليلاً[٤]، فإن كان ليلاً أو نهاراً فهو همل[٥].

والآية الكريمة تشير إلىٰ حادثة وقعت زمن نبي اللّه داود عليه السلام؛ فقد جاء اثنان فادعىٰ أحدهما أن غنم الآخر قد عاثت في زرعه فساداً في الليل، وأتلفته، وكان كرماً، وقد بدت عناقيده، فحكم نبي اللّه داود عليه السلام بالغنم لصاحب الكرم، فقال النبي سليمان عليه السلام: **«غير هذا يا نبي الله»**. قال: **«وماذا؟»**. قال: **«يُدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدُفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا عاد الكرم كما كان دفع كل واحد منهما إلى صاحبه ماله»**[٦].

---

(١) مجمع البيان ٧: ٣٥٤، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ١٣٨.

(٢) لسان العرب ١٢: ٣٨٦ ـ عجم. (٣) الأنبياء: ٧٨.

(٤) ترتيب إصلاح المنطق: ٣٨٥ ـ نفش. (٥) تهذيب إصلاح المنطق: ٤١١ ـ همل.

(٦) التبيان ٧: ٢٦٧، مجمع البيان ٧: ١٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٣٠٧، تفسير القرآن العظيم ٣: ١٩٥.

فنزلت الآية الكريمة: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ...﴾[١].

رأي العلماء في حكم النبي سليمان

وهنا نطرح سؤالاً: هل كان هذا اجتهاداً أم لا؟ وهل نسخ هذا الحكم أم لا؟ وهل هو بداء أم لا؟ أنا لا أريد أن أدخل في هذه المتاهة[٢]، لكن سأعرض لك آراء المذاهب الإسلامية في حكم الضمان هنا:

أولاً: رأي الإمامية

إن علماء الطائفة الحقّة يرون أن صاحب الأغنام إذا كان قد أهمل غنمه فهو ضامن للزرع، وإلّا فلا ضمان عليه[٣].

ثانياً: رأي الشافعية

أما الشوافع فيرون أن صاحب الغنم لا يضمن إن كانت الغنم قد عاثت في الزرع نهاراً؛ لأن من شأن الناس أنهم يكونون موجودين في أماكن عملهم وزراعتهم وقت النهار، وهم مسؤولون عن حمايتها حينها، وعليه فلو وقع ذلك لم يضمن صاحب الغنم. أما إذا وقع النفش (أي ليلاً) فإن صاحب الغنم يضمن إذا كان قد أهمل غنمه؛ لأن الناس يتركون زروعهم ومصالحهم ويأوون إلى النوم، فعليه أن يحفظ حيواناته، وإلّا فلا ضمان عليه[٤].

ثالثاً: رأي الأحناف

وهنا موضع الشاهد؛ إذ أن أبا حنيفة يرى أنه لا ضمان على صاحب الغنم

---

(١) الأنبياء: ٧٩.
(٢) انظر: مجمع البيان ٧: ١٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١١: ٣٠٩.
(٣) المقنعة: ٧٧٠.
(٤) الإقناع ٢: ٢٠١، مغني المحتاج ٤: ٢٠٥.

إلّا إذا كان معها أحد[١] لقول النبي: «جرح العجماء جبار»[٢]، والمقصود بالعجماء: الحيوان؛ حيث إنه أعجم لأنه لا يستطيع أن يعرب عمّا في نفسه، فكل حيوان أعجم[٣]. فالحيوان لا يستطيع أن يعبّر عن ألمه إذا تألّم، ولا يستطيع أن يعبّر عن جوعه إذا جاع وكذلك العطش وغيره من الإحساسات والمشاعر الأُخرىٰ. يروىٰ أن أحد الصلحاء كان إذا أصاب القوم عام جدب أو محْل فإنه كان يشتري العلف لدابّته قبل أن يشتري الطعام لنفسه، فلما سئل عن سبب ذلك أجاب بأنه يملك أن يعبّر عن شعوره بالجوع والألم أما الحيوان فلا يملك هذه القدرة علىٰ التعبير عن ذلك؛ ولذا فإن الواجب أن أرحمه حتىٰ يرحمني اللّه[٤].

أسباب رفض نبوّة الأعجمي

إذن كل ما لا يعقل ولا يتمكّن أن يفصح عمّا في نفسه يسمى أعجَمياً. والقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾، أي علىٰ ابن أية لغة غير العربية، فسوف لن يؤمنوا به. وذلك يعود لعدة أسباب منها:

السبب الأوّل: دافع الأنفة والكبرياء

فالبعض لا يؤمن بما يأتيه به الأعجمي لما يحمله من شعور في نفسه بأنه أفضل من بقية الأقوام؛ فهو يأنف من أن يتبع من هو أدنىٰ منه. وأُلفت نظرك

---

(١) قريب منه في الشرح الكبير ٥: ٤٤٦، وفيه حول الكلب العقور.

(٢) مسند أحمد ٢: ٤٧٥، سنن الدارمي ١: ٣٩٢.

(٣) لسان العرب ١٢: ٣٨٩ ـ عجم.

(٤) قال ﷺ: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء». الفقيه ٤: ٣٧٩ / ٨٠٦، مسند أبي يعلى ٨: ٤٧٥ / ٥٠٦٣.

إلىٰ أن هذا التفكير قد وقع به حتىٰ فقهاء المذاهب الأربعة حيث إنهم يرون أن الأعجمي ليس كفئاً للعربية في الزواج. وهذا الرأي كما قلت يذهب إليه جميع فقهاء المذاهب الأربعة باستثناء مالك وبعض الفقهاء الموالك(١)، وكذلك فقهاء الإماميّة فإنهم يرون أن المسلم كفء المسلم ولو كان أعجمياً.

والمسلم هو من يقول: **«لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله ﷺ»**، ولم يخالف ضرورة من ضروات الإسلام، وقد قال ﷺ: **«المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»**(٢). ومع هذا فإن فقهاء المذاهب الأربعة عدا بعض الموالك كما ذكرنا يذهبون إلىٰ عدم تكافؤ الأعجمي والعربي. وهذا الرأي نستطيع أن نمنحه صفة الطابع القومي وأن ندرجه تحت غطاء أبعد من أن يكون ذا طابع إسلامي؛ لأنه يبتعد كل البعد من تعاليم الإسلام، وإلّا فأين ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٣)؟ إن هذا بعيد كل البعد عن تعاليم الإسلام وعن روح الإسلام وهو لا ينسجم مع نظرة الإسلام الواحدة إلىٰ كل الأقوام والأجناس. إن أي فكر من هذا القبيل يعدّ فكراً بعيداً تمام البعد من الإسلام.

والغريب أن المذاهب التي لا ترضىٰ للزوج أن يكون أعجمياً ترضىٰ للخليفة أن يكون غير عربي، مع أن الخلافة قيادة مجتمع في حين أن الزواج

---

(١) انظر بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢: ١٤.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

(٣) الحجرات: ١٣، وقال ﷺ: «أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلّا بالتقوى» مسند أحمد ٥: ٤١١.

قيادة أُسرة. ومن يذهب إلىٰ هذا الرأي هو أبو حنيفة؛ حيث إنه يقول بجواز كون الخليفة غير عربي. وهو بهذا يخالف جميع المذاهب الإسلامية التي تستند إلىٰ قول الرسول ﷺ: «كلّهم من قريش»[١]، وهو حديث مروي في الصحاح. فأليس تناقضاً أن تقبل للأعجمي بأن يقود المجتمع، ثمّ لا تقبل له أن يقود أُسرة؟ وأليس هذا نوعاً من الترفّع والتكبّر الذي تأباه طبيعة دين الإسلام وروحه. ومما يمكن أن يستشهد به في هذا الصدد أن عبد اللّه بن عمر كان يقول: لقد أُوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال، لَأَن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إلي من حمر النعم: زوّجه رسول الله ﷺ ابنته وولدت له، وسدّ الأبواب إلّا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خيبر[٢].

وإذا كان يرى هذا، فلنا أن نسأله: لماذا امتنعت عن بيعته ﷺ إذن[٣] مع ما ذكرت له من خصال ومناقب؟ ولقد ذكرت في محاضرات سابقة مواقف هذا الرجل تجاه أمير المؤمنين ﷺ؛ إذ أن له مواقف[٤] معه تجعل منا أصحاب حقّ في أن ننحو هذا المنحىٰ معه، ونتّخذ منه هذا الموقف. فالأمر لم يقتصر عند امتناعه عن البيعة فقط، بل إنه اتّخذ بعداً أكبر من هذا.

إننا لا نستطيع أن نقف موقفاً سلبياً من أي شخص ما لم يكن أهلاً لذلك الموقف، فلا نصدر الأحكام اعتباطاً، ولا تحكّماً، وليس عندنا قوالب جاهزة مسبقة علىٰ ضوء تصوّراتنا وآرائنا ثمّ نصبّها علىٰ الناس. وإلّا فإن

---

(١) مسند أحمد ٥: ٨٧ ـ ١٠٨، صحيح البخاري ٨: ١٢٧، صحيح مسلم ٦: ٣ ـ ٤.

(٢) مسند أحمد ٢: ٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٥، وقال بعده: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٣٦ / ٥٠٠، مسند أبي يعلى ٩: ٤٥٣ / ٥٦٠١.

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٩، ١٠، ١١.

(٤) بل مع كلّ أحرار الإسلام، ومنها موقفه يوم الحرّة، انظر صحيح مسلم ٦: ٢٠ ـ ٢٢.

علي بن أبي طالب هو إمام المتقين[1] الذي قام الإسلام كلّه على ساعده وسيفه[2] هل يجوز لأحد أن يقف منه هذا الموقف الذي هو كلّه نصب وعداء؟ أين ولاية المؤمنين بعضهم للبعض الآخر[3]؟

---

(١) وإليك جملة من الروايات التي نقلها جلال الدين السيوطي في الجامع الصغير ٢: ١٧٦ ـ ١٧٨ / ٥٥٨٦ ـ ٥٦٠١ عن رسول الله ﷺ:

«علي أخي في الدنيا والآخرة».

«علي أصلي، وجعفر فرعي».

«علي إمام البررة وقاتل الفجرة، منصور من نصره مخذول من خذله».

«علي باب حطة، من دخل منه كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً».

«علي عيبة علمي».

«علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

«علي مني وأنا من علي، ولا يؤدي عني إلّا أنا أو علي».

«علي مني بمنزلة رأسي من بدني» أي أنه ﷺ جعل نفسه الشريفة بمنزلة الجسد، وجعل أمير المؤمنين عليه السلام بمنزلة الرأس؛ لعظيم منزلته، وشرف دوره في رفع راية الإسلام الحنيف.

«علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلّا إنه لا نبي بعدي».

«علي بن أبي طالب مولى من كنت مولاه».

«علي يزهر في الجنة ككواكب الصبح لأهل الدنيا».

«علي يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب المنافقين».

«علي يقضي ديني».

(٢) قال ابن أبي الحديد:

ولولا أبو طالبٍ وابنُه ... لما مثُل الدينُ شخصاً فقاما
فهذا بمكّة آوىٰ وحامىٰ ... وذاك بيثرب شام الحساما
تكفّل عبد مناف بأمر ... وأودىٰ فكان علي تماما
فلله ذا فاتحاً للهدىٰ ... ولله ذا للمعالي ختاما

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤، وانظر: الصراط المستقيم ١: ٣٣٤، الدرجات الرفيعة: ٦٠.

(٣) قال الله تعالىٰ: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ

وهذا طبعاً من الآراء التي نشأت فيها الشعوبية وتبرعمت؛ فقد ولدت الشعوبية كردة فعل لهذا التوجّه، فراح الشعوبيون يؤكّدون علىٰ شتم العرب واحتقارهم، وراحوا يشوّهون حضارة العرب تشويهاً كاملاً، ثمّ عمدوا إلىٰ محاولة هدمها عبر كتاباتهم وأقلامهم، يقول أبو نؤاس:

عاج الشقي علىٰ ربع يسائلهم   وعدت أسأل عن خمّارة البلدِ(١)

وعندما تقرأ هذه القصيدة تجد فيها الكثير من هذا النوع، وهناك الكثير من النصوص التي تصبّ في هذا المصبّ، بل وصل الأمر ببعضٍ أن رأيته يقول: إن اللّه عزّ وجلّ لم يبعث نبياً من العرب. وهذه عمليّة ردة فعل، يقول النبي ﷺ: **«من شتم أباه، فهو بعيد عن رحمة اللّه»**. فقيل له: يا رسول اللّه، أويشتم الرجل أباه؟ فقال ﷺ: **«نعم، يشتم أبا الرجل فيشتم ذلك الرجل أباه»**(٢).

وهذا من ذلك النوع عينه، فهؤلاء أوجدوا الفعل وردّة الفعل، فلينتظروا ما وراء ردّة الفعل؛ ففي الوقت الذي كان العرب يعدّون غيرهم غير أكفاء لهم فيه كان عليهم أن يتوقعوا أن الآخرين أيضاً سينتقصونهم ويعدّونهم غير أكفاء. ولهذا تبرعمت حركة الشعوبية وترعرعت، ثمّ اتسعت بعد ذلك ووصلت إلىٰ

☚ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة: ٧١، وقال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الحجرات: ١٠.

(١) ديوان أبي نؤاس: ١٨٨، ومنها.

لا يرقئُ الله عينيْ من بكى حجَراً   ولا شفى وجدَ من يصْبو إلى وَتَدِ
قالوا ذكرْت ديار الحيّ من أسَدٍ   لا درّ درّكَ قلْ لي مَن بَنُو أسَدِ
ومَن تميمٌ ومنْ قيسٌ وإخوتُهُمْ   ليس الأعاريبُ عندَ الله من أحَدِ

(٢) مسند أحمد ٢: ٢١٤.

حدود بعيدة ومجالات كبيرة، فلبست ثوباً آخر، حتىٰ وصل الأمر أنهم كلما كرهوا أحداً وأبغضوه رموه بالشعوبية. وقد فاجأني أحد الأساتذة مرّة، باتّهامه دِعبلاً بالشعوبية، وراح يصفه بقبيح الوصف، فقلت له: كيف عرفت أنه شعوبي؟ فقال: أليس هو القائل للمأمون:

إنـي مـن القـومِ الذيـن سيوفُهم ... قـتلت أخـاك وشـرّفتك بـمقعدِ
شـادوا بـذكرك بـعدَ طـولِ خـمولِه ... واستنقذوك من الحضيض الأوهدِ[1]

فكيف يجترئ ويحمل علىٰ الخليفة العباسي؟

ولنا أن نسأل: ما هي علاقة هجائه المأمون بالشعوبية هنا؟ لكن الظاهر أن الكراسي تقدّس الرجال عند هؤلاء، وأن من يصل إلى كرسي الحكم فلا يجوز القدْح به أبداً؛ ولذا فإنهم يأخذون أحكامهم من عبد الملك بن مروان.

ومن هؤلاء مثلاً الدميري حيث يقول في كتابه (حياة الحيوان): «وكانت خلافته ـ أي الإمام الحسن عليه السلام ـ خمسة أشهر وستة أيام، وهي تكملة ما ذكره رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من أمر الخلافة، ثمّ يكون ملكاً عضوضاً ثمّ يكون جبروتاً وفساداً في الأرض، وكان كما قال صلى الله عليه وآله وسلم. لكنه يرجع بعدها مباشرة فيقول: «خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان (رضي اللّه تعالىٰ عنه)»[2]. وكأنه نسي قوله: إن خلافة الإمام الحسن عليه السلام هي تكملة الخلافة الراشدة التي ذكرها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ يكون بعدها فساد وإفساد! ويريد بالخلافة التي ذكرها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«الخلافة بعدي ثلاثون عاماً، ثمّ تكون ملكاً عضوضاً»**[3].

---

(١) ديوان دعبل: ٦٤. (٢) حياة الحيوان ١: ٨٤.
(٣) مسند أحمد ٥: ٢٢١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ٢٠١، فتح الباري ٨: ٦١.

السبب الثاني: الامتناع بدافع العناد

وكان هذا النوع من التفكير موجوداً، فكان هؤلاء يأتون إلىٰ الرسولﷺ ويقولون له: ألم يجد اللّه غيرك ليبعثه لنا(١)؟

السبب الثالث: عدم قدرة الأعجمي على إعراب اللغة

وهذا هو موضع الشاهد هنا؛ ذلك أن النبي الأعجمي لا يستطيع أن يعرب عن خواصّ اللغة كي يوصل المعنىٰ والأحكام خلالها. وهذا موجود فعلاً وسيتضح مما سأذكره من أمثلة علىٰ ذلك.

نماذج من خواص اللغة

ففي اللغة العربية نماذج كثيرة علىٰ هذا أذكر منها:

النموذج الأوّل: مفهوم العدد

فنحن حينما نقرأ القرآن الكريم ثم نصطدم ببعض تعبيراته فإننا نفهمها، لكن حينما يأتي أحد من حضارة غير عربية ويقرأ الآية الكريمة: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾(٢) فإنه سيقول: حينما يستغفر لهم خمساً وسبعين مرّة فهل اللّه سيغفر لهم؟ وهذا طبعاً أمر ناشئ من عدم فهم خواص اللغة. وهذا ما يعبّر عنه علماء الأصول بمفهوم العدد(٣). وهذا الأمر

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الزخرف: ٣١.
وكذلك قال أهل الطائف لرسول اللّهﷺ عند ذهابه إليهم: أما وجد اللّه نبياً غيرك يبعثه؟
انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مجمع البيان ٩: ١٥٤، تاريخ اليعقوبي ٢: ٣٦ ـ ٣٧، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٢١١.

(٢) التوبة: ٨٠.

(٣) قال الشيخ محمد رضا المظفّر: «لا شكّ في أن تحديد الموضوع بعدد خاصّ لا يدل على انتفاء الحكم فيما عداه، فإذا قيل: صم ثلاثة أيام من كل شهر، فإنه لا يدلّ على عدم استحباب صوم غير الثلاثة الأيام. فلا يعارض الدليل على استحباب صوم أيام أُخر.
نعم لو كان الحكم للوجوب، وكان التحديد بالعدد من جهة الزيادة لبيان الحدّ الأعلى فلا

أشبه ما يكون بما حصل لمعاوية فقد صعد أحد ولاته المنبر وقال: لعن الله المجوس؛ فقد بلغني أنهم يتزوّجون أمهاتهم، والله لو أُعطيت عشرة آلاف درهم لما تزوّجت أُمّي. ولما بلغ الخبر معاوية قال: يبدو أن هذا لو أُعطي أحد عشر ألف دينار لكان قد فعلها وتزوّج من أُمّه ثمّ عزله[1].

فإذا كان ابن اللغة والحضارة يغفل عن بعض خصائصها فكيف بمن لم يكن كذلك؟

النموذج الثاني: أسلوب التوكيد

ومن ذلك ما نقرؤه في الكتاب المجيد من قوله تعالىٰ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[2]، فقد يقول قائل: لماذا استخدم لفظة ﴿فَوْقِهِمْ﴾؟ وهل يكون السقف إلّا من فوق؟ فما وجه ذكر ذلك إذن؟

إن مثل هذا التساؤل ينمّ عن عدم معرفة بخلفية اللغة العربية وخواصّها، ذلك أن هذه اللفظة قد اعتاد العرب علىٰ استعمالها في المكاره. وهذا فيه لون من ألوان التوكيد لهذا المعنىٰ.

وهكذا توجد هناك الكثير من خواص اللغة لا يعرفها إلّا ابن اللغة المتضلّع فيها وفي خلفياتها البلاغية ووجوه استعمالاتها، فهذا التراث لا يفهمه إلّا أهله. ولذا فإن القرآن الكريم يصرّح بأنه لو أُنزل علىٰ أحد غير هؤلاء لما أدّىٰ رسالته بالشكل الصحيح المطلوب منه تأديتها به؛ لأن اللفظ يشترك مع

☚ شبهة في دلالته على عدم وجوب الزيادة، كدليل صوم ثلاثين يوماً من شهر رمضان. ولكن هذه الدلالة من جهة خصوصية المورد لا من جهة أصل التحديد بالعدد حتى يكون لنفس العدد مفهوم. فالحقّ أن التحديد بالعدد لا مفهوم له». أُصول الفقه ١: ١١٩.

(١) شرح نهج البلاغة ١٨: ١٦٦، وهو دال علىٰ جهل معاوية بأحوال اللغة العربية.

(٢) النحل: ٢٦.

المعنىٰ في أداء الصورة الشاخصة والفكرة المرادة التي يُريدها الإسلام.

علىٰ أي حال فإن مسألة بعثة النبي من غير العرب لاقت وتلاقي عقبات كثيرة كان أهمها عقبة الأنفة والتكبّر. ولذلك فإن اللّه تعالىٰ اختار رسوله الكريم بما يمتلك من خصائص ومزايا وقابلية علىٰ تذويب هذه العقبات بما وهبه من خلق عالٍ. وإلّا فإن غير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يستطيع أن يفعل ما فعله هو، ولم يمكن للشريعة الإسلامية أن تأخذ هذه المكانة العالية. لكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تحلىٰ بمزايا ذوبت كلّ هذه العقبات التي وقفت بطريقه فكان يأتي إلىٰ معاطن الإبل ليدعو الأعراب إلىٰ الإسلام. ويخاطبه أحدهم بغلظة البداوة ذات مرّة بعد أن وزع الغنائم وكان قد أمسكه صلى الله عليه وآله وسلم من ردائه وسحبه حتىٰ أثر الرداء في عنق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واحمرت رقبته وقال له: اعدل يا محمّد، فليس المال لك ولا لأبيك. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«فوالذي نفسي بيده لو كان لي جبلان من ذهب وفضّة لفرّقتهما عليكم ثم لا تجدونني بخيلاً»**[1]. ومع أن أُسلوب الأعراب لا يرتقي عن هذا المنطق الفظ فإننا نجد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يأنف عن الجلوس إليهم ودعوتهم فيهدي هذا ويُرشد هذا ويطوف علىٰ بيوتهم ويحمل ذلك الخلق الكبير وتلك الرحمة التي لا حدود لها؛ لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يعلم حجم العقبات التي تعترض طريقه وطريق دعوته فتمنعها

---

(١) لم نعثر على حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا ضمن هذه الحادثة، بل إن في هذه الحادثة قال الرسول صلى الله عليه وآله: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أعدل». بحار الأنوار ٣٣: ٣٣٩، مسند أحمد ٣: ٣٥٥، سنن ابن ماجة ١: ٦١.

أما ما أورده المحاضر حفظه الله من حديث له صلى الله عليه وآله وسلم فقد أورده المتّقي الهندي في حادثة أُخرى. انظر كنز العمال ١٠: ٥٤٩ / ٣٠٢٢٩، وفيه: «فوالذي نفسي بيده لو كان معي مثل شجر وطائر نعم حمر لقسمته بينكم ثم لا تجدونني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً».

من الوصول إلىٰ قلوبهم.

وإلّا فإن مجتمعاً نشأ علىٰ الجاهلية وشبّ وشاب عليها يصعب التعامل معه وتذليل شَموسه، فهو مجتمع قاسٍ وصلت به قسوته إلىٰ درجة أن أحد الصحابة كان يقول: كلما تذكرت حادثة وقعت لي ازددت تألّماً. فقيل له: وما تلك الحادثة؟ فأخبر أنه ما ولدت له بنت قط إلّا وأدها، ثم أقبل على رسول الله ﷺ يحدّثه فقال له: كنت أخاف سوء الأُحدوثة والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنت قطّ إلّا وأدتها، وما رحمت منهمنّ موءودة قط إلّا بنية لي ولدتها أُمها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخوالها، فكانت فيهم، وقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً.

ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت فزارت أُمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها، وجعلت في قرونها شيئاً من خلوق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة جزع، وجعلت في عنقها مخنقة بلح، فقلت: من هذه الصبية، فقد أعجبني جمالها وكيسها؟ فبكت ثم قالت: هذه ابنتك كنت خبّرتك أني ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فأمسكت عنها حتى انشغلت عنها، ثم أخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة، فجعلتها فيها، وهي تقول: يا أبت ما تصنع بي؟ وجعلت أُقذف عليها التراب وهي تقول :يا أبت أمغطّيَّ أنت بالتراب؟ أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟ وجعلت أقذف عليها التراب ذلك حتى واريتها وانقطع صوتها، فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها. فدمعت عينا النبي ﷺ ثم قال: **«إن هذه لقسوة، وإن من لا يَرحم لا يُرحم»**[1].

---

(١) الأغاني ١٤: ٧٠ ـ ٧١، والصحابي هو قيس بن عاصم.

فهو يقول: هذه الصرخة التي سمعتها منها قد آذتني. وهذه الأمة أمّة عجيبة، يقول أحد الشعراء مخاطباً النبيﷺ:

يا عطاء القرآن يصنع دنيا الـ ... حب في دنيا من صدى الجلمود

فالأولاد ثمار الأكباد. وأنا لا أريد أن أقول: إن المجتمع العربي كان كلّه علىٰ هذا الشاكلة، ففيهم من يتّصف بالرقّة والحنان، ونحن لا ننسىٰ قول شاعرهم:

لولا بنيّاتٌ كزغبِ القطا ... رددن من بعضٍ إلى بعضِ
لكان لي مضطربٌ واسعٌ ... في الأرض ذاتِ الطولِ والعرضِ
وإنما أولادُنا بيننا ... أكبادُنا تمشي على الأرضِ
لو هبّت الريح على بعضِهم ... لامتنعت عيني من الغمضِ[(١)]

لكن كان النمط القاسي الذي يتصف بمجانبة العطف هو النمط الأعم الأغلب، فلما جاء النبيﷺ يحمل لهم القرآن الذي يفيض حباً وعطاءً ذلّل تلك العقبات واستل منهم الحقد والبغضاء، وحبب أبناءهم إليهم، فآمنوا باللّه تعالىٰ وبكتابه. وهنا وقف الرسولﷺ يؤكد هذا الجانب: **«من كانت له ابنة فأدّبها وأحسن أدبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، وأوسع عليها من نعمة الله التي أوسع عليه، فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده** (أي الذكور) **عليها، أدخله الله الجنة، وكانت له منعة وستراً من النار»**[(٢)].

وبالفعل مشىٰﷺ معهم علىٰ هذا المستوىٰ إلىٰ أن جعل بناتهم محببات

---

(١) ديوان الحماسة ١: ٢٨٧، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٤٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ٦١.
(٢) تفسير الثعالبي ٣: ٤٧١، فتح الباري ١٠: ٣٥٩، المعجم الكبير ١٠: ١٩٧، كنز العمال ١٦: ٤٥٣ / ٤٥٣٩١.

إليهم كأبنائهم، أي أنه استل منهم هذه الأحقاد والبغضاء وزرع في نفوسهم الحب والعطف والحنان.

وقد طبق ﷺ هذا السلوك عملياً علىٰ نفسه بمعاملته لابنته فاطمة عليها السلام، فقد كان ﷺ يعاملها معاملة لفتت أنظار الصحابة. وكان عقيل بن علفة غيوراً موصوفا بشدّة الغيرة، وكان يأتيه رؤساء العرب يخطبون إليه ابنته فيرفض، وحمل يوماً ابنة له وأنشأ يقول:

إني وإن سيق إليّ المهرُ   ألفٌ وعبدانٌ وذودٌ عشرُ

أحبُّ أصهاري إليّ القبرُ[(١)]

فهذا يصل به الأمر إلىٰ أن يصبح ذائباً في عاطفته إزاء ابنته، وهكذا عوّدهم رسول الله ﷺ الذي كان إذا جاءت فاطمة عليها السلام إليه وهي طفلة خفّ لها يحملها ويقبلها. وكان قبل أن يذهب إلىٰ محرابه يمرّ ببيت فاطمة عليها السلام ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر، فيقول: **«الصلاة يا أهل البيت، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾**[(٢)]**»**[(٣)].

فتخرج إليه فاطمة عليها السلام، فيضع رأسه علىٰ رأسها، ويشبعها لثماً وتقبيلاً، ويقول: **«إني أشم فيها ريح الجنة»**[(٤)]، ثمّ يقول: **«باب فاطمة بابي، وحجابها حجابي»**[(٥)]. وفي هذا المقال إشعار منه ﷺ بأهمية هذا الباب وهذه الدار،

---

(١) أمالي المرتضى ٢: ٤٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٣٢.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) مسند أحمد ٣: ٢٥٩، ٢٨٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١، شواهد التنزيل ٢: ١٩، سير أعلام النبلاء ٢: ١٣٣، ١٣٤، تهذيب الكمال ٣٥: ٢٥٠.

(٤) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ / ٤.

(٥) بحار الأنوار ٢٢: ٤٧٧.

ولذا كان ﷺ يباركها كل يوم ستة أشهر قبل أن يذهب إلىٰ صلاته ومحرابه. وأقول: يا رسول الله، يا أبا الزهراء، ليتك تقف علىٰ هذا الباب لترىٰ ما جرىٰ عليها، لقد طرق أحد الشعراء هذا المعنىٰ وهو يتجه إلىٰ باب فاطمة الزهراء عليها السلام، فيقول:

يا بابَ فاطمَ لا طُرقت بخيفةٍ ... ويدُ الهدىٰ سدلت عليك حجابا
نفسي فداك أما علمت بفاطم ... وقفت وراك تناشدُ الأصحابا
أفهل درىٰ المسمارُ يومَ أصابها ... من قبلِها قلبَ النبيِّ أصابا
أوما رققت لضلعِها لما انحنى ... كسراً وعنه تزجرُ الخطّابا

يقول المؤرخون: فتحت عليها السلام عينها فوجدت إلىٰ جانبها ابنتها الحوراء زينب، فلم تسألها عما جرىٰ لها ولا لجنينها بل سألتها عن أمير المؤمنين عليه السلام، فقالت لها: أُمّاه، لقد أخرجوه من الدار. فخرجت تقوم ويُقعدها الألم، ولما وقع بصر الرجل عليها قال لغلامه: ويلك عد إليها. فرجع إليها يلوّح بالسوط أمام وجهها، فلم تتراجع حتّىٰ حاذت قبر أبيها فتوجّهت إلىٰ أبيها قائلة:

بويه الوغد عمداً ضربني ... ومن سطرته للكاع ذبني
من الناس ما واحد حشمني

* * *

ماذا على من شمّ تربةَ أحمدٍ ... ألا يشمّ مدى الزمانِ غواليا
صُبّت عليّ مصائبُ لو أنها ... صُبّت على الأيّامِ صرنَ لياليا(١)

---

(١) المغني (ابن قدامة) ٢: ٤١١، نظم درر السمطين: ١٨١، سبل الهدىٰ والرشاد ١٢: ٢٨٩، ٣٣٧، مغني المحتاج ١: ٣٥٦.

﴿١١٨﴾

النصرة والقرابة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: وشيجة الروح

إن الهدف الأساسي والهيكل العام لهذه الآية الكريمة ـ كما يشير إليه الجوّ العام لها ـ ينصبّان علىٰ محور هامّ جداً في حياة كل مجتمع وجماعة، وهو أن وشيجة الروح أقوىٰ من وشيجة الجسد(٢).

---

(١) الأحزاب: ٦.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون تتكافأ دماهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم». دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجة ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ ـ ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١».

فالحياة بما فيها من علاقات تعتمد علىٰ وشائج عدّة تختلف بحسبها. وهذه الوشائج بعضها أمتن من بعض وأشدّ حسب رؤية من تربطهم تلك الوشائج. فالإنسان مثلاً يرتبط بأُسرته بوشيجة الدم باعتباره جزءاً منها باللحم والدم، ولكنه يرتبط برسول اللّه ﷺ أو بالمعصوم أو بالدين والمسلمين بوشائج روحية. والوشيجة الروحية عادة تكون أقوىٰ من وشيجة الدم ومن النسب المادي، والمؤمن عادة يضحّي بوشائج الدم في سبيل وشيجة الروح(١).

☚ وقال أبو فراس الحمداني﷫:

كانت مودّةُ سلمانٍ له رحماً ... ولم يكنْ بين نوحٍ وابنِه رحِمُ

ديوان أبي فراس الحمداني: ٢٥٥.

(١) قد مرّ ـ وهو دليل علىٰ هذا ـ طلبُ عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبي من الرسول ﷺ أن يقتل أباه لأنه هدّد بإخراج الرسول ﷺ من المدينة. انظر: مجمع البيان ١٠: ٣٧٣ ـ ٣٧٥، جامع البيان: المجلّد ١٤ ج ٢٨: ١٤٢ ـ ١٤٨. وقد مرّ في ج ٥ ص ٣٧١ من كتابنا هذا. في حين أن الخليفة الثالث حينما هدر النبيّ ﷺ يوم الفتح دم عبد اللّه بن أبي سرح أخيه من الرضاعة ـ وكان قد ارتدّ ـ ولجأ إليه، غيّبه عنده حتى هدأ الناس واطمأنّوا، فجاء به إلى النبيّ ﷺ، وطلب منه أن يؤمّنه، فأعرض عنه النبيّ ﷺ، فأخذ عثمان يقول: آمنته يا رسول اللّه ﷺ؟ والنبيّ ﷺ يعرض عنه ولا يجيبه، ثمّ قال: «نعم».
ثمّ قال النبيّ ﷺ لأصحابه: «أعرضت عنه مراراً؛ ليقوم أحدكُم فيضرب عنقه». وكان عباد ابن بشر قد نذر إن رآه أن يقتله، فقال له النبيّ ﷺ: «انتظرتك أن تفي بنذرك». فقال: يا رسول اللّه خفتك، فهلا أشرت إليّ بعينك؟ فقال ﷺ: «إنه لا ينبغي لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين». انظر: السنن الكبرىٰ (النسائي) ٧: ١٠٦، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٥٣٦ / ١٥، فتح الباري ٦: ١١٢، ١١: ٨.
وكان يقول لقريش: إني أُصرّف محمداً كيف شئت، فكان يملي علي (عزيز حكيم)، فأقول: أو (عليم حكيم)، فيقول: نعم كلاهما صواب. وكلّ ما أقول، يقول: اكتب، فهكذا نزلت».
جامع البيان: المجلّد ٥ ج ٧: ٣٥٤، الصارم المسلول (ابن تيمية) ٢: ٢٢٣ ـ ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٧، الثقات ٣: ٢١٤، الاستيعاب ٣: ٩١٨، تخريج الدلالات السمعيّة ١:

والقرآن الكريم يلفت أنظارنا ويوجّه انتباهنا إلىٰ أن الدين يستهدف بناءنا وتربيتنا، فهو بهذا اللحاظ حتماً يعدّ أهم من وشائجنا الدموية. مع أن في مجتمعاتنا علاقات لا يحدّدها إلّا الإنجاب، فكم من أب لا تربطه بابنه أي علاقة سوىٰ أنه أنجبه، فليس هناك بينهما أي تناغم روحي، فلا الابن ينسجم مع أبيه ولا الأب ينسجم مع ابنه. فنادراً ما نجد أُسرة فيها اندماج كامل، والسرّ في ذلك هو ضعف التربية الروحية.

ثمّ إن القرآن الكريم يحاول أن يقضي علىٰ كل الوشائج التي تؤدي إلىٰ حصول حالات من العصبية المقيتة بين الناس، ويخضعها إلىٰ الوشيجة

☚ ١٧٩، السيرة الحلبيّة ٣: ٣٦ ـ ، ٤٢٢.

أو كما فعل مع مروان حيث ردّه إلى المدينة بعد أن طرده رسول اللّٰه ﷺ مع أبيه إلى الطائف؛ لأنّ أباه الحكم أسلم يوم الفتح كرهاً ونفاقاً، وكان يستهزئ بالنبيّ ﷺ إذا غاب، ويتجسّس للمشركين أخباره، ويحكيه في مشيته، وقد قيل: إنّ النبيّ ﷺ كان إذا مشىٰ يتكفّأ والتفت يوماً فرآه يمشي خلفه ويحكيه، فقال ﷺ: «كذلك فلتكن». فكان الحكم مختلجاً يرتعش من يومئذ. أُسد الغابة ١: ٥٨٨، الإصابة ٢: ٩٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٣: ٣٨٩، النزاع والتخاصم (المقريزي): ٣٩. وفيهما قال بولس سلامة:

إيه عثمان كيف جئت بوغدٍ ... تستجير الأُنوفُ من أدرانه
حكم كان خصمَ أحمد حتىٰ ... ضجّ منه العَداء في عدوانه
لم يسعه حلم الرسول وطه ... منبع الحلم دافق من جنانه
جاء عثمان بابن صِلٍّ طريد ... وحباه الدفيء من أحضانه
واصطفاه الوليُّ صهراً حبيباً ... فأظلّ الهنا به أم أبانه
هزل الدهر أن مروان صهر ... وكنوز الإسلام رهن بنانه

وهو الذي قال فيه النبيّ ﷺ: «هو الوزغ ابن الوزغ، الملعون ابن الملعون».

المستدرك على الصحيحين ٤: ٤٧٩ ثمّ قال الحاكم بعده: صحيح الإسناد، السيرة الحلبيّة ١: ٥٠٩.

وانظر رائق الضمير ١: ١٢٠ ـ ١٢١.

الدينية؛ لأن الوشيجة الدينية وشيجة عالمية تربط الإنسان بأخيه عبر علائق إنسانية تجعله يحبّ أخاه ويضحّي من أجله. وبعبارة أُخرىٰ، يريد أن ينتقل بالإنسان ويرتقي به من تأثير غرائزه إلىٰ ما هو أعلىٰ من ذلك، أي إلىٰ كائن حضاري يرتبط مع أبناء نوعه برباط الدين والإنسانية وينبذ القتل والقتال.

فالغرائز تهبط بالإنسان إلىٰ أدنىٰ مستوياته، وتجعله مخلوقاً متوحّشاً يحكمه قانون الغاب، فيظل يتقلّب بين القتل والسلب والنهب واغتصاب حقوق الآخرين وأعراضهم، وسلب كراماتهم وهدر حرياتهم. وملخّص القول أن الإنسان إذا لعبت به غرائزه أصبح وحشاً ضارياً لا توقفه أخلاق ولا يحدّ من غلوائه دين. وهاهو العالم الذي نراه اليوم حيث يأكل فيه القوي الضعيف، ويصادر فيه المستكبر حق المستضعف، ولا تجد لليافطات التي ترفعها هيئة الأُمم المتحدة أو المؤسسات الإنسانية الأُخرىٰ أي صدىٰ أو أثر، بل تجد أن هذه المؤسسات عينها مغيبة فضلاً عن اليافطات التي ترفعها والشعارات التي تنادي بها، وأشدّ من ذلك أنك تجد أن أصحاب القوىٰ والنفوذ وأصحاب القرار النافذ هم المتنفذون فيها والمتحكمون بقراراتها الصادرة والمسيطرون علىٰ مقدّراتها:

النواميس قضت أن ... لا يعيش الضعفاء
إن من كان ضعيفاً ... أكلته الأقوياء

ولذا فإن القرآن الكريم والدين يريدان أن يربيانا علىٰ حب الآخرين وأن يربيا فينا الشعور بالآخرين والإحساس بمعاناتهم وبأن الوشائج الروحية أقوىٰ من كل الوشائج الأُخرىٰ مهما تعدّدت وتنوّعت واختلفت متعلقاتها.

المبحث الثاني: في ولاية الرسول ﷺ على المؤمنين

تقول الآية الكريمة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وفي هذا المقطع عدّة مضامين سنشير إلىٰ بعض منها:

المضمون الأوّل: قراءة أُبي لهذه الآية

يروي القرطبي في تفسيره أن عمر مرّ بابن عباس وهو يقرأ: (النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وهو أب لهم). وسمع عمر هذه القراءة فأنكرها وقال: احككها يا غلام. قال: أقرأنيها أُبي وإنها في مصحفه. فأرسل إلى أُبي بن كعب فجاءه، قال: فرفع صوته عليه، فقال أُبي: كان يشغلني القرآن إذ كان يشغلك الصفق في الأسواق. فسكت عمر[١].

وهذه الصورة التي نقلتها لك هي عينها التي يرويها القرطبي بنصّها وحذافيرها.

المضمون الثاني: موقفنا من القراءة والرواية

أما موقفنا من الرواية فهو سلبي جداً؛ ذلك أننا لا نأخذ إلّا بما هو متداول بين الناس من المصاحف اليوم. وهو موقف واضح قد رسمه لنا أيّمتنا عليهم السلام[٢]. ومع أن هذه الرواية موجودة عند فرق المسلمين[٣] لكننا لا نعتدّ بها؛ لأن هذا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٥، ولم يصرّح باسم ابن عبّاس، وهو مصرّح به في تفسير القرآن (الصنعاني) ٣:١١٢.

(٢) عن قيس بن عبادة قال: قرأت على علي ـ يريد: أمير المؤمنين عليه السلام ـ ﴿وطلح منضود﴾ الواقعة: ٢٩. فقال علي: «ما بال الطلح؟ أما تقرأ: وطلع؟». فقيل له: يا أمير المؤمنين، أنحكّها من المصحف؟ فقال: «لا يهاج القرآن اليوم».

انظر: التبيان ٩: ٤٩٥، جامع البيان، المجلد: ١٣، ج٢٧: ٢٣٤، كنز العمّال ٢: ٥١٩ / ٤٦٤٨.

(٣) انظر إضافة إلىٰ الهامش قبل السابق: جامع البيان، المجلّد: ٧، ج١٢: ١١١، المجلّد:

الباب خطر جداً علىٰ اعتقادات المسلمين، وإذا فتح علىٰ مصراعيه فسوف لن تبقىٰ هناك ثقة بالقرآن الذي هو ما بين الدفتين كما قلنا. سأل الإمام الرضا‌عليه‌السلام أحدُ أصحابه فقال له: يابن رسول اللّه، كيف نقرأ التوحيد؟ قال‌عليه‌السلام: **«كما يقرؤها الناس»**[1]. والقرآن **«هو ما بين الدفتين»**[2].

المضمون الثالث: النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم له حق التشريع المالي

ويستدلّ الاقتصاديون من قوله تعالىٰ: **﴿النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾** علىٰ أن النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم له الحق في أن يضع التشريعات المالية لسدّ حاجات المجتمع إذا أعوزت التشريعات الموجودة في القرآن الكريم عن ذلك. ولكي أوضح لك الفكرة أضرب مثالاً يقربها إليك، فلنفرض أن المشرّع الإسلامي أراد أن ينشئ دولة إسلامية، فهو في هذه الحالة يعلم أن مشروعه هذا يحتاج إلىٰ أموال ضخمة لتمويل فروعه وجهاته ووحداته الإدارية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ويعلم أنه لابدّ من وجود وزارة للمالية تتولّىٰ شؤون هذه المسؤولية وتسيّرها، وتعتمد المصادر المشروعة لها من ضرائب واستثمار الطاقات المودعة في الأرض والموارد فيها من معادن ونفط وغيرهما.

مع العلم أن المشرّع الإسلامي يعطي المعادن ملكية فردية غير أنه يفرض

☚ ٢١، ج٢١: ١٤٧، معاني القرآن ٣: ٣٦٨، أحكام القرآن ٣: ٣٢٧، المستدرك على الصحيحين ٢: ٤١٥ الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٥٩، ١٤: ١٢٣، تفسير القرآن العظيم ٢: ٤٦٩، ٤٧٧، تفسير الثعالبي ٤: ٣٣٧، كنز العمال ٢: ٥٩٦ /، زاد المسير ٦: ١٨٢، الدر المنثور ٣: ٣٤٢، ٥: ١٨٣، فتح القدير ٢: ٥١٦، ٤: ٢٦٢، ٢٦٣.

(١) الكافي ١: ٩١ / ٤، التوحيد: ٩٥ / ١٤.

(٢) انظر نهج البلاغة / الكلام: ١٢٥، وانظر تصحيح اعتقادات الصدوق: ٨٤.

عليها ضريبة، وفي بعض الحالات يؤمّمها. فإذا أردنا أن نـرجـع الآيـة إلىٰ موضوع التشريعات التي تموّل صندوق المالية لوجدناها منحصرة بـالزكاة، لكن الزكاة إنما جاءت صندوق ضمان لجهات عاجزة وليس جـهة مـالية. فالمالية إذن موكلة إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإلىٰ نظر الحاكم المسلم الحـقّ؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم له الحق أن يمدّ يده إلىٰ رؤوس الأموال فيأخذ منها ما يشاء لسدّ حاجة المجتمع، فيضع الضرائب التـي يـراهـا صـالحة لذلك دون أن تـضرّ بمصالح الأفراد.

مدرك الحكم

ومدرك رأي المفسّرين هذا ـ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم له حق التشريعات المالية ـ هو دليل الأولوية. وتقريره أن من هو أولىٰ من المؤمن بنفسه فهو (من باب أولىٰ) أولىٰ منه بماله.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إننا نعرف أن طاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم واجبة علىٰ كل مؤمن، وهي أنفذ علىٰ المؤمن من طاعته نفسه؛ لأن طاعة النـبي صلى الله عليه وآله وسلم مقرونة بطاعة اللّه تعالىٰ حيث أمرنا اللّه تعالىٰ بذلك[1] وباتباع ما جـاء بـه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[2]؛ ولذا فإن رسول اللّه كـان يـقول: **«أنـا أولىٰ بـالمؤمنين مـن أنفسهم، من مات وترك ضياعاً فإليّ»**[3]. والضياع تشمل الأموال التي لا قـيّم عليها. أي الأموال العامّة. فالرسول يقول: أنا أولىٰ بهذه الأموال.

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المائدة: ٩٢.

(٢) قال تعالىٰ: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ الحشر: ٧.

(٣) انظر: أحكام القرآن ٢: ٢٣١، الطبقات الكبرىٰ ١: ٣٧٧، كنز العمّال ١١: ١٣ / ٣٠٤١٤، ونسب من طرقنا إلىٰ الإمام الصادق عليه السلام، انظر: الكافي ٧: ١٦٨ / ١.

المبحث الثالث: سبب نزول الآية الكريمة

ولنسأل الآن حول سبب نزول هذه الآية الكريمة ليتّضح هذا الأمر أكثر؛ ذلك أن السبب يحدد لنا المعنىٰ. ويذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه حينما أراد النبي ﷺ غزوة تبوك، وأمر الناس بالخروج، قال جماعة من الصحابة: يارسول اللّه، دعنا نستأذن آباءنا وأُمهاتنا في الخروج إلى الجهاد. فنزلت الآية تخبرهم أن طاعة النبي ﷺ أهم وأولىٰ من طاعة الآباء والأُمهات؛ لأن رابطة الإنسان بأبويه هي رابطة دموية. ومع أن في هذه الرابطة عطفاً وحناناً يحددان علاقة الأب بابنه والابن بأبيه لكنّ الأبوين مهما بلغا من حب وعاطفة وإشفاق فإنهما لن يبلغا عطف السماء ورأفتها، بل يظلّان دون ذلك بكثير ذلك أنه ليسا هما اللذان خلقاك، فالسماء هي التي خلقتك، وهما لم يكونا سوىٰ واسطة في عملية الخلق هذه. فأمر النبي ﷺ إذن هو أمر السماء.. أمر اللّه الذي خلق الخلق، أما رابطة الإنسان بدينه ونبيّه فإنها رابطة روحيّة قائمة علىٰ أساس التوغل إلىٰ خفايا الروح لتهذيبها والولوج إلىٰ خبايا النفس لتأديبها، أما هذا الجسد الذي يغذوه الأبوان فسيذهب إلىٰ الأرض فتأكله الديدان. كان أحد الفلاسفة يخاطب والده قائلاً: لقد أخرجتني إلىٰ كون الفساد، واللّه أخرجني إلىٰ كون النور.

فهو يقصد أن أباه بالزواج أخرجه إلىٰ هذه الدنيا التي هي كون فساد يترتب عليه تكوين أُسرة وجمع ثروة، وهذه الأُمور لا يحسّ الإنسان بفراقها حتىٰ يحوزها؛ لأنه لولا أنها موجودة لما أحس الإنسان بلوعة الفراق.

وهذا الكلام صحيح، لكنه أحد وجهي العملة. أما وجهها الآخر فهو أن

الوجود فيه خير وعطاء و«**الدنيا مزرعة الآخرة**»[١]. والإنسان هنا يمكن أن يفعل البرّ والمعروف والإحسان إلىٰ الناس أو إلىٰ نفسه بأن يطلب العلم. وكذلك ينبغي أن نسأل: من قال: إن هذا البلاء الذي يمرّ علىٰ الناس في الدنيا سيمرّ دون عوض؟ إن اللّه تعالىٰ سيعوّض الإنسان عن كل بلاء ومكروه يقع فيهما أجراً في الدنيا أو في الآخرة، ثمّ إن الأجر في المفهوم الإلهي لابد أن يكون أكبر من مسبّبه؛ لأنه إن كان أقل من المصيبة كان ظلماً، وإن كان مساوياً لها كان عبثاً؛ فكان لابد من أن يكون أكبر منها، وهذا ما نبّه إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿**يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ**﴾[٢].

المبحث الرابع: معنىٰ الأنفس في الآية

والآن لنسأل: ما هو المقصود بالأنفس في قوله تعالىٰ: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾؟ إن المراد من النفس الذات، فيكون المعنىٰ: أولىٰ بهم من ذواتهم. فلماذا سميت الذات نفساً؟ هناك رأيان لهذه التسمية:

الأوّل: أنها أنفس ما عند الإنسان

إن حياة الإنسان هي أنفس شيء عنده، أما من يفضّل أمواله علىٰ حياته ـ كما هو شأن قلّة من الناس ـ فهذا لا يمكن أن تسميه إنساناً، بل هو مخلوق ضعيف مسكين. علىٰ أية حال إن النفس هي أثمن شيء، والإنسان إنما يتعب جسمه ليريح نفسه ويرفّه عنها مادياً ومعنويّاً، بزيارة الأرحام وطلب رضا اللّه تعالىٰ، فعليكم بأعزّ الأنفس إليكم، وأعزّ الأنفس علىٰ الإنسان نفسه.

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٦٧ / ٦٦.
(٢) البقرة: ٢١٢.

إذن فالذات إنما سميت كذلك؛ لأنها أنفس شيء عند الإنسان، والإنسان أنفس ما في الوجود.

وقد يقول قائل: إن منطق الإنسانية غير هذا؛ فهناك حروب وهناك مذابح مروعة تقع من أجل مصالح مادية أو كرسي موهوم. وبعبارة أُخرىٰ إن المنطق السائد هو منطق الغابة الذي يفضل المصلحة المادية علىٰ الإنسان، فيأكل فيها القوي الضعيف، وتشنّ الحروب لأجل أن يبقىٰ الحاكم الفلاني علىٰ كرسيّه أو ليستولي علىٰ كرسي غيره، أو ليضع يده علىٰ المادة الخام في بلاد أضعف من بلده. وليس الإنسان في نظر هؤلاء إلّا سلعة رخيصة، بل هو أرخص سلعة في الوجود من وجهة نظرهم، والحال أنه أثمن ما في الوجود.

والجواب: أن هذا التساؤل صحيح، لكن هذا الأمر ناشئ من أن الإنسان نفسه لم يقدّر وجوده ولم يعطِ إنسانيته حقّها وقيمتها التي جعلها الله تعالىٰ له.

الثاني: أنها مأخوذة من النفَس

أي أن الإنسان إنما يتحرّك باستعمال نفسه. وليس هذا أمراً ذا شأن، وإنما ذكرته للفائدة.

وعليه فإن المقصود من قوله تعالىٰ: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ أنه ﷺ أولىٰ بهم من ذواتهم.

المبحث الخامس: أمّهات المؤمنين

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿**وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ**﴾. والمقصود أن نساءه ﷺ يحرمن علىٰ المؤمنين بعد وفاته؛ فلا يجوز لأحد التزوّج منهنّ بحال من الأحوال؛ وذلك تكريماً لفراش النبي ﷺ. فهن أمهاتهم من هذه الناحية. وتروىٰ في المقام رواية كان الخليفة الثاني يتشنّج إزاءها، يقول عبد الله بن

عباس: دخلت على عمر بن الخطّاب، فتنفّس تنفّساً شديداً، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما أخرج هذا منك إلّا همّ. فقال: نعم، فويل لهذا الأمر لا أدري من له بعدي. ثم نظر إليّ فقال: لعلّك ترى أن صاحبك لها؟ يعني علياًعليه السلام. فقلت: يا أمير المؤمنين، وما يمنعه؟ أليس بمكان ذاك، في قرابته من رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم، وسوابقه في الإسلام ومناقبه في الخير؟ فقال: إنه لكذلك، ولكن فيه بطالة وفكاهة. قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من طلحة بن عبيد الله؟ قال: الأكتع؟ ما كان الله ليعطيها إياه، ما زلت أعرف فيه بأواً مذ أُصيبت يده، مع هَناة كانت له على عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم. قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من الزبير؟ قال: وعقة لقس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عبد الرحمن بن عوف؟ قال: نعم المرء ذكرت، وهو ضعيف، ولا يقوم بهذا الأمر إلّا القوي في غير عنف واللّيّن في غير ضعف، والجواد في غير سرف. فقلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من سعد؟ قال: صاحب فرس وقوس.

قلت: يا أمير المؤمنين، فأين أنت من عثمان؟ قال: أوّه، ووضع يده على رأسه وقال: والله لئن وليها ليحملنّ بني أبي معيط على رقاب الناس، فكأني أنظر إلى العرب قد سارت إليه حتى تضرب عنقه. والله لئن فعل ليفعلُن، واللّه لئن فعل ليفعلُن ذاك به. ثم أقبل علي فقال: أما إن أحراهم إن وليها أن يحملهم على كتاب الله وسنة نبيّهم صاحبك، يعني عليّاًعليه السلام(١).

والهَناة هي الذنب، والذنب الذي أشار إليه عمر بن الخطاب هو أنه لمّا نزل

---

(١) تاريخ المدينة ٣: ٨٨٢، أنساب الأشراف ٥: ١٦، منتخب كنز العمّال ٥: ١٨٩، وليس فيها: مع هَناة كانت له على عهد رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾[١] أمر الرسول الأكرم ﷺ نساءه ألّا يكلّمن الناس إلّا من وراء حجاب، فقال طلحة هذا: أيحجبنا محمد عن بنات عمّنا ويتزوّج نساءنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده. وفي رواية: لنتزوجن فلانة من بعده. فكان ذلك يؤذي النبي ﷺ، فأُنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾[٢] تعنّفه[٣].

ونحن نقول: إذا كان الأمر كذلك فلماذا رشّح طلحة للخلافة إذن[٤]؟

علىٰ أية حال فزوجة النبي ﷺ لا يجوز لأحد أن يتزوّج منها أبداً، وإن كان الأمر كذلك فهل يصحّ أن ترمىٰ زوجة النبي ﷺ بالانحراف من بعده؟ معاذ اللّه ذلك؛ لأن ذلك إساءة للنبي ﷺ قبل أن يكون إساءة لزوجته، واللّه تعالىٰ كرم الأنبياء وطهّر أعراضهم من الدنس، وهو تعالىٰ لم يبتلِ نبياً من أنبيائه بذلك أبداً؛ لأنه نقص وعيب بحق النبي ﵇. ثم إن الأنبياء ﵈ مثال الكمال، وهم القدوة في الدنيا، ولهم مكانة كبرىٰ في نفوس الناس. ولذا فإنه

---

(١) الأحزاب: ٥٩. (٢) الأحزاب: ٥٣.

(٣) الدرّ المنثور ٥: ٢١٤، فتح القدير ٤: ٢٩٩.

(٤) في مجلس الستة الذين رشحهم ليتولّىٰ أحدهم الأمر من بعده.

لا يصحّ مطلقاً أن يرمىٰ عرض النبيﷺ أبداً بمثل هذا، وفاعله مرتكب لأكبر الكبائر والأوزار. إن هذا هو مذهبنا الذي نقول به، لكن حينما تقرأ بعض الكتب تجد فيها فتاوىٰ تأمر بقتل بعض المسلمين والانتقام منهم بذريعة أنهم يسيئون إلىٰ أُم المؤمنين عائشة ويسبّونها. فمن هؤلاء الذين أساؤوا إليها؟ هل هم الذين يدينونها لأنها خرجت تقاتل إمامها(١)؟ وهل إن الإدانة هي سبّ وشتم؟

فالمسلم لا يفعل ولا يقول ما يسيء إلىٰ الرسولﷺ، وهؤلاء الذين سطروا هذه الأكاذيب ضدنا في كتبهم لهم موقف عسير أمام اللّه يوم القيامة؛ لأنهم ادعوا شيئاً لا أساس له ولا وجود، شيئاً نتحدّاهم جميعهم أن يثبتوه.

إذن أزواج النبيﷺ أُمهات المؤمنين من جهة أن المسلم لا يجوز له أن يتزوّج واحدة من أزواجهﷺ بعد وفاته. أما ما توسّع فيه البعض في هذا المجال فأطلق علىٰ أُخت زوجة النبيﷺ خالة المؤمنين وعلى أخيها خال المؤمنين(٢)، فهذا ما لا يقبل به أحد، ولا يقرّه عاقل. وحتى الإمام الشافعي(٣) كان لا يرىٰ هذا الرأي أيضاً، فيرفض هذه الألقاب لإخوان زوجات النبيﷺ أو أخواتهنّ.

---

(١) أم أُولئك الذين ينسبون إليها ما لا يجوز بحقّها مطلقاً، من قبيل أنها كانت تأمر بنات أخواتها وبنات إخوانها فيرضعن من أحبّت من الكبار أن يراها ويدخل عليها. انظر المجموع شرح المهذّب ١٨: ٢١٢.

(٢) انظر: مسند ابن راهويه ٤: ٢٩، دفع شبه التشبيه: ٢٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٤٧٧، سير أعلام النبلاء ٢: ٢٢٢، مسند ابن راهويه ٤: ٢٩، السيرة النبوية (ابن كثير): ٢٧٣، نظم درر السمطين: ٩٧، وغيرها كثير.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٦، تفسير القرآن العظيم ٣: ٤٧٦.

يروىٰ أن إحدىٰ النساء دخلت علىٰ عائشة فقالت لها: السلام عليك يا أُمّاه. فقالت لها: أنا لست لك بأُم لكن، إنما أنا أُم رجالكن[1]. وهذا لكي يصون اللّه عزّ وجلّ نبيّه عن وصمة لا تليق به.

هل يصح الزواج من زوجة الإمام؟

وقد توسّع أحد علمائنا في هذا الأمر، فبحث مسألة جواز الزواج من زوجة الإمام بعده. وهذا الأمر مبتنٍ علىٰ قاعدة أن الإمام له ما للنبي من خواص باستثناء مسألة النبوّة والوحي. وقد خلص من بحثه هذا إلىٰ أن زوجة الإمام لا يجوز الزواج بها بعد وفاته، واستدلّ بما روىٰ من أن أُمامة بنت أبي العاص زوجة أمير المؤمنين قد تقدم لخطبتها جماعة بعد استشهاده، فأبت وروت بذلك رواية. وأنا لا أُريد أن أُناقش هذا الرأي هنا وإنما ذكرته لأجل التنبيه له.

إذن فقوله تعالىٰ: **﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾** فيه تنبيه للمؤمنين إلىٰ حقيقة أن بيت النبي قد ربّىٰ المؤمنين روحياً وعقيدياً وهو يربيهم عاطفياً؛ لأن أزواجه أُمهاتهم؛ فلا يسعهم الزواج منهن؛ فلهن حكم الأُمومة من هذه الناحية، ناحية الاحترام. فالمسلم كما يجب عليه أن يحترم حضن أُمّه فكذلك يجب عليه أن يحترم حضن زوجة النبي. فبيوت الأنبياء يجب أن تحترم، وهو ما تؤكد عليه الآية الكريمة: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ**

---

(١) السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٧: ٧٠، الطبقات الكبرىٰ ٨: ٦٤، ٦٧، ١٧٩، ٢٠٠، زاد المسير ٦: ١٨٢، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٣.

﴿ذِكْرِ اللّهِ﴾[١]، و﴿أَذِنَ﴾ بمعنىٰ أمر[٢].

فبيوت النبيﷺ بيوت مؤهّلة للاحترام، واللّه أمرنا باحترامها لذلك.

المبحث السادس: مبدأ التوازن في توزيع الثروة

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ﴾. وهذا المقطع يعالج مشكلة اقتصادية، فالإسلام حينما جاء لم يكن هناك توازن بين المسلمين في عملية توزيع الثروة؛ فقد كانت هناك طبقة كبيرة من المسلمين جائعة وفقيرة، بل لا تملك شيئاً من متاع الدنيا. وهؤلاء هم علىٰ الأغلب من المهاجرين، فقد كان أصحاب الرسولﷺ في مكّة من الفقراء؛ ولذلك فإن جبابرة قريش حينما جاؤوا إلىٰ النبيﷺ ليسمعوا منه القرآن قالوا له: إنما يمنعنا من سماع القرآن هؤلاء الأعبد ـ يعنون فقراء المؤمنين - فلو طردتهم جلسنا إليك. فقالﷺ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣]. فقالوا: إذن فأقمهم عنا إذا جئنا. فقالﷺ: «نعم».

وكان هذا منهﷺ طمعاً في إيمانهم، فأنزل الله عليه هذه الآية: ﴿وَلاَ تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[٤] تردّ عليهم[٥].

الثالوث المقدّس

فهؤلاء كان معظمهم فقراء؛ فلذا أراد اللّه أن يضع وشيجة بينهم وبين

---

(١) النور: ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) العين ٨: ٢٠٠ ـ أذن، زاد المسير: ٣٦٤، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٠٣، تفسير الثعالبي ٤: ١٨٩.

(٣) الشعراء: ١١٤.

(٤) الأنعام: ٥٢.

(٥) جوامع الجامع ١: ٥٧٣، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٥٣.

الأغنياء من أبناء دينهم، وهذه الوشيجة هي وشيجة الإسلام، حيث أمـرهم بمحالفة المهاجرين. فكانت هذه الأُمور الثلاثة: الإسلام، والهجرة، والتحالف والإخاء من مسببات الميراث أوّل الإسلام؛ فقد كـان الأمـر أن الأنـصاري يرث ويورّث المهاجر كما يرث الأخ أخاه. وهكذا كان الإسلام أهم وشيجة قام بموجبها حكم التوارث هذا. أما التحالف فقد كان إضافة إلىٰ أثره هـذا يلزم أحدهما بالدفاع عن الآخر إذا تعرّض للاعتداء.

وهذه الأُمور كما قلنا كانت من مسبّبات الميراث مـبدئياً، لكـن حـينما تمكّنت وشائج الإسلام بينهم، وأصبحت الثروة ميسورة والحال أحسن من ذي قبل نزلت هذه الآية تنسخ هذا المعنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿**وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ**﴾. وفقهاؤنا يستدلّون بهذه الآية علىٰ الميراث عامّة، فمثلاً لو أن رجلاً مات وخلف بنتاً واحدة فإنها ترث الثروة كلها؛ نصفها بالفرض ونصفها بالرد[1]؛ لأنها ابنة مباشرة، وهي أقرب الناس إليه بـلا واسـطة. أمـا عـند المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ فإن البنت ترث النصف فـقط والنـصف الثـاني يعطىٰ للعصبة[2]، وهذا ما تحدث بسببه مشاكل كثيرة.

وإننا إنما حكمنا لها بذلك استناداً إلىٰ الآية الشريفة، وأخذاً بحالتها التي هي أمسّ إلىٰ الرعاية والحاجة بناءً علىٰ ذلك، وخصوصاً في مجتمعاتنا التي تتصف بطابع عجيب وغريب حيال هذه المسألة، فهي لا تحصل علىٰ عناية

---

(١) الخلاف ٤: ٦ / المسألة: ٢، الوسيلة إلىٰ نيل الفضيلة: ٣٨٦. وكـذا الحـال مـع الأخت الواحدة فيما لو لم يكن وارث من الطبقة الأُولىٰ. انظر الوسيلة: ٣٨٨.

(٢) انظر: بدائع الصنايع ٧: ٣٢٨، أحكام القرآن ٢: ١٠٧، المبسوط (السرخسـي) ٣٠: ٩٧، ٩٨، تحفة الفقهاء ٣: ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

ورعاية واهتمام منه؛ ولذا فإن الإسلام ينظر إليها من هذه الناحية ويعطيها ذلك الحق كنوع من التعويض لها. فإعطاء ذلك الحق الخاص بها إلىٰ مجموعة من الرجال لهم القابلية والقدرة علىٰ مصارعة الحياة وأخذ ما يريدون منها ليس بعدل أبداً.

فالآية الكريمة تبين أن أُولي الأرحام أولىٰ من المهاجرين أو الأنصار في وراثة أقربائهم؛ لأن أُولئك يتوارثون أيضاً فيما بينهم حسب الضوابط الشرعية المبنية علىٰ أولوية أبناء كل طبقة من الطبقات الثلاث حسب مرتبتهم ومرتبتها.

وأُحب أن أُلفت النظر هنا إلىٰ نقطة هامة هي أن لفظة الميراث إذا أُطلقت فإنما تنصرف إلىٰ الأُمور الماديّة إلّا أن تضاف، كأن يقال: ورث أخلاق أبيه أو علم أبيه أو عادات قومه، وهكذا، أما إذا أطلق اللفظ وقيل: ورث أباه، فإن الذهن ينصرف مباشرة إلىٰ الأُمور المادية. ولذلك فإن القرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ﴾[1] فهو يعني أنه ورث منه كل ما عنده من أُمور مادية وغيرها. وهذا من جملة استدلالات الزهراء عليها السلام ضد القوم علىٰ أنها ترث أباها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2].

فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَأُولُو الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ﴾ فهي إنما تؤسّس نظرية الميراث في الإسلام، ونظرية الميراث عند المشرّع الإسلامي تقوم علىٰ هذا الأساس وهو أن البنت أو الولد حينما يخرجهما أبواهما إلىٰ الوجود فإنهما يعطيانه كل خواصّها الجسدية، ولذا فإن من العدل أن يمنحانه

(١) النمل: ١٦.

(٢) مرّ هذا المطلب في أكثر من موضع في كتابنا هذا.

كل ثروتهما ؛ لأنه ليس من العدل أن يورّثا أبناءهم مشاكلهم الجسدية ولا يورثاهم أموالهم. فنظرية الميراث عندنا تقوم علىٰ أساس التوازن هذا، وعلىٰ أساس هذه المعادلة.

أما ما تذهب إليه النظم الحديثة والمعاصرة من أن مسألة الميراث إنما تقوم علىٰ أساس إعطاء فرصة للبعض وحرمان البعض الآخر من هذه الفرصة فهذا ما لا يمكن أن يقرّه عاقل. فالماركسيون مثلاً يُشكلون فيقولون: ما معنىٰ أن يموت أحد ويخلّف لابنه ملايين الدولارات، وآخر يموت ولا يخلف لابنه شيئاً ؟ لكن هذا لا يصمد أمام الواقع، وإلّا فماذا يمكن أن يكون الجواب علىٰ هذا التساؤل: لماذا يرث البعض وجهاً جميلاً من أبيه ولا يرثه آخر من أبيه ؟ بل إنه ربما كان الوارثان أخوين لكن أحدهما يولد جميلاً وضيئاً والآخر يولد قبيحاً، فلماذا ورث هذه المولود الجمال، وورث هذا المولود القبح ؟ أو أن هذا يولد عملاقاً حسب قانون الوراثة والآخر يولد قزماً صغيراً ضعيف البنية ؟ فماذا تسمي هذا ؟ ولماذا تسمي تلك الوراثة فرصة ؟ إن قانون الوراثة عادل ويقوم علىٰ أُسس عقلية سليمة ؛ فإن كل أُسرة منفصلة عن الأُخرىٰ ولا يمكن أن نحمل حالة هذه الأُسرة علىٰ حالة تلك الأُسرة.

المبحث السابع: ميراث المخالف في العقيدة

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿**إلّا أَنْ تَفْعَلُوا إلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً**﴾. يقول أحد الكتّاب: إن المسلمين يعاملون الناس علىٰ أساس التفرقة ؛ فإنهم إذا خالفهم الوارث في العقيدة، وكان علىٰ غير ملتهم حرموه من الميراث.

والجواب عن هذا الإشكال أن يقال: صحيح أن من أوليات الميراث عند المسلمين أن الكافر لا يرث المسلم، لكن هذا لا يعني أنه لا يرثه مطلقاً؛ فإن

الأب المسلم لو أوصىٰ لهذا الكافر بثلثه كانت وصيته نافذة ويجوز إعطاؤه له. والمذاهب الإسلامية إزاء هذه المسألة علىٰ رأيين:

الرأي الأوّل: أنه حق لمطلق الوارث

وهذا الرأي للمذاهب الإسلامية الأربعة؛ حيث إنهم يقولون: إن أي قريب للمتوفىٰ الوصي مهما كانت درجة قرابته له الحق في أن يقبض الثلث منه فيما لو أوصىٰ له به.

الرأي الثاني: أنه حق للطبقة الأولىٰ فقط

أي أنه حق للأبوين والأولاد دون غيرهما من الورثة. وعلىٰ هذا الرأي علماؤنا من الإمامية. فالمسلم يجوز له أو يوصي بثلثه أو يقسم منه لولده الكافر أو لأبويه الكافرين فقط.

إذن النبض الإنساني موجود عندنا، ويعيش في ذهن إسلامنا؛ ويمكن أن يقال هنا: إن وجهة نظر المشرّع الإسلامي أن هذه الثروة التي جمعها هذا المسلم ستهدر وستنفق في موارد الفجور والفسق فيما لو أُعطيت إلىٰ الكافر الذي ليس عنده إيمان ولا قيم. وهذه الأموال هي في حقيقتها طاقة يمكن أن يستفيد منها المجتمع، فإن توجّه إنفاقها إلىٰ مجالات لا يرضىٰ بها اللّه تعالىٰ ولا تعود بالفائدة علىٰ المجتمع فإن هذا ممّا يهدر الطاقة ويجعلها عبثاً، واللّه لا يريد لأحد أن يتصرّف بشكل عبثي.

فالكافر الذي لا تحكمه القيم والأخلاق يصبح عضواً مشلولاً في المجتمع، يبدّد ثروته أو يستخدمها فيما لا نفع فيه للمجتمع، بل ربما استعملها فيما فيه ضرر علىٰ المجتمع وليس علىٰ نفسه فقط.

وعليه فقوله تعالىٰ: ﴿إِلاّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ يعني أنه تعالىٰ لا

يمنعنا من الإحسان إلىٰ أقربائنا ممّن هم ليسوا علىٰ ديننا ولا يغلق في وجوههم أبواب المعروف، واللّه تعالىٰ هو مقنّن الأخلاق فهو الذي علّمنا علىٰ هذا الخلق الكريم وحثّنا عليه، يقول الرسول الكريم ﷺ: **«تخلّقوا بأخلاق اللّه»**[1]. ومع أن الكثير من الناس من يصبح علىٰ الكفر باللّه والتجديف، لكن اللّه تعالىٰ لم يقطع عنه رزقه، بل يعطيه عمراً وثروة وصحة، وإمكانيات مادية وعلمية، ويقيّض له إمكانية الاستفادة من كل ما خلقه لأجل الإنسان، مع أنه كل يوم يبارز اللّه تعالىٰ بالمعصية. وهذا ما يقرره الدعاء الوارد عن أهل البيت﷈: **«خيرك إلينا نازل وشرّنا إليك صاعد»**[2]. فنحن نواجه اللّه تعالىٰ كل يوم بالمعصية والكفر، وهو تعالىٰ مع ذلك لا يواجهنا إلّا بالبرّ والإحسان، ولا يبخل علينا بجوده وعطائه ورحمته؛ فها هي نعمه تغدق علينا صباحَ مساءَ علىٰ الرغم من معاصينا وعدم استحقاقنا (نسأل اللّه تعالىٰ ألّا يحرمنا من عطائه ورحمته).

فالسماء علّمتنا هذا الخلق العالي النبيل، وأمرتنا بأن نحسن إلىٰ من يخالفنا بالرأي والعقيدة ولا نقطع عنه ما يقوّم ذاته. ولقد كان عطاء النبي ﷺ يصل إلىٰ بعض الناس ممّن هم أشد الخلق عدواة له، وكذلك أمير المؤمنين﷣؛ فقد كان عطاؤه يصل إلى بيوت تتقرّب إلى اللـه بشتمه كسلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي حيث إنه كان قد اعتزل القتال مع أمير المؤمنين﷣ هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقّة، فكان﷣ يرسل إليهم عطاءهم ويقول: **«لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم**

---

(١) بحار الأنوار ٥٨: ١٢٩.

(٢) مصباح المتهجّد: ٥٨٦، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٦٢.

مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا»[١].

فلم ينقطع عطاؤه عن مثل هؤلاء ومثل عبد اللّه بن الكوّاء والأشعث بن قيس، بل حتىٰ ابن ملجم الذي أخبره رسول اللّه أنه سيقتله[٢]، كان يوصل عطاءه إليه. وهكذا كانعليه‌السلام يوصل عطاءه إلىٰ بيوت تظن أنها تتقرب إلىٰ اللّه بشتمه. وهذا تطبيق حيّ لما رسمه اللّه تعالىٰ له من خلق نبيل وعالٍ، وقد جرىٰ عليه كل الأنبياء والأيّمةعليهم‌السلام؛ لأنه الخُلق الذي أراده اللّه لنا.

فلاحظ منطوق الآية **﴿إِلّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾** حيث جعلت الحاجة سبباً من أسباب العطاء، فالاقتصاديون الإسلاميون حينما يعمدون إلىٰ ذكر أسباب توزيع الثروة في الإسلام يذكرون من جملتها الحاجة، وهذا الأمر مأخوذ بنظر الاعتبار في وجهة نظر القانون الاقتصادي الإسلامي، فالحاجة سبب مشروع ومبرّر واقعي لإعطاء الأموال وتوزيعها.

المبحث الثامن: موقف العباس من الحسينعليه‌السلام علىٰ ضوء الآية

ولنعد الآن بعد هذا البيان إلىٰ المسألة التي تناولناها وطرحناها أوّل البحث، وهي أن وشيجة الروح أقوىٰ من وشيجة الدم والجسد، ولنأخذ علىٰ ذلك مثالاً حيّاً من تاريخنا وهو موقف العباسعليه‌السلام من نهضة أخيه أبي عبد اللّه الحسينعليه‌السلام، ولنرَ ماذا يقول الإمام المعصوم في زيارته لعمّه العباس، إنهعليه‌السلام يخاطبه بقوله: **«سلام الله وسلام ملائكته المقرّبين، وأنبيائه المرسلين،**

---

(١) الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

(٢) كمال الدين: ٨٢، مسند أحمد ١: ١٠٢، بغية الباحث: ٢٩٦، الآحاد والمثاني ١: ١٤٥، أُسد الغابة ٥: ٢٧٣، ولم تشر لاسمه، غير أنهعليه‌السلام كان يعرفه باسمه ورسمه، انظر: الإرشاد ١: ١٣، تذكرة الخواصّ: ١٨٦.

وعباده الصالحين، وجميع الشهداء والصدّيقين، الزاكيات الطيّبات فيما تغتدي وتروح عليك يابن أمير المؤمنين. أشهد لك بالتسليم والتصديق والوفاء والنصيحة لخلف النبي ﷺ»[١].

ويقول﵇: **«السلام عليك يا أبا الفضل العباس بن أمير المؤمنين، السلام عليك يابن سيد الوصيّين، السلام عليك يابن أول القوم إسلاماً وأقدمهم إيماناً، وأقومهم بدين الله وأحوطهم على الإسلام. أشهد لقد نصحت لله ولرسوله ولأخيك، فنعم الأخ المواسي»**[٢].

وقال الإمام الصادق﵇: **«كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة، صلب الإيمان، جاهد مع أبي عبد الله﵇ وأبلى بلاء حسناً ومضى شهيداً»**[٣].

ثمّ لنرَ ما الذي يقول العباس﵇، وهو يسطّر أروع أمثلة البطولة والنبل في ملحمة كربلاء:

واللّه إن قطعتمُ يميني ... إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين ... نجل الإمام الطاهر الأمينِ[٤]

فهو﵇ يقول: أنا لم أخرج مع الحسين﵇ لأُدافع وأحامي عن وشيجة الدم والجسد، وإنما خرجت لأُدافع عن إمام حق يقوم بالحق ويقعد بالحق، ولأُدافع عن ديني المتجسّد في هذا الشخص. وهكذا كان حال إخوته؛ لأن

---

(١) مصباح المتهجّد: ٧٤٢ / ٨١٤.
(٢) المزار (المفيد): ١٢٣ ـ ١٢٤، المزار (المشهدي): ٣٩١.
(٣) عمدة الطالب: ٣٥٦: سرّ السلسلة العلويّة (أبو نصر البخاري): ٨٩، مقتل الحسين﵇ (أبو مخنف): ١٧٦.
(٤) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

الذين قتلوا في الطف من أبناء أمير المؤمنين عليه السلام كانوا تسعة على رواية، وعاشرهم الحسين عليه السلام، وهم أولاده الصلبيّون، وهناك رواية تقول: إنهم ثمانية والحسين عليه السلام تاسعهم. ولكن من هم أبناء أمير المؤمنين عليه السلام الذين قتلوا في الطف دون سيّدهم وأخيهم الإمام الحسين عليه السلام؟ هم عبد الله ومحمّد وأُمهم ليلىٰ بنت مسعود النهشلية، وقد استشهدا في ساحة الشرف في أوّل حملة من حملات أهل البيت عليهم السلام علىٰ الجيش الأُموي.

ويحيىٰ وعون وأُمهما أسماء بنت عميس، وكانت تحت أبي بكر وأولدها محمداً ثمّ تحت جعفر فأولدها عبد الله وعبيد اللّه. وأبو بكر لم ينصّ المؤرخون علىٰ اسم أُمّه. وأربعة لأُم البنين، والحسين عليه السلام عاشرهم. وهذا علىٰ الرواية التي يشير إليها شاعر الطالبيين حيث يقول:

عينُ جودي بعبرة وعويلِ ... واندبي إن ندبت آلَ الرسولِ
تسعةٌ كلُّهم لصلبِ عليٍّ ... قد أُبيدوا وسبعةٌ لعقيلِ(١)

وعلىٰ العموم فالذي يعنينا في بحثنا هذا هو أبناء أُمّ البنين الأربعة الذين كانوا مثال الطاعة والانقياد لإمامهم أبي عبد الله عليه السلام، وكانوا حقاً خير من جسّد قاعدة أن وشيجة الروح أقوىٰ من وشيجة الدم، وبالذات العباس عليه السلام الذي كان يملأ أسارير الحسين عليه السلام غبطة إذا رآه، وكان عمره يوم الطف أربعة وثلاثين سنة، أي أنه كان في قوّته وفي أشدّه، ثمّ يتسلسل إخوته الباقون من بعده. وقد أصرّ عليه السلام علىٰ أن يقدم إخوته أمامه كي يرزأ بهم دون الإمام الحسين عليه السلام، وقد ذكرت أكثر من مرّة أن أحد المؤرّخين وصل به الأمر أن

---

(١) البيتان لسليمان بن قتة التيمي. مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٦٧، شرح نهج البلاغة ١٥ : ٢٣٦.

يروي أن العباس﵇ كان قد قال لإخوته: تقدموا حتى أرثكم[1]! وكأنه﵇ كان يرغب في العيش بعدهم حتى يتمنّى أن يرثهم. إنه﵇ إنما قال لهم: «تقدّموا حتى أُرزأ بكم».

وفعلاً قدّم إخوته الثلاثة دون أبي عبد اللّه﵇. ولقد كان العباس﵇ مثال الرجل المطيع لأبي عبد اللّه﵇، ومثال المؤمن الذي حمل الإيمان في طرق جهاده، وقاتل دون الإمام أبي عبد اللّه﵇ لا لأنه أخوه، بل لأنه إمامه:

.... إنـي أحـامي أبـداً عـن ديـني

وعــن إمــام صــادق اليقينِ نجل الإمام الطـاهر الأمـينِ[2]

يقول الشيخ المفيد ومؤرخون آخرون: أقبل العباس﵇ إلىٰ أخيه الإمام الحسين﵇ وقال له: أبا عبد اللّه، هل سمعت أصوات النساء والأطفال؟ اسمح لي أن أجلب لهم قليلاً من الماء»[3].

فأشفق عليه الإمام الحسين﵇ وأراد أن يمنعه، فقال له: **«يا أخي، أنت رئيس عشيرتي وحامل لوائي، فإذا مضيت سقط لوائي وتفرق عسكري»**. فقال العباس: يا أبا عبد الله، قد ضاق صدري بسبب هؤلاء، وسئمت من الحياة، وأُريد الآن أن أطلب ثأري من هؤلاء المنافقين، وإني لا أقدر أن أصبر وأنا

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦، والحقيقة أنه قال لهم: تقدموا حتىٰ أراكم قتلىٰ فأحتسبكم. مقاتل الطالبيين: ٨٢، مقتل الحسين﵇ (أبو مخنف): ١٨٤. وإن كان البعض يرىٰ أنها كذلك (أرثكم)، والغاية من هذا هي أن يمنع عمر الأطرف أخاه لأبيه من منازعة أُمّه (أم البنين) ميراثه بناء علىٰ نظرية التعصيب. لكن لا يخلو من مؤاخذة. وقد ذكره المظفر في (بطل العلقمي). انظر كتاب من سيرة الحسين﵇ (المرهون): ٣٨٨.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

(٣) لم نعثر عليه، وقريب منه ما في بحار الأنوار ٤٥: ٤١.

أسمع العيال يتصارخون: العطش قد قتلنا. فقال الإمام الحسين﷤ : **«أوقد عزمت؟»**. قال: نعم. قال﷤ : **«فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء»**.

لقد حاول الإمام الحسين﷤ أن يتشبث به أطول فترة ممكنة؛ لأنه كان شقيق روحه، وكان يمتزج معه بروحه، لكنه﷤ أذن له أخيراً بناء على إصراره، فنزل إلى المعركة وهو يرتجز ويقول:

لا أرهبُ الموتَ إذا الموتُ رقىٰ حتىٰ أوارىٰ في المصاليتِ لقىٰ

إنـي أنـا العباسُ أغدو بالسقا ولا أخافُ الحربَ يومَ الملتقىٰ

نفسي لنفسِ المصطفى الطهر وقا(١)

فلما وصل إلىٰ الماء وملأ قربته، أراد أن يشرب فأخذ شيئاً منه وأدناه إلىٰ فمه، ثم رماه من يده. وهنا يبرز جوهر الإنسان.. جوهر نفسه وروحه، يقول الإمام الصادق﷤ : **«كان قلب عمّي العباس﷤ كصالية الجمر من الظمأ»**(٢). ذلك أنه ما إن تذكر عطش أبي عبد الله﷤ والعائلة حتى رمى الماء، ثم ملأ قربته، وقال: لا واللّه، لا شربت بارد الماء وأبو عبد اللّه﷤ عطشان. ثم حمل القربة على كتفه الأيمن، وكان جلّ همّه أن يوصله إلىٰ الخيمة، فصاح ابن سعد: اعصوصبوا عليه. فاشتبكت عليه الرماح، وكمن له زيد بن ورقاء من وراء نخلة، فضربه على يمناه فبراها، فقال:

واللّه إن قطعتمُ يميني إنّي أُحامي أبداً عن ديني

وعن إمامٍ صادقِ اليقينِ

ثم حملها على كتفه الأيسر فضربه حكيم بن الطفيل، فقطع يده اليسرى،

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودّة ٣: ٦٧.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠.

فأنشد (رضوان الله تعالى عليه) قائلاً:

يا نفس لا تخشَي من الكفّارِ وأبشري برحمة الجبارِ

مع النبي المصطفىٰ المختارِ قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلِهم يا ربُّ حرّ النارِ[1]

وينادي المنادي: والله لئن أوصل الماء للحسين ليقتلن منكم مقتلة. فحمل لواءه بباقي زنديه وضمّه إلى صدره، وانحنى على السقاء فحمله بأسنانه ليوصله إلىٰ القلوب العطشى، فجاءه سهم فأصاب القربة وأُريق ماؤها، عند ذلك استداروا عليه، وضُرب بعمود من حديد على رأسه، ثم جاءه سهم آخر فأصاب صدره، فسقط إلىٰ الأرض منادياً: عليك مني السلام أبا عبد اللّه، أدركني. فأقبل له الإمام الحسين ﷺ وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، إلى أن وصل إلى مصرعه فجلس عند رأسه وأخذه ووضعه في حجره، وراح يمسح الدم والتراب عن وجهه الشريف:

لمن اللوا أُعطي ومن هو جامعٌ شملي وفي ضنكِ الزحامِ يقيني

عبّاس كبش كتيبتي وكنانتي وحليف نصري بل أعزّ حصوني

ولما سقط صريعاً وقف عليه الحسين ﷺ، ولم يكن العباس يرى؛ لأن إحدى عينيه قد جمد عليها الدم، والأُخرى نبت بها السهم، ولا يدَ عنده فيمسح بها الدم عن وجهه، فأحسّ بحركة رجل عنده وهو في لحظاته الأخيرة، فقال: من هذا الجالس؟ قال الحسين: **«لماذا؟»**. قال: يا هذا أُقسم عليك بمن تعبد أن تمهلني فواق ناقة. قال: **«ما تصنع بها»**. قال: حتى يأتي

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودّة ٣: ٦٨.

إليّ أخي وابن والدي أُودّعه ويودّعني، وأشمّه ويشمني. فقال الحسين عليه السلام: **«أنا أخوك»**. قال: إذن ادنُ مني أُقبّلك وأشمّك. فوضع الإمام الحسين عليه السلام فمه على فمه وراح يقبّله إلى أن فاضت روحه الطاهرة.

فقام الإمام الحسين عليه السلام وهو يكفكف دموعه بمنديله، ورجع حتى دخل الخيمة وحيداً، فاستقبلته الحوراء زينب: أين ابن والدي؟ قال: **«أُخيّة، عظّم اللّه لك الأجر بأبي الفضل؛ لقد خلّفته على المشرعة دامي الوريدين»**. فوضعت يدها على صدرها وصاحت: وا أخاه:

خويه الساع وكع بيتي عليه ... خويه الساع عدوي شمت بيه

خويه امنين اجت ليك المنيه

* * *

وهوىٰ عليه ما هنالك قائلاً ... اليوم بان عن اليمين حسامها

اليوم آل إلى التفرّق جمعنا ... اليوم حلّ عن البنود نظامها

اليوم نامت أعين بك لم تنم ... وتسهّدت أُخرىٰ فعزّ منامها

﴿١١٩﴾

صحوة الضمير وتنازع الغرائز

إذا ماسقىٰ اللّه البلاد فلا سقى

معاهد كوفان بنوء المرازم

أتت كتْبهم في طيّهن كتائب

وما رقمت إلّا بسمّ الأراقم

المباحث العامة للموضوع

مقدمة تاريخية

عندما انتهىٰ الأمر بين الإمام الحسين عليه السلام وبين الأُمويين إلىٰ ما انتهىٰ إليه من مرحلة المواجهة العسكرية، استنفر الأُمويون قواهم وجيوشهم لهذا الأمر، وكان أن توجّه عبيد اللّه بن زياد إلىٰ تجريد جيش لمحاصرة الحسين عليه السلام ومنعه من التحرّك؛ لما كان عليه أمره من بوادر تشير فيه إلىٰ قيامه بنهضة عسكرية. وقد توجّهت ثلة من جيش عبيد اللّه لمحاصرة الإمام الحسين عليه السلام وعرقلة سيره، في محاولة لمنع وصوله إلىٰ الكوفة. وأوّل من نُدب لهذه المهمة هو عمر بن سعد؛ حيث استدعاه عبيد اللّه ليلاً وقد هيّأ له كتيبة قوامها أربعة آلاف جندي، ووعده فيما لو نجحت حملته فإنه سيوليه الري.

وفعلاً كتب له صكاً بملك الري ودفعه إليه. لكنه حينما فوجئ بخروج الإمام عليه السلام من مكّة وقصده العراق استدعىٰ الجيش وأمر ابن سعد بأن يرجع، فلما عاد إليه خاطبه ابن زياد بقوله: لابد من توجيه الحملة لقتال الحسين.

فقال ابن سعد: أمهلني ليلة أفكر فيها وأتدبّر فيها أمري. فقال له: لك ذلك.

فلما رجع ابن سعد جمع وجوه قومه وطلب منهم إبداء الرأي والمشورة، فعارضوه في هذا الأمر ونهوه بشدّة، وكان أشدّ الناهين له ابن أُخته حمزة بن المغيرة بن شعبة حيث قال له: إياك والإقدام علىٰ هذا الأمر؛ فإنه خسارة لك في دينك ودنياك. فلما أصبح الصباح دخل عمر علىٰ عبيد اللّه فابتدره هذا قائلاً: علام قرّ رأيك؟ قال: أنا متردد في شأن هذه الحملة. فقال له: إذن هاتِ الصكّ الذي معك، فهناك من يقود الحملة غيرك، ونحن لا نجبرك علىٰ هذا الأمر. فقال له عمر حينها: إذا كان الأمر كذلك، فأنا موافق[1].

المبحث الأوّل: تداعيات القصة

إن هذا المقطع من السيرة سنخرج منه بثلاثة استنتاجات إن شاء اللّه، سيتمحور حولها بحث هذه الليلة:

الاستنتاج الأوّل: قرابة ابن سعد من الحسين عليه السلام

فعمر بن سعد هذا هو عمر بن سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك ابن أُهيب بن قصي، أي أنه يلتقي مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله بجدهما الرابع؛ فهو ابن عم الحسين عليه السلام.

الاستنتاج الثاني: أن عداء ابن سعد للحسين عداء غير نزيه

ثمّ إن عمر بن سعد هذا كان علىٰ خطّ أبيه ـ مع فارق واحد هو شرف النفس كما سيأتي ـ ذلك أن أباه سعداً كان من المنحرفين عن أمير المؤمنين عليه السلام والممتنعين عن بيعته، لكنه كان مع ذلك يتوفّر علىٰ الكثير من مقوّمات الشرف، ويحتفظ بنفس شريفة؛ ومما يدل علىٰ ذلك أنه حينما دخل

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٠٩ ـ ٣١٠، تاريخ مدينة دمشق ٤٥: ٥٠ ـ ٥١.

معاوية إلى المدينة وأخذ ينتقص من أمير المؤمنين عليه السلام وجاء سعد بن أبي وقّاص قال له معاوية: ما يمنعك أن تسبّ ابن أبي طالب؟ قال: لا أسبّه ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لأَن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم. قال له معاوية: ماهن يا أبا إسحاق؟ قال: لا أسبّه ما ذكرت حين نزل عليه الوحي فأخذ عليّاً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: **«ربّ إن هؤلاء أهل بيتي»**. ولا أسبّه ما ذكرت حين خلّفه في غزوة تبوك، غزاها رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال له علي: **«خلفتني مع الصبيان والنساء؟»**. قال: **«ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إنه لا نبوّة بعدي؟»**. ولا أسبّه ما ذكرت يوم خيبر حين قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم : **«لأُعطين هذه الراية رجلاً يحبّ اللّه ورسوله ويفتح اللّه على يديه»**. فتطاولنا لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: **«أين علي؟»**. قالوا: هو أرمد. فقال: **«ادعوه»**. فدعوه فبصق صلى الله عليه وآله وسلم في وجهه ثم أعطاه الراية، ففتح اللّه عليه. قال: فلا واللّه، ما ذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة[١].

ثمّ قال له ابن سعد: واللّه إني أحق منك بالخلافة. فقال له معاوية: يأبىٰ عليك ذلك بنو عذرة. وهي كلمة سب نابية.

فالمهم إن سعداً هذا علىٰ الرغم من مخالفته لأمير المؤمنين عليه السلام وامتناعه

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٠٨، قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه بهذه السياقة، وقد اتفقا جميعاً على إخراج حديث المؤاخاة وحديث الراية.
وفي كتاب السنة لعمرو بن أبي عاصم عن سفيان بن عيينة أنه قال: ذكر علي (رضي الله عنه) عند معاوية وعنده سعد بن أبي وقاص، فقال له سعد: أيذكر علي عندك؟ إن له لمناقب أربعاً لأَن يكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حمر النعم. قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «لأُعطين الراية»، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «بمنزلة هارون من موسى»، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «من كنت مولاه»، ونسي سفيان الرابعة. كتاب السنة: ٥٩٦ / ١٣٨٦.

عن نصرته، إلّا إنه كان صحابياً يعرف لأمير المؤمنين قدرهُ ومنزلته ومكانته. إن من الأعداء من يكون شريفاً في عداوته ومنهم من يكون وضيعاً فيها، وسعد من النوع الأوّل، لكن ابنه عمر كان من النوع الثاني؛ فقد اتصّف عداؤه للإمام الحسين بالكثير من الخسة والدناءة والوضاعة.

الاستنتاج الثالث: أن عامل القرابة لا دخل له في النصرة والعداوة

فكون ابن سعد ابن عمّ الإمام لا يؤثّر من قريب أو بعيد في المسألة؛ لأن النفس التي تضعف أمام المال تبيع حتىٰ دينها[1]. فالمسألة أن الإنسان لا يصنعه اللحم والدم، وإنما تصنعه المبادئ والفكر والخلق. والإنسان ليس إنساناً بدمه ولحمه، ولا هو عبقري أو عظيم بهما، وإنما هو يكون كذلك بما يملك من نفس عظيمة وخلق نبيل وتربية عالية وآداب رفيعة. فهذه المقوّمات هي التي تصنع الإنسان.

والإنسان الحقيقي هو ابن الحضارة لا ابن النسب، وهذا ما يؤكده علماء الاجتماع وعلماء النفس عندما يتعرّضون لمقام المفاضلة بين الغريزة والتربية. وقد أُخضع هذا الأمر لعدّة أسئلة منها: ما الذي يصوغ الإنسان في المجتمع؟ وما الذي يحدّد سلوكه وأخلاقه؟ هل هي الغرائز والدم واللحم، أي العوامل والخصائص البيولوجية، أم أن الذي يحدّد ذلك عنده الحضارة؟ وما هو دور وجوه المحيط ـ الأبوين، والتربية، والمدرسة ـ في ذلك؟ ويستنتج من هذه التساؤلات علىٰ ضوء الدراسات الاجتماعية والنفسية أن

---

(١) قد أكد المحاضر في محاضرته السابقة (النصرة والقرابة) علىٰ هذا الأمر، وذلك في خصوص علاقة العباس بأخيه الإمام الحسين حيث إنه أكد تأكيداً بالغاً علىٰ أن العباس لم ينصر الحسين لأنه قريبه بل لأنه إمامه أي أن القرابة لا دخل لها في نصرته إياه بعد أن أيقن إنه إمامه وواجب الطاعة عليه ومفترضها.

وجوه المحيط والحضارة أُمور تتضافر علىٰ صياغة شخصية الإنسان وتحديد سلوكه في المجتمع؛ حيث إنها أُمور تغلغل في نفسه الأخلاق والآداب والمعلومات المنبثقة عن البيئة الاجتماعية أو الثقافية والفكرية له، وغيرها. فهذه الأشياء هي التي تخلق الإنسان، وهو ابنها وليس ابن اللحم والدم.

فعمر بن سعد ابن عم الحسين عليه السلام ولكنه ناصبه العداء، كما أن من إخوة الحسين عليه السلام من لم يخرج معه، في حين أن بعض من خرجوا معه لا تربطهم به عليه السلام أي علاقة نسبية من قريب ولا من بعيد، فوهبُ مثلاً رجل كان نصرانياً، لكنه كان ذا مروءة وتربية عالية، كما أنه أدرك سموّ أهداف نهضة الإمام الحسين عليه السلام وغايتها، ونبل مقاصد ثورته، فتجلّىٰ له الحقّ عند استماعه إليه؛ فالتحق بهذه النهضة الشريفة المباركة.

وهذا هو ما نريد أن نؤكده؛ إننا لا نقول بعامل القرابة والدم واللحم وإنما نؤكّد علىٰ عامل التربية والمشاعر، فهذا هو الأساس الذي يصوغ للإنسان دينه.

وعمر هذا علىٰ الرغم من أنه ابن عم الإمام عليه السلام، وعلىٰ الرغم من التحذيرات التي وجهت إليه كما أسلفنا إلّا إنه ألحّ إلحاحاً شديداً علىٰ متابعة مهمة قتال الإمام عليه السلام وقتله؛ لأن النظرة إلىٰ الحياة تختلف من إنسان لآخر، وهي كذلك مختلفة عند هؤلاء الذين قتلوا الحسين عليه السلام وعند الإمام الحسين عليه السلام نفسه؛ فهؤلاء لا ينظرون إلىٰ الحياة إلّا علىٰ أنها أموال وسلطان وقصر وكرسي يجلس عليه الإنسان ولو لأمد قصير، فهي لا تعدو هذا التصوّر عندهم، أمّا عند الحسين عليه السلام فهي سمو نفس ونبل وأخلاق وكرامة وموقف. وباختلاف وجهة النظر تختلف المقاصد والأهداف.

ومثل هذا في نظر الإمام الحسين عليه السلام يعد مسكيناً ينبغي ألّا يحقد عليه،

وهذا الروح هو روح الأنبياء ألم يقل إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]؛ فهو لم يسب ولم يشتم؛ لأنه يعرف أن هذا جاهل، والجاهل مريض، والمريض لا يُشتم ولا يُعتدىٰ عليه. لكن هذا المريض بما يملك من نظرة ضيقة قاصرة يتصوّر أن الأمر يجب أن ينتهي إلىٰ هذا الكرسي الذي يتأرجح من تحته، أما في الطرف المقابل فالأنبياء والأوصياء الذين حملوا راية الفكر والعدل والزهد في الدنيا بأجمعها، وفي هذا الطرف أمير المؤمنين الذي كان ذات مرّة في طريقه إلىٰ البصرة كما يروي ابن عباس فيقول: نزل الربذة، فلقيه بها آخر الحاجّ، فاجتمعوا ليسمعوا من كلامه وهو في خبائه، فأتيته فوجدته يخصف نعلاً، فقلت له: نحن إلى أن تصلح أمرنا أحوجُ منّا إلى ما تصنع.

فلم يكلّمني حتى فرغ من نعله، ثمّ ضمّها إلى صاحبتها ثم قال لي: **«قوّمها»**. فقلت: ليس لها قيمة. قال: **«علىٰ ذاك»**. قلت: كسر درهم. فقال: **«والله لهما أحبّ إلي من أمركم هذا إلّا أن أُقيم حقّاً أو أدفع باطلاً»**[2]. وهذا بطبيعة الحال ناشئ عن اختلاف وجهات النظر بين الإمام علي وبين أعدائه طلّاب الدنيا والساعين وراء الكرسي، ومن هؤلاء ابن سعد حيث يقول:

دعاني عبيدُ الله من دون قومه ... إلى خطّةٍ فيها خرجت لحَيني
فو اللهِ لا أدري وإني لواقفٌ ... علىٰ خطرٍ لا أرتضيه ومينِ
أأترك ملكَ الريّ والريّ منيتي ... أمَ ارجعُ مأثوماً بقتلِ حسينِ
وفي قتلِه النارُ التي ليس دونَها ... حجابٌ وملكُ الريّ قرّة عينِ[3]

---

(١) إبراهيم: ٣٦.
(٢) الإرشاد ١: ٢٤٧، الجمل: ١١٣.
(٣) كشف الغمة ٢: ٢٥٩.

فهذان هما الهدفان الوحيدان في الحياة: هدف هو عبارة عن رغبة مؤقتة سرعان ما تموت وتتلاشىٰ ثمّ يعقبها الندم والخسران وتأنيب الضمير ولعنة الأجيال، وهدف ناصع يستهدف خير الإنسانية، وهو هدف خالد بخلود صاحبه الذي يحمل الوجه الناصع ويثبت للأجيال أنه المثل الأعلىٰ ويريهم أن الحياة لا قيمة لها في حقيقتها ودوافعها.

المبحث الثاني: ﴿يَخْرُجُ الحَيَّ مِن المَيِّتِ﴾

ثمّ إن حمزة بن المغيرة (ابن اخت عمر بن سعد والذي نصحه بعدم القبول بعرض عبيد اللّه بن زياد حول قتل الإمام الحسين عليه السلام) هو ابن المغيرة بن شعبة الذي يخجل التاريخ حينما يستعرض أوّليات حياته وسيرته. إن جوّ المغيرة قد تناولته كتب التاريخ وفصلته تماماً، ومن جملة أوّلياته هذه أنه أحرج الخليفة الثاني حينما أنقص واحداً من الشهود الأربعة فدرأ عنه الحدّ[1]. وله مواقف كثيرة واضحة الانحراف، ومنها مساهمته في قتل الخليفة الثاني، بل إن هناك تخطيطاً واضحاً ـ كما هو الحال مع اغتيال عثمان وأمير المؤمنين عليه السلام ـ كان يدبّر له المغيرة. ولو لاحظنا من اشترك في العملية هذه لاتضحت لنا خيوطها، إن الذين اشتركوا في عملية الاغتيال هذه هم ثلاثة:

الأوّل: جفينة المسيحي، وكان ضئراً لسعد بن مالك ـ أي أنهما ارتضعا من ثدي واحد ـ وقد دخل إلىٰ المدينة بتخطيط من سعد نفسه مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمنع اليهود والنصارىٰ إذا بلغوا الحلم أن يدخلوا المدينة المنوّرة. لقد أدخله سعد إلىٰ المدينة بحجّة تعليم المسلمين العلوم الحديثة والكتابة، وذلك

---

(١) المسترشد في الإمامة: ٢٢٣، الاحتجاج ١: ٤١٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ٥٦ / ٣، ٢٠: ٢٣، كنز العمّال ٥: ٤٥٢ / ١٣٥٨٩، ٧: ٢٢ / ١٧٧٧٦، الإصابة ٣: ٣٠٤، شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

بعد فتح الحيرة وكان قد بقي فيها فترة قرّب ضئره هذا، وأتىٰ به معه إلىٰ المدينة بعنوان أنه مدرس.

الثاني: كعب الأحبار، هذا اليهودي الذي تجد بصماته واضحة المعالم في كتب التاريخ والتفسير في محاولة لتشويه وتحريف التراث الإسلامي. وإلىٰ هذا الوقت هناك الكثير ممن يكتب أو يفسّر فيقول: قال كعب الأحبار. والحال أن هذا الرجل أُجريت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، لكن تظهر في سيرته ألف علامة استفهام، فهذا الرجل جاء إلىٰ الخليفة الثاني قبل مقتله بأربعة أيام وقال له: أوصِ وصيتك واعهد عهدك؛ فإني أجد في التوراة أنك ستقتل بعد ثلاثة أيام. فقال: أو تجد اسمي في التوراة؟ قال: بلىٰ. ثمّ جاء في اليوم الثاني وقال له: لقد بقي من عمرك يومان، فخذ حذرك فإنك ستقتل، وكذلك عاوده في اليوم التالي[1].

إن هذا الرجل الذي حمل حقد اليهود قد أقبل يلعب دوره في ضرب استقرار المسلمين، وفعلاً فإن الخليفة الثاني كان له موقف شديد معه حيث رفع الدرة ذات مرّة وضربه علىٰ رأسه وقال له: قد أكثرت الكذب. ثمّ طرده[2].

وهكذا حمل الحقد من هذه المعاملة، وكذلك فإنه ترك لنا تراثاً مشؤوماً؛ حيث إنه غرس الفكر اليهودي في التفسير والتاريخ؛ ولذا فإن الباحث يجد

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٢٦٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٤: ٤٠٨.

(٢) لم نعثر عليه عن كعب وإنما عن أبي هريرة، انظر شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧، ونقل الشوكاني وغيره عن ابن عباس في تفسير الجبت والطاغوت قال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف. انظر: تاريخ المدينة ٢: ٤٥٢، زاد المسير ٢: ١٣٨، الجامع لأحكام القرآن ٥: ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٢٥، فتح القدير ١: ٤٧٩.

فيهما الكثير من الأفكار السخيفة البالية والتعليلات والآراء العجيبة[١]. وهكذا فإن بصمات هذا اليهودي كانت واضحة وهي لا تزال تعبث بتراثنا. ومن هذا ما يروىٰ من أن النبي موسىعليه السلام جاءه عزرائيلعليه السلام ليقبض روحه، فقال لهعليه السلام: **«ماذا تريد؟»**. قال: **«أريد أن أقبض روحك»**. فضربه النبي موسىعليه السلام بعينه ففقأها له، وردّه إلى ربّه وهو أعور[٢].

وأنا لا يهمّني هنا قول من يقول: إن هذه الروايات قد تمّت غربلتها، وروعي اختيارها؛ حيث إنه كان اختياراً دقيقاً، ووفقاً للضوابط العلمية؛ فهي بالنتيجة منتقاة بعناية في كتب الصحاح، لكن يهمني جداً ألّا نلوّث عقليّة هذا الجيل، فهذه القضية تتّصل بعقليّة الإسلام والمسلمين وعقيدتهم، فكيف يعقل أحد أن الله يبعث ملكاً لقبض روح إنسان فيعجز عن ذلك؟

وهناك الكثير من أمثال هذه الإسرائيليات التي تلوح عليها بصمات كعب الأحبار واضحة، ومثله وهب بن منبّه وغيرهما من اليهود الذين لعبوا دوراً مشوّشاً جداً في تاريخ المسلمين وحياتهم. وهؤلاء كانوا ولا يزالون سرّ مصائبنا وبلائنا؛ وكذلك هم اليهود علىٰ امتداد تاريخهم معنا.

الثالث: أبو لؤلؤة، وقد أدخله المغيرة للمدينة بحجّة أنه ذو مهارات ويستطيع أن يعلمها الناسَ وينقل إليهم خبرته[٣]. يروي الطبري[٤] وابن الأثير[٥] أن عبد الرحمن بن أبي بكر قال غداة طعن عمر: مررت على أبي لؤلؤة عشيّ أمسِ ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجيّ، فلمّا رهقتهم ثاروا

---

(١) كما مرّ من أمر خلق السنور والخنزير في سفينة النبي نوحعليه السلام، انظر محاضرة (دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا). (٢) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

(٣) المصنّف (الصنعاني) ٥: ٤٧٤ / ٩٧٧٥.

(٤) تاريخ الطبري ٣: ٣٠٣. (٥) أُسد الغابة ٣: ٣٤٢.

وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فانظروا بأي شيء قتل؟ وقد تخلل أهل المسجد وخرج في طلبه رجل من بني تميم فرجع إليهم التميمي وقد كان أمسك بأبي لؤلؤة عند منصرفه من عمر، حتى أخذه فقتله وجاء بالخنجر الذي وصفه عبد الرحمن.

وللعلايلي رأي في المغيرة له مسحة من القبول، يقول: لمّا شاهد هؤلاء أن الخليفة الثاني في أيامه الأخيرة بدأ ينعطف نحو الهاشميين، وأخذ يقول: «لا أبقاني اللّه لمعضلة ليس لها أبو الحسن» و«عقمت الناس عن أن يلدن مثل ابن أبي طالب»، وكانت بوادر الانعطاف هذه واضحة، فتخوّف الأُمويّون من الأمر، وأدركوا خطورة هذا الموقف عليهم، فحرّكوا المغيرة لفعل شيء ما[1]. وهذا الرأي ليس للعلايلي وحده بل يشاركه فيه آخرون غيره.

دور المغيرة في قتل الخليفة الثاني

والشي المهم الذي أُريد أن أُنبّه إليه هو أن المغيرة كان من ضمن من لعبوا دوراً في قتل الخليفة الثاني. وأنا لا أرغب أن أُلوّث المنبر بسيرة هذا الرجل، لكن أذكر لك هذه الحادثة التي يرويها المسعودي في (مروج الذهب) في ترجمته حيث يقول: حينما هرب المغيرة من طاعون الكوفة ثمّ عاد إليها طعن (أصابه الطاعون) فمات، فلما دفنوه بالثوية بين النجف والكوفة وقف رجل علىٰ قبره وأخذ ينشد:

أمن رسم دار للمغيرة تعرف ... عليها زواني الإنس والجن تعزفُ
فإن كنت قد لاقيت هامان بعدنا ... وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصفُ[2]

ومن مثل هذا الجوّ هل تأمل أن يخرج مثل حمزة بن المغيرة؟ وأُريد أن

---

(١) سموّ المعنىٰ في سمو الذات: ٣١. (٢) مروج الذهب ٣: ٣٤ ـ ٣٥.

أقول: إننا في هذا الجانب عندما نريد أن نتحدّث عن شخص ما فإننا نقول: إن هذا ابن بيت، ومن أب طيب ومن أُسرة كريمة، لكن هذا ربما كان عاملاً مساعداً علىٰ خلق الشخصية الطيبة والإنسان الشريف، وليس هو العلة الحقيقية؛ فقد تجد من ينشأ في بيت من النوع الذي ذكرنا آنفاً، لكنه يخرج علىٰ غير طريقة أهله، ومن هذا النوع أُم المؤمنين بنت أبي سفيان، فهي ابنة من شقّت بطن حمزة ﷺ وأكلت كبده وراحت تلوك به، وقطعت أُذنه، وكذلك أبوها أبو سفيان صاحب المواقف المعروفة، الذي كان يضع الرمح علىٰ خد حمزة ﷺ ويتكئ عليه حتىٰ يخرج من الجانب الآخر. وكان لا تحدث معركة إلّا وله فيها دور، وكان يحمل اللواء ضد النبي ﷺ في كل معركة تخوضها ضده قريش.

ولما أحست قريش بإرهاصات فتح مكّة وبوادر تحرّك الرسول ﷺ إليها أراد أبو سفيان أن يتلافىٰ هذا الأمر ويأخذ الأمان لنفسه ولقومه، فذهب إلىٰ بيت ابنته أُم حبيبة وجلس علىٰ جلد كبش كان رسول اللّه ﷺ يجلس عليه، فأقبلت إليه أُم حبيبة وسحبت الجلد من تحته وقالت له: هذا لرسول اللّه ﷺ، وأنت مشرك نجس. فقال لها أبوها: لقد أصابك بعدي شر. قالت: كلّا، ما أصابني إلّا خير[١].

فالتربية لها دورها، لكن لا أُريد القول: إن التربية وحدها هي العامل المؤثر في خلق شخصية الإنسان، بل إن لها دوراً مؤثراً جزئياً، وتتدخّل معها عدة عوامل منها عناية اللّه تعالىٰ ورعايته. فالعامل المؤثر بالدرجة الأُولىٰ هو إرادة السماء.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٧٧، الطبقات الكبرىٰ ٨: ١٠٠، دفع شبه التشبيه: ٥٢.

وهذا هو ما يفسّر كلام حمزة بن المغيرة بن شعبة حين جمعهم خاله عمر ابن سعد لأخذ مشورتهم حول مسيره لحرب الإمام الحسين عليه السلام؛ حيث قال له: إنك إذا خرجت إلىٰ قتال الحسين عليه السلام فستخسر الدنيا والآخرة. لكن ابن سعد هذا لم يأخذ بالنصح، وأنا لا أُريد أن أقول: غلبت عليه شقوته، لأن اللّه تعالىٰ لا يجبر العبد علىٰ الفعل، وإنما يقوم العبد بأفعاله كلّها باختياره.

النتيجة

نستنتج من هذا ونستفيد منه أن مشاورة عمر بن سعد وخروجه لقتال الحسين عليه السلام تؤكّد أن الإنسان تمرّ به لحظات من صحوة الضمير، فالإنسان مهما تصورنا أنه منحرف غاية الانحراف فإنه تمرّ به لحظات يقع فيها فريسة للصراع بين ضميره وغريزته[1]. والإنسان حينما لايكون عنده استعداد للخير

---

(١) ومن ذلك ما يروى عن عمرو بن العاص حينما كلّم معاوية قوماً من أهل الشام للطلب بدم عثمان، وأشار عليه أخوه عتبة بأن يستعين بعمرو بن العاص وقال له: إنه قد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشَدُّ اعتزالاً، إلّا أن يثمّن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.
فكتب إليه معاوية بذلك، فلمّا قدم الكتاب علىٰ عمرو استشار ابنيه عبداللّه ومحمّداً، فقال له عبد اللّه: قرَّ في منزلك، فلست مجعولاً خليفة، ولا تزيد علىٰ أن تكون حاشية لمعاوية علىٰ دنياً قليلة، أوشكتما أن تهلكا فتُساوَيا في عقابها. وقال محمّد: أرىٰ أنك شيخ قريش وصاحب أمرها، وإن تصرَّم هذا الأمر وأنت عنه غافل، تصاغر أمرك؛ فالحق بجماعة أهل الشام، وكن يداً من أيديهم طالباً بدم عثمان، فإنه سيقوم بذلك بنو أُميَّة.
فقال عمرو: أمّا أنت ياعبداللّه فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأمّا أنت يا محمّد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا ناظر. فلمّا جنَّه الليل رفع صوته قائلاً:

تطاوَلَ ليلي بالهمومِ الطوارقِ ... وخوفِ الَّتي تجلو وجوهَ العواتقِ
وإن ابنَ هندٍ سائلي أن أزورَهُ ... وتلكَ الَّتي فيها بناتُ البوائقِ
أتاه جرير من عليٍّ بخطَّة ... أمرَّت عليهِ العيشَ ذاتَ مضائقِ
فإن نالَ منِّي ما يؤمِّلُ ردُّه ... وإن لم ينلْهُ ذلَّ ذُلَّ المطابقِ
فواللّهِ ما أدري وما كنتُ هكذا ... أكونُ ومهما قادني فهو سائقي

فإن التكليف يكون باطلاً! والآن إذا أردنا القول: إن الإنسان وصل إلىٰ مرحلة فقدان الاختيار، فهذا يعني الجبر، وهو يؤدّي إلىٰ إلغاء الإرادة عند الإنسان وعدم استعمالها في أفعاله، وإن كان الأمر كذلك فحينها يمكن القول: إن اللّٰه تعالىٰ لا يعاقب بحق ولا يجازي بحق (تنزّه تعالىٰ عن ذلك)؛ لأنه سيعاقب علىٰ أشياء خارجة عن الإرادة. فهو تعالىٰ إذا لم يسلّح الإنسان باستعداد خلقي فإنه سيحتج عليه بأن سيقول له: يارب، أنت لم تسلّحني باستعداد خلقي؛ لأنك جعلتني ريشة في مهب الريح، فتغلّبت عليّ تيارات فكرية وتلاعبت بي الأهواء وانتصرت عليّ عواصف تجرّني إلىٰ

☚ وقد قالَ عبدُ اللّٰه قولاً تعلَّقت ... بِهِ النفسُ إن لم تقتطعْني عوائقي
وخالَفَهُ فيه أخوه محمَّد ... وإني لصُلبُ العودِ عندَ الحقائقِ

فقال عبداللّٰه: رحل الشيخ. ودعا عمرو غلامه وردان، وكان داهية مارداً، فقال: ارحل يا وردان. ثمّ قال: احطط يا وردان. ثمّ قال: ارحل يا وردان. ثمّ قال: احطط يا وردان. كرّرها ثلاثاً، فقال وردان: خلطت أبا عبداللّٰه، أما إنك إن شئت أنبأتُك بما في قلبك. قال: هات ويحك. قال: اعتركت الدنيا والآخرة علىٰ قلبك، فقلت: عليٌّ معه الآخرة في غير دنياً، وفي الآخرة عوض من الدنيا، ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض من الآخرة. وأنت واقف بينهما. قال: قاتلك اللّٰه ما أخطأت ما في قلبي، فما ترىٰ يا وردان؟ قال: أرىٰ أن تقيم في بيتك، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. فقال: الآن لما شهدت العرب مسيري إلىٰ معاوية، ارحل يا وردان. فارتحل وهو يقول:

يا قاتلَ اللّٰهُ وَرْداناً وفطنَتَهُ ... أبدىٰ لعمرُك ما في النفسِ وردانُ
لما تعرَّضتِ الدنيا عرَضْتُ لها ... بحرصِ نفسي وفي الأطباع أذهانُ
نفسٌ تعفُّ وأُخرىٰ الحرصُ يغلِبُها ... والمرءُ يأكلُ تبناً وهو عريانُ
أمّا عليٌّ فدِينٌ ليسَ يشركُهُ ... دنياً وذاكَ لَهُ دنياً وسلطانُ
فاخترتُ من طمعِي دنياً علىٰ بصرٍ ... وما مَعيْ بالّذي أختارُ برهانُ

شرح نهج البلاغة ٢: ٦١، وقعة صفّين: ٣٢ ـ ٣٥.

الفعل وتجبرني عليه.

من هما اللذان يضلّان الإنسان؟

وهذا غير صحيح ؛ فهؤلاء ينادون : ﴿رَبَّنا أَرِنَا اللذَيْنِ أَضَلاّنا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾[1].

الأوّل: إبليس

والذي أضلّ من الجن هو إبليس ؛ حيث أمره اللّه عزّ وجلّ أن يسجد لآدم ﷺ فأبىٰ ، وقال : هذا مخلوق من طين وأنا مخلوق من نار ، والنار عنصر أشرف من الطين ؛ فالنار جميلة بالحسّ والبصر ، والنار معبودة ، والنار من دنيا القوىٰ ، وهذا المعنىٰ هو الذي أخذه بشار بن برد حيث قال :

إبـلِيسُ خـيْرٌ مـن أَبِـيكُمْ آدَم ... فـتَنَبَّهُوا يَـا مَـعْشَرَ الفُـجَّارِ
إبْـلِيسُ مـن نَـارٍ وآدَمُ طِـينَةٌ ... والأَرْضُ لاتَسْمو سموّ النـارِ[2]

فإبليس أقدم باختيار علىٰ عصيان اللّه تعالىٰ فسنّ هذا العصيان.

الثاني: قابيل

والذي من الإنس هو قابيل ؛ حيث إنه قتل هابيل ففتح بذلك باب سفك الدم ، فأول دم أُريق علىٰ وجه الأرض كان بفعله ، فهو الذي فتح عهد الجريمة وأصّلها. وقابيل طبعاً لم يعش في مجتمع بالمعنىٰ والشكل المعروفين الآن للمجتمع حتىٰ يمكن أن يقال : إن عنده أوضاعاً اجتماعية أجبرته علىٰ القتل ، وكذلك لم تكن غريزته تدفعه إلىٰ القتل ، ولو كان كذلك لكان حيواناً وليس إنساناً. إذن ما الذي دفعه إلىٰ ذلك ؟ الذي دفعه إلىٰ ذلك هو سوء اختياره ، حيث إنه قتل أخاه بدافع الحسد ، إذ أن هابيل قرّب قرباناً فتقبله اللّه وقرّب

---

(١) فصّلت : ٢٩.
(٢) ديوان بشّار : ٥٣٩.

قابيل قرباناً فلم يتقبّله، أخوه حظي بزوجة جميلة وهو لم يحظَ بمثلها، أخوه تبعاً لذلك حظي بعطف أبيه آدمعليه السلام ورعايته وقلبه؛ لخلقه النبيلة وحسن معاملته، وهو ربما لم يحظَ بذلك لسوء خلقه أو وجد بعض البرودة من أبيه تجاهه، وهذه نقطة مهمة في عامل التربية.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر يروىٰ أن النعمان بن بشير قال: سألت أُمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، فوهبها لي، فقالت له: لا أرضى بها حتى تُشهد النبيصلى الله عليه وآله وسلم عليها. فأخذ بيدي وأنا غلام حتى أتى بي النبيصلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: يا رسول اللّه، إن أُمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. فقال له النبيصلى الله عليه وآله وسلم **«ألك ولد سواه؟»**. قال: نعم. قال: **«لا تشهدني على جور»**. وفي رواية: **«ألك بنون سواه؟»**. قال: نعم. فقال لهصلى الله عليه وآله وسلم: **«فكلّهم أعطيت مثل هذا؟»**. قال: لا. فقال له: **«فلا أشهد على جور»**[1]، لأن هذه الهبة سوف تخلق مشكلة بين الإخوة.

وأنا هنا لا أستطيع أن أنسب إلىٰ نبيّنا آدمعليه السلام أنه يفرّق بالمعاملة، لكن قابيل ألجأ أباهعليه السلام إلىٰ ذلك بسوء اختياره وإرادته، فقتل أخاه وقد وجده نائماً، حيث إنه أخذ قطعة حجر وضربه بها علىٰ رأسه فقتله. وبعد أن فعل فعلته احتار ما الذي يفعله، فهذهِ أوّل عملية قتل في المنطقة التي عاش بها آدمعليه السلام؛ إذ أن الفترة الزمنية التي تفصلنا عن آدمعليه السلام لا تزيد عن أربعة عشر ألف سنة، وبهذا فهي تكون أوّل عملية قتل، وإن كان هذا لا يلتقي مع النظرية العلمية التي تقول: إن أعمال الحفريات اكتشفت أُناساً كانوا موجودين قبل

---

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

عشرة ملايين سنة أو أكثر(١). وهـذه النـظريات فـي الوقت الحـاضر كـلها نظريات قابلة للمناقشة؛ فهي ليست حقائق ثابتة.

المهم أن قابيل حمل هابيل علىٰ كتفه وراح يجول به مدّة إلىٰ أن أرسـل اللّه له غرابين قتل أحدهما الآخر ثمّ احتفر له برجله ودفنه وأهـال التـراب عليه، فقال قابيل: لقد أرحتني، ثمّ فعل بأخيه ما فعل الغراب بصاحبه.

وموضع الشاهد هنا أن هذين اللـذين ذكـرهما القـرآن بـقوله: ﴿اللـذَيْنِ أضَـلاّنا﴾ إنما ضلّا وأضلّا بسوء اخـتيارهما هـما، وليس ذلك واقـعاً عـلىٰ القدر، فالأقدار لا يمكن أن نحمّلها ذلك، بل إن مردّهُ سوء اختيار الإنسان. وسوء الاختيار هو الذي حمل عمر بن سعد علىٰ اختيار قتال الحسـين﵇، ومع أنه كان عنده بقايا من ضمير إلّا إن سوء الاخـتيار تـغلّب عـليه؛ ولذا ارتضىٰ أن يقاتل الإمام الحسين﵇، كان يـمضي ليـله يسـتشهد بـالأبيات الآنفة:

دعاني عبيدُ الله من دون قومه ... إلى خطّةٍ فيها خـرجت لحَـيني
فـو اللـهِ لا أدري وإنـي لواقـفٌ ... عـلى خـطرٍ لا أرتـضيه ومـينِ
أأترك مـلكَ الريّ والريّ مـنيتي ... أمَ ارجـعُ مأثـوماً بـقتلِ حسـينِ
وفي قتلِه النارُ التي ليس دونَها ... حـجابٌ ومـلكُ الريّ قـرّة عـينِ

فضميره يقول له: لا تقدم علىٰ فعل ذلك؛ لأن في هذا الخسارة والهلاك في الدنيا والآخرة، وهو وإن كان فيه ربح قليل، لكنّ فيه ظلماً وتعدياً وعقوقاً وقطع رحم، وغريزته تدفعه لقبول ذلك ويقول له صوتها: اقبل بـهذا؛ فـفيه

---

(١) أي أنه بناء علىٰ هذه النظرية لابد أن تكـون حـالات مـن القـتل قـد وقـعت فـي تـلك المجتمعات؛ وعليه فقتل قابيل هابيل ليس الجريمة الأُولىٰ في الأرض وفقها.

البرد المحلّىٰ بالذهب، والسرير المزركش والخضوع لك، والأموال. والحياة علىٰ امتداد مسيرتها فيها هذان الأمران المتوازيان: بريق الذهب، والمعاناة؛ ولذلك فإن القاعدة الأساسية هي أن الفضائل وليدة المعاناة، والانحدار وليد الغرائز. والإنسان غالباً ما تسيطر عليه غرائزه، وقليل من الناس من يسحق الدنيا بقدميه ويتوجّه إلىٰ طلب رضوان اللّه تعالىٰ، وينظر إلىٰ ما هو أبعد: ﴿وَما عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ وَأَبْقىٰ﴾[١]، ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ﴾[٢].

وفعلاً مات هذا القليل بموت عمر بن سعد، وعاش الحسينعليه السلام وما يزال، إننا نعيش الحسينعليه السلام الآن فكرة وعقيدة، فهوعليه السلام حي ومثل أعلىٰ وضّاء يشعّ بالخلق النبيل والبطولة والرجولة والطهارة، أما ابن سعد فغلب عليه شقاؤه بسوء اختياره، فخرج يقود جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف جندي بعد نزول الحسينعليه السلام، ووصل به الحال أنه بعد أن سقط الإمام الحسينعليه السلام نادىٰ جيشه قائلاً: ويحكم، ماذا تنتظرون؟ أريحوه. فنزلوا إليه واحتزّوا رأسه الشريف.

فانظر إلىٰ أي حدّ بلغت الخسّة بابن سعد، ثمّ أضاف إلىٰ خسّته هذه خسّة أُخرىٰ حينما أقبل وفي يده قبس يلتهب حتىٰ وصل إلىٰ مخيّم الحسينعليه السلام وهو ينادي: أُحرقوا بيوت الظالمين. ففرت بنات الزهراء يتراكضن من خباء إلىٰ خباء، ومن خيمة إلىٰ خيمة.

يقول حميد بن مسلم: رأيت طفلة خرجت ترتعد والنار قد استعرت بأطراف ثيابها، فدنوت منها لأُطفئ النار التي تستعر في ثيابها، فرأيتها ترتعش أمامي كالسعفة حين تحركها الرياح، ثمّ قالت: يا هذا، أنت لنا أم علينا؟ فقلت: سيدتي، لا لكم ولا عليكم. قالت: هل قرأت القرآن؟ فقلت:

---

(١) القصص: ٦٠، الشورىٰ: ٣٦.　　(٢) النساء: ٧٧.

نعم قرأته. فقالت: ألم تمرّ بك هذه الآية؟ قلت: أي آية تعنين؟ فقالت: قوله تعالىٰ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾[1]. قلت: بلىٰ قرأتها. قالت: أتعرف من أنا؟ قلت: لا. قالت: أنا يتيمة أبي عبد اللّه الحسين﴿ع﴾. فقلت: بنية إلىٰ أين؟ إنّي أخشىٰ أن تأخذك حوافر الخيل. قالت: ذكرت لي عمتي البارحة أن لنا بالغري قبراً، وأنا أُريد أن أذهب إليه. فقلت: بنيتي إن بينك وبينه مسافة بعيدة. فقالت: إذا كان كذلك فدلّني علىٰ نهر العلقمي.

يقول حميد: فأخذتها إلىٰ نهر العلقمي وجلست إلىٰ جانب جسد هناك، ثمّ خاطبته قائلة: يا عم، اجلس وانظر إلىٰ عيالك قد استعرت النار بمخيمهم:

كلٌّ تلوذُ بأخرىٰ خوفَ آسِرِها لَوذَ القَطا خوفَ بأسِ الباشِقِ الضَّخِمِ

---

(١) الضحىٰ: ٩.

﴿١٢٠﴾

عباد اللّه الذين اصطفىٰ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الصّابِرِينَ وَالصّادِقِينَ وَالْقانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحارِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إن هذه المجموعة من الصفات[2] التي نصّت عليها الآية الكريمة قد نعت اللّه تعالىٰ بها شريحة من الناس هم الصفوة من عباده. وسنرىٰ إن شاء اللّه تعالىٰ أن الإمام الحسين عليه السلام وصحبه الخيرة البررة من أبرز مصاديق هذه الآية الكريمة. وسوف نتناول هذه الصفات صفة صفة إن شاء اللّه.

---

(١) النساء: ١٧.

(٢) فائدة نحوية: الصفات المذكورة في هذه الآية الكريمة هي نعوت لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ في سابقتها: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا...﴾. وبما أن الاسم الموصول هنا غير مرفوع؛ فلذا لم ترفع هذه الصفات. وقد ورد في توجيه عدم الرفع فيه وجهان:

الأوّل: النصب، وهو بإضمار الفعل (أمدح) أو (أعني).

الثاني: الجرّ؛ وفيه قولان:

١ـ النعتيّة لقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ في سابقتها، أو على البدليّة منه.

٢ـ النعتيّة لقوله تعالىٰ: ﴿بِالْعِبَادِ﴾ في سابقتها، أو على البدليّة منه أيضاً.

الدرّ المصون ٢: ٣٧.

المبحث الأوّل: صفة الصبر ومعناها

تقول الآية الكريمة: ﴿الصَّابِرِينَ﴾، والصبر هو كيفية وهيئة نفسية، وهو من أفعال القلب لا من أفعال الجسد، بل إنه من أعلى وأشرف أفعال القلب.

أبعاد الصبر وأقسامه

ثمّ إن الصبر له أبعاد وأقسام، ويقع علىٰ عدّة معانٍ، منها:

الأوّل: الصبر عن المعصية

إن الكثير من الناس يتعرضون للإغراء والوقوع في المعصية علىٰ مدىٰ حياتهم، وبعض هذه الإغراءات عادة تكون مما يثلم المروءة، وبعضها ممّا يثلم الدين، وبعضها ممّا يثلم الكرامة. وهذه الأُمور بأجمعها قليلاً ما تصمد أمامها النفوس؛ إذ لا يصمد أمام الإغراء إلّا من له نفس كبيرة، ومن يملك ديناً وخلقاً واستقامة. ومن جملة ما يصدق عليه أنه صبْر أمام الإغراء هو الصبْر عند الخصومة؛ إذ أن هذا الأمر ممّا يبيّن حقائق الناس ومعادنهم؛ فالنبيل يصبر علىٰ خصمه عندما تكون له خصومة معه ولا يشمت به مع أن غيره يلتذ بالشماتة بعدوّه وينعته بأقبح النعوت. أما النبيل ذو النفس الكبيرة فكما قلنا يأبىٰ ذلك أشد الإباء، ومن ذلك ما يروىٰ أن ابن ميّادة دخل علىٰ جعفر بن أبي سليمان ـ من أعمام المنصور ـ فمدحه بأبيات، فأمر له بمئتي ناقة فأخذ يد جعفر فقبّلها وقال: واللّه ما قبّلت يد قرشي غيرك إلّا يد هشام ابن عبد الملك. فقال له جعفر: تلك يد ما قبّلتها للّه. فقال ابن ميّادة: ويدك واللّه ما قبّلتها للّه. فقال له جعفر: واللّه لا ضرّك الصدق عندي، ادفعوا له مئة ناقة أُخرىٰ[1].

---

(١) المستطرف في كلّ فنّ مستظرف ٢: ١٥.

فهذا ذو نفس كبيرة صمدت أمام القوّة والمال بما اتّصفت بـه مـن عـلوّ ورفعة.

ومن ذلك أيضاً ما يروىٰ من كلمة لعبد الملك بن مروان في حقّ مصعب بن الزبير ـ مع أنه عدوّه، وكان في حرب معه ـ فقد قيل له: ما تـقول فـي مصعب، فقد شرب الشراب؟ فقال: مصعب يشرب الشراب؟ واللـه لو عـلم مصعب أن الماء يُنقص من مروءته ما روي منه[1].

ومن الجميل أن تجد في الحياة من يتصف بـالأخلاق الحسـنة والنـفس العالية المتينة التي لا تنهار في درب العداوة والبغضاء. والأرض فيها القليل من هذه النماذج، لكنها في المقابل مليئة بالنماذج الوسـخة القـذرة. وهـذه قاعدة عامّة؛ فالمألوف عند الناس والمعروف بينهم أن العُملة الجيدة نـادرة وصعب الحصول عليها، أما العملة الرديئة فهي مبذولة وطاغية وسط المجتمع وسائدة فيه، وهـذا مـا يـؤكّده القـرآن الكـريم بـقوله: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ**﴾[2]، فاللّه تعالىٰ دائماً يعبّر عنهم بأُسلوب القلّة.

وعلىٰ أية حال فإن الصبر عن مغريات الحياة ولذائـذها يـعدّ مـن أشـد حالات الصبر؛ لأن الحياة مليئة بالإغراءات، بل الحياة عينها هي الإغـراء؛ فأينما يذهب الإنسان يلقَ أمامه إغراءً ولذّة تدعوه إلىٰ المعصية، فإذا استطاع السيطرة علىٰ أعصابه وتمكن من قيادة رغباته وغرائزه وتـحكّم بشـهواتـه وكبحها وعاش عفيف النفس شريف الأخلاق متعالياً عن دعوات الإغراء فقد بلغ مرتبة التكامل النفسي.

---

(١) تاريخ بغداد ١٣: ١٠٧، تاريخ مدينة دمشق ٨٥: ٢٢٧، ٢٢٨.
(٢) سبأ: ١٣.

الثاني: الصبر على الطاعة

إن الكثير من الطاعات بل أغلبها ينطوي على مشقة وجهد وتعب، لكنها عادة تمرّن الإنسان على مواجهة الحياة وملاقاتها والتكيّف مع متطلباتها. فالإنسان حينما يصلي أو يصوم أو يحجّ أو يخرج ماعليه من حقوق في أمواله لله ولعباده الذين افترضها لهم، فإنه إنما يستثمر منظومة الطاقات المودعة عنده والكامنة في دواخله؛ فالصلاة مثلاً هي استثمار منابع الخير في أعماق الإنسان، والصوم هو عبارة عن استثمار الطاقة التي تواجَه بها الشدائد. وإلّا فإن الدين ليس له أي مصلحة في أن يكلّفك بإنفاق أموالك ويكلفك بالصلاة والصوم دون وجود سبب أو مبرّر في غاية المعقولية يبرّر هذا التكليف.

إذن فالإنسان حينما يؤمر بالإنفاق فإنه في الحقيقة يؤمر باستثمار منابع الخير داخله كما سيمرّ علينا. وكذلك الأمر بالصلاة والصوم؛ حيث إن الهدف منهما تربية الإنسان وتقويمه وإعداده إعداداً خالصاً كي يواجه كل متطلبات الحياة بقوة وصبر؛ لأن الحياة لا يمكن أن يعيش فيها الإنسان الرخو أو الضعيف؛ إذ أنها تنبذه وتسحقه. والحقيقة أن ناموس تنازع البقاء قضى أن يعيش الأقوى.

فالدين إذن يستهدف تربية الإنسان من خلال ترسيخ الخلائق الكريمة والصفات الحسنة القويمة في أعماقه؛ لكي يعدّه لمواجهة الحياة، فيستقبلها بطاقات كبيرة ومقدرة عظيمة.

الثالث: الصبر عند المصيبة

وهو عبارة عن استثمار طاقة الصمود عند الإنسان أمام التحديات. فكما

أن في الدنيا إغراءات فكذلك فيها تحديات تتمثل بالمصائب والرزايا التي تقع علىٰ الإنسان الذي يعدّ صابراً حينها فيما لو صمد أمامها بثبات أعصاب وقوة شكيمة. إن الحياة عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من المصائب والنوائب سيّما مع الإنسان المؤمن(١)، فهو نادراً ما يمر عليه يوم دون أن تقع له مصيبة. وهذا ليس تشاؤماً ولا هو دعوة إلىٰ التشاؤم، كما أني لست متشائماً، لكن هذه هي سنة الحياة وحصيلة تجاربها. وعليه فإن علىٰ الإنسان الصمود أمام هذه الرزايا وألّا تهزّه المصائب فتغيّر مواقفه وعقائده؛ لأنه إن فعل ذلك فمعناه أنه قد انهار أمامها وتمزّقت شخصيته ووجوده. وحينئذٍ لن تكون هناك فائدة من وجوده ولن يحقق الغرض والهدف الذي خلقه اللّه من أجله وأراده له وهو استخلاف الأرض الذي لا يكون إلّا عبر بناء شخصيته بناءً متيناً محكماً يتغلّب بواسطته علىٰ مشاكل الحياة وشظفها.

إن حالة الصمود أمام هذه المشاكل هي فضيلة ينبغي استثمار طاقة الاستعداد عند الإنسان لها، وعدم تركها أو التخلّي عنها، وبالتالي مواجهة تحديات الحياة. وهناك الكثير من المواقف البطولية عند البعض في عالمنا؛ مما يثير الإعجاب، ويبعث علىٰ الشعور بتقديس الفضائل والنبل؛ لأن هذا الإنسان قد صمد فيها أمام تحديات الزمن. أُدخل رجل أعمىٰ علىٰ الوليد بن عبد الملك بن مروان ـ وكان عبسياً قادماً مع وفد من عبس ـ فقال له الوليد: متىٰ ذهب بصرك؟ فقال له: لو تعفيني من الإجابة علىٰ هذا، كان خيراً.

---

(١) سئل أبو جعفر عليه السلام: يكون المؤمن مبتلى؟ قال: «نعم، ولكن يعلو ولا يعلى». المحاسن ١: ١١٣ / ١٠٧، كشف الخفاء ٢: ٢٩٥ / ٢٦٩٦.

فقال الوليد: ولمَ؟ فقال: لأنك في مجلس أُنسك ولا أُحب أن أُعكّر عليك صفو مجلسك أو أُوذيك بكلامي وأخلق لك جوّاً من الكآبة والأسىٰ. فقال له الوليد بن عبد الملك: إنك إنما زدتني شوقاً لسماعها. فقال: إذن سأحكي لك حكايتي: خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي وعيالي، ولا أعلم عبسيّاً يزيد ماله على مالي، فعرّسنا في بطن وادٍ، فطرقنا سيل، فذهب ما كان لي من أهل ومال وولد غير صبي صغير وبعير، فشرد البعير وأنا أعلم أنه وسيلتي الوحيدة للنجاة، فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لآخذ البعير، فسمعت صيحة الصغير، فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه، فرجعت إلى البعير فضرب وجهي برجليه فذهبت عيناي، فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل. فقال الوليد: اذهبوا إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه.

ثم قال له: فكيف أنت الآن؟ فقال: كما ترى، والله لا أزداد لله إلّا شكراً؛ لأني لا أستطيع أن أُغيّر من الواقع شيئاً[1].

المبحث الثاني: منشأ الصبر والصدق فيه

فالصبر إذن هو خير وسيلة للإنسان علىٰ اجتياز محنه ونوائبه؛ ولذا فإن القرآن الكريم يقول: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾، أي الصادقين في صبرهم. وهذا هو المقصود بالصدق هنا وليس هو الصدق في اللفظ أو الإخبار، وإنما هو الصدق في الصبر، وهو ما يقابل التكلّف فيه. فكأنما هناك نوعان من الصبر بلحاظ منشئه: صبر يتكلّفه الإنسان، وصبر لا يتكلّفه.

---

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف ٢: ١٩٣.

الصبر الذي يتكلّفه الإنسان

وهذا النوع لا يتّصف به الإنسان لأن من شأنه أنه صبور أو أنه يتحمل المكاره، بل لأنه يحاول أن يتجلّد ويظهر نفسه علىٰ أنه كذلك، ورحم اللّه الشريف الرضي حيث يقول:

هيهات لا تتكلفنَّ ليَ الهوىٰ فضح التطبّعُ شيمةَ المطبوعِ[1]

فالإنسان أحياناً يتكلّف الصبر ليظهر عليه الجَلَد، لكنَّ أحشاءه عبارة عن كتلة ملتهبة من النار؛ وهذا بسبب عدم وصوله إلىٰ مرحلة التسليم للّه، ومنزلة الرضا بقضائه وقدره تسليماً ورضاً مطلقين لا تشوبهما شائبة، ولم يدرك في أعماقه أن اللّه تعالىٰ لا يصنع بعبده إلّا الخير. وهذه العقيدة صعب منالها وهي غير موجودة إلّا عند القلائل من الناس. يروىٰ أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي ـ وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة ـ وقف علىٰ ثلاثة من أولاده قد فقدهم في إحدى المعارك، فقال قصيدته:

أمن المنون وريبه نتوجّع والدهر ليس بمعتبٍ من يجزعُ
أودىٰ بنيّ فأعقبوني حسرة عند الرقاد وعبرة لا تقطع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهُمُ وتخرّموا ولكل جنب مصرعُ
فالعين بعدهُمُ كأن جفونها كحلت بشوكٍ فهي عورا تدمعُ
وتجلّدي للشامتين أريهُمُ أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

إلىٰ هنا وهو في غاية الصلابة، لكنه ينهار فجأة فيقول:

وإذا المنيّةُ أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمةٍ لا تنفعُ

---

(١) ديوان الشريف الرضي: ٦٥٢.

ثم سقط متهالكاً على التراب لا يقوىٰ على القيام، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كلّ حيوان عنده في الحظيرة[١]، ليخلق مشهداً من الألم، ويتسنّىٰ له أن يوجد من يتألّم معه في ذلك المشهد. فهذا قد تجلّد فترة ثمّ انهار ولم يستطع أن يواصل مشوار الصبر ورحلة التجلّد والصمود أمام المصيبة.

فالقرآن الكريم يشير إلىٰ تجلّد الصادقين في صبرهم، الذين يتحصنون بقناعتهم ضد التحديات، قناعتهم في أن ما صنعه اللّه هو عين الحكمة، وأن ما جرىٰ ويجري هو عين الحكمة. وهؤلاء هم الذي مدحهم الإمام الصادق‏ؑ بقوله: **«نحن صبرنا، وشيعتنا أصبر منّا؛ لأنا صبرنا بعلم وصبروا على ما لا يعلمون»**[٢]

وفعلاً فهذا هو التسليم المطلق للّه تعالىٰ حيث ينقطع فيه الإنسان إليه انقطاعاً كاملاً.

المبحث الثالث: معنىٰ القنوت

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾، والمراد بالقنوت هنا معنيان:

المعنى الأوّل: السكون والانقطاع

ويراد بالسكون هنا هو عدم الالتفات أو الإتيان بأي حركة فيه، فينقطع الإنسان انقطاعاً كاملاً إلىٰ اللّه تعالىٰ ويتوجّه إليه بكيانه وقلبه ويقبل عليه بجوارحه. ومن هذا: القنوت في الصلاة. وما دمنا قد تطرّقنا لهذا الموضوع فأُحب أن أقول: إن القنوت في الصلاة عندنا[٣] غير واجب، بل هو مستحب،

---

(١) الكنىٰ والألقاب ١: ٧٦.
(٢) تفسير القمي ١: ٣٦٥.
(٣) انظر شرائع الإسلام ١: ٧٩.

فلا تبطل الصلاة بتركه عمداً أو سهواً، لكن استجبابه مؤكّد، وقد أخذناه عن النبي محمّد ﷺ[1] عن طريق أهل بيته ﷺ. فالقنوت في الصلاة هو السكون عن الحركة، ومعناه أن الإنسان يجب أن ينقطع إلىٰ اللّه تعالىٰ في دعائه، ويوجه كل مداركه وحواسه وكيانه إلىٰ السماء دون أن يأتي بأي حركة تنافي هذا الخشوع والانقطاع.

المعنىٰ الثاني: الدوام علىٰ الشيء

وهو المعنىٰ المراد في آية المقام، ويراد بهذه الصفة هنا الدوام علىٰ الصبر والصدق في الصبر والطاعات، وعدم تركه في بعض الحالات. فالقانت إذن هو المداوم علىٰ الطاعة الملازم للصبر الذي يجب أن يتحلّىٰ به. وقد نلاحظ في حياتنا اليومية من خلال مشاهداتنا لبعض من يحيطون بنا أن البعض ملتزم بعبادة اللّه تعالىٰ وطاعته لكنه في النهاية يترك عباداته وطاعاته وينجرّ وراء الدنيا، ويعود إلىٰ وضعه السابق، لأن هناك مؤثرات تجرّه إليها وتدعوه إلىٰ التمتع بها. فهذا ليس عنده مداومة علىٰ العبادة، فكيف نجعل من الإنسان صاحب حصانة ومداومة عليها؟

إن من الصعب علىٰ البعض أن يستمرّ في طاعته علىٰ وتيرة واحدة ولا يتركها حتىٰ النهاية، والسبب في ذلك هو جواب تساؤلنا، وهو أن هذا الإنسان لم يتلبّس بالطاعة والعبادة ـ حينما تلبس بهما ـ عن وعي، وإنما أخذهما بالتقليد من أهله، وهذا لا يمكن أن يفهم لها معنى حقيقياً أبداً. ومع ذلك فهو تقليد حسن ومحبّذ ما دام لا يؤدّي بصاحبه إلىٰ التراجع عنه، أما إذا

---

(١) مختصر المزني: ١٥، فتح القدير ٣: ٤١٧، ٤٤٤، ٤: ٢٤٩، وفيها: مازال النبي ﷺ يقنت حتىٰ فارق الحياة.

تراجع عن إيمانه وعبادته فهو بطبيعة الحال أمر ناشئ عن هذا التقليد لا عن غيره. وينفع هذا التقليد كونه لا يضرّ صاحبه بل علىٰ العكس إنه ينفعه.

عطاء الصلاة

وقد يسأل سائل فيقول: إن هذا تقليد أعمىٰ، وهو وهمي، لأن من المحتمل ألّا يكون هناك إله، فما فائدة العبادة إذن؟ ثمّ إن هذا المقلّد قد يغيّر عقيدته بين آونة وأُخرىٰ.

ويقال في جواب هذا: إنه علىٰ فرض ألّا يوجد هناك إله، لكن لنا أن نسأل: ما هو الضرر من الصلاة علىٰ المصلّي حتىٰ مع فرض أنه ليس هناك إله؟ بل إن العكس هو الصحيح[1]، فحتىٰ مع هذا المؤمن فإن الصلاة في حقيقتها عطاء وترويض للنفس علىٰ الخير وحب الناس؛ فهي من هذه الناحية ليس فيها أي خسارة أبداً ويمكن تلخيص هذا العطاء بعدة أُمور:

الأوّل: أنها تخلق الإنسان الصالح وتدفعه إلىٰ فعل الخير

فالمصلي يستيقظ صباحاً لينظف جملة من أعضائه نظافة جسدية ثمّ بعدها يتوجه إلىٰ تنظيف روحه. وهنا موضع التأكيد؛ حيث إن النظافة الروحية أهم من النظافة الجسدية، فينهض صباحاً فيواجه السماء ويستمدّ منها العون واللطف ومعاني الخير والحب والطاقة قبل أن يواجه المجتمع، فيتوجه للقبلة الشريفة وإلىٰ اللّه تعالىٰ.

---

(١) قال المعرّي:

قال المنجّمُ والطبيبُ كلاهما ... لا تحشرُ الأجسادُ قلت إليكما
إن صحّ قولُكما فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخسارُ عليكما

اللزوميات: ٢٠٦.

إن الأزمة التي نعيشها اليوم هي أزمة أخلاق وليست أزمة طعام أو شراب؛ لأن الأعم الأغلب من أبناء البشر اليوم هم ذئاب؛ فكل واحد منهم يعيش داخله ذئب يحاول أن ينقض علىٰ فريسته ليلتهمها، وليس هناك من آدمي تنبض فيه مشاعر الرحمة والمودّة والأخلاق إلّا القليل منهم كما أسلفنا. فمن الذي يخلق الإنسان بهذه الصفات المطلوبة؟ الذي يخلقه كذلك هو الدين وليس العلم؛ فهناك الكثيرون ممّن قطعوا شوطاً كبيراً في طريق العلم ووصلوا فيه إلىٰ غايات بعيدة، وحازوا حظاً وافراً من التكنولوجيا، لكنهم لا مانع لديهم من حرق العالم كلّه إذا تعارض مع مصلحته، مع أن فكره متطوّر ومع أنه يعد ذا خلفية علمية وحضارية.

فأين العلم إذن؟ وما فائدته مادام لم يردع حامله من أن يسيء إلىٰ العالم أي لحظة شاء؟ إن الجهة الوحيدة التي تستطيع صنع الإنسان المتكامل هي الدين. وصنع الإنسان ليس أمراً سهلاً، إننا اليوم بأمسّ حاجة للإنسان الملتزم بمبادئه وإنسانيته، ولا يوفّر لنا هذا إلّا العبادة، والعبادة لا تصنع الإنسان بالصفات المطلوب منها أن تخلق فيه إلّا إذا كانت منبثقة عن وعي وفهم لا عن تقليد.

إذن ليس هناك أي ضرر من العبادة ـ فضلاً عن فوائدها ـ خصوصاً أن المصلّي يتوجه إلىٰ مكان مقدّس في حقيقته وفي نظره؛ يستلهم منه الخير وينظف مشاعره من الأدران ويكيّف نفسه للخير ويستعدّ نفسياً لفعله، ثمّ يخرج ليواجه المجتمع: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1]، وهكذا فإنه يواجه

(١) الفاتحة: ٦.

المجتمع وهو يسير في طريق صحيح؛ فلا يعتدي ولا يسرق ولا يخون ولا يكذب ولا يستعمل أي لون من ألوان الخلق الذميم الذي يثلم الشرف والكرامة والإنسانية والضمير. وهذه الالتزامات هي أوّل عطاء تمنحه الصلاة للإنسان.

الثاني: أنها تقرّب العبد إلىٰ ربّه

ثمّ إن هذا العطاء الذي يعبر عنه الحديث النبوي الشريف بقوله: **«الصلاة قربان كل تقي»**(١) لا يذهب نفعه إلىٰ اللّه تعالىٰ، بل إنه يعود إلىٰ العبد المصلي نفسه، فالمصلّي يرفع كل يوم قرباناً إلىٰ اللّه تعالىٰ خمس مرّات، وهذا القربان هو صلة بينه وبين اللّه تعالىٰ يستلهم عبره معاني الخير من ربه. فما هو الضرر الذي يمكن أن يترتب علىٰ الصلاة؟ إذن فالعبادة يجب أن تكون نابعة عن وعي المصلّي بها.

المبحث الرابع: العبادات المالية؛ دوافعها ومبرراتها وآثارها

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾، والمنفقون هم الذين ينفقون أموالهم لوجه اللّه وفي سبيله.

وقد يعترض البعض علىٰ العبادات المالية فيقول: ما معنىٰ أن يدفع شخص قسماً من أمواله التي تعب فيها بعنوان أنها حق اللّه للمجتمع؟ وما الذي يربطه بالمجتمع بهذا الشكل الذي يجعله يدفع أمواله لهم من أجله؟

إن من يملك أدنىٰ مقدار من الوعي لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٦، مسند الشهاب ١: ١٨١ / ٢٦٥، وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا أن يؤثّر فيه؛ لأن المفروض به أنه يعرف ما يفعله ويعيه، وأن كل درهم ينفقه في هذا المجال في سبيل الله هو عن وعي ومعرفة. فمن ينفق هذا المبلغ فعليه أن يعي أولاً أن هذا المبلغ سيعود عليه بالنفع بصورة غير مباشرة؛ ذلك أنه لم يوجد هذا المبلغ بنفسه، فعليه أن يسأل نفسه حول الكيفية التي حصل بها علىٰ هذا المال. إن هذا المال لم ينتجه لوحده، بل إنه أخذه من المجتمع؛ لأن المجتمع قد ساهم معه في إنتاج هذا المال وتحصيله، فسائق السيارة حينما يكسب مبلغاً شهرياً أو أُسبوعيّاً أو غير ذلك جرّاء عمله في سيارته عليه أن يدرك أنه لولا المجتمع الذي استأجر سيارته لم يكن ليحصل علىٰ المال.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن هذه السيارة التي يعمل فيها من الذي أنتجها له؟ إنه المجتمع فهناك عدة مصانع أو مصنع واحد له جهات متعددة قامت بإنتاج هذه السيارة، وهذه المصانع، أو هذا المصنع ذو الجهات المتعدّدة لم تُقم لوحدها وإنما هناك الآلاف من العمال الذين قاموا بتصنيع هذه السيارة، ومن قبلهم آلاف مثلهم قاموا بالتعدين والتنجيم وغيرهم في استخراج النفط والزيوت من الأرض وهكذا، وأخيراً هناك شخص يملك شركة لاستيرادها، أو معرضاً لعرضها أمام الراغبين في الشراء، وهكذا.

فصحيح أن صاحب المال قد دفع الأموال حيالها، لكن ما فائدة هذه الأموال إذا لم يعمل كل هؤلاء من أجل توفير هذه السيارة له؟

إذن فالمجتمع كله تكاتف علىٰ تصنيع هذه الآلة، والإنسان حينما يأخذ الربح فإنما يأخذه من المجتمع نفسه، وحينما ينفق هذا المبلغ في سبيل الله فإنه في الحقيقة يعطيه إلىٰ أفراد من المجتمع هم محتاجون إليه، وبالتالي فإنه يحقّق مفهوم العدل والمحبّة بين الناس وينشر الشفقة والرحمة بين العباد.

وهذه العملية في الحقيقة تنطوي علىٰ عمليتين:

الأُولىٰ: عملية استثمار من المجتمع.

الثانية: عملية ردّ إلىٰ المجتمع.

فالمنفق إذن عليه أن يعي هذا الأمر وأنه علىٰ بصيرة من أمره فيما يعمل، وأن ما يقوم به عبادة يتقرّب بها إلىٰ اللّه من جهة، ومن جهة ثانية أن نفع هذه العبادة وخيرها يعود عليه من قريب أو بعيد.

ولو تكلّمنا في هذا المجال بلغة الاقتصاد فإننا نقول: إن المنفق في سبيل اللّه إنما يوجد قوّة شرائية عند الأفراد المحرومين، وبالتالي يوجد عملية تحريك السوق وتسييره وانتشاله من حالة الركود التي ربما يكون عليها. ففعل الإنفاق انعكس بشكل إيجابي علىٰ السوق وأدىٰ إلىٰ تحريكه وبث الحيوية فيه.

أقسام الانفاق

ثمّ إن الإنفاق تارة يكون بالأموال وتارة يكون بالمعنويات كالإنفاق بالجاه والعلم وغيرها. وسنتناولها بإيجاز فيما سيأتي إن شاء اللّه.

القسم الأوّل: الإنفاق بالأموال وأنواعه

إن الإنفاق بالأموال يمكن أن يتصوّر علىٰ وجهين، أو نوعين:

النوع الأوّل: الإنفاق الواجب

ويكون مختصاً بالأقارب وحدهم[1]. أي أن علىٰ الإنسان أن ينفق علىٰ

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ البقرة: ٢١٥.
وورد في الحديث: «الأقربون أولىٰ بالمعروف». المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٢٨٨، العهود

من يعوله كـالأبوين العـاجزين اللـذين لم يـتمكنا مـن العـمل، وكـالزوجة والأولاد.

النوع الثاني: الإنفاق المستحبّ

ويكون للأقارب وللأباعد، أي أن على الإنسان من باب صلة الرحـم لا الوجوب أن يعين المحتاج من أقربائه وأبناء عشيرته[١].

القسم الثاني: الإنفاق بالأمور المعنوية وأنواعه

ويندرج تحت هذه القسم عدة عناوين نذكر منها:

النوع الأوّل: الإنفاق بالجاه

والإنفاق بالجاه مساعدة الإخوان باستعمال الجاه عند السلطان. فإن من يملك جاهاً عند الحاكم أو السلطان ويستطيع أن يقضي به حوائج إخوانـه فعليه أن يتدخل ويستعمل جاهه لإعانة ذلك المـحتاج أو المـظلوم، فـاللّه سائله يوم القيامة عن جاهه لماذا لم يستعمله في خـدمة إخـوانـه وقـضاء حوائجهم.

النوع الثاني: الإنفاق بالعلم

وكذلك فإن اللّه تعالىٰ يحاسب العالم يوم القيامة فيما إذا لم يـنفق عـلمه علىٰ مستحقّيه؛ لأنه تعالىٰ لم يعطِ الإنسان هذا العلم حتىٰ يكنزه في صدره ويمنعه من الناس الذين يغرقون في الضلالة والجهالة[٢]. فالواجب علىٰ العالم

☚ المحمدية: ٥٣٠.

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليـه تصير». نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «زكاة العلم نشره». غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٢٤.

ألّا يبخل بعلمه علىٰ المحتاج إليه. وكذلك يجب عليه ألّا يسخره في خدمة الجبابرة والظالمين، بعث المنصور خلف أحد العلماء، فأبى أن يأتيه، وقال لرسوله: ليس لي عنده حاجة، فإن كان له عندي حاجة فليأتني هو. فلما عاد جلوازه بجوابه إليه انتفض المنصور غاضباً، ثم جاءه مع مجموعة من جلاوزته، فقال له العالم: إن من إكرام الله إكرام صاحب العلم، فكيف تريد مني أن أتسكّع على بابك؟ فاحترم المنصور رأيه وقال له: تواضعنا لعلمك فاستفدنا منه، وتواضع لنا علم غيرك فلم نستفد منه.

فهو يقول له: كيف تريد مني أن أتسكّع علىٰ بابك؟ إن العلم إذا تسكّع علىٰ أبواب الظلمة فقد قدسيته[1]. فالمفروض أن هناك ضريبة علىٰ العلم يدفعها صاحبه، وهي ضريبة معنوية يقدّمها حامل العلم للطبقات التي تحتاج إلىٰ علمه وإرشاده وتوجيهه. وسيرة أيّمتنا الكرام البررة غنية بهذا المعنىٰ.

المبحث الخامس: التهجّد والاستغفار

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحارِ﴾، والمستغفرون المتهجدون هم قُوّام الليل الذين يصلون صلاة الليل بصلاة الصبح وينتهي استغفارهم وتسبيحهم إلىٰ الأسحار. ومن أبرز من جسّد هذا المعنىٰ هو الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه أوداء الله تعالىٰ.

☚ وقال عليه السلام: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلّموا». نهج البلاغة / الحكمة: ٤٧٨.

وقال الباقر عليه السلام: «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله». الكافي ١: ٤١ / ٣.

(١) في المأثور: «إذا رأيتم العلماء علىٰ أبواب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء». الكنى والألقاب ١: ٢٧٢.

المبحث السادس: الإمام الحسين عليه السلام وعناوين الآية الكريمة

وبعد ذكر ما تقدّم من الصفات المحبوبة إلىٰ اللّه تعالىٰ والمحبِّبة له سوف نقوم بتطبيق هذه الصفات علىٰ الإمام الحسين عليه السلام وسيرته العطرة؛ لنرىٰ مدىٰ الترابط الذي كان بينه عليه السلام وبين اللّه، ومرحلة العرفان والانصهار في ذات اللّه جلّ وعلا منه، ولنلاحظ العناوين التي جسّدها الحسين عليه السلام علىٰ تراب كربلاء.. التراب الذي حمل أقدس الدماء وأشرفها علىٰ ضوء هذه العناوين والصفات التي حملتها الآية الكريمة. ولنتناول هذه العناوين واحداً واحداً لنثبت صحة هذا:

العنوان الأوّل: صفة الصبر

فالآية الكريمة تقول: ﴿**الصّابِرِينَ**﴾، وهذا ما كان عليه إمامنا الحسين عليه السلام؛ حيث إنه وقف يوم عاشوراء والمعركة كلها علىٰ كاهلة؛ فكان عليه السلام كلما وقع أحد أصحابه أو أهل بيته وقع جانب من قلبه الشريف معه، فسقوط قتيل من أصحابه وأهل بيته معناه سقوط نجم من نجوم آل محمّد صلى الله عليه وآله أو من النجوم التي آزرتهم. وكان هذا المعنىٰ يخلّف في قلبه الشريف أثراً كبيراً وفقداً لا يعوّض. لكن مع كل هذا لنلاحظ ما الذي كان عليه الحسين عليه السلام؟ وكيف كان؟ وما الذي كان يفعله؟ لنعرف مدىٰ صحّة المعنىٰ الذي نحاول إثباته هنا؟ لقد كان عليه السلام كلما وقع قتيل انحدر إليه مسرعاً ووقف عنده ثمّ يشخص ببصره إلىٰ السماء ويقول: «**اللهم إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ**»[1]. فهذه هي النفس الكبيرة المطمئنة العجيبة والقوية التي لم تعرف الوهن ولم تضعف أمام

---

(١) انظر: شجرة طوبى ٢: ٤٠٩، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٣٥٧، ينابيع المودّة ٣: ٨٣.

الخطوب مع أن الأمر لم يكن سهلاً؛ ذلك أنه﴿ع﴾ فقد عشرة من أحفاد أمير المؤمنين: خمسة من أولاده وخمسة من أولاد أخيه، وأربعة عشر من آل عقيل، وسبعة من آل جعفر، وكذلك ضحّى بالباقين من أصحابه. وهو﴿ع﴾ بهذا يكون قد فقد اثنين وسبعين نجماً هم عصارة الدنيا والصفوة من صلحاء المسلمين. وقد مرّ علىٰ هذه المصارع جميعها دون أن يجزع أو يبدو عليه أي مظهر من مظاهر عدم الرضا بقضاء اللّه تعالىٰ والتسليم لقدره. فأي نفس كبيرة هذه التي تسمو فوق كل البشر والملائكة؟ وأي همّة لا تعرف الكلل؟ وأي روح هذه التي كلما اشتدت عليها النكبات زادتها صلابة.

لقد وقف﴿ع﴾ علىٰ الضحايا والمصارع، ونطق كلمته الشهيرة: **«لك العتبىٰ يارب، صبراً علىٰ قضائك، ياغياث المستغيثين، إن كان هذا يرضيك فخذ حتىٰ ترضىٰ»**[1]:

وتأمّلتَ في وجوهِ الضحايا	**وزواكي الدماءِ منها تسيلُ**
ومشت في شفاهِك الغرّ نجوى	**نمَّ عنها التسبيحُ والتهليلُ**
لك عتبىٰ يا ربُّ إن كان يرضيـ	**ـك فهذا إلىٰ رضاك قليلُ**[2]

العنوان الثاني: صفة الصدق

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿الصَّادِقِينَ﴾، فأي صبر أعظم من هذا الصبر؟ وأي صدق يكون أكبر من هذا؟ لقد مرّت علىٰ أبي عبد اللّه﴿ع﴾ لحظات من أشدّ ما تكون، تلك هي لحظات وداعه أهل بيته وهو يرىٰ صبية تصرخ، ونساء يندبن، وجيشاً يريد أن ينتزع منه الحياة، وجثثاً تتراقص علىٰ التراب بدمائها، فانفرد بزينب يودّعها ويوصيها فتختنق بعبرتها وتسائله: كيف تطلب

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

مني أن أصبر علىٰ فراقك وفراق أهل بيتك؟ لكنه عليه السلام تجاوز هذا الموقف، وتلقىٰ النكبة بصدر رحب وصمد وصدق في صبره، فلم يكن يتكلّف الصبر. يقول عبد اللّه بن عمّار: شاهدت الحسين عليه السلام يوم الطفّ، فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه. وكان في غاية الصلابة صابراً صادقاً مداوماً علىٰ الصبر حتىٰ لحظاته الأخيرة، وكان بين يديه ثلاثون ألفاً يشدّ فيهم كالأسد الهصور فينكسرون بين يديه كالجراد المنتشر وينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ثم يرجع إلى مركزه فيتّكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: **«لا حول ولا قوة إلّا بالله»**(١).

بل وحتىٰ حينما وقع علىٰ أرض المعركة، يقول هلال بن نافع: مررت على الإمام الحسين عليه السلام فرأيت شفتيه تتحركان وهو في لحظاته الأخيرة، فقلت: إن كان يدعو علينا هلكنا وربّ الكعبة. فدنوت منه فسمعته يقول: **«صبراً على قضائك يا رب، يا غياث المستغيثين، لا معبود سواك»**. ثم راح يردّد:

تركت الخلقَ طرّاً في هواكا ... وأيتمتُ العيالَ لكي أراكا

فلو قطعتني بالحبِّ إرباً ... لما مال الفؤادُ إلىٰ سواكا(٢)

العنوان الثالث: صفة الإنفاق

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾، فما الذي أنفقه الحسين عليه السلام؟ إنه لم يدّخر شيئاً دون أن ينفقه في سبيل اللّه تعالىٰ، فحتىٰ الطفل الذي ولد يوم العاشر من المحرم جاءت به أُمّه لأبي عبد الله الحسين عليه السلام وقالت له: هاكم

---

(١) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

(٢) سبق أن نوّهنا في ج٢ ص٣٣٦ وفي محاضرة (الآثار الاجتماعية للصلاة) من كتابنا هذا إلى أننا لم نعثر على من ينسبهما للإمام الحسين عليه السلام، بل هما ينسبان لأحد أبناء إبراهيم بن أدهم. انظر تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.

رضيعكم آل بيت محمد؛ فلقد جفّ صدري من اللبن، فأخذه الإمام الحسين عليه السلام وجعل يطيل النظر إلى وجهه ثم قال: **«بني، تعساً لقومٍ قتلوك»**. كبّر في أُذنه اليمنىٰ، وقبّله، فأقبل إليه سهم ذبحه من الوريد إلى الوريد، فوضع الإمام الحسين عليه السلام يده تحت عنق الطفل حتىٰ امتلأت دماً، وقذف بها إلى السماء وقال: **«اللهم بعينك»**. وهذا هو المعنىٰ الذي يشير إليه السيّد حيدر الحلّي فيقول:

ومنعطفٍ أهوى لتقبيلِ طفلهِ ... فقبّل منه قبله السهمُ منحرا

لقد وُلدا في ساعةٍ هو والردى ... ومن قبلهِ من نحرهِ السهمُ كبّرا[1]

إنه عليه السلام لم يترك شيئاً دون أن ينفقه في سبيل اللّه تعالىٰ، فقد قدّم الأموال والأولاد والإخوة والعشيرة.

العنوان الرابع: صفة التهجّد والاستغفار

ثمّ قالت الآية الكريمة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحارِ﴾، وقد مرّت هذه الليلة بالإمام الحسين عليه السلام وأصحابه (رضوان اللّه عليهم) وهم يتلون كتاب اللّه ويستغفرون ربّهم، وكان لهم دويّ كدويّ النحل، وهم بين قائم وقاعد وراكع وساجد. وهم إلى ذلك عاكفون علىٰ حراسة المخيم بمن فيه، لكن زينب عليها السلام وقفت في ليلة الحادي عشر من المحرّم ثمّ راحت تُجيل نظرها دون أن ترىٰ أحداً حامياً أو مدافعاً، فنادت أُختها أم كلثوم وقالت لها: أُخية كلّ ليلة تحرسنا الأبطال، وهذه الليلة بقينا بلا حامٍ ولا كفيل، أُخيّة قفي أنت عن يمين الخيمة وأنا عن شمالها، فإن رأيت سوادة فأبعديها؛ لئلّا يتسرّب الرعب إلى قلوب الأطفال والفاطميّات.

---

(١) ديوان السيّد حيدر الحلّي: ٧٨.

وفعلاً هدأ العيال والأطفال، وجاءت زينب عليها السلام تتفقد النساء فلم تجد الرباب في خيمتها، فقد خرجت لتشرب الماء بعد أن أُبيح لهم عقيب قتل الرجال، فلما شربت الماء درّ ثدياها لبناً، والمرأة تعرف أن ثديها حينما يدرّ فهذا يعني أن طفلها يطلب الرضاعة، فخرجت من المخيم وهي ترجو أن يكون في ولدها صبابة من روح أو بقية من حياة، فخرجت مولاتنا زينب عليها السلام تبحث عنها وإذا بفارس يدور حول الخيمة، فصاحت به: من أنت؟ قال: سيدتي أنا من معسكر عمر بن سعد، أمرني أن أحرسكم هذه الليلة. فاختنقت بعبرتها، وقالت: أبعد عين أبي الفضل أنت الذي تتولى حراستنا؟

ثم توجّهت إليه قائلة: هل مررت بأرض المعركة؟ فقال: نعم سيّدتي. فقالت: هل رأيت هناك امرأة؟ قال: لا يا سيّدتي، لكنني سمعت هناك أنيناً، ولعلّها هي. فهرولت نحو أرض المعركة، وهي تنادي: ربابُ، أين أنت؟ فوجدتها جالسة، وقد أخذت جثّة رضيعها وأدنتها إلى ثديها، وهي تقول: بني، صدري يؤلمني، وثدياي قد درّا عليك. فأخذتها من يدها ثم دخلت بها إلى الخباء، فوجدت مجموعة من الصبية تتلاعى، وصورة الحسين عليه السلام ماثلة أمام عينيها، فوقفت هناك تجول إلىٰ جانب النساء الثاكلات:

إن عسعسَ الليلُ وارى ذلّ أوجُهِنا ... وإنْ تَنَفَّسَ وجهُ الصُّبحِ أبدانا

قمْ يا عَليُّ فما هذا القُعودُ وما ... عهدي تغضُّ على الأقذاءِ أجفانا

انهَض لعلَّكَ من أسرٍ ألمَّ بِنا ... تفكُّنا وتَولّى دفنَ قَتلانا

* * *

إلك جيت خويه بهدوة الليل ... أشرب دمع واكبع بالعويل

﴿ ١٢١ ﴾

الإنسان ودائرة المسؤوليّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة في تحديد الهدف العام للآية

الجو العام للآية الكريمة يهدف إلى وضع الإنسان في منطقة المسؤوليّة، وإشعاره بأنه في كل أحواله تحت علم الله تعالىٰ، بل إن الكون كلّه هكذا. والإنسان هو الجزء المخاطب من الكون، فالله لا يخاطب الجمادات والنباتات والحيوانات؛ لأنها غير مكلّفة[2]. فالآية إذن تريد أن تُشعر الإنسان بأن الكائنات الحية كلّها ومنها الإنسان هي تحت علم اللّه، وإذا كانت تحت علم اللّه فعلى الإنسان أن يعي أن اللّه يراقبه في جميع تصرّفاته.

وقد يقول قائل: لماذا هذا التأكيد المشدّد على الإنسان، هذا الكائن

---

(١) سبأ: ٢.

(٢) أما قوله تعالىٰ: ﴿قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ﴾ ـ فصلت: ١١ ـ فهو في عالم التكوين، لا عالم التشريع.

الضعيف الحقير؟ فما هو الإنسان حتى يُشدَّد عليه كلّ هذا التشديد؟ أليس هو ذلك الكائن الذي يقول عنه الإمام أمير المؤمنين﴿: **«تـؤلمه البـقة، وتـقتله الشرقة، وتُنتِنُهُ العَرقة»**[١]؟

والجواب: أن الإنسان هو الكائن العقلي الوحيد الذي بوسعه الآن أن يحوِّل الأرض إلى جنة، أو إلى كتلة من اللهب؛ فهذه الانجازات في دنيا الذرّة جعلته متمكّناً من أن يحرق الأرض بمجرد أن يكبس على زر واحد. فهو خطر جدّاً وإن كان من الناحية الجسديّة ضعيفاً. فهذه القدرات التي يمتلكها لا يـمكن السيطرة عليها ما لم يشعر برقابة من الله تعالى عليه. وقد ثبت بالإحصائيات أن الإنسان لا يضبطه شيء من الضوابط غير الدين والعقيدة. وهذا هو السبب في تأكيد الإسلام والأديان الأُخرى على الإنسان والتشديد عليه.

المبحث الأول: في الأشياء التي تلج في الأرض

من بعد هذه المقدمة نعود إلى الآية الكريمة التي بُدئت بقوله تعالىٰ: ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ** ﴾، لنشرح مفرداتها؛ فالولوج هو الدخول، فما هي الأشياء التي يمكن أن يُتصوّر أنها تدخل في الأرض؟ هناك عدة أشياء تذكر في هذا الباب هي:

الشيء الأول: الماء

فعلى الماء يتوقّف نمو الإنسان وحياته ورفاهيته وزراعته، يقول تعالىٰ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾[٢].

وقد جعل اللّه تعالى في هذا السائل كلّ مقوّمات حياة الإنسان ومعيشته

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤١٩. (٢) الزمر: ٢١.

على الأرض، ولهذا السبب سلب ملكيّته، فليس لأحد أن يملك الماء إلّا في حالات خاصّة، كأن يضعه في إناء في بيته أو في مكان عمله أو غير ذلك، أما ماء البحار والأنهار والبحيرات والينابيع فلا يُملَك، ويُعبَّر عنه في الاصطلاح الفقهي أنه من المشتركات؛ لأن حياة الإنسان تتوقّف عليه.

وإذا كنا لا نشعر بقيمة الماء عندنا فلأنه متوفّر بكثرة، فخمسة أسباع الأرض ماء. ومن الطبيعي أن وفرة السلعة تؤدي إلى رخص قيمتها، وإلّا فلا شيء يمكن أن يكون أغلى من الماء عند ندرته.

فالله تعالى يقول: نحن نسلك هذا السائل الذي تتوقّف عليه حياتكم في الأرض، ونجعله يلج فيها ويخرج منها لتوفير النعم لكم. فهو يريد أن يقرّرنا بنعمه، فلو أراد أن يحرم الإنسان من هذه النعمة فإن الحياة سوف تنتهي. وهو تعالىٰ لا يريد أن يمنّ على العباد بهذا التذكير، وإنما يريد أن يربّيهم ويؤدّبهم، ويجعلهم في شكر دائم لنعمه.

الشيء الثاني: البذرة

فهذه البذرة عندما تُلقى في التراب فإن اللّه تعالى يعطي زارعها عليها أرباحاً مضاعفة، ولكنه فرض عليه مقابل ذلك نسبة بسيطة من هذه الأرباح، وهي الزكاة. فهذه الحبّة لا يمكن أن تعطي هذه النسبة من الربح لولا أن اللّه تعالى يسّر لها أن تكون كذلك، فلماذا لا يعطي الإنسان الزكاة في مقابل هذا؟ وليت الإنسان وقف عند هذا الحدّ في منع الزكاة، فلقد تعدّى ذلك إلى سلب لقمة الفقير من فمه **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[1]. فهذا الإنسان يُخرِجُ

---

(١) يس: ٤٧.

نفسه من دائرة المسؤولية فيقول: ما أنا والفقير، إن اللّه هو الذي أوجده وهو يتولّى معيشته.

نعم، إن اللّه أوجده وهيّأ له الرزق، ولكنّ أخاه الإنسان لا يسمح لرزقه أن يصل إليه، ويتّبع في ذلك شتّى الطرق والوسائل، فإما أنه لا يسمح له بفرص العمل المتكافئة، أو أنه يعتدي عليه، أو يجعله ضمن نظام يسلبه، فيحول بينه وبين الوصول إلى الرغيف. وبالتالي فإن هذا الإنسان يتعرّض إلى عقاب اللّه تعالى. يقول أمير المؤمنين ﷺ: **«والله لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعيم يفنى ولذّة لا تبقى؟ نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل وبه نستعين»**[1].

ولكن الإنسان يحرم الإنسان حرماناً لا حدود له بمختلف الوسائل وشتّى العلل، فيحرم هذا لأنه يختلف معه في رأي، ويحرم ذاك لأنه من قوم أعداء له، فيخلق المبررات لينتزع اللقمة من فم الجائع، ثم بعد ذلك كله ينتظر أن يرحمه اللّه. وهذا لا يكون أبداً؛ لأن اللّه تعالى يقول: **«إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي»**[2].

فهذه الحبّة إذن يضعها الإنسان في التراب لتعطي هذا الربح الضخم، وفي مقابل ذلك افترضت الشريعة عليه نسبة من الحقّ يُدفع للهيئة الاجتماعية، فصار الإنسان يلتوي في دفع هذا الحقّ ويخلق المبررات من أجل الامتناع عن أدائه.

---

(١) نهج البلاغة / الكلام ٢٢٤.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٣٧٧ / ١٠٨، كنز العمال ٣: ١٦٧ / ٥٩٩١.

الشيء الثالث: الإنسان

فمن الأشياء التي تلج في الأرض أيضاً الإنسان؛ حيث إنه سيدفن فيها بعد خروج روحه إلى بارئها.

شبهة الآكل والمأكول

وهناك نقطة تثار في هذا المجال وهي أن الإنسان عندما يُلقى في التراب، ويتحلّل إلى عناصره الأوّليّة، ويمتصّه النبات، ثم تتوزّع ذرّاته علىٰ آكليه، فلا يكاد يُعرف منه شيء، فكيف يجمع الله تعالى بعد ذلك هذه الأشتات ويبعثها؟ فيقول تعالىٰ في معرض الإجابة علىٰ هذا التساؤل: إن اللّه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ من ذرّات هذا الإنسان، ويقول: ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]، فكلّ ذرّة من ذرّات هذا الإنسان تحت علمه تعالى وقدرته.

وإذا تصورنا أن ذلك مشكل بالنسبة لنا فهو غير مشكل عند اللّه : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[2]. ولكن المؤلم في الموضوع هو الحقيقة المرّة من كون الإنسان سينتهي إلى التراب، فليس من شيء يهزّ مشاعر الإنسان ويأخذ منه ذلك المأخذ الذي يثقل كاهله كوقوفه على قبر عزيز له قد دسّه في التراب، ثم يعود إليه بعد يومين فيجده أشلاء مقطّعة، ورائحة منتنة، بل غريبة في نتنها، فيتساءل: هل هذه هي نتيجة الإنسان؟ يقول أبو نؤاس:

يا بني النقص والغِيَرْ   وبني الضعف والخوَرْ
وبني البُعدِ بالطبا   عِ على القربِ بالصورْ

---

(١) سبأ: ٣.   (٢) الأنبياء: ١٠٤.

أيــن مــن كــان قبلكم   من ذوي البأسِ والخطرْ
ســبقونا إلى الرَّحيـ   ـلِ وإنــا لَـبالأثرْ
مَــن مـضى عبرةٌ لنا   وغــداً نـحن مـعتبَرْ
فكأنــي بكــم غــداً   فـي ثـيابٍ مـن المدرْ
قـد نُـقلتم مـن القصو   رِ إلى ظـلمةِ الحـفرْ(١)

يقول أحد الأُدباء: لو سُئلت الدنيا أن تصف نفسها لَما وصفتها بأروع مما وصفها به أبو نؤاس حيث قال:

وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هـالكٍ   وذو نسبٍ في الهالكين عـريقِ
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت   له عن عدوٍّ في ثياب صـديقِ(٢)

وهذا هو واقع الدنيا. لكن هل من المعقول أن اللّه تعالى يضع هذا الإنسان في التراب لتكون نهايته هكذا؟ هذا الإنسان المليء بالطاقات..المخلوق في أحسن تقويم، هل من المعقول أن تكون نهايته عند هذا الحد من مسيرته؟

وهــامةٌ هــي مـيدانٌ لمـعرفةٍ   أضـحى بـها للـبلى والدودِ ميدانُ
لا السامرون ولا الوادي ومن عمروا   كأنــما الأرضُ مــا كـانت ولا كـانوا
بـدءُ النـهاية فـي يـوم البـداية للـ   ـأعمارِ فـالحلّ بـالترحـالِ إيـذانُ
أنـحن فــي هـذه الدنـيا حـقائقُ أم   ضربٌ من الوهمِ عـاشت فيه أذهـانُ

فالآية الكريمة إذن تبيّن لنا أن اللّه سوف يجمع ذرّات الإنسان ويعيده وتهوّن هذا الأمر، فما نتصوره عظيماً عندنا في ذلك فهو عند اللّه هيّن.

المبحث الثاني: تقديم مايلج في الأرض على ما ينزل من السماء

وهنا يتساءل المفسّرون عن سبب ذكر الآية لما يلج في الأرض قبل

---

(١) ديوان أبي نؤاس: ٣٤٧.   (٢) ديوان أبي نؤاس: ٤٦٥.

ذكرها لما ينزل من السماء، ثم يجيبون عن ذلك بأن الحبة تُبذر في التراب أولاً ثم ينزل عليها المطر. أما باقي المعادلات البالغة الدقة، والفعاليات الأُخرى التي تجري داخل التربة فيتكفل بها اللّه تعالىٰ، وأما الإنسان فينتهي دوره ومهمته عند بذر الحبّة في الأرض. وهذه المعادلات هي المسؤولة عن هذا التنوّع المذهل في أصناف الخضروات والفواكه والثمار، ولولا هذه المعادلات لكان عندنا صنف واحد من النبات.

رجع

فاللّه تعالى يقول للإنسان: لا تحرم أخاك الإنسان من قوته لمجرّد أنه يختلف معك في الرأي، ولذلك فإن فقهاءنا عندما يتناولون قوله تعالىٰ: **﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**[1] يخلصون إلى القول: إن هؤلاء الكفار يجب ألّا يُحرموا من الصدقات وأعمال البر، وكان جملة من الصحابة في المدينة المنوّرة يوزّعون أعمال البرّ والصدقات والمساعدات على جيرانهم من فقراء اليهود.

فالإسلام ليس فيه تشنّج إزاء الأديان الأُخرى بل إنه علىٰ العكس من تلك الأديان التي يعتبر تاريخها مروعاً معنا، وإلى الآن يُذبح المسلمون في أكثر من ساحة ذبحَ الكباش على أيدي هؤلاء، لا لسبب سوى أنهم يحملون اسم الإسلام الخالي أحياناً من مضمون الإسلام. ارجع مثلاً إلى التوراة تجدها تأمر اليهود بالقتل والحرق والنهب[2] وقتل الأطفال واغتصاب النساء: «اذبحوهن ودعوا الأبكار للذّاتكم فقط».

---

(١) الممتحنة: ٨.

(٢) انظر العهد القديم، سفر ناحوم /الآية: ٩.

أما نحن فليس في تاريخنا وديننا من الناحية النظرية مثل هذا؛ فالإنسان عندنا أخو الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. وهذه هي المادّة القانونيّة الدوليّة. فالإسلام بهذا يعدّ من أول منابع القانون الدولي.

المبحث الثالث: في الأشياء التي تخرج من الأرض

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾، فما هي هذه الأشياء التي يمكن أن يُتصوّر أنها تخرج من الأرض؟ هناك عدّة أشياء منها:

الشيء الأول: النبات

فالله تعالى يقول: إن هذا النبات قد هيّأناه لسعادة الإنسان؛ ففي قطعة الأرض الصغيرة التي تخضع لعوامل متشابهة من الجوّ والماء والظروف الموحّدة يحصل الإنسان على أنواع مختلفة من النباتات، وهذا من الأدلّة الجليّة على عظمة وقدرة الخالق. فهو تعالى يلفت نظرنا إلى هذه النبتة الخارجة من الأرض، ويدلّنا على ما أعانها من معادلات أخرجتها إلى الوجود.

الشيء الثاني: المعادن والأحجار

ومما يخرج من الأرض أيضاً أنواع المعادن والأحجار الكريمة. وقد فرض الله تعالى فيها ضريبة للمجتمع أيضاً؛ لأن الإنسان لم يبذل فيها جهداً، فالأرض تعمل والإنسان نائم، كما يقول المذهب التجاري الاقتصادي.

الشيء الثالث: القوارض

ومما يخرج من الأرض أنواع كثيرة من الحيوانات التي نتصوّر نحن أنها

---

(١) الحجرات: ١٣.

مؤذية، ولكن العلم تنبّه أخيراً إلى أن التوازن البيئي الذي يجب أن يبقى محفوظاً منوطٌ بها، فلو قام الإنسان بقتل القوارض مثلاً فإنه سيضرّ بالتوازن البيئي. وهذا التوازن مطلوب حتى في الإنسان، فهناك من الناس من هم أشبه بالقوارض، فيسلط اللّه عليهم القوارض من الظلمة والسفّاكين. وكثيراً ما نشكو من كون صنف من الناس قد سُلّط عليهم ظالم، ولكن هؤلاء ربما كانوا ظالمين لأنفسهم أيضاً، فهناك ألوان من الظلم قد لا نشعر بها.

مظاهر ظلم الإنسان أخاه الإنسان

ولو تأملنا الآن في الحضارات التي نعتبرها حضارات متقدّمة، كالحضارة الأوروبية مثلاً، لوجدنا أنها تعامل الملوَّنين معاملة خاصّة تختلف عن غيرهم، فما هو ذنب هؤلاء الذين خرجوا من بطون أُمّهاتهم هكذا؟ بل إنهم وصلوا في بعض الميادين إلى أكثر من هذا، فخلعوا الألقاب على طبقة خاصّة وسموها «الحيوان الأشقر»، أما الباقون ففي نظرهم أنهم خلقوا مستهلِكين، وهم أشبه بالحيوانات التى خلقت للركوب.

فهل تعلم مثلاً أن غاندي هذا الرجل القمّة، يعدّ من طبقة المنبوذين التي تُسمى «طبقة الأنجاس»؟ فالحضارة الهندية ـ وهي من الحضارات المهمّة ـ تعتبر أن قسماً من الناس مخلوقون من رأس الإله وهم الفلاسفة والمفكّرون، وقسماً منهم مخلوقون من صدره، وقسماً منهم مخلوقون من بطنه، وقسماً منهم مخلوقون من رجليه، وقسماً منهم منبوذون أنجاس، وغاندي هذا هو من هؤلاء المنبوذين. فانظر إلى هذا الرجل القمّة الذي أنقذ بلده كيف يُعدّ من المنبوذين، وتأمل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

ومن ظلم الإنسان للإنسان ظلم الرجل للمرأة، ففي بعض الحضارات إلى الآن تُحرم المرأة من أبسط الحقوق المشروعة. أما هذه الحضارات التي

تدّعي أنها أعطت المرأة حقوقها ومكانتها، فهي في واقعها حوّلت المرأة إلى كيان ضائع، وإلى سلعة تباع وتشترى. ولو نظرنا بعين الحق لوجدنا أنه ليس هناك من يعطيها مكانة مثل الإسلام؛ لأنه راعى فطرتها، فأعطاها الأحكام التي تناسبها، ولم يظلمها في شيء.

فمما يخرج من الأرض إذن المعادن والنباتات والحيوانات، وإن رأيت أن الحيوانات يأكل بعضها البعض الآخر فهذا لإحداث التوازن الضروري لاستمرار البيئة.

المبحث الرابع: في الأشياء التي تنزل من السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة إلى مقطع آخر فقالت: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنْ السَّمَاءِ﴾، وهناك جملة أشياء نزلت من السماء منها:

الشيء الأول: القرآن الكريم

إن أقدس ما نزل من السماء هو القرآن الكريم، وهو الذي يستأثر باهتمام الإنسان المسلم. وقد كتب اللّه تعالى القرآن في اللوح المحفوظ، ثم بدأ يُنزّل علينا آياته آية بعد آية، وسورة بعد سورة، بمقدار الحاجة، إلى أن اكتمل نزوله في ثلاثة وعشرين عاماً، وطلب منا أن نتدبّر هذه الآيات ونوظّفها لحاجة البشر؛ لأن اللّه تعالى أنزل القرآن هدىً ورحمة للعالمين، ولم ينزّله ليتلاعب به المتلاعبون.

من مظاهر ظلم الإنسان لكتاب الله تعالى

لقد رأيت تعليقاً لأحد العلماء من بعض البلدان الإسلامية - ولا أُحب أن أذكر اسمه هنا - على أبيات عمرو بن العاص التي بعثها إلى معاوية، والتي يقول فيها:

وإن كان بينكما نسبةٌ ... فأين الحسامُ من المنجلِ

وأين الثريّا وأين الثرى وأين معاوية من علي[١]

فيقول في تعليقه: رحم اللّه عمرو بن العاص، أدرك خطأ اجتهاده فعدَّله.

فيا للمهزلة! ويا لمصيبة هذا الاجتهاد الذي أصبح يُعطى كيفما يشاء له هؤلاء الوعّاظ ولمن يشاؤون! إن اللّه تعالى وضع لنا أُموراً حدّية، وأراد صلاح الأرض، فكيف يمكن أن ننعت الفساد بنعت الصلاح؟ فإننا بدلاً من أن نقول: إن عمرو بن العاص كان طامعاً في شيء، فلما أُخذ منه هذا الشيء ثار على من أخذه منه، ننعته بالاجتهاد والصلاح!

وكذلك الحال حينما يمر الباحث ببعض كتب تفسير القرآن الكريم فإنه سيدرك حينها مدى الظلم الذي لحق بهذا الكتاب الكريم، وقد ورد في الحديث أن من جملة من يشكو إلى اللّه يوم القيامة القرآن المهجور[٢]. ونحن قد هجرنا القرآن بعدم وضعه في مساره الصحيح، فعندما نفسّره بعيداً عما أُريد له فإننا نكون قد هجرناه، وعندما نرى أن معنى الآية لا يخدمنا ولا يسوغ لنا فنجرّها إلى ما يخدمنا فإننا نكون قد هجرناه. فالله تعالى عندما أنزل القرآن من السماء أراد له أن يأخذ مساره الصحيح في المجتمع وبين الناس.

الشيء الثاني: المطر

ومما ينزل من السماء أيضاً المطر، واللّه تعالى يوجّه كلّ قطرة من المطر إلى مظانّ النفع والضرّ، ويرسله ضمن موازين دقيقة؛ للري والشرب والزراعة.

---

(١) لطائف أخبار الدول: ٤١ (الطبعة القديمة)، شرح نهج البلاغة ١٠: ٥٧، قال: رأيتها بخط أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة تشكو إلى الله العزيز الجليل: مسجد خراب لا يصلّي فيه أهله، وعالم بين جهّال، ومصحف معلّق قد وقع عليه الغبار لايُقرأ فيه». عدة الداعي: ٢٧٢.

الشيء الثالث: الرزق

ومما ينزل من السماء تقدير الرزق. وهذه النظرية تستحقّ الوقوف عندها قليلاً. يقول تعالىٰ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]، ونحن نعرف أن رزقنا في الأرض لا في السماء، وكلّ ما نمارسه من أعمال الزراعة والتجارة والصيد وغيرها مما نحصل به على رزقنا ونأكل منه هو في الأرض، فما دخل السماء بهذا الموضوع؟

إن علاقة السماء بموضوع الرزق تتمحور حول فكرة أن المصادر الأساسية للرزق تأتي من السماء لتلتقي بالأرض، فتشترك الأرض والسماء في إيجاد ما نحتاجه. وإلّا فما قيمة الأرض كلّها لولا شعاع الشمس؟ وما قيمة النبات لولا شعاع الشمس؟ إن النبات مثلاً يحتاج إلى الكلوروفيل، والكلوروفيل يحتاج إلى أشعّة الشمس للبناء الضوئي، وأشعّة الشمس تأتينا من السماء. وفي الوقت نفسه تطهّر الشمس الأرض من بعض الكائنات المضرّة، وتعطي الطاقة للتربة، والمطر ينزل من السماء بقدر معلوم.

فالرزق إذن ينزل من السماء لكلّ نسمة تخلق في الأرض، ولا علاقة لتنظيماتنا المحلية فيما يتعلّق بالكثافة السكّانية وغيرها بما تخطّطه السماء؛ لأن السماء خطّطت لكفاية الناس، ولا يمكن أن يخلق الله تعالى كائناً ما لم يهيّئ له طعامه. يروى أن النبي إبراهيم رأى حوتاً ضخماً، فأراد أن يطعمه، فجمع له أقوات البلد كلّها، ووضعها على الساحل، فأتى ذلك الحوت ومعه مجموعة من الحيتان فالتهمت ما جمعه، وبقيت تموج باحثة عن المزيد من القوت، فرفع نبي الله إبراهيم رأسه إلى السماء وقال: «سبحان

---

(١) الذاريات: ٢٢.

مطعم هذه الكائنات».

إن اللّه تعالى خلق لكلّ ما في البرّ والبحر قوته، أما ما يُطرح من سبب للمشاكل الاقتصاديّة في العالم وهو أنه كثرة الناس وقلة الواردات، فهو غير صحيح؛ لأن اللّه تعالى خلق كل شيء بقدر، وما في الأرض من موارد تكفي أهلها وزيادة، لكن الذي يحصل هو أن الناس يسطو بعضهم على بعض. رأى أمير المؤمنينعليه‌السلام يوماً امرأة توقد تحت قدر ليس فيها طعام تريد بذلك أن تشغل أبناءها الجائعين، فجاء بالطعام وأخذ يوقد تحت القدر بنفسه، فكانت النار تلفح وجهه، فراح يقول: **«ويح ابن أبي طالب، ماذا يقول غداً إذا لفحت النار الكبرى وجهه؟»**.

فالناس كلهم راعٍ وكلهم مسؤول عن رعيته، وإذا استرعى اللّه عبداً رعية حمَّله مسؤولية تلك الرعية[1]، أمّا إذا مدّ يده وأكل قوت من يرعاه فهل يمكن أن نتصور أن اللّه سيرحمه؟

لقد كان في تاريخنا نماذج مشرِّفة في هذا الباب؛ فقد كان عدي بن حاتم الطائي يخرج من بيته يحمل خبزاً بيده وقد فتَّه، فيقال له: إلى أين؟ فيقول: لجيراني من قُرى النمل. فيعطي النمل طعامه ويرجع، ولا يتركها جياعاً وكان يقول: هؤلاء جيراني[2].

---

(١) قال رسول اللهصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: «كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته؛ فالإمام راعٍ وهو المسؤول عن رعيّته، والرجل في أهله راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيّتها، والخادم في مال سيّده راع وهو مسؤول عن رعيّته، والرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته، وكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته». عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٣، مسند أحمد ٢: ٥، ٥٤، ١١١، ١٢١، صحيح البخاري ١: ٢١٥، ٢: ٧٩، وغيرها.

(٢) بحار الأنوار ٦١: ٢٤٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٠: ٨٨، ٨٩.

المبحث الخامس: في الأشياء التي تعرج في السماء

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، وهي جملة أشياء منها:

الشيء الأول: العمل الصالح

فأول شيء يعرج في السماء هو العمل الصالح. ولنتأمّل في كلمة ﴿فِيهَا﴾ في الآية الكريمة، فمدلولها واضح في أن هذه الأشياء التي تعرج في السماء لا تصل إلى السماء ثم تقف عندها وينتهي الأمر عند هذا الحدّ، وإنما هي تتغلغل داخلها. فالعمل الصالح يصعد ويتوغّل داخل السماء.

الشيء الثاني: الدعاء والكلم الطيّب

والدعاء والكلم الطيّب يصعدان أيضاً إلى السماء ويتوغّلان داخلها. أمّا الكلم الخبيث فيصل إلى السماء وهو ممزوج بظلامة، فيردّه الله تعالى. مر مروان بن الحكم يوماً بأُسامة بن زيد ـ وكان أُسامة يميل إلى السواد، في حين أن أباه زيداً كان شديد البياض، وكان النبي ﷺ يحبّ أُسامة[١]، وكان قد أعطاه اللواء، وأمر المسلمين بإنفاذ سريته، فقال: «**جهزوا جيش أُسامة، اخرجوا مع أسامة، لعن الله من تخلّف عن جيش أُسامة**»[٢] ـ فرآه يصلّي أمام بيت النبي ﷺ فقال له: يا فلان بن فلان (وذكره بألفاظ قبيحة، وشتمه)، قد عرفنا أنك إنما وقفت تصلّي هنا ليعرف مكانك. فقال أُسامة بعد أن فرغ من الصلاة: إنك فاحش مُتفحّش، وقد سمعت قول رسول الله ﷺ: «**إن الله لا**

---

(١) وقد فرض له عمر في العطاء خمسة آلاف ولابنه عبد الله ألفين، فقال له ابنه: لم فضّلت علي أُسامة وقد شهدت ما لم يشهد؟ فقال له: إن أُسامة كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، وأبوه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك. فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٦١٨.

(٢) الملل والنحل ١: ٢٣.

يحبّ كلّ فاحش مُتفحّش»[(١)] .

فهو يقول له : أنا لا أردّ عليك ، وسيعاقبك اللّه على هذا الكلام. فلا شك أن مثل هذا الدعاء من المظلوم يصعد إلى اللّه والكلام الخبيث لا يصعد إليه .

سئل أمير المؤمنين عليه السلام : كم بين السماء والأرض؟ فقال : **«دعوة مظلوم»**[(٢)].

فالكلم الطيّب ، والعمل الصالح يصعدان إلى اللّه تعالى. فهذه كلّها تعرج إلى السماء ، وأهمّها دعاء المظلوم ، يقول أمير المؤمنين عليه السلام :

لا تـظلمنّ إذا مـا كـنت مـقتدراً ... فالظلمُ مرتعُه يفضي إلى الندمِ

تـنامُ عـينُك والمـظلومُ مـنتبهٌ ... يدعو عليك وعينُ اللـهِ لم تـنمِ

خصوصاً إذا خرج الدعاء من قلب فيه انقطاع وإخلاص وحرارة ، وليس في القلوب من ذلك أكثر مما في قلب الأم على ولدها ، فلا يصل إليها في العاطفة الأب ولا غير الأب ، ولا يدانيها فيها أحد؛ لأن الولد قد خرج من بين أحشائها : **﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ﴾**[(٣)].

فإذا أرادت الأم أن تدعو لولدها فإنها تدعو له بكل مشاعرها؛ ولهذا طلب الإمام الحسين عليه السلام من أم علي الأكبر أن تدعو له عندما برز للقتال ، فقد قال لها : **«برز إليه من يُخاف منه عليه ، ادعي لولدك؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : دعاء الأم مستجاب في حقّ ولدها»** .

---

(١) مسند أحمد ٥: ١٢١، الكرم والجود (البرجلاني): ٤٢، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ٢٣٩، فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٦١٨، وفيها: فحكاه. وهنا يصدق قول رسول الله صلى الله عليه وآله : «لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن أبكوا عليه إذا وليه غير أهله». مسند أحمد ٥: ٤٢٢، المستدرك على الصحيحين ٤: ٥١٨، المعجم الكبير ٤: ١٥٨، المعجم الأوسط ٩: ١٤٤ ، فقد وليه فيمن وليه من غير أهله مروان هذا وأمثاله .

(٢) أمالي المرتضى ١ : ١٩٦ ، دستور معالم الحكم : ١١٢ ، تاريخ اليعقوبي ٢ : ٢٠٩ .

(٣) المجادلة : ٢ .

فدخلت إلى الخيمة، فجرّدت خمارها، وصاحت: إلهي بصبر أبي عبد الله، إلهي بغربة أبي عبد الله، يا راد يوسف على يعقوب اردد علي ولدي:

ردّت الخيمتها الغريبه تبجي وعلى ابنيها بريبه
اتوسلت لله بحبيبه بالحسين وشما بيه مصيبه
ياراد يوسف من مغيبه ليعكوب ومسچن نحيبه
أريدك علي سالم تجيبه

ثم رجع علي الأكبر يحمل رأس بكر، فقال له الحسين ﷺ: **«بني بادر إلى أمّك قبل أن تموت»**. فأقبل إليها فأخذ رأسها، ونضحها بدموع عينيه، ففتحت عينيها واحتضنته وأكبّت عليه، وصاحت: بني علي! وآبت معه إلى خيمتها.

وكان للحسين ﷺ موقف لعلّه لا يقل شجاعة عن هذا الموقف، وذلك حينما حمل الهاشميون علياً الأكبر إلى الخيمة، فجلس ﷺ عند رأسه:

ماءُ الصِّبا ودمُ الوريدِ تجاريا فيه ولاهبُ قلبِهِ لم يخمدِ
أفديه من ريحانةٍ ريّانةٍ جفَّت بحرِّ ظما وحرِّ مُهَنَّدِ
فلتذهبِ الدُّنيا على الدُّنيا العفا مابعدَ يومِك من زمانٍ أرغدِ

﴿ ١٢٢ ﴾

من مسائل فقه الأُسرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

مقدمة في أقسام الابتلاءات الشرعيّة

هذا المقطع من الآية الكريمة يدخل في مجال آيات الأحكام، وهذا اللون من الفقه يُعبَّر عنه بالفقه المتحرّك، وهو يقابل قسماً آخر منه يسمىٰ الفقه الساكن أو الميّت، وهو الذي لا يُبتلى به إلّا في حالات طارئة. وعليه فنحن أمام نوعين من هذه الابتلاءات ونوعين من أنواع الفقه التي تعالج هذه الابتلاءات:

---

(١) الطلاق: ٦.

النوع الأوّل: الابتلاءات الطارئة

وذلك من قبيل البئر الذي تقع فيه فأرة، فهنا يتدخّل الفقه ليبيّن عدد الدلاء التي ينبغي أن تنزح منها، والكيفيّة التي يتمّ بها ذلك، ومتىٰ تحصل طهارتها. وهذا من مواضع الابتلاءات السابقة، وقد انتفت الآن بانتفاء موضوعها (سالبة بانتفاء موضوعها)؛ فلم يعد هناك آبار كثيرة مبتلى بها الآن، وأصبحت المسألة نادرة. لكن يبقىٰ هذا اللون من الفقه رصيداً فقهيّاً للإنسانية تلجأ إليه في حالات معينة.

النوع الثاني: الابتلاءات المستمرّة

ويمكن تقسيم هذا النوع من الابتلاءات إلى قسمين، بلحاظ الزمان الذي يبتلى به المكلّف بها:

القسم الأوّل: الابتلاءات المحدّدة بزمن ما

وهي لون من الابتلاءات الفقهيّة التي تحصل للمكلّف كل سنة مرة واحدة، من قبيل أحكام الفطرة في آخر رمضان.

القسم الثاني: الابتلاءات غير المحدّدة بزمن ما

وهي لون من الابتلاءات الفقهيّة التي تصاحب المكلّف على امتداد حياته، ويمكن أن يبتلىٰ بها صباح مساء، ومنه فقه الأُسرة. فالابتلاءات في الزواج والطلاق، وذيول الطلاق أُمور تتكرّر كلّ حين في جوّ الأُسرة ومحيطها، سيّما موضوع الطلاق، وهو ما تبنته الآية الكريمة؛ ولذا فإننا سنتناوله في بحثنا هذا إن شاء الله تعالى.

المبحث الأوّل: الطلاق وأقسامه وآثاره

إن موضوع الطلاق وإن كان الكثير من الناس يستهين به، لكنه في نظر

الشارع المقدّس من الأمور الخطرة جدّاً؛ فهو عامل كبير في هدم المجتمعات، يرویٰ عن النبي ﷺ أنه قال: **«أوصاني جبرئيل عليه السلام بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلّا من فاحشة مبيّنة»**(١).

ورباط المرأة في جوّ الأُسرة هو الذي يسيطر علىٰ الحياة. فالمرأة صانعة الأطفال ومربّيتهم، وهي التي تحوّل جو البيت إلىٰ جحيم أو إلىٰ نعيم؛ فهي تتحكّم بالأُسرة وتربية الأطفال، وإسعاد الزوج وإضفاء لمسات رائعة من الحبّ والحنان علىٰ البيت، وما إلى ذلك. فهي ليست طرفاً في تبادل اللذّة بينها وبين الزوج فقط، وإنما هي طرف مساهم في بناء المجتمع، وعاطفة وكرامة وأُسرة. بلغ النبي ﷺ يوماً أن أبا أيوب رضي الله عنه أراد أن يطلّق زوجته أُم أيوب، فقال ﷺ له: **«يا أبا أيوب، إن طلاق أُم أيّوب لَحَوب»**(٢). والحَوب: الخطأ والإثم(٣).

فالطلاق وإن كان مباحاً لكنّه يشرّع عند الضرورة، وهي فيما إذا تعذّرت العشرة مع الزوجة، وإلّا فإنه لا يشرع لمجرّد أن الرجل مثلاً تعرّضت كرامته للخدش قليلاً، أو أنه سمع من زوجته كلمة نابية. فهنا يتزاحم المهمّ والأهمّ؛ فصحيح أن الرجل يريد الحفاظ علىٰ كرامته، لكن ينبغي كذلك أن يحافظ علىٰ كرامتها هي، فيخلق جوّاً من التفاهم؛ ليحصل بينهما الاحترام المتبادل، فإن الاحترام المتبادل إن حصل فلن يحدث في البيت شيء من الاختلال.

---

(١) الكافي ٥: ٥١٢ / ٦، الفقيه ٣: ٤٤٠ / ٤٥٢٥.

(٢) الكافي ٦: ٥٥ / ٥، المعجم الكبير ١٢: ١٥١.

(٣) العين ٣: ٣١٠ ـ حوب، النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٤٣٨ ـ حوب، لسان العرب ١: ٣٣٨ ـ حوب.

وما نراه من الاختلال داخل الكثير من الأُسر سببه فقدان الاحترام المتبادل خصوصاً في أجوائنا التي تصوّر المرأة على أنـها كـيان مـنحطّ عـن كـيان الرجل، حتى إن العرب مثلاً كانوا يخرجونها من البيت فـي حـال حـدوث الدورة الشهريّة عندها، يقول أحد شعرائهم:

إذا المـــرئيّ شَبَّ لهُ بَـنـاتٌ عَصَبْنَ برأسِهِ إبَةً وَعَـاراً(١)

فالمرأة عندما تشعر بلون من الاحتقار يحدث عندها شيء من رد الفعل، فتحاول ردّ اعتبارها وإثبات ذاتها، فيتحوّل سلوكها إلىٰ سـلوك مـضطرب، وكثيراً ما يحصل هذا في مجتمعاتنا. مرّ رسول الله ﷺ برجل فـقال: **«ما فعلت امرأتك؟»**. قال: طلقتها يا رسول الله. قال ﷺ: **«من غير سوء؟»**. قال: من غير سوء. ثم تزوّج ثانية، فمرّ به النبي ﷺ فقال: **«تزوجت؟»**. قال: نعم. ثم قال ﷺ له بعد ذلك: **«ما فعلت امرأتك؟»**. قال: طلقتها. قال ﷺ: **«من غير سوء؟»**. قال: من غير سوء. ثم تزوج ثـالثة، فـمرّ بـه النـبي ﷺ فـقال له: **«تزوّجت؟»**. فقال: نعم. ثم قال ﷺ له بعد ذلك: **«ما فعلت امرأتك؟»**. قـال: طلقتها. فقال ﷺ: **«من غير سوء؟»**. قال: من غير سوء. فقال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجلّ يبغض كلّ ذوّاق من الرجال، وكلّ ذوّاقة من النساء»**(٢).

إن اللّه مكّننا من أن نستبيح من المرأة ما أحلّ لنا، وأن نرىٰ منها وترىٰ منّا ما لا يراه أحد، فيفترض أن يكون التكريم والعواطف متبادلة بينهما. أما

---

(١) العين ٨: ٤٢٠ ـ أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ ـ وأب، والمرئي في الأصل: امـرئي، نسـبة إلىٰ امرئ القيس، ثمّ قالوا مرئي، فكأنهم جعلوها منسوبة إلىٰ (مرء) مطلقاً. والإبة: الخزي.

(٢) الكافي ٦: ٥٤ / ١، عوالي اللآلي ٣: ٣٧٢. ٦. وقال ﷺ: «لا تطلّقوا النساء إلّا من ريبة؛ فإن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات». عوالي اللآلي ٢: ١٣٩ / ٣٨٩، المعجم الأوسط ٨: ٢٤، الجامع الصغير ١: ٢٧٩ / ١٨٢٠.

الطلاق فهو أمر يؤثر علىٰ النفوس والمشاعر، وإذا وقع فإنه ستكون له عواقب سوداء؛ ولذلك تجد أن الروايات تشدّد علىٰ ترك الطلاق تشديداً كبيراً، يقول الإمام الصادقعليه السلام: **«تزوّجوا ولا تطلّقوا؛ فإن الطلاق يهتزّ له العرش»**[(١)]. فالطلاق أمر في غاية الصعوبة، وقد شدّد الإسلام علىٰ عدمه، وجعل له مقدمات مشدّدة للابتعاد عنه من قبيل إرسال حكم من أهله وحكم من أهلها[(٢)]، خصوصاً فيما إذا كانت هناك علاقة وثيقة وميثاق غليظ بينهما، وهو الطفل الذي إذا وقع الطلاق حُكم عليه بالانحراف والتحوّل إلىٰ مشروع جريمة.

وهناك معالجات كثيرة وضعها الإسلام للإصلاح بدلاً عن الطلاق، كالمفارقة بالمضجع، والإعراض، والتأديب الخفيف[(٣)]. فإن لم تنفع هذه الوسائل كلها، وأصبح الطلاق أمراً ضرورياً، فعند ذاك يصبح ممّا لابدّ منه. فهو أشبه بالعمليّة الجراحيّة التي يلجأ إليها الإنسان عند الضرورة القصوىٰ.

ذيول الطلاق والمشاكل المترتّبة عليه

وهذه الآية الكريمة جاءت لمعالجة أحد ذيول الطلاق، فقالت: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾، فالسكن من الحاجات الأساسية للإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش ويتحرّك بحرية إلّا إذا كان له سكن. وقد ضمن اللّه تعالىٰ هذه الحاجة في الجنة إشعاراً لنا بأنه من الحاجات

---

(١) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ ـ ٩ / ٢٧٨٨٠.

(٢) قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ النساء: ٣٥.

(٣) قال تعالىٰ: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً﴾ النساء: ٣٤.

الضرورية، فقال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى**﴾[(١)]؛ ولذلك فإنه تعالىٰ يقول لموسىٰ ﵇: ﴿**أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً**﴾[(٢)]. فالمسكن يحفظ للإنسان خصوصياته وممتلكاته، ويكفّ عنه نظر المتطفّلين.

وإنما سُمي السكن بذلك؛ لأنه يوفّر للإنسان الطُمأنينة وسكون النفس؛ ولذا نجد أن الإسلام قد وضع أحكاماً كثيرة للسكن، كعدم الدخول إلى دار إلّا بإذن صاحبها[(٣)]، وغير ذلك من أحكام الجوار.

المطلّقة وموضوع السكن في الفقه الإسلامي

ولما كان السكن بهذه الأهمية، فإن موضوع المرأة المطلّقة يحظىٰ بمساحة كبيرة في الفقه الإسلامي، فالمرأة عندما تطلّق تخرج من بيت الزوج، ولا بدّ لها حينئذٍ من سكن تأوي إليه.

أقسام المطلّقات

وهذا الموضوع يحدّده نوع الطلاق الواقع على المرأة؛ إذ أن لكل نوع من أنواع الطلاق أحكاماً مترتّبة عليه، يحدّدها المشرّع الإسلامي المقدّس:

---

(١) طه: ١١٨ - ١١٩، والاستشهاد هنا باللازم؛ فهذا الذي ذكرته الآيتان الكريمتان لا يكون إلّا مع وجود السكن، وإلّا فإن الإنسان لا يهنأ بذلك كله ما لم يكن له سكن يؤويه، وكذلك فإن الله تعالى لا يمكن أن يوفّر للإنسان ذلك قبل توفير السكن.

(٢) يونس: ٨٧.

(٣) قال الله تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ النور: ٢٧ - ٢٨.

القسم الأول: المطلّقة الرجعية

وهي المطلّقة التي منحها الشارع المقدّس حق السكن والنفقة ما دامت في العدّة.

القسم الثاني: المطلّقة البائنة

وهي المطلّقة التي تبين من زوجها فلا يجوز له الزواج منها ثانية. ويختلف فقهاء المسلمين في أمرها على عدّة آراء، وحسب وضعها حال الطلاق من كونها حاملاً مثلاً أم لا:

أولاً: المرأة غير الحامل

وللفقهاء فيها إزاء نفقتها وسكناها ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أن لها حقّ السكن والنفقة

وهذا أيضاً رأي جماعة من الفقهاء والصحابة، ومنهم عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود وجماعة[1].

الرأي الثاني: أنها لا تستحقّ السكن والنفقة

وهذا الرأي يتبنّاه معظم الفقهاء تقريباً[2]، ويستدلّون بحادثة وقعت لفاطمة بنت قيس المخزومي، وكانت قد دخلت علىٰ النبي ﷺ فأخبرته أنها مطلّقة بائنة، وقد منع عنها أهل زوجها النفقة والسكن. فأسكنها النبي ﷺ عند ابن أم مكتوم الأعمىٰ، وبقيت حتىٰ انتهت عدّتها فزوّجها من أُسامة بن زيد[3]، وكان من الموالي وهي من الأشراف، وغرضه ﷺ من

(١) الأم ٧: ١٦٧، وانظر المجموع شرح المهذّب ١٨: ١٦٦.

(٢) انظر: الخلاف ٥: ٦٩ / المسألة: ٢٢، شرائع الإسلام ٣: ٦٠٦: واشترط في الصفحة نفسها أيضاً ذلك بألّا تكون حاملاً.

(٣) نصب الراية ٣: ٥٦٧.

ذلك كسر نطاق العصبية(١).

الرأي الثالث: أنها تستحقّ السكن دون النفقة

وهناك رأي ثالث يفصِّل في المسألة؛ فيعطي المطلقة حـقّ السكـنىٰ دون حقّ الكسوة والنفقة(٢). وهو رأي مبتنٍ على كون السكن أمراً ضرورياً أكثر من النفقة، وأهمّ منها؛ فالنفقة يمكن تجاوزها أما السكنىٰ فلا.

ثانياً: المرأة الحامل

هذا في المرأة غير الحامل، أما في الحامل فتصبح المسؤولية مـزدوجة؛ حيث إن الأمر سيتعلّق حينئذٍ بالمرأة والجنين، فلابدّ لها من السكنىٰ والنفقة معاً؛ لأن الأمر يكون حينها رعاية لها ولجنينها الذي هو نواة الإنسان، والذي يعيد الثقة بالإنسانية كلها. وكان النبي ﷺ إذا أُتـي بـطفل حـديث الولادة يقول: «**هذا حديث عهد بربّه**». فالطفل يمثّل براءة الإنسـانية، وهـو صـفحة بيضاء طاهرة. يقول تعالىٰ: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾(٣).

فهذا الطفل الذي سيقع ضحيّة الطلاق لا يعلم إلّا اللّه تعالى ماذا سـيكون شأنه في المستقبل إذا كبر؛ فهل سيكون صالحاً، أم أنـه سـتتلاقفه مـافيات المخدّرات والانحراف؟ اللّه تعالى أعلم. فهناك مسؤولية كبيرة تقع علىٰ عاتق الآباء والمدرسة في حفظ الجيل الجديد من الأبناء.

وهكذا فإن المرأة إن كانت ذات حَمل، فإن القرآن الكـريم يـضع أمـامنا

---

(١) فإسكان الرسول ﷺ لها دليلُ عدم وجوبه علىٰ الزوج.

(٢) مواهب الجليل ٥: ٢٧٠، المحلّى ١٠: ٢٨٥، وحكم به في البحر الرائـق ٤: ٢٥٨ عـلى النصراني إذا طلّق النصرانيّة، وكذلك حكم به ابن عابدين في (تنوير الأبصار) فـيما نـصّ عليها، وأيده الشارح، انظر الدر المختار شرح تنوير الأبصار ٣: ٤٩٦.

(٣) الكهف: ٤٦.

الحلّ لمشكلتها، فيقول: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؛ لأنها إذا وضعت الحمل انتهت عدّتها، والصبي بعد الولادة ينفق عليه من ماله إن كان له مال، وإلّا فينفق عليه من مال أبيه الموسر.

والآية الكريمة لم تترك المسألة دون تفصيل، فهي تقول: ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾، أي بحسب حالكم؛ فإن كان الأب موسراً، فعليه أن يوفّر لها ما يناسب يساره[١]، وإلّا فـ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٢]. دخل يوماً عقيل بن ربيعة علىٰ معاوية فقال له: أُريد أن تعينني علىٰ بناء داري باثني عشر ألف جذع. فقال معاوية: وأين دارك؟ قال: في البصرة. قال: ما سعتها؟ قال: مئة وعشرون ألف ذراع في مئة وعشرين ألف ذراع. فقال له معاوية: هل بنيت دارك فيالبصرة، أم بنيت البصرة في دارك؟[٣]

ومعاوية هذاالذي يُشكل علىٰ عقيل بن ربيعة في هذه الدار بنىٰ داراً تدعىٰ الخضراء كلّفت بيت المال حمل ثمانية عشر بعيراً من الذهب والفضة[٤].

---

(١) المدوّنة الكبرى ٣: ١١٩. (٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٢٤٦، وفيه: أكثر من فرسخين في فرسخين. والفرسخ: ثلاثة أميال، العين ٤: ٣٣٢ـ فرسخ، أو هو مقدار خمس وعشرين غلوة سهم، العين ٤: ٤٤٦ ـ غلو.

(٤) قال ابن عساكر: لمّا استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شري الخضراء بدمشق، فابتاعها منه بأربعين ألف دينار وأربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن؛ فاختار من فلسطين عمواس، ومن الأردن قصر خالد، ومن دمشق أندر، ومن حمص دير زكي.

وقال: بنى معاوية الخضراء بدمشق وهي دار الإمارة بالطوب، فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم، فنظر إليها فقال له معاوية: كيف ترى هذا البنيان؟ قال: أمّا أعلاه فللعصافير، وأمّا أسفله فللفأر. قال: فنقضها معاوية وبناها بالحجارة. تاريخ مدينة دمشق ٢: ٣٥٩.

ولكن لم تستطع هذه الدار بما حشد لها من وسائل الترفيه والعظمة أن تحقّق له لحظة من لحظات الخلود والعظمة. أما الكوخ الذي سكن فيه علي ـ وكان إذا قام ضرب سقف الكوخ برأسه ـ فقد حقق له خلوداً لا يضاهيه خلود، يقول أحد الأدباء:

إنَّ كوخاً أضلاعُه من جَريد النـ ... ـخلِ والسَّقفُ والفراشُ حصيرُ
سَجدَ النَّجمُ عند رَملَتِهِ السَّمـ ... ـراءِ واستَوهَبَت عُلَاه العصورُ
مُنذُ ألفٍ ونصف مَرَّت ولِلآ ... نَ وأَطيافُه الشَّذىٰ والنُّورُ
عامرٌ بِالأنغامِ مِن نَغَمِ القُر ... آنِ يَتلُوهُ رَاهِبٌ مَسحورُ
وَسَيبقَىٰ بُكُلِّ حَبَّةِ رَملٍ ... مِن بَقَايَا أَبِي تُراب عبيرُ

نعم كان ذلك الكوخ الذي يضم علياً قناة متّصلة بالله آناء الليل وأطراف النهار، فإذا جن عليه الليل رمق السماء بطرفه وقال: **«يا من قَصدَه الضَّالون فأصابوه مُرشِداً، وأَمَّ إليه الخَائِفُون فرأَوْه مَوئِلاً، وَلَجأ إليه العَائِذُون فَرأَوه مَعقِلاً، مَتىٰ يَستَريحُ مَن نَصَب لِغَيرك نَفسَه. أَولِجْ قَلبي بِميدانِ المُطِيعين لَك، وَضَمِّنهُ فَرحَ الإقبالِ عَليك»**(١).

هذا الصوت الذي في كل نبرة من نبراته خشوع ضارع بين يدي ربّه قد خلّده الله تعالى مع الدهر. فالبيت مهما كان واسعاً وضخماً إذا لم تُعمر جنباته بما يرضي الله فلا معنىً له.

وهذا المعنىٰ في سعة الدار قد يتعدّىٰ حاله من الدنيا إلىٰ الآخرة، فمن العجيب أن بعض الروايات تقول: **«يعطىٰ المؤمن يوم القيامة مئة وسبعين ألف**

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

دار في كل دار مئة وسبعين ألف قصر، في كل قصر مئة وسبعين ألف غرفة»[١] إلى آخره. وكل هذا لا معنىٰ له، فالنبي ﷺ يقول: **«موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**[٢]. فالعبرة برضوان اللّه في الجنة لا في نوع وحجم البيوت والقصور، وعلىٰ الإنسان أن يضع أمامه صورة واحدة فقط من الجنة هي قوله تعالىٰ: **﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾**[٣]، أما هذه التفاصيل التي يرويها «أبو فلان» فلا داعي للخوض فيها.

مفهوم الإسراف

فالدار قد تكون بهذا اللون من البذخ والكبر الذي يصفه هذا القادم علىٰ معاوية، وهي بهذا تخرج إلىٰ حدّ الإسراف المحرّم. والإسراف ليس له حد معين، فهو مسألة يحدّدها العرف ويتحكّم بها حسّ الجماعة؛ فما قال عنه المجتمع: إنه إسراف، فهو إسراف. فهناك حالتان تراعى فيهما هذه المسألة، وهما اللتان تحدّدان ما إذا كان الأمر إسرافاً أم لا، فلو كان الناس مكتفين فلا مانع من اقتناء الدار الفارهة، أما إذا كان الناس في عوز وضيق، ويوجد هناك من يتّخذ الدار الفارهة فهذا هو الإسراف بعينه.

فالآية الكريمة أول ما أمرت به هو السكنىٰ؛ لأن الإنسان لابدّ له منه، وهو قبل الطعام والشراب واللباس.

---

(١) مصباح المتهجّد: ٢٥٣، ميزان الاعتدال ٣: ٥٦٦ / ٧٦٠٥، وقد وهّنه، الدرّ المنثور ٣: ٢٥٧.

(٢) مسند أحمد ٣: ٤٣٣ ـ ٤٣٤، صحيح البخاري ٤: ٨٧، ٧: ١٧٠.

(٣) فصلت: ٣١، وقال تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الزخرف: ٧١.

المبحث الثاني: المضارّة من وجهة نظر الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾، فإن البعض إذا أراد الانفصال عن زوجته تحوّل الحب عنده إلىٰ بغضاء، فيقول: إن الإسلام فرض عليَّ أن أُوفّر لها السكن، فلأعذّبها بهذا السكن بأن أُعطيها بيتاً ضيّقاً غير مريح، وأُضيّق عليها. وهذا لا يصح ولا يجوز، والتضييق عليها لؤم، فلا بدّ أن يكون البيت إلىٰ حدٍّ ما مريحاً.

جهات التضييق

والتضييق عادة يكون من جهتين:

الأولىٰ: التضييق بالتنكّر للعلاقة العاطفية القائمة بينهما.

الثانية: التنكّر للبنوّة. فهذه المطلّقة أم، ولديها أطفال ـ والأُمومة جديرة بأن تكرّم، وقد وضع اللّه تعالىٰ الجنة تحت أقدامها[1] ـ فيترك الرجل أبناءه دون رعاية أو اهتمام أو متابعة تربوية، ودون أن ينفق عليهم. ومع الأسف الشديد نجد في تاريخنا ما يبعث علىٰ الأسىٰ عندما يتناول هذا الجانب الحسّاس في حياة الإنسان، فقد وجدت لأحد المفسّرين رأياً يقول فيه: الأُنثىٰ أخسُّ الموجودات في الدنيا. وهذا غريب جدّاً عن روح الإسلام، فكيف يجعل اللّه تعالىٰ الجنّة تحت أقدامها، وهي أخسّ الموجودات؟ ثم ما الدليل علىٰ هذا الكلام؟

المبحث الثالث: طلاق الحامل

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى

---

(١) مرّ مخرّجاً في كثير من المواضع من كتابنا هذا.

يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، والرضاعة بالنسبة للطفل أمر مهمّ جدّاً وضروري، وللأسف الشديد إن مجتمعاتنا جعلت الطفل يعيش بعيداً عن ثدي أُمه، ولم تعطِ الطفل حقّه الطبيعي من الرضاع. فالرضاع حقّ طبيعي من حقوق الطفل، والأُم التي لا ترضع طفلها تكون قد اعتدت علىٰ الإنسانية. فلا يمكن للطفل أن يحصل علىٰ الغذاء الكريم الخالي من الشوائب إلّا من ثدي الأُم.

والطفل لا يأخذ من ثدي أُمه اللبن فقط، وإنما يأخذ معه الحنان والعطف، فهذا الطفل الذي يرتضع تجده غارزاً أصابعه في ثدي الأُم، فيشعر بلذّة لا حدود لها؛ ولذا فإن فقهاءنا يقولون: إن الرضاع الذي ينشر الحرمة هو الرضاع المباشر من الثدي، لا أن يؤخذ اللبن من ثدي الأُم ويعطى إلى الطفل، فهذا الرضاع لا ينشر الحرمة[1]. فالطفل إذن إنما يرتضع الحنان والمودّة من الثدي، ويشعر أثناءها بسعادة لا حدود لها.

وهناك رأي للإمام مالك يرى فيه أن المرأة إذا كان من شأنها أن ترضع فهي تُجبر علىٰ إرضاع الولد[2]، أما باقي الفقهاء فيقولون: إنها تُخيَّر. ورأي مالك جدير بالاحترام؛ لأنه ناظر إلىٰ ما يأخذه الطفل من الحنان، يقول أحد الأُدباء:

أمّي لحجركِ عندي ألفُ سابغةٍ ... هيهات يغرب معناها ويَندثرُ

غداةَ يجمعُني زَندٌ ويُلحقُني ... صدرٌ وبينهما أطوىٰ وأنتَشِرُ

---

(١) الخلاف ٥: ١٠١ / المسألة: ٨ ـ ١٠.

(٢) عنه في جواهر العقود ٢: ١٧٤، وانظر: المجموع شرح المهذّب ٨: ٣١٣، فتح الباري ٩: ٤١٧.

النجمُ مَلَّ ومَا مَلت شِفاهُكِ مِن ... تلك المَواوِيلِ حَتَّىٰ يطلُعَ السَّحَرُ
أمِّي إذا كَانت الجَنَّاتُ مَصدَرُها ... مِن تَحتِ رِجلَيكِ فيما يَذكُر الخَبرُ
فَمَا بِصَدرِكِ مِن خيرٍ ومِن كَرمٍ ... يَظَلُّ أكبرَ مِمَّا تحدُسُ الفِكَرُ[1]

ولكن الرضاع المذكور في الآية هو ما يكون في دور الرضاعة أي في السنتين الأُوليين من عمر الرضيع، قال تعالىٰ: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً﴾[2]. فالرضاع أقلّه واحد وعشرون شهراً، وأكثره أربعة وعشرون شهراً. فإن أرضعته أكثر من ذلك فلا بأس، لكنه حينئذٍ لا ينشر الحرمة؛ إذ أن الرضاع الذي ينشر الحرمة هو ما كان خلال السنتين الأُوليين فقط.

ومن الغريب أن تجد آراء لبعض فقهاء المسلمين في رضاع الكبير، فلو أن شاباً عمره عشرون سنة يرتضع من امرأة فقد انتشرت الحرمة بينه وبين تلك المرأة. ولذلك يروون أن عائشة كانت تأمر بنات أخواتها وبنات إخوانها فيرضعن من أحبّت عائشة أن يراها ويدخل عليها[3].

وأُحب أن أقول: إن هذا الرأي لو كان عندنا لانقلبت السماوات علينا، فهل نحن الذين نسيء إلىٰ زوجات النبي ﷺ مع أننا لا نعترف بهذا الذي يروىٰ من رضاع الكبير؟

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٦٦.
(٢) الأحقاف: ١٥.
(٣) المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٢١٢. والأغرب من هذا أن ابن الزبير وابن عمر، وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، وربيعة بن أبي عبد الرحمن أُستاذ مالك وحماد ابن أبي سليمان أُستاذ أبي حنيفة والأصم وابن عليّة أُستاذه وداود الظاهري ذهبوا إلى أن لبن الفحل لا ينشر الحرمة، ولا يكون من الرضاع أب ولا عمّ ولا عمّة ولا جدّ أبو أب ولا أخ لأب، وأن لهذا الفحل أن يتزوج التي أرضعتها زوجته. انظر: المحلّى ١٠: ٣ ـ ٦، بداية المجتهد ٢: ٣١، المجموع شرح المهذّب ٢: ٣٨.

ويروون مثلاً أن سهلة بنت سهيل قالت: يا رسول اللّه ، إنا كنا نرى سالماً ولداً فكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويراني، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبيﷺ: **«أرضعيه»**. فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها[1].

وهذه ثغرة خطرة لا ينبغي أن تكون في تاريخنا وصحاحنا. إضافة إلىٰ ذلك فإن هذا الحديث مخدوش من حيث السند والدلالة، ومعارض بغيره، ولا يمكن الأخذ به.

إذن الرضاع مهم جداً للطفل، وهو حقّه الطبيعي، وفي الوقت نفسه هو سعادة للمرأة، فهي تغرس العطف والمودة عن طريقه في نفس الطفل.

وهناك ما يلفت النظر في القرآن الكريم، وله علاقة بموضوعنا، وهو قوله تعالىٰ: **﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾**[2]، والمرضعة في اللغة[3] هي المباشرة للرضاعة، فلا يقال للمرأة: مرضعة إلّا وهي في حال الإرضاع. أما المرضع فهي التي من شأنها الإرضاع، أي من كان في ثديها لبن وتستطيع الإرضاع.

وكان العرب يقولون في أمثالهم: تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها[4]. أي أنها لا تستأجر نفسها للإرضاع وإن مسّها الجوع والحاجة؛ فاللبن لا يقدّر بثمن. وكان العرب يأنفون من بيعه ويعتبرونه عاراً، أما أن تتطوّع المرأة للإرضاع دون أجر، أو أن يكرمها الأب بشيء من المال فلا يرون به بأساً.

---

(١) المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهذّب ١٨: ٢١٢.

(٢) الحجّ: ٢.

(٣) مختار الصحاح: ١٣٤ ـ رضع.

(٤) بلاغات النساء: ٩٦.

فالآية الكريمة بدأت بالسكن، وليس الغرض من السكن أن يحمي الإنسان من الحرّ والبرد، وإنما هو ما ينمو مع جدران البيت من الذكريات والمشاعر والعطف والود؛ فهنا مكان لعب الطفل، وهناك مكان جلوس الزوج، وهنا ذكريات وهناك ذكريات؛ فيأخذ هذا البيت من مشاعر المرأة ما لا يمكن معه أن تتخلىٰ عنه وتتركه؛ إذ أنه ليس أمراً سهلاً، فهي إذا تخلّت عنه فإنما تتخلّى عن ذكرياتها وعواطفها ومشاعرها وأحاسيسها.

تقول «سماريو» ـ وهي من عالمات النفس البارزات ـ: إن العلاقة بين الأُم والرضيع ليست علاقة ثنائية، وإنما هي علاقة ثلاثيّة، فالطفل يرتضع لبن الأُم وحنانها، ومشاعر الأب أيضاً؛ لأن الأُم إذا كانت سعيدة مع الأب فإن ذلك ينعكس علىٰ لبنها وعلاقتها ودفئها ومشاعرها، وإذا كانت غير سعيدة انعكس سلباً علىٰ ذلك أيضاً، وهو بالتالي في كلتا الحالتين ينعكس على الطفل إيجاباً وسلباً.

ولذا فإن الخروج من البيت ليس سهلاً عند المرأة؛ إذ أن لها فيه مشاعر وعواطف وذكريات، ولهذا يقف العرب علىٰ الأطلال وآثار الديار ليستعيدوا عندها ذكرياتهم، يقول الشريف الرضي:

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَىٰ رُبُوعِهِمُ ... وَطُلُولُهَا بِيَدِ البِلَىٰ نَهْبُ
فَبَكَيتُ حَتَّىٰ ضَجَّ مِنْ لَغَبٍ ... نِضوي وَلَجَّ بِعَذْلِيَ الرَّكبُ
وتَلَفَّتَتْ عَيني فَمُذْ خَفِيَت ... عَنِّي الطلولُ تَلَفَّتَ القَلبُ[1]

ومن هنا فإن عائلة الحسين عليه السلام كانت لها مواقف عجيبة مع داره عليه السلام في

---

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ١٨١.

المدينة خصوصاً من زينبعليها السلام والرباب حينما رجعتا إليها. يقول المؤرّخون: أرسلت الرباب إلىٰ البَنَّاء وقالت له: اقلع سقف البيت، فواللّه لا يظلّني سقف بيت بعد أبي عبد اللّهعليه السلام[1]. وأخذت تجول في الدار وهي تقول:

إنَّ الّذي كانَ نُوراً يُستَضَاءُ به … بِكَربلاءَ قَتيلٌ غير مَدفونِ

سِبطَ النَّبي جَزاكَ اللّهُ صَالِحَةً … عنا وجُنِّبتَ خُسرانَ المَوازِينِ

واللّهِ لا أبتَغِي صِهراً لِصِهرِكُمُ … حَتَّىٰ أُغَيَّبَ بَينَ الرَّملِ والطِّينِ[2]

أما زينبعليها السلام فكانت تجول وسط الدار:

وحشه الدار يبن امي … بعد ما ظل لي بيها احباب

من اطب الداركم يجري … علىٰ عتبتها الدمع سچاب

ألمّ ايتامكم بيها … وارامـلكم واسدّ الباب

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤١٤.

(٢) أعلام النساء ١: ٣٧٨.

﴿ ١٢٣ ﴾

الدعاء إلى الله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في سبب نزول الآية الكريمة

إن سبب نزول هذه الآية يلقي الضوء علىٰ مضمونها؛ لأن سبب النزول غالباً يحدّد الهدف الذي من أجله تنزل كلّ آية، فكأن الأمر أنه حينما بعث النبيﷺ التفّ حوله في البداية أبناء الطبقة الفقيرة، وهؤلاء كانوا يؤلّفون مجموعة كبيرة في مكّة، فكان النبيﷺ إذا جاء للمسجد ليقرأ القرآن الكريم للمؤمنين أو ليشرح لهم معانيه، فإنهم يلتفّون حوله. وقد مرّ به في يوم من الأيام بعض جبابرة قريش ـ وهؤلاء لم يأتوا طوعاً، وإنما جاءت بهم

---

(١) الأنعام: ٥٢.

العظمة المودعة في القرآن؛ حيث إنهم قد وصل إليهم أن القرآن يسحر لبلاغته ومنطقه ـ فأرادوا أن يسمعوا هذا القرآن الذي غزاهم في بيوتهم وأخذ يهددهم ويهدد عقائدهم.

وفي هذا ردّ على بعض من يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف. فنقول لهم: إن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وإنما انتشر بالدرجة الأُولىٰ بما يحمل من مبادئ ومضامين، فأقبل الناس عليه؛ حيث إنه يحمل مضامين العدل والشفقة واحترام الإنسان، هذه المضامين التي تحوّل حياة الإنسان إلى نعيم.

وقد كان مجتمع قريش مجتمعاً قائماً على الابتزاز والغطرسة، ولم يكن للإنسان فيه كرامة، وكان يعتدي على كرامة المرأة. وباختصار إنه كان مجتمعاً تعيث به النواقص وتعبث.

فذهب هؤلاء إلى النبي ﷺ؛ ليعرفوا ماهو القرآن، وكان حوله هذه المجموعة من الفقراء، منهم خباب بن الأرتّ وبلال الحبشي وأبو ذرّ الغفاري، فقالوا له: يامحمد نحن نريد أن نستمع إلى قرآنك، ولكن الذي يمنعنا هو أننا لا نملك استعداداً لأن نجلس مع هؤلاء؛ لأنهم لم يأتوا عن مبدأ ولم يأتوا لسماع القرآن، وإنما سمعوا بقوّتك فأرادوا أن يحصلوا على طعام ولباس، فوضعهم مزرٍ؛ حيث إن رائحتهم كريهة وملابسهم عاديّة وليسوا من بيوت معروفة، فلا يناسبنا أن نجلس معهم. فاطردهم حتىٰ نستطيع أن نجلس معك ونستمع إلى قرآنك[1].

فقال بعض أصحاب النبي ﷺ له: يارسول اللّه اطرد هؤلاء مؤقّتاً؛

(١) تفسير جوامع الجامع ١: ٥٧٣، تفسير القرآن العظيم ٣: ٣٥٣.

لينصت هؤلاء إلينا؛ فهم ذوو سلطة ونفوذ، ونحن نحتاج إليهم. فنزلت هذه الآية تأمره بألّا يطرد هؤلاء، وأن يبلّغهم بأن من يريد أن يأتي فليأتِ.

المبحث الثاني: بعض أهداف ومضامين سبب النزول

وهذا السبب يلقي الضوء على مضمون هذه الآية الكريمة في عدّة أهداف سنتناول بعضها على شكل نقاط إن شاء الله تعالى.

الهدف الأول: أن كرامة الإنسان فوق كل شيء

فالذي يتبيّن لنا هنا أن هذا السبب يعتبِر كرامة الإنسان أهم من كلّ شيء، وفوق كل شيء، وأن منزلة الإنسان لا تتحدّد بثيابه ولا برصيده المالي ولا بأُسرته التي ينتمي إليها، بل الذي يحدّد منزلته هو ما يملك من مواهب ذاتية. فهذه الأحوال لم تخرج معه من بطن أُمّه، وسوف لن يأخذها معه إلى مرقده الأخير، فله بطن تحمله وهي بطن الأم، ثم له بطن يدفن فيها هي بطن الأرض. ورحم اللّه الشريف الرضي حيث يقول:

ولقد مررت ببرزخٍ فسألته … أين الأُلىٰ ضمّتهمُ أرجاؤهُ
مثلُ المطيّ بواركاً أجداثُه … تسفي على جنباتِها بوغاؤهُ
أكلتهمُ الأرضُ التي ولدتهمُ … أكل الظليمِ حلت له أكلاؤهُ[1]

فالأرض التي تلد الإنسان ستضمّه، والشيءُ الذاتي الذي يولد معه ويكون ذا قيمة وأهمّية هو المزايا. ثم إن هناك مزايا للجسد ومزايا للروح، فمزايا الجسد تتلاشىٰ، حيث إن التراب والرمال ستعبث بها بعد ذلك، ولا يبقىٰ مع الإنسان سوى الأخلاق والعلم والفكر، وكل هذه المزايا لها علاقة بالروح.

---

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ١١٠.

فالآية الكريمة تنبّه المسلمين إلى أن الأهداف مهما كانت ضخمة، والمكاسب مهما كانت كبيرة فالواجب ألّا يُطرد هؤلاء من أجل أن يجلس عتبة أو أبو جهل وغيرهما. فهؤلاء وهؤلاء علىٰ حدّ سواء؛ فيجب الاحتفاظ بكرامة الإنسان.

فهذا أول هدف للآية، وهو: لا تفتح ثغرة فتترك جرحاً في نفوس هؤلاء؛ حيث إنك ستزرع الشعور بالنقص عندهم بهذا التصرّف، وهذا ما لا تقرّه المبادئ الإسلاميّة.

الهدف الثاني: أن الداعي للإسلام هو الاتجاه إلى الله

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ يكشف عن أن الداعي للإسلام هو دافع شريف ونبيل، وهو دافع الاتّجاه إلى اللّه تعالى؛ حيث إنهم يدعون ربهم ليكلّلهم بالرحمة والرضوان. أمّا الحاجة الأُخرىٰ التي أرادها هؤلاء فإنها ستتلاشى، في حين أن الحاجة إلى اللّه تعالى ستخلّدهم بدعائهم ربَّهم. فكلّ الوسائل تتلاشىٰ إلاّ الوسيلة إلى اللّه. وهاهو الشاعر الجاهلي يذكر معنى هو من أروع المفاهيم، وذلك حينما يقول:

ألا كلُّ شيئٍ ما خلا اللّهَ باطلُ(١)

فالواجب أن يُتوجّه إلى اللّه تعالىٰ، والآية تخبرنا عن أن هؤلاء قد وهبوا نفوسهم إلى اللّه تعالىٰ، وأن اللّه سيهبهم الخلود. وهذا ما حصل فعلاً. فالصحابة في الصدر الأول كانوا مشاعل مضيئة في تاريخ الإسلام؛ حيث استطاع أربعة فقراء أو خمسة أن يقهروا جبابرة قريش، وقد صنعوا التاريخ

(١) صدر بيت للبيد بن ربيعة، وتمامه: وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ. انظر: الجامع لأحكام القرآن ١: ٣٤١، ٤: ٣١٥، ٨: ٣٣٦، مغني اللبيب ١: ١٣٣ / ٢٠٥، ١٩٦ / ٣٢١.

والحضارة، فقد استطاع رجل عظيم كالرسولﷺ أن يخلق مجتمعاً صالحاً في قلب الجزيرة العربية يحمل مشعلاً من الفكر والمعرفة والخلق. والعلم بدون خلق لايساوي شيئاً وإنما يتحوّل إلى أداة ابتزاز كما هو حاصل عند بعض الشعوب. ثم إن الخلق يلعب دوره بكل شفافية في توجيه العلم لخدمة الإنسانية، والإسلام أول ماعني بالخلق، ولذا نجد تعبير النبيﷺ: **«إنما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»**[1]. والآن نجد أن العلم تحتكره بعض الطبقات التي تعتبر نفسها قمّة في العالم، لكن هل إن هؤلاء يسخرون هذا العلم لخدمة الشعوب المسحوقة الفقيرة؟ بالطبع أن الحال على العكس من هذا، فالذي يحصل هو استغلال هذه الشعوب، فهم يبنون قصورهم وأبراجهم من رغيف هذه الشعوب المقهورة.

فهل هذا هو الذي يسمو بالإنسانية؟ كلا إنّ الذي يسمو بالإنسانية هو الخلق العالي الكريم الذي يجبر صاحب العلم على أن يضع علمه لخدمة المجتمع، فالإنسان ثمرة الوجود. والآية الكريمة تقول: إن هؤلاء يدعون ربهم، وليس عندهم أي هدف من الأهداف الرخيصة.

الهدف الثالث: أن الإسلام هو الظاهر

وكذلك نفهم من هذا المقطع أن الآية الكريمة تقول للرسولﷺ: اسأل هؤلاء الذين يريدون أن يبعدوا الفقراء عن مجلسك، هل دخلوا في قلوبهم؟ إن أي أحد حينما يتشهّد بالشهادتين، فليس من حقّ أي كان أن يقول له: أنت غير مسلم؛ ذلك أن الذي يحدّد هوية المسلم هو الشهادتان: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم**

---

(١) بحار الأنوار ١٦ : ٢١٠، المستدرك على الصحيحين ٢: ٦١٤.

وأموالهم إلى يوم يلقون ربهم فيحاسبهم»[١]. وفقهاء المسلمين يقولون: إذا أنكر شخص ضرورة من ضرورات الدين ولم يعرف أنها ضرورة فإنه هنا لا يُعتبر كافراً؛ لأنهم اشترطوا العلم بالضرورة أولاً، فالجاهل لا يحمل على أنه غير مسلم.

فينبغي إذن أن نملك الدليل كي نقوم بتحديد هوية الإنسان، ومن ثم نحكم عليه. وهذا هو مراد الآية الكريمة، فهي تبين لهﷺ عدة أُمور منها:

أولاً: أن هؤلاء الفقراء يريدون وجه اللّه فعلاً.

ثانياً: من أين جاء العلم لهؤلاء الجبابرة بأن فقراء المسلمين جاؤوا للإسلام لا لرغبة عندهم فيه، وأنهم يقصدون غير اللّه تعالى؟ وما هو دليلهم؟

إيمان أبي طالب﵇ أمر لا يقبل النقاش

وهكذا فإن البعض يحلو له أن يتّهم من يشهد بشهادتي الإسلام بأنه مات كافراً مع أنه كان يقول:

واللّه لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتىٰ أُوَسَّدَ في التُّراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك مخافة ... وابشر وقرّ بذاك منك عيونا
ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البريّة دينا[٢]

---

(١) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٢، عيون أخبار الرضا﵇ ١: ٧٠ / ٢٨٠، مسند أحمد ١: ١١، ١٩، ٣٥، ٤٨، وغيرها.

(٢) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٦، السيرة الحلبيّة ١: ٤٦٢، البداية والنهاية ٣: ٤٢.

ورحم الله ابن أبي الحديد حيث يقول:

ولولا أبو طالبٍ وابنُهُ ... لما مُثِّل الدّين شخصاً فقاما
فذاك بمكّة آوىٰ وحامىٰ ... وهذا بيثرب جسّ الحماما
فلله ذا فاتحاً للهدىٰ ... وللّه ذا للمعالي ختاماً

شرح نهج البلاغة ١٤: ٨٤.

ويقول:

ألم تـعلموا إنـا وجـدنا مـحمداً نبيأ كموسى خُطَّ في أول الكتب[(١)]

ونسمعه يقول:

كذبتم وبـيتِ اللّـه نـخلي مـحمداً ولمـا نـطاعنْ دونـه ونـناضلِ[(٢)]

ونسمعه يقول:

نبيّ أتـاه الوحـيُ مـن عـندِ ربِّـهِ ومن قال لا، يقرعْ بها سنَّ نادمِ[(٣)]

فهذه شهادات بالإسلام من قبل أبي طالبﷺ ذكرها التاريخ، لكن الدوافع تجعل البعض يقولون عنه بأنه مات كافراً، في حين أننا نجد غـيره يـقول: تلاقفوها يابني أُمية تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك[(٤)]. ومع

---

(١) سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٨، السيرة النبويّة ١: ٢٣٥، البـدايـة والنـهاية ٣: ١٠٧، ١٠٨، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧.

(٢) من قصيدتهﷺ التي يقول في مطلعها:

وأبيضُ يستسقى الغمامُ بوجهِهِ ثمالُ اليتامى عصمة للأرامـلِ

انظر: سيرة ابن إسحاق ٢: ١٤١، أخبار مكّة ٢: ٣٧٥، السيرة النبويّة ٢: ١١١، ٢١٧، ٣: ٢٩٢، ٥: ٤٧، تاريخ الطبري ٢: ٥٧٧، الكامل (ابن عدي) ٣: ٤٠٩، أعلام النبوّة ١: ١٧٢، دلائل النبوّة ١٨٥، الفائق في غريب الحديث ١: ١٠٥، الاسـتيعاب ٢: ٤٦٨، الاكـتفاء (الكلاعي) ١: ٢٢٠، ٢٦٧، ٢: ٥٦، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٥٧، تـاريخ مـدينة دمشق ٨٣: ٢٥٨، البداية والنهاية ٦: ٢٠٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، باختلاف في رواية البيت.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٣، مناقب أهل البيت (الشيرواني): ٥٨. ولهﷺ من قصيدة:

واللهِ لن يصلوا إليك بجمعِهم حتى أُوسَّدَ في الترابِ دفينا

تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١، السيرة النبوية ١: ٤٦٤، الجـامع لأحكـام القـرآن ٦: ٤٠٦، زاد المسير ٣: ١٧، البداية والنهاية ٣: ٥٦، فتح الباري ٧: ١٤٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٥.

(٤) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

هذا فإنهم يقولون عنه: إنه مسلم، بل ومن خيرة المسلمين(١).

إننا عندما نريد أن نوجّه أبناءنا بالعلم فيجب أن يكون التوجيه منسجماً مع المقاييس ومع الواقع، فليس عندنا عبادة أشخاص، وإنما نحن مع الدليل. فيجب أن يكون المقياس واحداً وعلىٰ علم به، لا على جهل وعصبيّة.

المبحث الثالث: وجه اختيار الغداة والعشيّ

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾، أي يصلّون صلاة الصبح، والمغرب. لقد كان العرب يقيسون السعادة بأول النهار وأول الليل، فالذي يكون سعيداً أول النهار فإن السعادة تمشي معه، وكذلك إذا كان سعيداً أول الليل فإن السعادة تمشي معه. ولذلك فإن القرآن الكريم يقول: ﴿ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾(٢)، فالآية هنا جرت علىٰ عادتهم في التعبير؛ فإنهم ينقطعون إلى اللّه في النهار والليل.

المبحث الرابع: في أن الحساب لله وحده

ثم قالت: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾، وهذا المقطع خطاب للنبي الأكرم ﷺ، وفيه للمفسّرين معنيان:

المعنىٰ الأول: أنك لست مسؤولاً عن رزقهم

وهذا الرأي يميل إليه بعض المفسّرين، فالآية الكريمة هنا تبين للنبي الأكرم ﷺ أنه ليس مسؤولاً عن رزقهم، بل إنهم هم المسؤولون عن رزقهم. وكذلك هم ليسوا مسؤولين عن رزقك.

---

(١) وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة) من الجزء الخامس.

(٢) مريم: ٦٢.

ومثل هذا الكلام لانرتضيه؛ لأن النبيﷺ يمثل شخص رئيس الدولة ديناً ودنيا، وهذا ما يحصل بالفعل، فعندنا قانون يسمى قانون التكافل الاجتماعي الذي ينيط برئيس الدولة مسؤولية تهيئة الحاجات للمجتمع الإسلامي وماينهض به قدر استعداده وضمن موارده المتاحة. ولذلك فإن النبيﷺ كان بكل وسيلة يهيّئ الطعام لأُمّته، بل إنه أحياناً لايذوق الرغيف وإنما يوزّعه على المسلمين. في يوم من الأيام أمسكه بدوي من ردائه وسحبه، فأثّر الرداء برقبتهﷺ حيث إنه كان فظّاً غليظاً، ثم قال له: اعدل يا محمّد، فليس المال لك ولا لأبيك. فوضع عمر يده على سيفه وقال: يارسول اللّه، دعني أضرب عنقه؛ إنه غير مؤدّب. فقال النبيﷺ: **«على رسلك»**. ثم التفت إلى البدوي وقال له: **«بلىٰ إذا لم أعدل فمن الذي يعدل، واللّه لو كان لي جبلان من ذهب وفضة لفرّقتهما عليكم ولاترونني بخيلاً»**[1].

وبالفعل أعطاه جميع مادخل إليه، ثم سأله: **«هل عدلت الآن؟»**. قال: أما الآن فنعم[2]. وقامﷺ ينفض يديه.

تقول إحدى زوجاتهﷺ: يمر علينا أحياناً أربعون يوماً لا نأكل إلّا الأسودين (أي التمر والماء).

نعم هكذا كان الرسولﷺ، وهذا هو قانون التكافل في محيط الدولة وفي محيط المجتمع وفي محيط الأُسرة، وهي قوانين ثلاثة يحرص الإسلام على تنفيذها. ولذا فالذي ينبغي على المسلمين أن يهيئوا للرسولﷺ

---

(١) لم نعثر على حديث الرسولﷺ هذا ضمن هذه الحادثة، وقد مرّ بيانه في محاضرة (دور الروايات الإسرائيلية وأثرها في تراثنا) من هذا المجلّد، وأنظر: بحار الأنوار ٣٣: ٣٣٩، مسند أحمد ٣: ٣٥٥، سنن ابن ماجة ١: ٦١، كنز العمال ١٠: ٥٤٩ / ٣٠٢٢٩.

(٢) لم نعثر عليه بنصه، وقريب منه ما في مسند أحمد ٢: ٢١٩.

مايمضي إراداته بما هو أعم من الجانب المادّي أو المعنوي.

فهذا المعنىٰ (أن الرسول الأكرم ﷺ ليس مسؤولاً عن أُمّته) غير مقبول، وقد رأينا العقبات التي وضعت في طريق النبي ﷺ؛ حيث أراد أن يطوّع أمثال هؤلاء للعمل بعد أن كانوا يعدون الزراعة والتجارة أمراً معيباً وإن كان الأمر قد تطور بعد ذلك، وقنّنوا رحلتي الشتاء والصيف. ومعلوم أن النبي ﷺ قد اشتغل بها بأموال خديجة عليها السلام، حيث خرج مع عمّه أبي طالب عليه السلام للتجارة.

ثم رام ﷺ أن يرقىٰ بهم إلى ما هو أبعد من ذلك، فطوّعهم للعمل تطويعاً رائعاً وقال: **«من سقىٰ طلحة أو شجرة فكأنما أحيا نفساً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»**[1]. والطلح: نوع من الشجر البرّي[2]. وهذا أكبر دليل يصوّر حرص الاسلام على العناية بالأرض والاهتمام بالزراعة وحث الإنسان عليه. وكذلك ألحّ الإسلام على الإنسان ليدفعه إلى قطاع الصناعة، وأن يأكل من كدّ يده، قال ﷺ: **«من بات كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له»**[3]، أي أن يتعب الإنسان ويعرق ويأكل من نتاج ذلك التعب والعرق لا أن يأكل عن طريق الغشّ والرّشا والربا وبقيّة الوسائل غير الشريفة وغير المشروعة التي حرّمها الإسلام.

المعنى الثاني: ألا يحاسبهم على ما في ضمائرهم

أي أن المقصود أن النبي ﷺ لم يدخل لقلوب هؤلاء، فالواجب ألّا يحاسبهم على ما في ضمائرهم؛ ولذلك فإن عندنا أن فعل المسلم محمول

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٨٦/ ٤٤، وسائل الشيعة ١٧: ٤٢/ ٢١٩٣٤، باختلاف عنهما.

(٢) ترتيب إصلاح المنطق: ٢٤٢ ـ الطلح.

(٣) الأمالي: ٣٦٤/ ٤٥٣، سير أعلام النبلاء ١٤: ٥٠٠، كنز العمّال ٤: ٧/ ٩٢١٥. وفي الحديث الشريف: «ما أكل ابن آدم طعاماً أفضل من كدّ يده». سير أعلام النبلاء ٢: ٥٧٠.

على الصحة، فلا يحقّ لأحد أن يقول لشخص ما: أنت تصلّي لتخدع الناس[1]، فما دليل هذا على أنه يخدع الناس؟ فالآية تقول للنبي الأعظم ﷺ: إنك غير مسؤول عن ضمائرهم، ولذلك فإن اللّه تعالى لا يحاسب على النيات إلّا النيةَ التي تكون في ملاك العمل ـ أي في العبادات مثلاً ـ فعندما نتوجّه الى الصلاة فعلينا أن نقول: لوجه اللّه، وكذلك حينما نتوضّأ بنية الدخول للصلاة. وإلا فما في دواخل النفس لا يحاسبنا اللّه عليه. إذن فللإنسان الظاهر.

مسألة التقيّة

وهنا تبرز مشكلة أُحب أن أُشير إليها، عقد مؤتمر صحفي في الكويت، فسألني أحد الإخوة السلفيّة وقال: أنتم تقولون بالتقية، وأنت لم تأتِ اليوم إلاّ بدافع التقيّة. فقلت له: لا، وإنما أردت خدمة الإسلام، وأنا مدعوّ وأُريد أن أُؤدّي خدمة للإسلام. ثم إنه ليس نحن فقط من يأخذ بالتقية؛ فالإمام مالك يأخذ بها، والإمام أحمد بن حنبل يأخذ بها، وكذلك غيرهما من المذاهب الأُخرى، وهناك مصادر عديدة تثبت ذلك. ثم ماهي التقية؟ إن الإنسان إذا كان بين كفرة ويخشىٰ على نفسه منهم فيمكن أن يخلّص ذمّته بكلمة يحقن بها دمه، دخل رجل على الحسن البصري قال: أنت الذي قلت عن الإمام علي: لو أنه بقي في المدينة يأكل من حشفها لكان خيراً له مما دخل فيه من سفك دماء المسلمين؟ قال: يابن أخي كلمة حقنت بها دمي، فلا

---

(١) كما مر علينا من وقوف مروان بن الحكم يوماً على أُسامة بن زيد ـ وكان يصلّي ـ وقوله له: قد عرفنا أنك إنما وقفت تصلّي هنا ليعرف مكانك. أمالي المرتضى ١: ١٩٦، دستور معالم الحكم: ١١٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٠٩.

تحملها علىٰ الواقع[١].

ويقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: **«إنا لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم»**. كما يرويه البخاري[٢]، وكذلك هذه الآية: **﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾**[٣].

ويمكن مراجعة كتب التفسير[٤] لكل المذاهب الإسلامية حول هذه الآية: **﴿إلّا مَن أُكرِهَ وقلبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان﴾**[٥] التي نزلت في عمار، فكل المذاهب الإسلامية تقول بالتقية، وكل المسلمين يعملون بها، ولكن لأن محبي أهل البيت عليهم السلام تعرّضوا إلى البلاء أكثر من غيرهم، وعرف أنهم ينقذون أنفسهم ويحقنون دماءهم أحياناً بكلمة، فقد ذاع أمرهم بأنهم يستخدمون التقية. فليس من حق أي مسلم أن يحاسب مسلماً غيره ويرميه بغير الإسلام مادام يحمل الهوية الإسلامية، وهي الشهادتان. الإمام الأشعري (إمام المذاهب

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٩٥. دخل رجل علىٰ إبراهيم بن سلمة بن هرمة وسأله عن أبيات كان قد قالها في مدح الإمام علي وولده عليهم السلام: من قائل هذه الأبيات:

ومَهمَا أُلامُ عَلىٰ حُبِّهِم ... فإنِّي أُحِبُّ بَني فَاطِمَهْ
بَنِي البِنتِ مَن جَاءَ بالبَيِّنَا ... ت والهَدْي والسُّنَنِ القَائِمَهْ
فلست أُبالي بحبي لهم ... سواهم من النعم السائمهْ

قال: قالها من عضّ ببظر اُمّه. فلما خرج الرجل سأل إبراهيمَ أحدُ ثقاته: أولست أنت قائلها؟ فقال: نعم. قال: فلم أنكرتهما؟ قال: ويحك، أيهما أهون، أن اُنكر ثلاثة أبيات من الشعر أم اُشنق علىٰ باب بيتي؟ تاريخ مدينة دمشق ٧: ٧٦، جواهر المطالب ٢: ٣١١. فهذا اتّقى وأنكر الحق؛ لخوفه على نفسه الشنق. (٢) صحيح البخاري ٧: ١٠٢.

(٣) آل عمران: ٢٨.

(٤) انظر مثلاً: الكشّاف ١: ٣٤٦، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٥٧، تفسير القرآن العظيم ١: ٣٦٥، التفسير الكبير ٤: ١٤ ـ ١٥. (٥) النحل: ١٠٦.

السنية بأجمعها في عقائدهم) يذهب إلى أن تكفير أهل القبلة أمر عظيم فظيع عند اللّه: «أنا لا أُكفّر أحداً من أهل القبلة؛ فالآية الكريمة تقول: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾»(١).

---

(١) السنن الكبرى ١٠: ٢٠٧، سير أعلام النبلاء ١٥: ٨٨، وتمامه: لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا اختلاف العبارات. ثم قال الذهبي: وبنحو هذا أدين.

وقال البيهقي: «قال الشيخ ﷺ ـ الظاهر أنه أحمد بن القاص الطبري شيخ الشافعية في طبرستان وصاحب كتاب (أدب القاضي) الذي سيأتي ذكره ـ: فمن ذهب إلى هذا زعم أن هذا أيضا مذهب الشافعي ﷺ، ألا تراه قال في كتاب (أدب القاضي): لم نعلم أحداً من سلف هذه الأُمّة يقتدى به، ولا من التابعين بعدهم ردّ شهادة أحد بتأويل وإن خطّأه وضلّله. ثم ساق الكلام إلى أن قال: والذي روينا عن الشافعي وغيره من الأيمّة من تكفير هؤلاء المبتدعة فإنما أرادوا به كفراً دون كفر، وهو كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة: ٤٤. قال ابن عبّاس: إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس بكفر ينقل عن ملّة، ولكن كفر دون كفر».

وقال المناوي في شرح حديث «كفوا عن أهل لا إله إلّا الله»: «وهم من نطق بها ـ أي مع نطقه بالشهادة الثانية ـ وإن لم يعلم ما في قلبه. «لا تكفروهم بذنب» ارتكبوه وإن كان من أكبر الكبائر كالقتل والزنا والسرقة. «فمن أكفر أهل لا إله إلا الله» أي حكم بكفرهم، «فهو إلى الكفر أقرب» منه إلى الإيمان. فمخالف الحقّ من أهل القبلة ليس بكافر ما لم يخالف ما هو من ضرورات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد فإنه حينئذ ليس من أهل «لا إله إلّا الله» فنكفّره.

وقال علي (كرّم الله وجهه): «أعلم الناس بالله أشدّهم حباً وتعظيماً لأهل لا إله إلّا الله».

وقال ابن عربي: إياك ومعاداة أهل «لا إله إلّا الله»؛ فإن لهم من الله الولاية العامّة؛ فهم أولياء الله ولو جاؤوا بقراب الأرض خطايا، لا يشركون بالله لقيهم الله بمثلها مغفرة. ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته، ومن لم يطلعك الله على عداوته لله فلا تتّخذه عدوّاً، فإذا تحقّقت أنه عدوّ الله ـ وليس إلا المشرك ـ فتبرأ منه كما فعل إبراهيم بأبيه. ولا تعادِ عباد الله بالإنكار، ولا بما ظهر على اللسان، بل اكره فعله لا عينه، والعدو لله إنما يُكره عينُه؛ ففرقٌ بين من يُكره عينُه وهو عدو اللّه، ومن يُكره فعله وهو المؤمن العاصي». فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥: ١٥ / ٦٢٦٨.

المبحث الخامس: في أن الناس سواسية

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿**فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنْ الظَّالِمِينَ**﴾.

الدقّة في انتقاء اللفظ القرآني

إن اللفظ يلعب دوراً كبيراً وهامّاً في إبراز المعنىٰ الموضوع له، فالقرآن تارة يستخدم لفظاً غاية في الرقة، وأحياناً أُخرى يستخدم لفظ غاية في الخشونة؛ وذلك حسب ما يقتضيه المقام؛ فلكليهما دور. فقوله تعالىٰ: ﴿**فَتَطْرُدَهُمْ**﴾ فيه معنىٰ الخشونة، أي أنه ليس من خلق الإسلام أن تطرد أحداً ليجلس آخر مكانه كي يستمع القرآن الكريم، فما الفرق بينهما وكلاهما مسلم وعلىٰ حدّ سواء؟ ولدني وإياك آدم. يقول الإمام علي في جملة من أبيات له:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ ... أبوهُمُ آدم والأمّ حواءُ
فإن يكن لهُمُ في أصلهم شرفٌ ... يفاخرون به فالطين والماءُ
لافضل إلاّ لأهل العلم إنهُمُ ... علىٰ الهدىٰ لمن استهدىٰ أدلاّءُ
فقم بعلم ولا تبغِ به بدلاً ... الناسُ موتىٰ وأهلُ العلم أحياء[1]

ويقول رسول الله: «**كلّكم لآدم وآدم من تراب**»[2]. والقرآن الكريم يخاطبنا بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[3].

---

(١) ديوان الإمام علي: ١٥.
(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدرّ المنثور ٦: ٩٨.
(٣) الحجرات: ١٣.

فالآية الكريمة إذن تقول للرسول ﷺ: اسأل هؤلاء: هل هم أفضل من غيرهم حتىٰ يُطرد الآخرون من أجلهم؟ إن الإنسانية سواء، وإن هؤلاء سوف لن يطردوا، فالذين نستلهم من عطائهم وفضلهم هم هؤلاء، فأبو ذرّ ﵁ أعطانا من عطاء الإسلام، وكذلك بلال الذي كان يحمل نداء الإسلام عند وقت كلّ فريضة صلاة، وكان يمثّل الصلابة في الإيمان، وقد تحمّل ألوان العذاب، فقد كانوا يضربونه حتىٰ ترتفع السياط بلحمه[١]، وقد أصبح رمزاً لنا.

المبحث السادس: الثورة والمبادئ

وهنا ثلاث نِقاط أُحب أن أُشير إليها:

النقطة الأولى: من الذي يقوم بالثورات؟

نرجع إلى صلب الموضوع، فغالباً كل ثورة من الثورات عندما تدخل حيّز التنفيذ فإن الطبقات الفقيرة تلتفّ حولها؛ إذ أن هناك عاملين يدفعان هؤلاء إلى الالتفاف حول هذه الثورة، وكل عامل منفرد عن الآخر: دافع المبدأ، ودافع المادّة. فصاحب الدافع المادّي يقول: ليس عندي شيء أخسره؛ سواء ربحت الثورة أم خسرت، أما صاحب الدافع المبدئي فإنّ روحه خالية من الغطرسة والتكبّر وطلب العظمة والمنصب. والآية الكريمة تحدّد ذلك: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾[٢]. وليس كل غني طاغية، فهناك إنسان غني لكنه يحمل أخلاقاً عالية، وكل ما في الأمر أن الغنىٰ عادة يبطر صاحبه، ويعتبر عاملاً مساعداً على التلبّس بلون من التكبّر والغطرسة، فالبعض

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ١٥٣، أُسد الغابة ١: ٢٠٧، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٣٨.
(٢) العلق: ٥ ـ ٦.

تمنعهم الغطرسة للانتماء؛ ولذلك فإن الثورات يقع عبء القيام بها وتمريرها علىٰ رؤوس الطبقات الضعيفة أو الفقيرة والمسحوقة: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[1]. فهذا المعنىٰ هو الذي كان سائداً آنذاك.

النقطة الثانية: الثورة والغنيمة

إن كل من يقود نهضة من النهضات لايخرج وهو عازم على الموت في كل حال، فيضحّي بنفسه للموت دون أن يضع في حساباته أنه سيبقىٰ حيّاً، وبالتالي سينعم ويتلذّذ بما يحصل عليه من غنائم وأسلاب المعركة. ثم إنه لا يخرج وهو عالم بموته، فهو يحتمل أن يموت أثناء المعركة ويحتمل أن يعيش بعدها ليرى مكاسب ثورته.

النقطة الثالثة: النظر إلى مرحلة ما بعد الثورة

ثم إن هؤلاء الذين يخرجون للقيام بنهضة ضد الظلم، أو القائمون عليها لا يخرجون إليها إلّا بعد أن يضعوا الخطط وسبل الوقاية التي يجنّبون بها عيالهم وأولادهم وأموالهم آثار الحرب وعواقبها؛ كي يقدموا عليها وهم آمنون عليهم ومطمئنّون على أحوالهم، ودون ذلك لن يتحرّكوا.

موقف الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه من هذه النقاط الثلاث

وهذه الأمور الثلاثة لانجدها عند الإمام الحسين عليه السلام، ولا عند أصحابه (رضوان الله عليهم)، كما سنلاحظه:

فحول النقطة الأولى نلاحظ أن معظم الذين التحقوا بالإمام الحسين عليه السلام هم من الأُسر العريقة العالية النسب، وذات التربية النبيلة والشريفة. وكان منهم

---

(١) هود: ٢٧.

مجموعة من الصحابة ومن الأغنياء، كحبيب بن مظاهر ومسلم بن عوسجة وزهير بن القين (رضوان الله عليهم) سيما أنهم كانوا معروفين بالرئاسة. فنجد منابعهم البيتية رفيعة، ولهم مكانة كبيرة وأموال كثيرة. لكن كل هذا لم يقف بوجههم أبداً، فعندما دعاهم إمامهم لبّوا وضحّوا. وكانت التضحية كاملة وكبيرة، فقد تركوا وراءهم نعيماً كبيراً ومكانة رفيعة ولذّة عميمة، وهكذا عرفوا بالبسالة والشجاعة.

سأل مهاجر بن أوس الحر بن يزيد الرياحي رضي الله عنه لمّا رآه يريد الخروج إلى الإمام الحسين عليه السلام والالتحاق به، فقد رآه يرتجّ ويرتعش، فقال: واللّه لو سئلت: من أشجع أهل الكوفة، لما عدوتك، فمالي أراك ترتعش؟ فقال له الحر رضي الله عنه: أنا لست أرتعش خائفاً، وإنما أنا أُخيّر نفسي بين الجنة والنار، وواللّه لا أختار على الجنّة بدلاً. وهكذا فإنه لم يحبّ الحياة، وهاهي الأعصر تمرّ عبر التاريخ وإلى الآن نحن نقف على قبره وقبور إخوانه الشهداء، ونقرأ ما توّجه به الإمام الصادق عليه السلام: **«بأبي أنتم وأمّي طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم وفزتم واللّه فوزاً عظيماً، فياليتني كنت معكم فأفوز فوزاً عظيماً»**[1].

ونحن لا نقف على قبر فإنه تراب وشبّاك، وإنما نقف لنمجّد الموقف الرسالي والبطولة والمبدأ الذي هو من أجلّ المبادئ وأعظمها، وعلى شعلة من العطاء، يقول أحد الأدباء وهو يخاطب البقعة التي دفن فيها هؤلاء الأعلام:

---

(١) مصباح المتهجّد: ٧٢٣، وكذلك يخاطبهم عليه السلام بقوله: «السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفِناء قبر الحسين وأناخت برحله» بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ / ٦٢، ٩٨: ١٩٦ / ٣١، بشارة المصطفى: ١٢٥..

أيا كربلا يا هدير الجراح وزهو الدم العلوي الأبيّ
وياصرح مجد بناه الحسين وأبدع في رصفه المعجبِ
ويا عبقاً في ثرى العلقميّ يشدُّ الأنوفَ إلى الأطيبِ
سيبقى الحسين شعاراً على أصيلك والشفق المذهبِ[١]

إننا نقف حيث ينبعث لنا صوت من القبر: **«والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقرُّ فرار العبيد»**[٢]. فنحن لا نمجّد خشباً ولا فضّة.

إذن فأصحاب الإمام الحسين لم تكن دوافعهم مادّية، هذا فضلاً عن أن الإمام الحسين وضعهم في الصورة ليلة العاشر من المحرّم، فقال لهم: **«هذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، وتفرّقوا في سواده؛ الطريق غير خطير، والليل ستير، والوقت غير هجير، وأنتم في حلّ من بيعتي. فإن القوم إنما يطلبونني، ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»**. فقاموا له وقالوا: يا أبا عبد الله، والله لو قُتلنا وأُحرقنا وذرينا في الهواء، يُفعل بنا ذلك مرّات ماتركناك، فكيف وهي قتلة واحدة[٣]؟

وحول النقطة الثانية نجد أن أصحاب الإمام الحسين كانوا يعرفون سلفاً أنهم سيموتون، والإمام الحسين قد صرّح لهم في مكة حيث قال في خطبته الشهيرة: **«خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني عن أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني**

---

(١) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.
(٢) الإرشاد ٢: ٩٨، تاريخ الطبري ٤: ٣٢٣، البداية والنهاية ٨: ١٩٤، وفيها: أقرّ إقرار.
(٣) روضة الواعظين: ١٨٣، الإرشاد ٢: ٩٢، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، الدمعة الساكبة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين (المقرّم): ٢٦٢ ـ ٢٦٥، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ١٩١.

بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً. لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه فيوفينا أُجور الصابرين. ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»(١).

فالإمامعليه‌السلام يخبرهم أنه ليس عنده مركز أو أموال، وإنما سيبوّئهم مكاناً في مقعد صدق عند مليك مقتدر. فاتّبعوه وهم واثقون. يقول عنهم الشاعر:

قومٌ إذا نودوا لدفعِ ملمةٍ — والقومُ بين مدعسٍ ومكردسِ
لبسوا القلوبَ على الدروعِ وأقبلوا — يتهافتون على ذهابِ الأنفسِ(٢)

فكان الإمام الحسينعليه‌السلام بمثابة الضوء لهم، وكانوا كالفراش يطوفون حوله ويُحدقون به:

أدركوا بالحسينِ أكبرَ عيدٍ — فغدوا في منى الطفوف أضاحي(٣)

فهم مصمّمون على التضحية. وهذا الموت هو الذي يهب الحياة، وإلى الآن لازال الثقلان يسمعان الدوي والصوت حول تلك المراقد الطاهرة: **«السلام عليكم... طبتم وطابت الأرض التي فيها دفنتم وفزتم والله فوزاً عظيماً»**(٤)، حيث تنسكب عليهم المشاعر يميناً وشمالاً.

وحول النقطة الثالثة فإننا نجد من هؤلاء إصراراً واضحاً على أن يشركوا

---

(١) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ٣٨، كشف الغمّة ٢: ٢٣٩.

(٢) شرح الأخبار ٣: ١٨٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦٧، لواعج الأشجان: ١٣٨، عمدة الطالب: ٣٥٧.

(٣) ديوان السيد رضا الهندي: ٥٢.

(٤) مصباح المتهجّد: ٧٢٣، وكذلك يخاطبهمعليه‌السلام بقوله: «السلام عليكم أيها الأرواح التي حلّت بفِناء قبر الحسين وأناخت برحله». بحار الأنوار ٦٥: ١٣١ / ٦٢، ٩٨: ١٩٦ / ٣١، بشارة المصطفىٰ: ١٢٥.

أهلهم معهم في هذه الملحمة، بل إننا نجد هذا الإصرار من أهـلهم وذويـهم أنفسهم. فالإمام الحسين‏ﷺ خطب أصحابه في اليـوم التـاسع مـن المـحرّم ووضّح لهم هذا الأمر فقال: **«ألا ومن كان في رحله امرأة، فلينصرف بها إلى بني أسد»**.

فقام علي بن مظاهر (أخو حبيب) وقال: ولماذا يا سيدي؟ فقال‏ﷺ: **«إن نسائي تسبى بعد قتلي، وأخاف على نسائكم من السبي»**. فمضى علي بن مظاهر إلى خيمته، فقامت زوجته إجلالاً له، واستقبلته و تبسّمت في وجهه، فقال لها: دعيني والتبسم. فقالت: يابن مظاهر، إني سمعت غريب فاطمة خـطب فيكم، وسمعت في آخرها همهمة ودمدمة، فما علمت ما يقول. فقال لها: يا هذه إن الحسين‏ﷺ قال لنا: **«ألا ومن كان في رحله امرأة، فلينصرف بها إلى بني أسـد»**؛ لأنه غداً يقتل وتسبى نساؤه. فقالت: وما أنت صانع؟ قال: قـومي حتى أُلحقك ببني عمك بني أسد. فقامت وضربت رأسها في عـمود الخـيمة وقالت: والله ما أنصفتني يابن مظاهر، هل رأيتني لم أُحسن إليك يوماً؟ قال: لا. فقالت: لماذا إذن تذهب إلى الجنّة وترجعني إلى النار؟ أيسرّك أن تسبى بنات رسول الله‏ﷺ وأنا آمنة من السبي؟ أيسرك أن تسلب زينب إزارهـا من رأسها وأنا أستتر بإزاري؟ أيسرك أن تذهب من بنات الزهراء أقـراطـها وأنا أتزيّن بقرطيّ؟ أيسرك أن يبيضّ وجهك عند رسول الله‏ﷺ و يسـودّ وجهي عند فاطمة الزهراء‏ﷺ؟ والله أنتم تواسون الرجـال ونـحن نـواسـي النساء.

فرجع علي بن مظاهر إلى الحسين‏ﷺ وهو يبكي، فقال له الحسـين‏ﷺ: **«ما يبكيك؟»**. فقال: سيدي أبت الأسدية إلّا مواساتكم. فـبكى الحسـين‏ﷺ

وقال: **«جزيتم عنا خيراً»**[١].

وعندما جيء بالنياق لإركاب العائلة، خرجت أُخت الإمام الحسين عليه السلام، فوجدت النياق قليلة، والنساء الأجنبيات قد ذهب رجالهن وأبناؤهن، فرأت أن من غير الصحيح أن يمشين على أرجلهن، وأن هذا خلاف الإنصاف، فقامت تُركب نساء الأنصار؛ حتى يقع المشي عليها وعلى أخواتها. وبالفعل سارت على الأقدام هي ومجموعة من النساء:

كم بوخدِ السرى ربيبةُ خدرٍ واصلت بالحزون قبراً بقبرِ

أفهل قائلٌ لزجرٍ بزجرٍ (لا تسمها جذبَ البرى أوَ تدري

ربةُ الخدرِ ما البرى والنسوعُ)

وتتويجاً لهؤلاء الصحابة وقف الإمام الحسين عليه السلام يؤبّنهم: **«أين أبطال الصفا؟ أين حبيب وأين زهير وأين برير؟ مالي أُناديكم فلا تسمعون، وأدعوكم فلا تجيبون، أولستم قد طلّقتم حلائلكم لأجلي، وأعرضتم عن زهرة دنياكم؟»**[٢]:

تلك الوجوهُ المشرقاتُ كأنها الـ أقمار تسبح في غديرِ دماءِ

خضبوا وما شابوا وكان خضابُهم بدمٍ من الأوداجِ لا الحناءِ

---

(١) معالي السبطين ١: ٣٤٠.

(٢) معالي السبطين ٢: ١٩، شجرة طوبى ٢: ٣١.

﴿ ١٢٤ ﴾

أخلاق الإمام زين العابدين عليه السلام تجسيد لمفاهيم الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

إن استدلال الإمام السجاد عليه السلام بهذه الآية الشريفة يعدّ منقبة بلا شكّ، لكنه لم يلحظ فيها معنى الانتماء الدموي وإن كان هذا المعنىٰ ملحوظاً باعتبار أنهم أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله، بل إنه عليه السلام لحظ فيها أنه امتداد للرسالة. وقد استشهد عليه السلام بها حينما كان في طريقه إلى الشام، ورماه أحد الشاميّين بأنه من الخوارج وقال له: **«أتقرأ القرآن الكريم؟»**. قال: نعم. قال: **«هل قرأت هذه الآية: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾؟»**. قال: نعم، قال عليه السلام: **«فنحن القربى يا شيخ»**.

المبحث الأوّل: المراد من ﴿الْقُرْبَى﴾

لقد حاول الكثيرون أن يصرفوا هذه الآية عن معناها بأن يثبتوا ظلماً أن القربى هي التقرّب إلى النبي صلى الله عليه وآله لا الانتماء الدموي له، فهم يريدون نفي

---

(١) الشورى: ٢٣.

حتىٰ القرابة الدموية. ومن جملة من حاول صرفها عن هذا المعنى ابن تيمية، واستدل بأن هذه الآية مكّية لا علاقة لها بعلي بن أبي طالب﵇؛ لأنه تزوج وولد له في المدينة، وهذه الآية من سورة (الشورى)، وهي من الحواميم، والحواميم كلّها مكّية.

والصحيح في ذلك أن سورة (الشورى) وإن كانت مكّية، لكن فيها آيات مدنيّة، ومنها هذه الآية؛ ولذا لم نجد أحداً من المفسّرين يقول: إن هذه الآية مكّية، بل أجمعوا على أنها مدنية.

وأُلفت النظر إلى أن صاحب (المواهب اللدنية من المذاهب الإسلامية)، وكثيرين غيره صرّحوا بمدنية هذه الآية. ومن أراد ذلك فليقرأ الجزء الأول من الغدير[1] للشيخ الأميني، فقد عقد فيه فصلاً كاملاً حول السور المدنيّة التي فيها آيات مكّية وبالعكس؛ لأن تأليف القرآن الكريم لم يكن حسب النزول. لكن ابن تيمية حاول أن يصرف الآية عن آل البيت﵈.

وأُؤكد هنا أن الإمام زين العابدين﵇ كان حريصاً على أن يثبت القربى المعنويّة لا الدمويّة ويبرهن عليها؛ لأننا نعرف أن هناك من ينتمي إلى النبيﷺ بالدم وليس له تلك الأهمّيّة الكبيرة، ومنهم من هو من أولاد الأيمّة﵈. فعند الإمام علي﵇ أولاد لا نعيرهم كثير أهمية مع أنهم من صلبه﵇. فالمسألة ليست مسألة انتماء دموي فقط.

وهناك نماذج لا تربطهم بعلي﵇ أية رابطة دمويّة، لكنهم أجلّ أصحابه والموالين له، كسعد بن عبادة مثلاً، الذي لو وضعته في كفة ميزان، ووضعت

---

(١) الغدير ١: ٢٢١.

المئات ممن ينتمون دموياً إلى بعض العلويين، لما أمكن القياس بينهم أبداً. فالقضيّة قضيّة مشاعر وارتباط بفكر ومبادئ وولاء. وهذا ما أراده الإمام السجاد عليه السلام في احتجاجه على الشامي، واستدلاله بآية القربى، فهو عليه السلام أراد أن يقول: إننا حملة علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ومَن جعل القرآن الكريم أجرَ الرسالة مودّتنا.

وإذا كانت المسألة مسألة الانتماء الدموي فمعنى ذلك أن اللّه يأمرنا بالمعصية في بعض الأحيان؛ لأن هناك من ينتمي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان يجنّ عليه الليل وهو غارق في كؤوس الخمرة، فهل يمكن أن يأمرنا اللّه بمودّته وطاعته؟ حاشا للّه أن يأمر بذلك. نعم، علينا أن نتركه إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فاللّه إذن أمرنا بمودّة ذوي القربى؛ لنقترب من المشاعل التي أضاءت طريق الإنسانيّة، وهي مشاعل الإسلام من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد أراد الإمام السجاد عليه السلام أن يقول: نحن النسخ المكررة من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يقول أحد الشعراء:

أيا واحداً من خمسةٍ إن رأيتهم ... رأيت بهم في كلّ وجهٍ محمدا
حديث الكسا ترنيمة الدهر فيهمُ ... روى الدهر فيها الاعتزازَ وغرَّدا

فسرُّ تكريمنا لآل البيت عليهم السلام أنهم امتداد للنبوّة، ونحن نفترض أن النبوّة إذا خرجت من الأرض فلا يمكن أن تبقى الأرض خالية، وإن أخلى اللّه الأرض من حجّة فليس له حجّة على العباد، فهو تعالى مثلاً يقول لنا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[1]، فمن هم الصادقون الذين أمرنا أن نكون معهم؟ وهل انقطعوا في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فإن أمرنا أن نكون

---

(١) التوبة: ١١٩.

مع صادق غير معصوم فهذا يعني أننا مع عاصٍ. فلابدّ أن يكون معصوماً.

فالآية توجّهنا إلى أن نكون في خطّ أهل البيت؇، وهذا ما أراده الإمام السجاد؇ في استشهاده بالآية الكريمة.

وبعبارة أُخرى إن الإمام؇ لم يكن يرمي من وراء ذلك أن يستدرّ العطف بقدر ما أراد أن يوجّه هؤلاء المغفّلين المخدوعين البعيدين عن مورد أهل البيت؇. ولا تستغرب من هؤلاء، فمع كلّ هذه الأشواط الطويلة التي قطعتها البشريّة، لا زال في الناس إلى الآن من لا يدري أن أهل البيت؇ لهم كلّ هذا المقام، وهؤلاء ليسوا من البسطاء، وإنما هم من الباحثين الكبار.

وهؤلاء يستشهدون بالآراء الفقهيّة لربيعة الرأي أو أبي ثور أو غيرهما، ولو رجعت إلى تراجم هؤلاء لرأيت أن علومهم متواضعة بسيطة، لكنهم يشغلون حيّزاً كبيراً من الكتب. والغريب ألّا تجد لزين العابدين؇ في المدينة ـ وهي منطلق أهل البيت؇ ـ مؤسّسة، أو على الأقل ذكراً في مسجد النبي ﷺ الذي كان يجلس فيه للإفتاء. فقد كان يجلس للإفتاء عند إسطوانة في مسجد النبي ﷺ من الصباح إلى المساء، وكان يفتي في مختلف أبعاد العلوم الإسلامية. فلا تجد من تلك الأبعاد في طيات الكتب ما تجده لغيره؇.

وهذا في واقع الأمر خسارة كبيرة للإنسانية؛ لأنه منهل صافٍ لا يعتريه أي خلل أو شائبة، وبإمكان المسلم أن يضع رجله على أرض صلبة وهو مطمئن؛ لأنهم عِدل الكتاب(١).

---

(١) بنصّ قول الرسول الأكرم ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلىٰ الأرض، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض». انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها كثير.

المبحث الثاني: رسالة الحقوق تجسيد للإسلام

إن الإمام زين العابدينعليه السلام يمكن دراسته فكراً وعبادة وشخصاً من الأشخاص الذين لمس منهم المجتمع الإسلامي تجسيداً للإسلام بكلّ ما للتجسيد الصحيح من معنى. وسوف نتناول ذلك بشيء من التفصيل.

إن تجسيد الإمام للإسلام يعد تراثاً غنياً جداً لا زالت الإنسانية بحاجة إلى تحليله وتعليله. فالمؤرّخون مثلاً يعتنون بابن خلدون باعتباره رائداً في علم الاجتماع، لكنني أرجو من الشباب المثقّف أن يطّلع على (رسالة الحقوق) للإمام زين العابدينعليه السلام؛ ليرى فيها الحقوق الاجتماعية التي استعرضها لكل فصائل المحيط الذي عاش فيه. فمثلاً إن للانسان في الدنيا أُمّاً وأباً وأُسرة وجاراً، كما أن هناك مواطنين يعيشون معه في البلد عينه، ثم إن هناك دولاً يجاور بعضها البعض، وفيها مسلمون يعيشون في شرق الأرض وغربها. وكل هذا تناولته (رسالة الحقوق). ولو كانت هذه الرسالة لغير الإمام زين العابدينعليه السلام لكانت العناية التي ستحاط بها ممّا لا يمكن تصوّره.

ولا أدري لم هذه المحاولة في ستر هذا النور؟ وهل يمكن أن يُستر مثل هذا النور؟ إنه لا يمكن ستره أبداً، لكن من سوء حظّ الإنسانيّة أن تبتلى بفقد أعزّ ذخائرها.

إشارات من رسالة الحقوق

المورد الأول: حقّ الأبوين

يؤكد الإمام في رسالته مثلاً على حقّ الأبوين؛ باعتبارهما المهد والمنطلق الذي يواجه به الإنسان الوجود، والقناة التي مرت منها إرادة اللّه؛ لأن اللّه

خلق الإنسان بالسبب الطبيعي، كما أن القناة الطبيعية لوجود النبات هي التربة والماء والمناخ. ولا يمكن أن يدخل الولد الوجود ما لم يعبر هذه القناة. ثم إن وظيفة هذه القناة تتعدّى ذلك إلى حمل الولد ورعايته وتربيته والسهر والإنفاق عليه، والمسيرة الطويلة التي يقطعها الأبوان في رعايته. لذا فإن الإمام يؤكّد كثيراً على حقوقهما في رسالته الحقوقيّة.

ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى أن نستلهم من عطاء الإمام في (رسالة الحقوق) هذه؛ لنعرف حقوق الأبوين علينا؛ لأن الإنسانيّة اليوم تعيش عقوقاً لا حدود له. فأنا أحياناً أقرأ في بعض أخبار الصحف ما تدمع منه العين ويحترق له القلب؛ إذ أرى بعض كتابنا يطالب بإيجاد دار للعجزة المسنّين، وهذا اعتراف صريح بأن الولد لم يعد مستعدّاً لرعاية أبويه وتحملهما، وأن الأُسرة رأت أن هؤلاء استنفدوا دورهم في الحياة، ولا بدّ من وضعهم في دور خاصة ترعاهم وترىٰ احتياجاتهم.

ولا يمكن تصوّر مجتمع خالٍ من الرحمة والشفقة والمودّة والروح الإنساني كالمجتمع الذي يطالب بمثل هذه المؤسسات. إن ساعة من السرور تمرّ على الأب أو الأمّ الكبيري السن حينما يكون حولهما أولادهما أو أحفادهما تعدل الدنيا وما فيها. إنهما يريان أنفسهما في هؤلاء الأحفاد، ويريان أنهما لم يخرجا من الحياة؛ لأن امتدادهما فيها لا زال موجوداً. فهل من الإنسانية أن يُحرما من العطف والتفاعل المباشر بينهما وبين البراعم التي تعيد إليهما الثقة بنفسيهما وبالإنسانية؟ وهل من الروح الإنساني أن يُرميا في غرفة تقتلهما فيها الوحشة، وتفتك بهما الغربة، ويشعران بالسأم من الحياة؟ هل هذا جزاؤهما بعد تعبهما، والله تعالى يُسمعنا قوله على لسان نبيه :

«الجنة طيبة طيبها الله وطيّب ريحها، ويوجد ريحها من مسيرة ألفي عام، ولا يجد ريح الجنّة عاقّ»[1]؟

فهذا الصدر الذي غذّاني الدفء والحنان والحياة، والروح الذي غطّاني ومسح آلامي، هل من الخلُق أن تنتهي رسالته بهذا الشكل ويُرمى كالمتاع العتيق؟ يقول أحد الشعراء:

قد كنتُ أشبعُ من نومٍ وأنتِ إلى ... جنبِ السَّرير عيونٌ كلّها سهرُ
النَّجم ملَّ وما ملَّت شفاهُك من ... تلكَ المواويلِ حتَّى يطلعَ السَّحرُ
الثَّديُ يشبعني والصَّدرُ يَغمُرُني ... دِفْئاً ومنكِ الطوى والقرُّ يَهتَصِرُ
أمّاهُ يا ذكرياتٍ أستَجيرُ بِهَا ... بَيضاءَ إنْ مَرَّتِ الأيَّامُ والعُصُرُ[2]

فهل يكون مصير الأُم أن تُلقى في دور الرعاية؟ وهل يبقى للأب رغبة في أن يُنشئ أُسرة وأولاداً بعد هذا؟ فهو يرى أنه يكدّ ويكدح ويجمع وفي النهاية لا يحصل على أبسط الحقوق. ولعنة اللّه على الأُسرة التي تنتهي إلى هذا الحدّ، فدارها لا تمرّ بها رحمة اللّه تعالى. وبهذا تتحوّل الإنسانيّة إلى ما هو أخسّ من الغابة؛ لأن الحيوان في الغابة لا يُعرض عن أُمه وأبيه إذا كبرا.

إن الإسلام يؤكّد تأكيداً بالغاً على حقوق الأبوين فيما ورد عن الله تعالى على لسان مشعل من مشاعل الإسلام، وهو الإمام زين العابدين عليه السلام في (رسالة الحقوق). وهو الحقّ الأول الذي ينطلق منه.

المورد الثاني: حقّ الجار

ثم ينطلق إلى الحقّ الثاني وهو حقّ الجوار، فيقول: **«الجار ثلاثة: جار له**

---

(١) الكافي ٦: ٥٠ / ٦، مسند أحمد ٢: ٣: ٢٠، ٦: ٤٤١، وقد روىٰ ذيله فقط.

(٢) ديوان المحاضر ٢: ٦٦.

عليك حقّ، وجار له عليك حقّان، وجار له عليك ثلاثة حقوق. فأمّا الذي له حقّ فجارك الكافر». وهذا الحقّ هو حقّ الجوار، ويرتّب الشارع المقدّس على هذا الجوار أثراً، هو أن هذا الكافر إنسان، وله حقّ الإنسانيّة أولاً، ثم إنه ارتبط بك بالجوار ثانياً، فله حقّ الجوار، والجوار عهد.

أقسام العهود

ويقسم فقهاء القانون والشريعة العهود إلى قسمين: العهد الفعلي، والعهد اللفظي. أما العهد اللفظي فهو ما كان فيه اللفظ صريحاً، كأن أقول لك: أُعاهدك على أن تحميني وأحميك. فنعقد بيننا معاهدة. أما العهد الفعلي ـ وهو الذي يعبر عنه «جان جاك روسو» بالعقد الاجتماعي ـ فهو كما بين الجار وجاره، فلا يحتاج هذا إلى العهد اللفظي، وإنما يترتّب حقّ الحماية والرعاية تلقائيّاً على كلّ من الجارين.

وكانت العرب والأمم الأُخرى أيضاً تعتزّ بالجوار كثيراً، لكن الدرجة من الاعتزاز بالجار كانت عند العرب لا نظير لها؛ فقد كان الجار أشبه عندهم بالأخ، فيمكن له أن يمدّ يده إلى طعامه. وهذا المعنى كان معروفاً عندهم، فإن طرق أحدهم طارق في الليل جاء جاره يحمل قدره من فوق ناره إلى ضيفه. قال مسكين الدارمي:

ناري ونارُ الجارِ واحدةٌ ... وإليه قبلي تنزل القدرُ
ما ضرَّ جاراً لي يجاورني ... ألّا يكونَ لبابِه سترُ
أعمى إذا ما جارتي برزت ... حتى يواري جارتي الخدرُ[1]

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٨: ٥٩، زاد المسير ١: ٣٢، شرح نهج البلاغة ٥: ٤٣، ١٧: ١٠، السيرة النبوية (ابن كثير) ١: ١١١.

ثم يقول الإمام: **«وأما الذي له حقّان فجارك المسلم، فمن حقّ جارك عليك ألّا تؤذيه بقتار قدرك حتى تقتدح له منها»**، أي إذا شمّ جارك رائحة الطعام فعليك أن تغترف له منه، وترسل اليه ليأكل كما تأكل، ولا تؤذيه بهذه الرائحة. وهذا لون من التكافل في محيط الإسلام.

كان سعيد بن محمد مجاوراً للإمام الصادقعليه السلام فعرض داره للبيع بعد أن مسَّته الحاجة، فجاءه من يشتريها، فطلب منه مئة وخمسين ألفاً، فاستغرب المشتري؛ لأن قيمتها لا تتجاوز الخمسين، وسأله: لماذا؟ قال: الخمسين ثمن الدار، والمئة ثمن جوار الإمام الصادق؛ فهو إن غبتُ سأل عني، وإن سكتُّ ابتدأني، وإن أكل تفقّدني قبل أن يأكل. فلما وصل الخبر إلى الإمامعليه السلام ابتسم ثم أرسل إليه المبلغ كلّه، وقال له: دعك في دارك، بارك اللّه لك فيها[1].

ثم يقولعليه السلام: **«وأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فهو الرحم المسلم»**؛ فإن له حقّالإسلام وحقّ الجوار وحقّ الرحم. ثم يشرع الإمامعليه السلام في شرح هذه الحقوق وتبيينها.

ثم ينطلقعليه السلام إلى ذكر حقّ المسلم على المسلم، وذلك بأن يستر عورته، ويُشبع جوعته، ويفرّج كربته، ويحفظ غيبته، إلى أن يصل إلى الوقوف على قبره. يقول الحرّ العاملي في (الوسائل): «يَعتبر أيمّة أهل البيتعليهم السلام أن من حق المسلم على المسلم يشهده إذا مات»[2]. لذا تروي عائشة عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم

(١) سبق أن نوّهنا إلى أننا لم نعثر عليها عن الصادقعليه السلام، وفي شرح نهج البلاغة ١٧: ١٩ عن سعيد بن العاص، وفي الكنى والألقاب ٢: ٣١٦، تاريخ بغداد ٤: ٣٣، تهذيب الكمال ٢٦: ٥٤٨، سير أعلام النبلاء ٧: ٣٨٧ / ١٤١ عن أبي حمزة السكري.

(٢) وسائل الشيعة ١٢: ٨٧ / ١٥٧١٢، ومثله في ١٢: ٢٠٦ / ١٦٠٩٧.

قوله: **«اقرؤوا على موتاكم سورة ياسين، إنها المؤمّنة له»**[(١)].

هذه نماذج من الموارد التي عالجتها (رسالة الحقوق)، وإني أُشجع كلّ مسلم على أن يقتني نسخة منها، بل أرغب في ذلك له؛ ليرى بنفسه أبعاد فكر الإمام عليه السلام، وهي حصيلة تربيته الإسلامية. ونحن اليوم بأمسّ الحاجة إلى دراسة هذه الأخلاق العالية.

وقد يقول قائل: إن الكثير من الحكماء يضعون النظريات، ولكن ما مقدار تطبيقها؟ وهل كانت هذه النظريات مطبّقة عند الإمام زين العابدين عليه السلام؟

إن الجواب على ذلك لا يحتاج إلى بحث، فقد كان كلّ ذلك مجسّداً في حياة الإمام زين العابدين عليه السلام. ومن المؤكد أن هذه الشريحة لديها نظريات غريبة في بابها، يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: **«مؤدب الناس ومعلمهم بسيرته أحق بالإجلال من مؤدب الناس ومعلمهم بلسانه»**[(٢)]؛ فهناك من يدعو الناس للخير والصلاح وهو ليس صالحاً، ومنهم من يؤدّب الناس بسلوكه وسيرته، وكان أهل البيت عليهم السلام هكذا.

إن الإمام السجّاد عليه السلام كان يجسّد ما يقوله في رسالته، فسيرته مع والديه مثلاً كانت مثالاً لذلك. وكان عليه السلام قد عاصر أباه فقط، أما أُمّه فقد توفّيت في نفاسها به. يقول الزمخشري في (ربيع الأبرار): «إن بنات يزدجرد ثلاث: تزوّج محمد بن أبي بكر واحدة، وتزوّج عبد اللّه بن عمر الثانية، وتزوج

---

(١) نيل الأوطار ٤: ١٤٢، تحفة الأحوذي ٣: ٢٧٦، البحر الرائق ٣: ١٠٥، كشف القناع ٢: ٩٥، سبل السلام ٢: ١١٩.

(٢) لم نعثر عليه بنصّه، وفي نهج البلاغة / الحكمة: ٧٣ ما نصّه: «ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم».

الحسين الثالثة. فولدت شاه زنان الإمام زين العابدين، وتوفّيت في نفاسها به. فدفع الإمام الحسين ابنه إلى جارية من فضليات جواريه، فأشرفت على تربية الإمام ورعايته وحضانته. وكان الإمامعليه السلام يدعوها: أُمي، وهي التي زوّجها بعد أن كبر». ويبدو أنها عندما احتضنته كانت صبية، فلما كبر الإمام كانت قد بلغت الثلاثين تقريباً. فأرسل إليها بعض النساء ليعرفن منها رغبتها في الزواج.

وكان الإمامعليه السلام يجلس معها على مائدة الطعام، ويؤاكلها، فلا يمدّ يده إلى أن تمدّ يدها. فقيل له: لم تفعل ذلك؟ قال: **«إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عققتها»**[1].

فأي لون من البرّ هذا؟ إنه تصرّف فيه روح الإسلام الذي يحاول أهل البيتعليهم السلام أن يربّونا عليه، ويعطونا به درساً أخلاقيّاً في رعاية الأبوين.

أما موقفه مع أبيه الحسينعليه السلام، فقد كان الأُنموذج المثالي أيضاً.

المبحث الثالث: شذرات من رعايتهعليه السلام حقوقَ جاره

وأما في جواره فيروي جميع المؤرّخين أن الطعام كان يخرج كلّ ليلة من بيته، وكانت القدور تُملأ بما يعدّه الطباخون، فإن حان وقت الغروب جلس الإمامعليه السلام أمام القدور وراح يقول: **«ابعثوا لآل فلان، واغرفوا لآل فلان، واعطوا آل فلان»**[2]. فإذا فرغ من ذلك وضع بين يديه بعضاً من الخبز والملح والحشائش الصحراوية وأكل منها الشيء القليل.

---

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٢) المحاسن ٢: ٣٩٦ / ٦٧، الفقيه ٢: ١٣٥ / ١٩٥٥، بحار الأنوار ٩٣: ٣١٧ / ٦.

تصدقه﵇ بالعنب

وكان﵇ يعجبه العنب، فاشتهاه يوماً وكان صائماً، فلمّا أفطر كان أوّل ما جيء له بالعنب، أتته أُم ولد له بعنقود فوضعته بين يديه، فجاء سائل فقال: يا آل محمّد، أعطوني ممّا أعطاكم اللّه. فقال لجاريته: **«احمليه إليه»**. فدفعته إليه، ثمّ دسّت إلى السائل فاشترته منه وأتت به فوضعته بين يديه﵇، فجاء سائل آخر فأعطاه، ففعلت أُم الولد مثل ذلك، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، حيث أرسلت الجارية في الثالثة إلى السائل، فاشترته منه؛ لأن الوقت ليل، ولا أحد يبيع العنب، ثم أتت به إلى الإمام﵇، فتناول منه حبات[1].

وكان هذا تجسيداً عملياً للوسام الذي أعطاه القرآن الكريم لجدّه أمير المؤمنين﵇ بقوله تعالىٰ: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَـتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾**[2].

ملاقاته﵇ الزهريَّ

ولا يكتفي الإمام﵇ بذلك، بل كان يخرج في الليل يحمل الطعام إلى جيرانه، يقول الزهري: كنت في إحدى الليالي أتمشّى في المدينة وقد انتصف الليل، فنظرت إلى زين العابدين يحمل على ظهره دقيقاً وحطباً وهو يمشي، فقلت: سيدي ما هذا؟ فقال: **«أُريد سفراً أُعدّ له زاداً أحمله إلى موضع حريز»**. فقلت: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، فقلت: فأحمله عنك؛ فإني أرفعك عن حمله. فقال: **«لكني لا أرفع نفسي عمّا ينجيني في سفري، ويحسن ورودي على ما أرد عليه. سألتك بالله لمّا مضيت في حاجتك وتركتني»**. فانصرفت عنه، وبعد

---

(١) بحار الأنوار ٦٤: ٧٢ / ٥٥.

(٢) الدهر: ٨ ـ ٩.

أيام رأيته فقلت له: يابن رسول اللّه، لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً؟ فقال: **«يا زهري ليس ما ظننت، ولكنه الموت، وله كنت استعدّ»**. فقلت: ما هذا الذي كنت تحمله؟ قال: **«هذا شيء من الطعام كنت أحمله للبيوت الجائعة»**(١).

لقد كانت العشرات من بيوت المدينة المنوّرة ـ وبيوت كلّ مدينة يحلّها الإمامعليه السلام ـ يصلها طعامها ولا تدري من أين يأتيها، ولم تعلم بذلك حتى مات الإمامعليه السلام، فعلموا حينها أنه هو الذي كان يوصل إليهم هذا الطعام(٢).

لقد كانعليه السلام يطوف على البيوت ليوصل الأطعمة والماء إلى أهلها؛ سواء كانت بيوت أعدائه أو بيوت أحبّائه. وقد كانت سيرة أهل البيتعليهم السلام كلّها هكذا. فقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام يبعث بالطعام إلى بيت عمار بالقدر الذي يبعثه إلى بيت عبد اللّه بن الكواء الذي يتقرّب إلى اللّه بشتمه(٣).

بسطهعليه السلام حمايته على إسماعيل الأموي

وكذلك كان فعله مع إسماعيل بن هشام المخزومي عامل عبد الملك على المدينة، فقد كان إسماعيل هذا يسيء لأهل البيتعليهم السلام وخصوصاً للإمام السجادعليه السلام، وقد بقي عاملاً إلى زمن الوليد الذي عزله، وأوقفه تحت الشمس عارياً، فأخذ الناس يطالبونه بالأموال، فجمع الإمام كلّ أصحابه وأهل بيته

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٣. (٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) كما فعلعليه السلام مع سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي الذي اعتزل القتال معه هو وقوم فكانعليه السلام يرسل إليهم الأعطية ويقول: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

وقال لهم: **«لا تتعرّضوا لهذا الرجل بسوء أبداً»**. فقال أحد أولاد الإمام عليه السلام: يا أبه، نحن ننتظر منه مثل هذا اليوم. فقال الإمام عليه السلام: **«كِله إلى الله»**. وطلب منهم أنهم إذا مرّ به أحد منهم فلا يبدِ على وجهه أي امتعاض.

ثمّ إن الإمام عليه السلام مرّ من قربه فهمس في أُذنه قائلاً: **«انظر إلىٰ ما أعجزك من مال تؤخذ به فعندنا ما يسعك، فطب نفساً منا ومن كلّ من يطيعنا»**. وأرسل له الإمام كلّ ما يحتاج إليه، فكان يقول بعد ذلك: **﴿اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾**[1]، وكان أن ترك النصب له عليه السلام[2].

وقد يصل به الأمر أحياناً إلى أن يحمل الماء على ظهره بعد أن يمتحه من البئر. وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام: لماذا كان على ظهر أبيك مجل[3]؟ قال عليه السلام: **«إنه كان يستقي لضعفة جيرانه بالليل»**[4]؛ ذلك أنه لم يكن في المدينة المنوّرة أنهار، بل كان فيها آبار بعيدة القعر، فلذا كان الإمام عليه السلام يستقي لهؤلاء الضعفة من كبار السنّ وغيرهم من جيرانه، فيمتح الماء بالدلو ويحمله على ظهره ثم يذهب به إلى بيوتهم.

حمايته عليه السلام عائلة مروان في واقعة الحرّة

وينطلق عليه السلام إلى أبعد من ذلك في رعاية جيرانه كما سأذكر لك هذا عبر ما فعله مع عائلة مروان. وقبل هذا أودّ أن أُشير إلىٰ قضية في التشريع الإسلامي أدّت إلىٰ ظهور ما يسمى بقاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، وهي من أضخم

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠١، بحار الأنوار ٤٦: ٥٥، تاريخ الطبري ٥: ٢١٧.

(٣) المجل: أثر العمل في الكفّ حينما يعالج بها الإنسان الشيء حتىٰ يغلظ جلدها من المشقة. لسان العرب ١١: ٦١٦ ـ مجل.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٩٤.

القواعد الإسلاميّة، ويستند إليها فقهاء القانون وفقهاء الشريعة في حلّ كثير من القضايا. وفي عصرنا هذا يقولون عن هذه القاعدة: إنها تستعمل عند التعسّف باستعمال الحقّ، مثل أن يكون عند أحد قطعة أرض يريد بناءها، فعليه أن يراعي جاره بألّا يحجب عنه الشمس أو الهواء، فلا يتعسّف عليه باستعمال حقّه باعتبار أنه يملك هذه القطعة من تخوم الأرض إلى عنان السماء.

كان سمرة بن جندب ـ وهو من الصحابة، ثمّ أصبح بعد ذلك مدير شرطة زياد، وعاش إلى أيام الحسين عليه السلام، وكان يدفع الناس إلى قتاله عليه السلام ويشجعهم على ذلك ـ يملك نخلة في بيت جار له من الأنصار، فكان يدخل على جاره فجأة متى شاء، وهو جالس مع أهله فيطّلع على أهله بذريعة الوصول إلىٰ نخلته. فشكاه الأنصاري إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله، فاستدعاه وقال: له: **«هبها له ولك كذا وكذا»**. أمراً رغّبه فيه، فأبى فقال صلى الله عليه وآله: **«أنت مضارّ»**. ثم قال صلى الله عليه وآله للأنصاري: **«اذهب فاقلع نخلته»**[1].

هذا لون من الجوار الذي رأته المدينة، في حين أن الإمام السجّاد عليه السلام يؤوي عائلة مروان ويبعث ابنه عبد اللّه لحماية زوجته، ويقول له: **«إنه جارنا»**. وذلك لما حدثت واقعة الحرة في المدينة، وأراد الثوّار أن يقضوا على عوائل بني أُميّة بالكامل، فجاء مروان يهرول إلى عبد اللّه بن عمر يطلب منه إيواء عائلته، فقال له: ليس عندي مكان، ولا أُدخل أحداً إلى بيتي. فراحوا

---

(١) النصائح الكافية: ٧٦، وانظر: سنن أبي داود ٢: ١٧٣ / ٣٦٣٦، السنن الكبرى (البيهقي) ٦: ١٥٧، المحلّى ٩: ٢٩ /المسألة: ١٥٤٠، نيل الأوطار ٦: ٦٧، وفي بعضها أنه كان إذا وقعت تمرة منها وأكلها صغار الأنصاري مدّ يده إلىٰ فيه واستخرجها منه ولم يسمح له بأكلها.

يتسكّعون على البيوت، حتى جاؤوا بأجمعهم إلى دار زين العابدين‏عليه السلام، فاستقبلهم وأدخلهم داره، وبقوا حتى نهاية الثورة في بيت الإمام‏عليه السلام ينفق عليهم ويحميهم[١].

والأكثر من ذلك أن عائشة بنت الخليفة الثالث زوجة مروان أرادت أن تخرج من المدينة هرباً من الثورة، فأرسل‏عليه السلام معها ابنه عبد اللّه حتى أوصلها إلى الطائف، وظلّ مرابطاً على باب بيتها ثلاثة أشهر لحراستها[٢].

ومن هو مروان؟ إنه من كان يتقرّب إلى اللّه بشتم أمير المؤمنين‏عليه السلام، وكان يقول للحسين: أنصحك ببيعة يزيد فإنه خير لك في دينك ودنياك[٣]. وكان يضرب ثنايا الإمام الحسين‏عليه السلام ويرتجز:

يا حبّذا بردك باليدينِ ولونك الأحمر بالخدّينِ

شفيت نفسي من بني الحسينِ[٤]

فهل رأيت في التاريخ نموذجاً مثل هذاالعفو؟ إنه مصداق لقول الفرزدق:

مشتقّة من رسول اللّه نبعته طابت عناصره والخيم والشيَمُ

ما قال لا قطّ إلّا في تشهّده لولا التشهّد كانت لاؤه نعمُ[٥]

فلو أردنا أن نكون على مائدة هذا الرجل لأصابتنا الحيرة فيما نأخذ وما نذر من سيرته في تقواه وخلقه وعبادته، فكان‏عليه السلام إذا جن عليه الليل وقف لا

---

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣، الكامل في التاريخ ٣: ٤٥٦.

(٣) اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦.

(٤) شرح الأخبار ٣: ١٦١، مثير الأحزان: ٧٥، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١، ترجمة الإمام الحسين‏عليه السلام (ابن عساكر): ٣٣٩.

(٥) الاختصاص: ١٩٤، تاريخ بغداد ٩: ٢١٠.

يتحرّك منه إلا ما تحرّكه الريح[١]، يقول في إحدى مناجياته: **«يا ذا الملك المتأبّد بالخلود، ويا ذا السلطان المعتزّ بغير جنود»** إلى أن يصل إلى قوله: **«وأنا الضعيف عملاً، والجسيم أملاً»**[٢].

وقد حشد عليه السلام فيها المعاني الكبيرة التي تكشف عن الروح الضارعة إلى اللّه جلّ وعلا، والتي تتوخىّ أدقّ المعاني في تصوير العلاقة بين العبد وربّه. فلنعرف أين هو موقع الصحيفة السجادية (إنجيل آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم) من التراث الفكري الروحي للإسلام.

إننا في مسيس الحاجة إلى دراسة الإمام عليه السلام عطاء ورحمة وخيراً، فهو المجاهد في اللّه، الصابر على المصائب، وهو الامتداد الطبيعي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، لا أن نأخذ منه جانب المأساة فقط وإن كانت المآسي التي مرّت به أخذت منه قسطاً وافراً؛ فإنه كان عطاء قبل أن يكون مأساة.

فسلام عليه يوم ولد ويوم نصر الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ودينه، ويوم استُخلف ويوم استُشهد ويوم يبعث حيّاً.

---

(١) الكافي ٣: ٣٠٠ / ٤.

(٢) الصحيفة الكاملة السجادية: ١٦٥ / من دعائه عليه السلام عقيب صلاة الليل.

﴿ ١٢٥ ﴾

وراثة الأرض واستعمارها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: الاستعداد العلمي والأخلاقي لحمل الرسالة

الزبور هو مجموعة الكتب السماوية؛ لأن الزبْر هو عبارة عن الكتابة، وكل الكتب السماوية مكتوبة. فالمقصود بالزبور إذن هو رسالات السماء التي حملها الأنبياء عليهم السلام، والذكر يقصد به اللوح المحفوظ، وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: أنا قد قضينا بأن الأرض يرثها عبادنا الصالحون، وأنها ستكون لهم وحدهم دون غيرهم.

إن كتب السماء تحمل الحقائق دون شكّ، لكن التوصّل إلى معرفة هذه الحقائق يحتاج إلى تبحّر واستعداد علمي؛ كي يتمكّن الإنسان من إدراك كنهها. وبتعبير آخر: إن الآيات الكريمة هي عبارة عن فيض من العطاء على

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

مستويات عدّة من العلم والمعرفة والإخبار عن المغيّبات، لكن يجب أن تكون في أيدٍ أمينة، وهم أهل العلم والمعرفة الذين يختصّهم الله تعالىٰ، وهم المعبّر عنهم بالراسخين في العلم(١). فالذي يريد أن يتناول آية من آيات الكتاب دون أن يكون له حظّ من العلم فإنه سيخلط الأمور ببعضها، أو أنها هي ستختلط عليه. وهذا أيضاً يشمل من عنده علم لكنه لا يمتلك أي خلفية دينية؛ فإنه سيخلط الأمور أيضاً وسيصرف الآيات عن معانيها إلى معانٍ أُخرى تمليها عليه نفسه.

جاءني أحدهم يسأل فقال: إن أحد المتحاملين على أمير المؤمنين عليه السلام يعترض على ما ينسب له عليه السلام حول قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾**(٢)، وأشياء أُخرى ثابتة في حقّ أمير المؤمنين عليه السلام، كقلع باب خيبر، فيقول: إن هذه الأُمور كلّها تنسب كذباً إلى أمير المؤمنين عليه السلام. ومثل هذا لا يستبعد منه أن يقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام شخصيّة وهمية وليس لها وجود، ونحن لا نلوم هذا؛ فالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول لأمير المؤمنين عليه السلام: **«لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق»**(٣). ورحم الله صفي الدين الحلي؛ حيث يقول:

بحبِّ عليٍّ تسرُّ النفوسُ ... وتزكو القلوبُ وتحلو الثمارْ

فإمّا رأيتَ له مبغضاً ... ففي أصلِهِ نسبٌ مستعارْ

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ آل عمران: ٧.

(٢) المائدة: ٥٥.

(٣) مسند أحمد ١: ٩٥، ١٢٨، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٦، كنز العمّال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٨.

على أية حال إن هذا الأمر لا يضير أمير المؤمنين‍ﷺ بشيء، ولا ينقص من قدره ومكانته.

أقسام النصّ القرآني

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يقرّر أن الصالحين سيرثون الأرض، لكن ما المراد من الأرض هنا؟ وأود أن اُلفت النظر هنا إلى نقطة هامة وهي أن النص القرآني يكون عبارة عن قسمين:

الأول: النصّ

فهو أحياناً لا يحتمل إلّا وجهاً واحداً، وفي مثل هذه الحالة يصبح نصاً بالمعنى الاصطلاحي، فلا مجال لحمله على معنى آخر غير الذي وضع له. ومثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]، فهو نص لا مجال للاجتهاد فيه، ولا إلى توجيهه إلى معنى جديد غير الذي وضع له؛ لأنه نصّ صريح لا يحتمل إلّا معنى واحداً.

الثاني: الظاهر

أمّا إذا كان يحتمل معاني عدّة؛ ففي هذه الحالة إذا كان المعنى راجحاً، فإننا نسميه ظاهراً، وإن كان المعنى مرجوحاً، فإننا نسميه مؤولاً.

المبحث الثاني: المقصود من الأرض

وعلى ضوء هذا التقريب لنرَ هذه الآية من أي الاقسام هي، إن الناظر إلى

---

(١) الإخلاص: ١.

هذه الآية بعد التأمّل والتدقيق سيجد أنها من النوع الثاني من القسم الثـاني. وسأُوضح هذا المعنى إن شاء الله تعالى خلال اسـتعراضـي لبـعض النـقاط الرئيسة التي يتضمّنها البحث. فللمفسّرين ثلاثة آراء حول المراد من الأرض في الآية:

الرأي الأوّل: أنها الجنة

إن بعض المفسرين يذهبون إلى أن المراد بالأرض هنا هي الجنّة؛ بدليل قوله تعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ**﴾[(١)].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن لسان الآية فيه عموم، فالأرض لو كانت هي هذه الأرض التي نحن عليها لرأينا أن هناك تناقضاً بين الآية والواقع؛ لأن الصالحين لم يرثوا من هذه الأرض شيئاً، فهي كلّها لغير الصالحين. والواقـع يقول هذا ولا يمكن لأحد أن ينكره، فالأرض كـلها الآن بأيـدي الكـفرة، فسيبيريا وحدها بحجم البلاد العربيّة وهي بأيدي الكفرة، وقطعة من بلادهم. إذن الأراضي اليوم قد ورثها غير الصالحين، وقد لا يحصل فيها صالح على قطعة أرض يعيش عليها، وهؤلاء غالباً هم حملة الرسـالات، والدعـاة إلى الإيمان؛ ولذا فانهم كانوا ولا زالوا مطاردين لا يجدون مكاناً يستقرّون فـيه. وقد سئل أحدهم: أين أنت حين طلبك الحجاج؟ فقال: بحيث يقول الشاعر:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى وصـــوّت إنســـانٌ فكـدت أطـيرُ[(٢)]

---

(١) الزمر: ٧٤.

(٢) الكنى والألقاب ٣: ٢٤٥، وفيه أن إبراهيم النخعي تمثّل به حين سئل: أيـن كـنت حـين طلبك الحجاج؟ غريب الحديث (الحربي) ٣: ٩٤٩، معجم البـلدان ٢: ٤٨٣، وفـيه أنـه

وهذا البيت يصوّر حال الصلحاء ـ الذين هم غالباً ما يكون شأنهم هكذا ـ أفضل تصوير. ولأضرب لك مثلاً واحداً يشهد بصحّة هذا، فسعيد بن جبير رضي الله عنه كان قد طارده الحجاج مطاردة مروعة بعد فشل ثورة القرّاء، وضيّق عليه الخناق حتى لم يكن يجد موطئ قدم يلوذ به ويلجأ إليه، وبث العيون في كل النواحي تترصّده وأرسل الطلب خلفه يتعقّبونه، حتى وصل به الأمر أن نزل قرب دير. وكانت الشرطة تجدّ في طلبه حتى وصلت إلى الدير الذي نزل قربه، فرأوا راهباً في صومعته، فسألوه عنه فدلّهم عليه.

فانطلقوا فوجدوه ساجداً يناجي ربّه، فدنوا منه وسلموا عليه، فأتمّ بقيّة صلاته، ثم ردّ السلام عليهم، فقالوا له: إنا رسل الحجّاج إليك، فأجبه. فقام معهم حتى انتهوا إلى دير الراهب، فقال لهم الراهب: يا معشر الفرسان، اصعدوا؛ فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير. فلما همّوا بالصعود أبى سعيد أن يدخل معهم، فقالوا: ما نراك إلّا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكني لا أدخل منزل مشرك أبداً. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. قال: لاضير، إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً تحرسني. فقالوا: فأنت من الأنبياء؟ قال: ما أنا من الأنبياء، ولكن عبد من عبيد الله تعالى مذنب.

ثم أعطاهم موثقاً ألّا يبرح مكانه حتى يُصبح، فرضوا بذلك، ولما صعدوا إذا هم بلبوة قد أقبلت، فلمّا دنت من سعيد تمسّحت به، ثم ربضت قريباً منه، وأقبل الأسد فصنع كذلك، فأمرّ سعيد يديه على رأسيهما، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا، نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله، ففسّر له سعيد

☚ للأُحيمر السعدي، وكان قد أتى العراق فقطع الطريق، فطلبه أمير البصرة سليمان بن علي وأهدر دمه، فهرب وذكر حنينه إلى وطنه، فأنشد قصيدة منها هذا البيت.

ذلك كلّه، فأسلم.

ثم جاء به القوم إلى الحجّاج، فقال لهم: أتيتموني بسعيد بن جبير؟ قالوا: نعم، وعاينّا منه العجب. فصرف بوجهه عنهم، وقال: أدخلوه عليّ. فخرج المتلمّس[1] فقال لسعيد: أستودعك اللّه، وأقرأ عليك السلام.

فأُدخل عليه. فقال له الحجّاج: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت شقي بن كسير. قال: بل أُمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت وشقيت أُمّك. قال: الغيب يعلمه غيرك، فلم تنعتني وإيّاها بالشقاء؟ فقال له: لأُبدلنّك بالدنيا ناراً تلظّى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً.

ثم سأله: ما قولك في محمد ﷺ؟ قال: نبي الرحمة، وإمام الهدى. قال: فما قولك في علي؛ في الجنة هو أم في النار؟ قال: لو دخلتها، فرأيت أهلها عرفت. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عنده. قال: أبيت أن تصدقني. فقال: إني لم أُحبّ أن أُكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: لم تستوِ القلوب. فقال: ويلك يا سعيد. قال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأُدخل النار. قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال: اختر أنت لنفسك يا حجّاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلّا قتلتك قتلة في الآخرة. قال: فتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن اللّه، وأما أنت فلا براءة لك ولاعذر.

ثم أمر الحجّاج بالنطع وقال: اذهبوا به فاقتلوه. فقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

---

(١) كان قائد الحملة المكلّفة بالبحث عن سعيد ﷺ.

﴿فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١]. قال: شدّوا به لغير القبلة. فقال: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾**[٢]. قال: كبوه لوجهه. قال: **﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾**[٣]. قال: اذبحوه. قال: إني أشهد وأُحاجّ أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة. ثم دعا سعيد الله تعالى وقال: اللهم لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي. فذبح على النطع.

وهكذا كان؛ إذ مات بعده بخمس عشرة ليلة لم يستقرّ فيها لحظة، فقد كان إذا نام رآه في المنام وهو يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو اللّه، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: مالي ولسعيد بن جبير، مالي ولسعيد بن جبير؟[٤]. ولذا يقول له أحد الأدباء:

بعضَ التفكّر يا فتى ... فأخو الحصافة ما انسبرْ
هل أنت في أمن من الـ ... أحداثِ تعصفُ والغِيرْ
أو ما رأيت سجونَ وا ... سطَ كالهشيمِ المحتضرْ
ومقاصرَ الحجّاجِ تضـ ... ـحكُ في مدارِكِها العبرْ
كُتب الخلودُ بها لمجـ ... ـزورٍ وليس لمن جزرْ
أضحى بها ابنُ جبير يُتـ ... ـلى مثلَ فاتحةِ السورْ

فانظر عاقبة المتّقين وعاقبة المفسدين؛ فأين الحجاج الآن؟ وأين ضخامة

---

(١) الأنعام: ٧٩. (٢) البقرة: ١١٥.
(٣) طه: ٥٥.
(٤) تاريخ الطبري ٥: ٢٦٠، الطبقات الكبرى ٦: ٢٦٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٢٨، حلية الأولياء ٢: ٢٩٠ / ٤.

بنائه؟ الحجّاج لم يكن إلّا تراباً على ظهر الأرض وعاراً في بطون الكتب ولعنة في أذهان الناس و على ألسنتهم، وهذه هي عاقبة الظالمين.

فهذه الأرض لم تكن دائماً إرثاً للصالحين، بل قد لا يملك الصالحون فيها موطئ قدم، وقد ضاقت على سعيد وأمثاله من المؤمنين؛ وهذا يدلّ بشكل واضح على أن الأرض التي وعد الله تعالى بها المؤمنين هي الجنّة.

كما أن هؤلاء يقولون: إن القرآن الكريم لا يمكن أن يحمل على الظاهر دائماً؛ لأن هذا الظاهر يصطدم بالواقع أحياناً؛ فكان لا بدّ من تخصيصه بالواقع، وهو ما يعبّر عنه بأنه عموم مخصّص بالواقع. فالقرآن الكريم لا يمكن أن يكون فيه كذب حاشا للّه، وعليه فلابدّ من تأويل هذه الآية بأنها الجنة؛ حتى لا يقع التكاذب.

بيان

قد بيّنت أكثر من مرّة أننا عندما نرجع إلى الروايات فينبغي أن نأخذ منها على الإجمال ما ورد على لسان المعصومين عليهم السلام، وبالطريق الصحيح السالم من المؤاخذة. والغرض من هذا البيان هو أنني أُريد أن أُبيّن حقيقة ناصعة هي أن القطعة الصغيرة التي يعيش عليها المؤمن تعادل الدنيا بما فيها من نعيم وملذّات. يقول الإمام الحسين عليه السلام: **«اللهم إن كنت حبست عنّا النصر عاجلاً، فاجعل لنا ولشيعتنا منزلاً كريماً في مستقرّ رحمتك، واجمع بيننا وبينهم تحت ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلّك»**[1].

---

(١) قريب منه في الإرشاد ٢: ١٠٨، مثير الأحزان ٥٢، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، البداية والنهاية ٨: ٢٠٣.

الرأي الثاني: أنها أرض القدس

وهذا ما يميل إليه بعض المفسّرين الذين يذهبون إلى أن المراد بالأرض في الآية الكريمة أرض القدس، أي أرض القبلة الأُولى؛ فبيت المقدس كان قبلة المسلمين أوّل الأمر حينما شرعت الصلاة.

علّة جعل بيت المقدس قبلة

والظاهر أن المراد من تشريع القبلة إلى بيت المقدس هو أن الله تعالى يريد أن يثبت للعرب في ذلك الوقت أن التوجّه بالعبادة هو ليس استمراراً لتوجّههم إلى الكعبة ـ ذلك أنهم كانوا يتوجّهون إليها في عباداتهم ـ لأن الله تعالى ليس في جهة، بل إن التوجّه إلى أي جهة يأمر بها هو توجّه إليه تعالىٰ، وليس بالضرورة أن يكون ذلك إلى الكعبة. ولذلك توجّه المسلمون أوّل الأمر إلى بيت المقدس مدّة طويلة؛ لأنه أرض مقدّسة، وهي الأرض التي بارك الله تعالى فيها[1]، وهي مصلّى الرسول الأكرمﷺ والأنبياءعليهم السلام كلهم. كما أنه هو المكان العزيز علينا بكلّ ما فيه من آثار، والذي تربطنا به رابطة العقيدة والروح والوجود والكرامة والدم.

ولا شك أن بيت المقدس من الأماكن العزيزة على نفس كلّ مسلم يتوجّه يومياً إلى الله عزّ وجلّ؛ فهو يذكر أن هذه المنطقة كانت في يوم من الأيام قبلة أسلافه الأُولى. كما أنها ترتبط بمشاعرنا من ناحية تاريخية.. ترتبط بمشاعرنا من ناحية الإسراء والمعراج. وهي الآن تشكّل وصمة عار علينا جميعاً لما تتعرّض له من تدنيس على أيدي حفنة من اليهود الذين اغتصبوها

---

(١) قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الإسراء: ١.

من أيدي كلّ هذه الأمم الإسلاميّة. وبناء على هذا الوعد الذي تقرّره هذه الآية الكريمة يقول أحد الأُدباء:

بصماتُ المسيحِ فوق ثراهُ ... وشذا من عبيرِه فوّاحُ
وبه من محمدٍ قسماتٌ ... يجتلي حسنَها السنا اللمّاحُ
سيعود السلامُ يا بلدَ القدسِ وشيكاً ويطردُ السفّاحُ
وستزهو ملاعبٌ بالصبايا ... وتننُّ الهوى وجوهٌ صباحُ
ليس حلماً يا أرضَ قدسٍ ولكن ... كفُّ قومي بدا بها مفتاحُ[1]

فرية عبد الله بن سبأ

وللحقيقة أقول: إننا قد ابتلينا باليهود وبأذنابهم، وإلّا فإنه لم يكافح أحدٌ اليهودَ على مرّ التاريخ كما كافحناهم نحن الشيعة، ونحن الآن نرفع شرف مكافحة اليهود، ففي الجنوب اللبناني الشيعي ترتفع الأصوات وتلعلع الأسلحة وهي تبارز اليهود[2]. فلتخرس جميع الأصوات التي ترمينا بأننا يهود، فاليهود غيرنا وليس نحن. وعندما نسأل هذا المفتري علينا فريتَه هذه عن سبب إطلاقها ضدّنا، وعن دليله عليها، فإنه يتذرّع بشخصيّة مفتعلة اسمها عبد الله بن سبأ. ونحن نقول لهذا المفتري: إذا كنت ترمينا بعبد الله بن سبأ واحد، فأنت عندك مئة عبد الله بن سبأ، ومع ذلك نجدك تنزّه نفسك عن وصمة اليهوديّة وتدّعي أنك لست يهودياً. مع أن هذه الشخصية هي شخصيّة وهمية لا وجود لها، وهذا ما يقول به حتى كتّابكم[3].

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٧٢.

(٢) وكذلك يوم القدس العالمي الذي أُعلن في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك من كل عام.

(٣) لمزيد من الاطّلاع يراجع كتاب (عبد الله بن سبأ) للباحث السيد مرتضى العسكري.

ولو تنزّلنا وفرضنا أنه شخصيّة حقيقيّة، فهل يعني هذا أن تصبح الأُمة كلّها يهوديّة؟ هذه كتبنا وهذا تاريخنا ابتداء من أمير المؤمنين عليه السلام وإلى الآن يشهد بذلك؛ ونحن نسأل: على يدي من قتل مرحب؟ فإن كان هناك من يقول: إنه لم يقتله علي بن أبي طالب عليه السلام فإن هذا لا مجال للحديث معه؛ لأنه مكابر وعار على الدنيا، وعار على الذوق الإنساني وعلى التاريخ.

وهل علي بن أبي طالب عليه السلام محسوب على جهة أو منسوب إلى فئة من المسلمين دون غيرها؟ إنه عطاء للمسلمين كافّة، وهو سيف مشهور دون كلمة الله تعالى.

إذن فسيوفنا قد قارعت اليهود وكذلك سواعدنا قُطعت من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وطرد الفكر اليهودي وهي تحاربهم، أما أقلامنا فهي من أول الأقلام التي قارعت اليهود عبر التاريخ، ودونك تفاسيرنا تشهد بذلك، فهي خالية من الإسرائيليّات التي تزخر بها تفاسير غيرنا مثل خبر الجسّاسة[1]. والذي له صلة بهذا التاريخ يعرف هذا المعنى. إننا قاتلنا اليهود وما زلنا نقاتلهم؛ فكراً وقلماً وسيفاً وساعداً.

إذن المقصود بالأرض التي سيرثها الصالحون ـ الأرض الموعودة ـ هي أرض بيت المقدس.. أرض القبلة الأُولى والمقدسات.. البلدة التي ابتليت باليهود؛ حيث دنّستها أقدامهم. ونحن لا ننكر أن هذه التربة الطاهرة قد ارتوت من دماء المجاهدين، فهي كانت ولازالت تشكّل بؤرة صراع بين الحقّ والباطل، لكن لا يمكن أن يرفع العار عن جباه المسلمين حتى يستردّوا

---

(١) انظر: مسند أحمد ٦: ٣٧٣، ٣٧٤، ٤١٢، ٤١٧، ٤١٨، صحيح مسلم ٨: ٢٠٤، سنن ابن ماجة ٢: ١٣٥٥ / ٤٠٧٤.

هذه الأرض الطاهرة ويسترجعوها من أيدي اليهود الغزاة الكفرة. والقرآن الكريم يعطينا هذا الوعد ويذكّرنا أن هذه التربة.. تربة بيت المقدس ستكون مرتع الصالحين من عباده.

الرأي الثالث: أنها هذه الأرض المعروفة

فالمقصود بالأرض التي سيرثها الصالحون وفق هذا الرأي هي كل هذه الأرض التي نعيش عليها. لكن لنا أن نتساءل: كيف يرثها الصالحون؟ وما معنى هذه الوراثة؟ هل معناها أن هناك من يملك الأرض ولا يعلم ما الذي أودعه الله تعالى فيها ولا كيف يستثمرها، وأن الذي يعرف كيف يستثمرها هو الذي سيرثها؟

أقسام العوامل البيئيّة

ولكي أُقرّب لك هذا المعنى أقول: إن علماء البيولوجيا يقسمون عوامل البيئة إلى قسمين هما:

الأوّل: العوامل الجامدة (Physical factors)

وهي عوامل البيئة الجامدة وإنما سميت عوامل جامدة؛ لأن المقصود بها خواصّ الأرض التي تشكّل النصف الأكبر من عوامل البيئة، وهي الحرارة والهواء والجاذبيّة وخواصّ التربة ومكوّنات الأرض وتضاريسها.

الثاني: العوامل الحيّة(Living factors)[1]

والمقصود بها الأحياء التي تعمر الأرض، وهي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾[2]. فيأتي الفلّاح ليبذر البذرة

---

(١) Living agent.

(٢) المدّثر: ٣١.

ويذهب وهو لا يعلم ما الذي يحصل بعد ذلك من عوامل تخدم هذه البذرة حيث إنها تخدمها المليارات من البكتريا الموجودة في جوف الأرض، وهي تهيئ لها الأسمدة والأملاح. ثم إن مكونات التربة المغذية للنبات تستخرج وتحضر معمليّاً حيث يحقن بها النبات ومنها الأوكسينات والفايتمينات وغيرها، وكل هذا دلّتنا عليه الكشوفات العلميّة التي اضطلع بها أهلها.

كما أن هناك أشياء أُخرى بعضها قد يكون غريباً كاستخراج الماء من الأرض، وهم أشخاص موهوبون، وأولهم «بازل فالنتيني» الذي عاش في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، حيث كان يحمل عصا يستدلّ بها على وجود الماء تحت الأرض. ثم جاءت من بعده الكشوفات العلميّة الحديثة التي تتعرّف على مواقع المياه الجوفية.

فهؤلاء هم الذين يستفيدون من الأرض وليس نحن الذين لا نستطيع أن نستخرج المعادن منها، ولا أن نستثمرها، ولا نعرف نوع الزراعة التي تصلح لها. إذن فالذي يعرف هذه الأشياء هو المالك الحقيقي للأرض، وليس نحن. فقوله تعالىٰ : ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾تعبيره واضح في أن وارث الأمر هو الذي يملك الاستعداد لاستثمارها.

وهذا الرأي نقله أحد الكتّاب في كتابه (بدع التفاسير)، وحمل على صاحبه حملة شديدة، واتّهمه بأنه يدعو الاستعمار إلى احتلال أراضينا، ووصفها بأنها دعوة مقنعة للاستعمار. لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا تسبق الاستعمار وتستخرج خيرات الأرض وما فيها من معادن وغيرها؟ ولماذا لا تستثمر البيئة بكل ما فيها وقد سخّرها الله تعالى لك؟ إننا نتمنّى أن نجد من أبنائنا هذا الحرص، وأن نجد فيهم من يستثمر خيراتنا ولا يدع الأجنبي

يدخل بلادنا ليستثمرها هو. لكن هذا لايمنعنا من الاعتراف بالواقع المرّ الذي نعيشه، والذي يجب أن نتأقلم مع آثار الاعتراف به، إننا لا نستطيع بما نملك من إمكانات أن نستثمر هذه الخيرات التي منحنا الله تعالى إياها، فيجب أن نشمّر عن السواعد وأن نتوجّه إلى استثمارها والاستفادة منها. وإلّا فإن من غير الصحيح أن يتفضّل الله تعالى علينا بكلّ هذه النعم ولا نتوجّه إلى الاستفادة منها، فبلادنا مليئة بالكنوز ونحن غافلون عن استثمارها. فهل إننا لا نعرف كيف يتم ذلك، أم أن القسم الأكبر منا لاهون عنها بالصراعات المحتدمة فيما بينهم، وتكفير بعضهم البعض. فالواجب أن نتوّجه إلى الجانب المهم من المسألة الذي يرتبط بوجودنا مباشرة، وأن نشغله بما يسده ويصبّ في مصلحتنا.

فهذه الحملة ليست في محلّها أبداً، فالأرض فعلاً هي التي يجب أن يرثها الصالحون الذين يعرفون كيف يستثمرونها وكيف يوجّهون الطاقات المخزونة فيها، والكنوز المودعة بها في خدمة الإنسان والبلد. ولا شك أن هؤلاء الصالحين هم الذين سيرثون الأرض ومن عليها، وسيأخذونها منا شئنا أم أبَينا، ولن يبقى لنا سوى الاسم، أي أنها ستكون حينها أرضنا بالاسم فقط، لكن الغير هو من يستثمرها ويأخذ من عطائها ما لا نقوى نحن على حصره ومعرفته والإفادة منه.

وهذا في الواقع شيء مؤلم، والمسلمون بأجمعهم مدعوّون إلى أن يتصرّفوا بما منحهم الله عزّ وجلّ من ثروات وخيرات تصرّفاً لائقاً يتناسب مع ضمان هذه الثروات، وأن يتعلّموا كيف يستغلّونها، وكيف يفجّرون خيرات الأرض ويستنبطونها ويصنعونها ويوجّهونها لما فيه خيرهم وخير دينهم

وخدمته. وليُعلم بأن الأُمم الأُخرى تحسدنا على ما عندنا من ثروات حسداً عظيماً، فكيف يمكننا أن نتّقي هذا الحسد؟ إن من الممكن أن نـتّقيه بـالجدّ وبذل الوسع والطاقة في تحصيل المعارف والعلوم، والله تعالى قد دفعنا إلى العلم وتعلّمه، ولم يخصّ ذلك بعلم من العلوم[1].

العلم ليس للأديان والأبدان فقط!

وقد رأيت بعض الكتّاب الإسلاميّين الذين يتناولون هذا الجانب يقولون: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، والمقصود بهما العقيدة والطب، لكن لنا أن نسأل: هل إن الاجتماع والفيزياء والكيمياء والنفس والفـضاء ليست علوماً؟ يقول الرسول الأكرم ﷺ: **«من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلىٰ الجنة، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به. وإنّه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتىٰ الحوت في البحر، وفضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر النجوم ليلة البدر، وإنّ العلماء ورثة الأنبياء»**[2]. وهذا لا ينافي أي علم من العلوم التي تخدم الإنسانية، فكل واحد منها بحدّ ذاته يعدّ علماً محبوباً إلى الله. إذن ماهو الداعي إلى حـصر العـلوم بـهذين الجانبين فقط؟

ومن هذا نعلم بأننا مدعوّون إلى الاستفادة من طاقاتنا الذهنيّة والبـدنيّة؛ كيلا نسمح لها أن تذهب إلى أيدي غيرنا، وهو ما يحصل الآن. وما يجري في بعض البلاد الإسلاميّة الغنيّة شيء يؤسف له؛ حيث تجد أحدهم لا ينزل إلى

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ الرحمن: ٣٣.

(٢) الجامع الصحيح (سنن الترمذيّ) ٥: ٤٨-٤٩ / ٢٦٨٢.

عمل من الأعمال البدنيّة المرهقة في حين أننا نرى هذا الذي كان يعيش في جنة من الجنان يأتي بهذا الحرّ الشديد الذي ربما يصل إلى ٥٠ ٪، وينزل إلى بئر عمقها سبعون متراً ثم بعد ذلك يخرج ملطّخاً بالزيوت والأوساخ من أجل أن يعمل وأن يستثمر طاقاته وقدراته وطاقات الأرض وقدراتها، وهو إلى ذلك يملك قلباً من أروع ما يكون، في حين أننا نأنف من هذا العمل، ونحاذر أن تتّسخ ثيابنا أو أن يصيبها الغبار. كان أمير المؤمنين﵇ يخرج من المسجد ثم يمرّ بميثم﵀ ويشتري منه شيئاً من التمر، ثم يحمله بيده الشريفة، فيتلقّاه شرطة الخميس ويطلبون منه حمل هذا التمر، فيقول: **«ربّ العيال أحقّ بحمله»**(١).

فانظر إلى هذه العصامية الرائعة التي تمثّل لنا أروع درس عملي في أن نتولّى زمام أُمورنا بأنفسنا، وأن نباشر حاجاتنا دون الاتّكال على غيرنا. أما المتبطّرون كما يروى(٢)، فينادي أحدهم ـ وهو المأمون ـ غلامه ويأمره بأن يصبّ الماء على يده ليتوضّأ، فنهاه الإمام الرضا﵇ وقرأ قول الله تعالىٰ: **﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أحَداً﴾**(٣).

إذن فالأرض إنما يرثها من حمل العلم والفكر والمعرفة. وهذا هو الذي يحصل على أرض الواقع؛ فالأرض الآن مليئة بالخيرات ولم يستثمرها ويوصلها إلى ما هي عليه الآن غير العلماء.

---

(١) الغارات ١ : ٨٩، مناقب آل أبي طالب ١ : ٣٧٢، تاريخ مدينة دمشق ٤٢ : ٤٨٩، البداية والنهاية ٨ : ٦، كنز العمّال ١٣ : ١٨٠ / ٣٦٥٣٧.

(٢) الإرشاد: ٣١٥، وسائل الشيعة ١ : ٤٧٨ / ١٢٦٩.

(٣) الكهف: ١١٠.

الرأي الرابع: أنها دولة المهدي عليه السلام

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن المراد بالأرض التي يرثها العباد الصالحون هي الأرض التي تكون في زمان دولة الإمام المهدي عليه السلام؛ حيث إنه عليه السلام سيملؤها عدلاً وقسطاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً. فالأرض مرت على امتداد تاريخها الطويل بأزمان سيطرت فيها الانحرافات والظلم والفساد، فالذي ينبغي أن يكون إذن هو أن يسيطر عليها زمان العدل والقسط. وهذا هو لسان الحديث النبوي الشريف الذي يفسّر لنا هذه الآية، تروي كتب الصحاح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج من أهلي من يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»**(١).

وهذا ما عليه المذاهب الإسلامية كافّة. روى الثعلبي في تفسيره أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: **«نحن ولد عبد المطلب سادة الجنة؛ أنا وحمزة وجعفر وعلي والحسن والحسين والمهدي»**(٢). فبأي معنىً وبأي صفة يكونون سادة الجنة؟ طبعاً بما يستحقّون به ذلك كنتيجة طبيعيّة لما قدّموه من عطاء للإنسانية. فإمامنا الذي ننتظره يستحقّ أن يكون من سادات الجنة، يقول

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٧، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ / ٤٢٨٢، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣ / ٢٣٣٨، المعجم الأوسط ٢: ٥٥.

وقد روي في كثير من الكتب من غير لفظ: «لطوّل الله ذلك اليوم»، انظر: سنن ابن ماجة ٢: ٩٢٩ / ٢٧٧٩، سنن أبي داود ٢: ٣٠٩ ـ ٣١٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٣: ٣٤٣، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٧٩، صحيح ابن حبّان ١٣: ٢٨٢ ـ ٢٨٣، المعجم الكبير ١٠: ١٣٣، المعجم الأوسط ٢: ٩٩، وغيرها.

(٢) عنه في بحار الأنوار ١٥: ١٠٣، وانظر: سنن ابن ماجة ٢: ١٣٨٦ / ٧٠٨٧، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢١١، ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

الحديث الذي يرويه أبو داود وينتهي إسناده إلى أبي هريرة: **«كيف بكم إذا نزل عيسى بن مريم وإمامكم منكم يصلّي به»**[(١)].

يقول عيسى بن صبيح: دخل العسكري عليه السلام الحبس علينا وكنت به عارفاً، فقال لي: **«لك خمس وستّون سنة وشهر ويومان؟»**. وكان معي كتاب دعاء عليه تاريخ مولدي، فنظرت فيه فكان كما قال، ثم قال: **«هل رزقت من ولد؟»**. قلت: لا. قال: **«اللهم ارزقه ولداً يكون له عضداً؛ فنعم العضد الولد»**. ثم تمثّل:

«من كان ذا ولدٍ يدركْ ظلامتَه ... إن الذليلَ الذي ليس له ولدُ»

فقلت له: ألك ولد؟ قال: **«إي واللّه، سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، فأما الآن فلا»**. ثم تمثل وقال:

«لعلك يوماً أن تراني كأنما ... بَنيّ حواليّ الأسودُ اللوابدُ

فإن تميماً قبل أن تلدَ الحصى ... أقام زماناً وهو في الناسِ واحدُ»[(٢)]

وفعلاً رزقه الله إمام العصر الموعود المنتظر عليه السلام الذي تتوق إليه أبصار المؤمنين.

التشكيك بقضية المهدي عليه السلام

إن من يظنّ أننا نعيش في حالة من الوهم أو الخيال لاعتقادنا بمسألة المهدي المنتظر عليه السلام، أو أننا نعيش حالة تعويض[(٣)] كما هو دأب الكثير من

---

(١) لم نعثر عليه عند أبي داود، وقريب منه ما في سننه ٢: ٣١٩/ ٤٣٢٤، وهو مروي في الإصابة ٤: ٦٣٧. وقد نقل في فتح الباري ٦: ٣٥٨، عن الشافعي، وفي عون المعبود ١١: ٣٠٧أن الأخبار متواترة في نزول النبي عيسى بن مريم عليه السلام وصلاته خلف الإمام المهدي عليه السلام، بل في (عون المعبود) أنه عليه السلام ينزل بجسده العنصري.

(٢) الخرائج والجرائح: ٣١٩، كشف الغمّة ٣: ٣٠٧.

(٣) أو ما يسمى بإيجاد المعادل الموضوعي.

الكتّاب فإنما يخادع نفسه؛ لأن قضية المهديعليه السلام ثابتة بالسنة المتواترة عند الفرق الإسلامية كافّة. إن هؤلاء الكتّاب يطرحون هذه الفكرة، وهي أن الشيعة قد مرّوا بتاريخ تعرّضوا فيه إلى إبادة وسجن، مما أدّى بهم إلى أن يكونوا تحت سيطرة حلم من أحلام اليقظة، أي أنهم راحوا يعوّضون الواقع المرّ بالأحلام فيتصوّرون أن هؤلاء الظلمة ستدول دولتهم؛ لخروج من ينتقم منهم ويأخذ بحقّهم لهم. وهذا ما يسمى بعمليّة التعويض.

والواقع أن الأمر خلاف ذلك؛ إذ أن جميع المذاهب الإسلاميّة يقولون بأن من لم يؤمن بالمهدي فهو كافر. بمعنى أنه ينكر ضرورة من ضرورات الدين، وكلّ الكتاب الذين هم على علم بمعرفة علوم الشريعة حينما يتناولون موضوع الإمام المهديعليه السلام فإنهم يتعاملون معه على أنه حقيقة ثابتة لا سبيل إلى نكرانها، وكل ما في الأمر أنهم يقولون بأنه غير موجود الآن، وأنه سيولد بعد ذلك في آخر الزمان.

أما بناء على نظريتنا ـ من أن الأرض لا تخلو من حجة[١]، وأنه ليس من الضروري أن نلتقيه أو نراه ـ فإنهعليه السلام مولود حي غائب. والاعتراض بكونه غائباً وبالتالي يكون وجوده كعدمه من جهة عدم إمكان الالتقاء به لا ينهض حجة ومبرراً لنقض فكرة الإمام المهديعليه السلام؛ فنحن في هذا الزمان نعيش في بلد ونرجع إلى علماء يعيشون في بلد آخر، وتفصلنا عنهم مسافات بعيدة،

---

(١) الأُصول الستة عشر (عدة محدثين): ١٦، ٩٠، المحاسن ١: ٣٨، ٩٢/ ٤٥، ٢٣٤/ ١٩٣، ٢٣٦/ ٢٠١، بصائر الدرجات: ٤٨٨/ ١، ٤٨٩/ ٤، ٥٠٥ـ ٥٠٦/ ٤، ٩ـ ١٠، ١٥، ٥٠٧/ ١٧، ٥٠٩/ ٨، الإمامة والتبصرة: ٢٥/ باب أن الأرض لا تخلو من حجّة، الكافي ١: ١٧٨ ـ ١٨٠/ باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

ومع ذلك فإننا ننتفع بعلمهم وآرائهم ونظرياتهم. فغيبة الإمام﵇ هي غيبة عن الأبصار وليست غيبة عن الوجود. وهنا الفرق واضح؛ إذ أنه ربّما حضر مجالس العلماء وطرح رأيه وفكره في مسألة ما مع أفكار وآراء العلماء، وبالتالي فإننا نستفيد منه ومن وجوده.

وهذا ما تنصّ عليه الآيات الكريمة التي تأخذ بأعناقنا وتخبرنا بأنه موجود يعيش بين ظهرانينا ويشكل مصدر أمان لأهل الأرض: **﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾**[1].

وإذا كانت هذه هي العلّة بالنسبة للنبيﷺ، فالإمام﵇ هو امتداد للنبي ومتمّم لخطّه، وقد جعله الله أماناً لأهل الأرض، يقول الحديث الشريف: **«النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ أهل السماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون»**[2].

فهذه النصوص ونظائرها تأخذ بأعناقنا للاعتراف بوجود الإمام﵇، وأنه حقيقة قائمة وواقعة، وهو يعيش بيننا؛ وبالتالي فإننا لا نجترّ الأحلام ولا الخيالات، ولا نقوم بعمليّة تعويض، بل الأمر على العكس من ذلك؛ فهذه الكتب ملأى بالنصوص التي تؤكّد هذه الحقيقة. ولا يكاد أحدنا يجد كتاباً لا يتناول فكرة الإمام المهدي﵇ ويشرحها ويثبتها.

وهذا ما عليه المسلمون كافّة، ومن لا يعرف هذه الحقيقة أو ينكرها فهو

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نوادر الأُصول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٦،٦٣ / الأُصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤ وغيرها

لا يعرف كيف ينظر إلى التاريخ، بل ليس هذا عمله.

دليليّة التواتر على وجود الإمام المهدي عليه السلام

إننا الآن ندين بالإسلام ونؤمن برسالة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق التواتر، ومعنى التواتر هو وجود جماعة في كل زمان يؤمن جانبهم من التواطؤ على الكذب، فيخبرون بشيء، ويكون إخبارهم هذا المتواتر حجّة ودليلاً على صدق القضيّة[1]. ومثال ذلك أنك تعيش هنا فيأتيك شخص يحدّثك عن مدينة اسمها «ديترويت»، ثم يأتيك ثانٍ فيحدّثك عنها بمثل ما حدّثك عنها الأوّل، ثم يأتي ثالث فيحدّثك عنها أيضاً بمثل ما حدّثك به سابقاه، فإنك حينئذٍ تصدّق بوجودها وإن كنت لم ترَها؛ لوجود التواتر هنا. فالتواتر إذن هو ما يكون من طبقة عن طبقة يتعذّر تواطؤهم على الكذب.

إذن فنحن إنما أخذنا علوم الإسلام بالتواتر، وكذلك أخذنا رواية الإمام المهدي عليه السلام بالتواتر أيضاً. وبالنتيجة فالإمام المهدي عليه السلام هو الذي يرث الأرض ليملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وليرفع فيها كلمة الله عز وجل، ولينشر بيننا القرآن الكريم غضاً طريّاً أي من غير تلاعب بمفاهيمه ولا عبث وتحريف بتفسيره؛ لأنه عليه السلام هو المنبع الذي يشرح علوم القرآن.

ونحن نقول له: سيدي يا صاحب العصر، إن أعناقنا إليك ممتدّة، وأبصارنا إليك شاخصة، يقول أحد الأدباء:

شخصنا إليك بأبصارِنا　　　شخوص الغريقِ لمرّ السفنْ

فالواقع نحن غرقى في بحر مظلم، ونتنظر فيه من يخلصنا فنتوجّه إليه،

---

(١) انظر اصطلاحات الأُصول: ١٤٢.

لكن متى يأذن الله تعالى له؟ هذا ما لم تحدّده الروايات، نعم إنها تعطينا علائم على ظهوره لكن نحن توّاقون إلى رؤياه، ومنتظرون طلعته الرشيدة وغرّته الحميدة. وهذا الانتظار لا يعني تعطيل حكم من أحكام اللّه، وأرجو ألّا يختلط الأمر عليكم، فنحن الآن نقول بأن الجهاد واجب سواء وجد الإمام بيننا أو لم يوجد، رأيناه أو لم نره، وأعمالنا في الدنيا كلّها نحن مكلّفون بها. ففكرة الإمام﵇ وغيبته لا تعيقاننا عن أداء واجبنا وعباداتنا، ولا تحولاننا إلى مجتمع مشلول أبداً.

وغاية ما في الأمر أننا نرنو الإمام﵇ ونتوق إليه؛ لأننا نريد منه أن يقيم العدل وأن يضع الأشياء في مواضعها، غير أن أمر خروجه لا يكون حتى يأذن الله. يقول أحدهم: رأيت في عالم الرؤيا شخصين، فسألت عنهما فقيل لي: هذا الإمام المهدي﵇ وهذا الذي إلى جانبه هو السيد حيدر الحلي. يقول: فسمعت الإمام﵇ يخاطب السيّد الحلي بقوله: يا سيد حيدر، كفاك عتباً؛ فلقد قصمت ظهري إذ تلحّ علي بالعتاب:

ماذا يهيجك إن صبر ... ت لوقعةِ الطفّ الفظيعهْ
أترى تجيء فجيعةٌ ... بأمضَّ من تلك الفجيعهْ
حيث الحسينُ على الثرى ... خيل العدى طحنت ضلوعَهْ
قتلته آلُ أميةٍ ... ظامٍ إلى جنبِ الشريعهْ
ورضيعُه بدمِ الوريـ ... ـدِ مخضّبٌ فاطلب رضيعهْ
يا غيرةَ الله اهتفي ... بحميّةِ الدينِ المنيعهْ
وظُبا انتقامِك جردي ... لطلا ذوي البغي التليعهْ

ودعـي جـنودَ اللـهِ تـمـ ـلأ هذه الأرض الوسيعة[1]

فالإمامعليه السلام يقول له: أنت تلح عليّ بهذا الأمر، وإلحاحك يؤلمني، غير أني لا أملك من أمري شيئاً، فأنا أنتظر فيه أمر الله تعالى. ولذا فإن السيدرحمه الله يخاطبه كلّ يوم بقوله:

فـيما اعـتذارُك للنهوضِ وفيكمُ للـضيمِ وَسـمُ فـوق كلِّ جبينِ
أيـمينُكم فـقدَت قـوائمَ بـيضِها أم خيلُكم أضحت بـغيرِ مُـتونِ[2]

يقول المؤرّخون: إذا خرج الإمام المهديعليه السلام يأتي أولاً إلى ضريح أبـي عبد اللهعليه السلام، فيقف عليه قليلاً ثم يجلس ويمدّ يديه، فيستخرج عـبد اللـه الرضيع، ثم يعرضه على أصحابه، فيقول لهم: **«ما ذنب هذا الطفل الرضـيع، يقتل وهو على يدي أبيه؟»**.

أقول له: سيدي أنت رأيت الأمر بعد الواقعة، وبعد هـذه المـدّة الطـويلة وتأثّرت كلّ هذا التأثر، فكيف سيكون الأمر لو أنك رأيته لحظتها، وجـدّك الحسين يحمل رضيعه على يديه وهو يضطرب على عضديه ودماؤه تسيل؟ نعم رجع به الحسينعليه السلام إلى المخيّم ثم صاح: **«رباب، خذي ولدك مذبوحاً»**. فتناولت رضيعها ورجعت به إلى الخيمة:

ولو تـراه حـاملاً طـفله رأيت بـدراً يـحمل الفـرقدا
مُـخضّباً مـن فـيض أوداجـه ألبسه سهم الردى مـجسدا[3]

---

(١) رياض المدح والرثاء: ٣٢. (٢) ديوان السيد حيدر الحلّي: ١١١.

(٣) المجسد: الثوب الملاصق للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ ـ جسد.

﴿ ١٢٦ ﴾

الجوانب التصحيحيّة في نهضة الحسين عليه السلام

أنست رزيّـــتُكم رزايـــانا الّـــتي
ســـلفت وهـوّنت الرزايــا الآتــيهْ
وفـــجائعُ الأيّـــامِ تــبقى مــدّة
وتزول وهي إلى القيامةِ باقيهْ[1]

المباحث العامّة للموضوع

المبحث الأوّل: استنباط العبر من السنن التاريخيّة

في تاريخ كل أُمة أحداث بطبيعة الحال تعدّ أحد الأنماط التي تحدّد مسيرتها. وحينما نتناول التاريخ الإنساني فإننا نجد أن هناك أحداثاً في تاريخ كل أُمة من الأمم، وهذه الأحداث منها ما يدخل في مظاهر الخير ومنها ما يدخل في مظاهر الشرّ. والأُمة الواعية هي التي توظّف الحدث توظيفاً كاملاً للاستفادة منه في استنباط العبر ودراسة السنن. إن البعض من الأُمم إذا مرّت بها مصيبة فإنها تتحوّل إلى أُمّة نائحة، وتبقى تجترّ المصيبة وتعتصر الدمع، في حين أن هناك أُمّة لا تأخذ الجانب المأساوي من المصيبة، بل إنها توظّف الحدث وتستثمره على الصعيد الاجتماعي فتأخذ منه

---

(١) الدرّ النضيد: ٣٥٧.

الدروس والعظات. ولو درسنا التاريخ الفرنسي أو الإنگليزي أو الأميركي لوجدنا أنه تاريخ مليء بالحروب والأحداث التي يمكن للدارس أن يخرج منها بحصيلة ضخمة من الدروس والعبر التي يمكن أن يوظّفها للاستفادة منها على مستوى الأُمة ككل.

وهذا الأمر ينطبق أيضاً على واقعة الطفّ، حيث إنها - شأنها شأن كلّ واقعة تحصل في تاريخ الإنسانية - تعتبر إحدى الوقائع التي هزّت الإنسانيّة والمجتمع الإسلامي هزّاً عنيفاً، وهي بهذا تختلف عن بقية الوقائع؛ لما ارتُكب فيها من بشاعات وفظاعات. وقد تركت هذه الواقعة بصمات واضحة على المجتمع الإسلامي لازالت آثارها موجودة إلى الآن، حيث يمكن مشاهدتها بوضوح.

والدليل على هذا أن الأدب قد توجّه بكل عناصره ومشاعر أصحابه إليها، والأدب عادة لا يتوجّه إلى فكرة عابرة، ولا يستمدّ منها صوَره أو عناصره، بل إنه يتوجّه إلى الفكرة المعمّقة:

وفجائعُ الأيّامِ تبقى مدّة ... وتزول وهي إلى القيامةِ باقيةْ

فهذه ليست كلمة عابرة، وإنما هي كلمة تنطوي على معاناة كبيرة يحاول الأدب أن يبرزها على ساحته.

الانطباعات التي تركتها واقعة الطفّ

والواقع أن هذه الحادثة الأليمة التي مرّ بها تاريخ المسلمين قد تركت آثارها وانطباعاتها على جوانب متنوّعة منه؛ ممّا انعكس على حياته وطريقة تفكيره. وسنحاول أن نستفيد منها من خلال محاضرتنا هذه. ونذكر من هذه الجوانب الانطباعات التالية:

الانطباع الأوّل: أنها أوجدت تيّاراً ثوريّاً في الأمة

إن هذه الواقعة المباركة قد أوجدت تياراً ثورياً في الأُمة الإسلامية يدور حول مسألة الثأر للدين ولكرامته. وكلّ أُمّة من الأمم حينما تتعرّض لهزة أو أزمة فإنها تقف بين أحد طريقين: الصبر والسكوت؛ حفظاً لمصلحة المجتمع، أو الجهاد في سبيل الله وسبيل الدين. وهذه الواقعة تبرعمت وأخذت صوراً عنيفة جداً، ويعود ذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

الشعور بالإثم ودوافعه

فالأُمة التي شهدت مقتل الحسين عليه السلام وأصحابه وسبي عياله وهتك حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووقفت مكتوفة الأيدي دون أن تتدخّل للوقوف بوجه البغي، ولنصرته مع ما تعرّض له عليه السلام من ظلم وقتل؛ سواء كان بدافع الجبن أو بدافع التخاذل أو تحت ضغط عوامل قاهرة أقوى منها، فإنها ستشعر بعد ذلك بشيء من الندم والألم وتأنيب الضمير. فالضمير عندما يصحو ويثور على صاحبه فإنه يأخذ بتعنيفه وإلقاء اللوم عليه لأنه لم يجاهد في سبيل اللّه، ولم يؤدِّ ما يفترضه عليه دينه ورسالته، ولم يقف الموقف الذي يريده الإسلام منه ويرضاه له. فهذا التوبيخ الذي يقع تحته الإنسان يدفعه إلى التحرّك؛ مهما كانت دوافعه التي قد تكون ناشئة عن مظاهر فكرية، أو مظاهر ممارسة وتطبيق من قبيل حركة التوّابين مثلاً.

الدوافع الفكرية، موقف الحسن البصري نموذجاً

أما المظاهر الفكرية فمن قبيل ما نجده من خلاف فكري قد تبرعم بين مذاهب المسلمين، وقد حاول الأُمويون بشتّىٰ الوسائل تطويق هذا اللون من

الفكر الذي يبنىٰ عليه رفض الظلم والثورة عليه، وامتصاص جذوته عن طريق توظيف رجال منهم - رجال العلم التابعين للبلاط - لمحاربته. وذلك كالحسن البصري الذي كان يعد سيّد التابعين كما منحه التاريخ هذا اللقب، والحال أنه لم يكن سوىٰ رجل من المقاتلين في جيوش الأُمويين، ثم وُظّف كقاضٍ، ثم بعد ذلك ترك تلك الوظائف وأصبح في عداد العامّة.

وكان هذا الرجل من جملة من وُظّفوا لمعالجة هذا الأمر، فقد وقف ينادي من على منبره بعدم مقارعة الظلم، ويدعو الناس إلى الامتناع عن التحرّك وإلى طاعة السلاطين، ثم راح يبرّر هذا الموقف ويبرهن عليه بأن مسألة مقارعة الظلم تخلق مشكلة في المجتمع وتفرز نتائج يكون مردودها أشدّ وأكبر من الظلم نفسه، وعليه فيجب أن تترك مقارعة الظلم مطلقاً. وقد راح يلحّ على هذه الفكرة إلحاحاً شديداً إلى درجة أن أحد الكتّاب كان يقول عنه: إن هذا الرجل قد جنى جناية كبيرة على تاريخ الإسلام بإبطاله معنى الجهاد في نفوس المسلمين، وقضائه على روح التوثّب والتمرّد الذي كان عند أبناء الأُمة الإسلامية، والحال أن الإسلام لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بالجهاد والروح المتوثّب وتجسيد كلمة الله.

لقد كان النبي ﷺ يستعرض المسلمين قبل أن يذهبوا إلى الجهاد لكي يرى المقاتلين هل أنهم صالحون للجهاد أم لا، فيأتي صبي ويقف على مرتفع ويتطاول لكي يراه النبي ﷺ كبيراً فلا يمنعه من الجهاد[1].

---

(١) ومثلها قصّة حنظلة غسيل الملائكة الذي نزل فيه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ

إن هذه الحالة لم تأتِ من فراغ، وإنما جاءت بتوجيه مقصود؛ لأن المفروض في مثل هذه الحالة أن هذا الصبي لازال في مقتبل الحياة، وهو مقبل على دنيا واسعة جميلة في عينه، فالنتيجة يجب أن تكون بناء على هذا التصوّر أن يتخلف هذا الصبي عن الجهاد وإن دُفع إليه، لا أن يتطاول كي يبدو كبيراً وبالتالي يسمح له رسول الله صلى الله عليه وآله بالذهاب إلى الجهاد. فهذا هو التصوّر الأوّلي للمسألة، لكن هذا الصبي لما كان مقتنعاً بمسألة الجهاد وأنها كانت تمثل شيئاً مبدئياً له، فقد انعكس هذا الفهم والاعتقاد على سلوكه فصار بهذا الوضع من العزم والحزم، وبهذا اللون من الإيثار بالنفس الذي خلقه الإسلام للجهاد في سبيل الله والوقوف في وجه الظلم ولإعلاء كلمة الله. أما أن يأتي شخص فيحاول أن ينتزع هذا الروح من جسم الأُمة الإسلامية فهذا يعدّ كارثة كبيرة، وسهماً يضرب في مقتل.

☚ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النور: ٦٢ إلىٰ آخره.

وسبب نزولها فيه أنّه كان قد عقد له على ابنة خاله جميلة بنت عبد اللّه بن أُبيّ، وأراد أن يبني بها فلمّا كانت الليلة الّتي وقع في صبيحتها القتال في أُحد، استأذن من رسول اللّه صلى الله عليه وآله أن يدخل المدينة؛ ليبني بزوجته، فأنزل اللّه علىٰ نبيّه صلى الله عليه وآله هذه الآية الكريمة، وعلىٰ إثر نزولها أذِن له رسول اللّه صلى الله عليه وآله واستغفر له.

فدخل المدينة، وبنى بابنة خاله، فلما حضر وقت صلاة الفجر صلّاها فتعرّضت له زوجته، فنال منها، ثمّ قام؛ ليغتسل، فسمع المنادي ينادي بالخروج إلى أُحد، فعجّل عن الغسل وخرج، فتبعته وأشهدت عليه أربعة من مارّة الطريق بأنه قد بنىٰ بها البارحة.

ولما سئلت: لم فعلتِ ذلك؟ قالت: إني رأيت في نومي كأن السماء قد انفرجت، وكأنه قد رفع إليها فانضمّت عليه، فعلمت أنها الشهادة، وقد كرهتُ أن أُتّهمْ فعملت ذلك. ثم حملت من تلك الليلة بعبد اللّه بن حنظلة الّذي بايعه أهل المدينة، وخلعوا يزيد بن معاوية، فكانت بسبب ذلك واقعة الحرّة الّتي قتل فيها هو وأولاده الثمانية، وأُبيحت بسببها المدينة ثلاثة أيام. انظر: تفسير القمّي ١: ١١٨، بحار الأنوار ٢٠: ٥٧.

والأدهى من ذلك أن هذا الأمر قد أُلبس ثوباً دينياً، فاختلقت له الأحاديث واختُرقت له الروايات التي اخترعوها ثم نسبوها إلى صاحب الشريعة ﷺ. وقضيّة اختلاق الأحاديث هي من أشدّ الكوارث التي منيت بها الأُمة الإسلامية، وكمثال على هذا أنقل لك ما رواه الدميري في كتابه (حياة الحيوان) حيث يقول: حينما توفي عمر بن عبد العزيز ـ هذا الرجل المستقيم في سلوكه، والذي كان موضع رضا من كثير من المسلمين، وكان نموذجاً مشرّفاً ـ جاء من بعده يزيد بن عبد الملك، فسار بسيرة عمر بن عبد العزيز أربعين يوماً ومشى على خطّه الذي اختطه وسار بعين اتّجاهه، فكان يكره الظلم والباطل ويعيد للناس حقوقهم، وكان يتّصف بروح مملوءة بالرأفة بالمجتمع. فلما رآه بعض الأمويّين على هذه الحال، اتّفقوا على أن يأتوه بأربعين شيخاً من شيوخ دمشق يشهدون عنده ويحلفون بالله له أن الخليفة إذا عمل عملاً حسناً أُثيب عليه وإذا عمل عملاً سيّئاً لا يعاقب عليه، واخترعوا له حديثاً عن النبي ﷺ في هذا المعنى، فترك ما كان عليه من صلاح، وجانب سيرة عمر بن عبد العزيز، وانغمس في العبث واللهو واللذائذ والفجور والمجون[1].

إن هذا اللون من الأحاديث أخذ طابعاً متكاملاً يعضد بعضه بعضاً، وربما تستغرب أن بعض هذه الأحاديث لازال يعيش معنا إلى الآن، ومنها القول المنسوب لرسول الله ﷺ: **«صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر»**.

وهذا الحديث مروي في كتب معتبرة عندهم، ومنها (السنن الكبرى)[2]

---

(١) حياة الحيوان ١: ١٠١.

(٢) السنن الكبرى ٤: ١٩، عن مكحول عن أبي هريرة، وتمامه: «وصلّوا على كلّ برّ وفاجر،

للبيهقي، وهو يرويه بطرق كلها واهية ليس فيها سند صحيح[1]؛ فالذي عنده دراية في كتب الرواية يجد أن الأسناد التي ذكرها البيهقي كلها أسناد واهية وليست قوية. وفضلاً عن هذا فإن هذا الحديث يتعارض ويصطدم مع حديث نبوي آخر، وهو الحديث الذي يقول: **«اجعلوا أيمّتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل»**[2].

وهذا طبيعي؛ لأن الإنسان حينما يريد أن يأتمّ بشخص، فلابدّ أن يبحث عن هذا الإمام ويحقّق في صفاته، كي يميز الفاسق ليبتعد عنه من العادل فيتّبعه، وإلّا فكيف يصحّ له أن يأتمّ بالفاسق؟

إن هذا الحديث قد اخترع؛ لأنه يتمّم ما سبقه من أحاديث موضوعة كلّها

☚ وجاهدوا مع كلّ برّ وفاجر». قال: قال علي: مكحول لم يسمع من أبي هريرة... وقال الشيخ: قد روي في الصلاة على كلّ برّ وفاجر، والصلاة على من قال: «لا إله إلّا الله» أحاديث كلّها ضعيفة غاية الضعف، وأصحّ ما روي في هذا الباب حديث مكحول عن أبي هريرة، أي حديث المتن. ولا ندري كيف يكون أصحّ ما روي في هذا الباب، وراويه لم يروِ عن أبي هريرة. ولم يسمع منه!

(١) انظر: سنن الدار قطني ٢: ٤٤، قال الدارقطني: مكحول لم يسمع من أبي هريرة.
نصب الراية ٢: ٣٣، ونقل عبارة البيهقي، ثم قال: ومن طريق الدار قطني رواه ابن الجوزي في (العلل المتناهية)، وأعلّه بمعاوية بن صالح مع ما فيه من الانقطاع... والحديث رواه أبو داود في سننه في كتاب الجهاد [١: ١٤٣ / ٥٩٤]، وضعّفه بأن مكحولاً لم يسمع من أبي هريرة.
ومن طريق أبي داود رواه البيهقي في (المعرفة)، وقال: إسناده صحيح إلا إن فيه انقطاعاً بين مكحول وأبي هريرة... ومن طريق الدار قطني رواه ابن الجوزي في (العلل) وأعلّه بعبد الله، قال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال ابن حبّان: لا يحلّ كتب حديثه.
وقال ابن الجوزي: وسئل أحمد عن حديث «صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر»، فقال: ما سمعنا به. نصب الراية ٢: ٣٤.

(٢) سنن الدار قطني ٢: ٧٤، الجامع الصغير ١: ٣٤ / ١٨٦، كنز العمّال ٧: ٥٩٦ / ٢٠٤٣٢.

تصبّ في مصبّ واحد هو التستّر على أعمال هؤلاء الحكّام الفجرة الذين أُتيح لهم أن يقودوا المجتمع.

فكيف يستقيم أمر التستّر على أعمال هؤلاء مع أنه يصطدم مع ما يقوله رسول الله ﷺ : **«اجعلوا أيمّتكم خياركم؛ فإنهم وفدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل»**؟ وهل يصحّ التستّر على مثل الوليد الذي يغطس في بركة من الخمر، ثم يخرج ثمِلاً يترنّح، ويتوجّه إلى الصلاة، ويصلّي بالمسلمين جماعة ثم يرفع يديه وينشد شعراً في قنوته فيقول:

علق القلبُ الربابا ... بعدما شابت وشابا

ومن ثم يتقيّأ في محرابه؟[1]

والغريب أن صلاة هذا من وجهة نظر طائفة كبيرة من المسلمين صحيحة ومقبولة، بل حتى صلاة المصلّين خلفه؛ لأنهم يدّعون أنه ﷺ قال: **«صلّوا خلف كلّ برّ وفاجر»**.

وهذا يعدّ نكسة في تاريخ الإسلام، فالإسلام ليس مجموعة من المواعظ البلهاء، وإنما هو هديّة السماء لأهل الأرض؛ لأجل بناء الإنسان بناء طاهراً، وبناء المجتمع بناء متكاملاً. ولا يمكن للإسلام أن يتاجر في عقيدة الإنسان

---

(١) وكان قد صلّى بهم أربعاً ثم التفت إلى الناس، وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم. وقال الحطيئة في ذلك:

شهد الحُطيئة يوم يلقىٰ ربّه ... أن الوليد أحقُّ بالغدرِ
نادىٰ وقد تمّت صلاتهم ... أأزيدكم ثملاً وما يدري
ليزيدهم أُخرىٰ ولو قبلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو ... خلّوا عنانك لم تزل تجري

مسند أحمد ١: ٨٢، ١٤٠، مروج الذهب ٢: ٣٤٤ـ٣٤٦، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٣٠.

ويحوّلها إلى تصوّر أبله، فيصحّح عمل هذا المستهتر الماجن. إن مثل هؤلاء الذين يخترعون الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم موجودون في كلّ طبقة، ولا يكاد يخلو منهم عصر من العصور أبداً، ففي كل عصر نجد هناك طبقة ليس لها وازع من دينها، أو مانع يمنعها من أن تفتري الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، أو تتاجر بدينها وعواطفها، أو قد تتملّق صاحب الحكم والسلطان.

روي أن أبا جعفر المنصور الدوانيقي كان له بقايا حساب مع الأُمويّين، فكان يلاحقهم في كلّ مكان، ومن جملة هؤلاء الملاحقين شيخ من أهل الشام كان بطانة لهشام ونديماً له، فوجّه إليه وأحضره عنده، ثم سأله عن تدبّر هشام في بعض حروبه للخوارج، وقال له: إني أُريد أن أستفيد من تجارب هشام هذا. فوصف له الشيخ ما دبّر هشام في حربهم، فكان يقول: فعل هشام (رحمه الله) كذا، وصنع (رحمه الله) كذا، وقام (رحمه الله)، وجلس (رحمه الله). فقال له المنصور: يابن اللخناء، قم عليك لعنة الله؛ تطأ بساطي وتترحّم على عدوي؟ فقال الرجل: إن نعمة عدوّك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلّا غاسلي.

ثم ناداه المنصور وقال له: ارجع يا شيخ. فرجع فقال له: أشهد أنك نهيض حرّ وغراس شريف، عد إلى حديثك لله أنت، فلو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجداً مخلّداً وذكراً باقياً[1].

فالمنصور بهذا كأنه يقول له: إن بإمكانك أن تنافقني ولا تصدق معي في الحديث، لكنك آثرت أن تكون صريحاً وفيّاً، وهكذا فلتكن الرجال.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٨: ٢٠٩، المستطرف في كل فن مستظرف ١: ٤٣٩.

فهؤلاء الذين يخترعون أحاديث مكذوبة لولاة السوء هم في واقع الحال إنما يغشونهم: «نصحك من أسخطك بالحقّ، وغشّك من أرضاك بالباطل»(١).

وبعد هذا الاستطراد أقول: إن من جملة الأشياء التي تركتها واقعة الطفّ في الأُمّة الإسلاميّة هو هذا النوع من الصراع الذي جاء الحسن البصري فتبنّاه كمدرسة وعمّقه؛ ولذلك فإن التاريخ واظب على منحه ألقاباً كثيرة؛ لأنه كان موضع رضاهم، وذلك من قبيل أنه من سادات التابعين وأنه واعظ.

وهذا الرجل إذا أُخضع للتمحيص والتحقيق فإنه لا يبين منه حينها سوى إنسان مزيّف.

وأنا لا أستغرب هذا، وإنما أستغرب من إنسان عملاق كابن عربي هذا الرجل الجليل القدر وهو فيلسوف كبير إضافة إلى ذلك وصاحب فكر، ومع ذلك نجد عنده نظرية تعدّ أخطر من كلّ تلك النظريات ؛ فهو يرى أن الاعتراض على الظالم هو اعتراض على اللّه ، فهو يقول: إن ولاية السلطان هي تجسيد لولاية الله.

وهذه النظرية ـ أن السلطان ظلّ الله في الأرض ـ قد تبنّاها العثمانيون في سياستهم. وهذا هو التاريخ المزيف (لعن الله تاريخهم)..التاريخ الذي ترك انطباعات سيئة السمعة على جسد الأُمة الإسلامية والأُمة العربية بالذات، هذا التاريخ الذي اخترعوا له ألقاباً من قبيل الخاقان ابن الخاقان، والسلطان

---

(١) قطعة من خطبة لشدّاد بن أوس بن ثابت الأنصاري حينما طلب منه معاوية أن يذكر الإمام عليّاً عليه السلام ويعيبه. ومنها: وإن الله إذا أراد بالعباد خيراً عمل عليهم صلحاءهم، وقضي بينهم فقهاءهم، وجعل المال في أسخيائهم، وإذا أراد بهم شرّاً عمل عليهم سفهاءهم، وقضى بينهم جهلاءهم، وجعل المال عند بخلائهم. وإن من صلاح الولاة أن يصلح قرناؤها. أمالي المفيد: ٩٦ / ٥، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٣٩.

ابن السلطان، والأكثم الأعلم والجناب الأعظم، والأعظم الأجل، وظل الله في أرضه. إن هذه الألقاب الطويلة العريضة هي في واقع الأمر تصوّر الحاكم على أنه صاحب إرادة متحدّرة من إرادة الله وذات امتياز منها.

والحال أن نظرية الإسلام أصرح من هذا بكثير، فهي تنصّ على أن الخليفة إنما هو ممثّل للجمهور؛ إذا أحسن وجبت طاعته، وإذا أساء وُقف بوجهه. ارتقى الخليفة الأول المنبر ذات مرّة فقال: «إن استقمت فأعينوني، وإن زِغت فقوّموني»[1].

وكان الصحابة كلهم يسمعون الإمام علياً عليه السلام وهو يقول من على منبره حينما سئل عن بيع أمّهات الأولاد فقال عليه السلام: **«كان رأيي ورأي عمر ألّا يُبعن، ثم رأيت يبعهن»**. فقال له عبيدة السلماني: رأيك مع الجماعة أحبّ إليّ من رأيك وحدك[2]. فلم يجبه عليه السلام، ولم يعنّفه، بل إنه عليه السلام احترم رأيه؛ لأنه يعتبر نفسه الشخص الذي يمثّل المجموع. وعليه فإذا أحسن تمثيلهم فقد وجبت طاعته.

---

(١) المصنّف (الصنعاني) ١١: ٣٣٦ / ٢٠٧٠١، المعجم الأوسط ٨: ٢٦٧. وطرفه: أما والله ما أنا بخيّركم... وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني.

(٢) بدائع الصنائع ٤: ١٣٠، الإحكام في أُصول الأحكام ١: ٢٥٤، ٢٥٨، ٤: ٤٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢.

قال أبو بكر الكاشاني: على أنه ـ أمير المؤمنين عليه السلام ـ كان لا يرى استقرار الإجماع ما لم ينقرض العصر. ومنهم من قال: كانت المسألة مختلفة بين الصحابة (رضي الله عنهم) فكان علي وجابر (رضي الله عنهما) يريان بيع أُم الولد.

هذه هي الرواية في مصادر أهل السنّة، وهذه هي تعليقة أبي بكر الكاشاني، مع أن رواياتنا وفقهنا صريحان في النصّ على أن أُم الولد تعتق من نصيب ابنها. انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المهذب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣، ٥٢١.

واقعة الطف بصمات إيجابيّة في تاريخنا

فواقعة الطفّ في الواقع هي حدث ضخم في تاريخنا، وقد تركت بصمات نبيلة في مختلف الأبعاد، ومن جملة هذه البصمات أنها تركت لنا هاتين المدرستين. وعندما نقرأ كتب العقائد مثل كتاب (المواقف) للأيجي، أو كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي ـ وهما من ضمن مجموعة من الكتب ذات الطابع العقيدي ـ فإننا نرى أنهما يتناولان مسألة حساسة؛ فيمثّلان تيّارين متميّزين يمشيان جنباً إلى جنب، وكلّ هذا انعكاس لواقعة الطف.

أما أن يأتي أحد فيعلم الإمام الحسين﵇ تكليفه الشرعي ـ وكأنه﵇ غير عارف بتكليفه، ولم يعش في حجر النبي ﷺ، ولم يترعرع في مدرسته العظيمة، وكأنه أيضاً لم يكن الامتداد الطبيعي له ﷺ ـ فيأتي هذا ليعلمه الصواب من الخطأ في مسألة خروجه﵇، فهذا بالطبع لا يستحق إلّا أن يوصف بأنه تفكير أبله؛ ذلك أن النبي ﷺ يقول: **«الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»**(١). وهذا ما يجب أن نتعبّد به، لأنه من أمر رسول الله ﷺ. وهكذا فإنه ﷺ قد وصفهما وبين حقيقتهما للناس. وكان الناس على علم بيّن بهذا، ووصفه ﷺ لهما بهذا يكشف عن أنهما يعرفان تكليفهما الشرعي معرفة غاية في الدقّة.

الانطباع الثاني: أنها إحياء لدستور الله تعالى

وهذا الانطباع قد خلف مصيبة كبرى، فالرسول ﷺ حينما نزل عليه جبرئيل بالقرآن الكريم فهو إنما كان يحمل دستور أُمة، والدستور لا يمكن أن يعطى لأي كان، بل لا بدّ من أن تكون هنالك طبقة خاصّة تستطيع أن

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٧، علل الشرائع ١: ٢١١، الإرشاد ٢: ٣٠.

ترى أبعاده الحقيقيّة، وأن تفسّره بالشكل الصحيح. وهذا أمر طبيعي وقانوني، ففي الأُمم المتحضّرة عندما يُراد أن يُجرى تعديل على الدستور فإنه يُدفع إلى لجنة مختصة من فقهاء القانون ليقوموا بإجراء التعديل اللازم عليه؛ لأنهم أعلم بمراده ودواخله. والقرآن الكريم بما أنه دستور إلهي لأُمة يراد لها أن تحكم بما أنزل اللّه، فإن الله تعالى قد بعث معه من يجسّده ويطبّق تعاليمه، وهؤلاء هم الراسخون في العلم الذين يشرحون أحكامه ونظرياته: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[1].

فمن هم أهل الذكر؟ هم الذين قال فيهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بين جموع المسلمين: «**إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض**»[2].

وهذا الحديث مروي عند جمهور المسلمين جميعاً، وأنا لا أهتم لما يروجه البعض إزاء هذا الحديث فيرويه: «كتاب اللّه وسنتي»[3]، وإن كان في واقع الأمر جناية على التاريخ والأجيال. إن حامل التاريخ يجب أن يكون أميناً، وأن يقدم للأُمّة الأثر الصحيح، لا المفتعل والمختلق. فجمهور المسلمين ينصّون عليه: «**كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً**».

---

(١) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧.

(٢) ورد هذا الحديث بصيغ كثيرة وطرق أكثر، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٣) سنن الدار قطني ٤: ١٦٠، الجامع الصغير ١: ٥٠٥ / ٣٢٨١.

المبحث الثاني: الجناية على العترة﵇ جناية على القرآن الكريم

وفي تصوّري أن الجناية على العترة الطاهرة﵇ هي جناية على كتاب الله؛ لأن الجناية على الفقيه القانوني الذي يعرف النصّ القانوني وخفايا الدستور هي جناية على الدستور نفسه. هذا من جهة ومن جهة أُخرى إن حملة القرآن هؤلاء هم ليسوا كمن حملوه متأخّرين؛ فحملة القرآن الكريم هم الذين نزل الوحي في بيوتهم، وكان يقرع أسماعهم. ومعنى هذا أن جبرئيل﵇ حينما كان يهبط على النبيﷺ فإنه كان يهبط في محراب فيه رسول اللهﷺ والحسين﵇ وقد ارتحله. يروي المسلمون جميعاً أن النبيﷺ أطال السجود مرّة فقال له الصحابة: نراك أطلت السجود، فهل هبط عليك الوحي؟ قالﷺ: **«لا، وإنما ولدي ارتحلني، فكرهت أن أُعجّله»**[1].

فكانﷺ غالباً ينتهي من المحراب والحسنان﵉ إلى جانبه، فيهبط الوحي يقرع أسماعهم. كان الإمام الحسن﵇ يطوف حول الكعبة ذات مرّة فوقف له رجل شاميّ مخدوع، فشتمه، وقال له: كان الأولى بمعاوية أن يلحقك بأبيك ولا يدعك تطوف حول الكعبة كما يدور [...] في الطاحون. فقال له الإمام: **«علىٰ رسلك: أنا آخذ بيدك إلىٰ بيتنا لأُريك زغب جناح جبرئيل»**[2].

---

(١) مسند أحمد ٣: ٤٩٤، ٦: ٧٦٤، السنن الكبرى (النسائي) ١: ٢٤٣ / ٧٢٧ تاريخ مدينة دمشق ٣١: ٢١٥، ٤١: ١٦٠، أُسد الغابة ٢: ٣٨٩، تهذيب الكمال ٦: ٤٠٢، تهذيب التهذيب ٢: ٢٩٩.

(٢) لم نعثر عليه، لكن ورد أن للحسن والحسين﵉ تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام

وهذا هو الخلق الإسلامي؛ ولذلك حينما دخل أحد الأدباء بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم راح يخاطبه:

وعَفَّرتُ خدِّي في ثرىً مسَّ عَفرَهُ ... لجبريل من جنحيه ريشُ مُزَغَّبُ

وفيه محاريبُ لآل محمدٍ ... بهنَّ ضراعاتٌ إلى الله تُنصَبُ

وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعٌ ... إلى الحسنين الزاكيين وملعبُ

وصوتُ رحى الزُّهراء تطحنُ قوتَها ... إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلس زينبُ

رؤىً سوف يبقى الدَّهرُ يروي جلالَها ... وتبقى على رغم البساطة تأشبُ[(١)]

فالواقع أن هؤلاء من هذا المنبع وهذا المعدن النقي، ولذا كان قتلهم قتلاً للقرآن الكريم وذبحهم ذبحاً له وقضاءً على الفكر الإسلامي وعلى الروح الإسلامي الذي أرادته السماء لأهل الأرض. وهذه الوقائع السلبية التي تقترن بتاريخ الواقعة هي وقائع كثيرة، ودورنا نحن هو أن نفكر كيف نوظف هذا الحدث الضخم في تاريخ المسلمين لخدمة المسلمين، فيجب ألا نأخذ منه الجانب السلبي وإنما ينبغي أن يوظف توظيفاً كاملاً لخدمة الإسلام، وأن نؤكد لهذه الأمة أن أُمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم هي أُمة حية لن تموت مادام فيها روح كروح الحسين عليه السلام؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن الكريم قد ادّخرا هذه الروح لتبقى حياة دائمة مستمرة في جسم الأُمة.

وقد يسأل سائل فيقول: ما معنى قوله تعالىٰ: **﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾**[(٢)]؟ فيجاب بأن هذا الذي يقتل وينزف دمه وتفارق روحه بدنه هو في حقيقة الحال ليس ميتاً على أساس الروح وإن

☚ الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

(١) ديوان المحاضر ١: ١٥.

(٢) البقرة: ١٥٤.

كان ميتاً على أساس الجسد؛ لأنه يبقى يعيش في مشاعر المسلمين وفي أرواحهم وفي قلوبهم. فهذا روح حية ودم يتنزّى لن يموت بل إنه سيعيش خالداً على صعيد النفس.

فالقرآن إذن ادّخر هؤلاء ليكونوا مداد الحياة للأمة، يقول أحد الأدباء:

الترابُ الجديبُ ما اخضرّ لو لم ... يتصدَّ له السحاب الهطولُ
وصدى كلّ هادرٍ وبليغٍ ... ليس مثلَ الجراحِ حين تقولُ
قد يموت الرسولُ جسماً ولكن ... بالرسالاتِ لن يموتَ الرسولُ[1]

وإلّا ففي الواقع أنه حتى النبي ﷺ يموت، فالقرآن الكريم يخاطبه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[2]، لكنه موت الجسد وليس موت الروح والنفس، فهو ﷺ شعلة وهّاجة وروح متمرّد على الظلم والشرك.

إذن أهم شيء يمكن توظيفه من واقعة الطف هو أن يتخذ من الحسين قبساً ونوراً ومن روحه روحاً مهمتها إيقاظ العزم في نفوس المسلمين وتتحرى لهم الطريق الواضح.

المبحث الثالث: الجانب العاطفي في المأساة

نعم يبقى هناك في هذه الوقعة الجانب العاطفي الذي يفرض نفسه على الواقع.

وقد يقول قائل: ما هو الداعي إلى تكرار هذه المأساة كل سنة حيث تعتصر فيها الدموع؟

والجواب: إن هذه مغالطة؛ فلو قرأنا تاريخ الواقعة من سنيّها الأُولى كما في

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠. (٢) الزمر: ٣٠.

شعر الكميت فهل نجد فيها اعتصار دموع؟ كلا إنها كانت محاجّات فكرية وأدباً عالياً مترفاً من أروع ما يكون، فانظر قصيدته التي يقول فيها:

طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطرَبُ ولا لعباً منّي وذو الشيبِ يلعبُ(١)

وهي قصيدة أحسن فيها الشاعر توظيف الحدث حينما يمر بالمصارع، حيث لم يوظفه لخدمة الجانب المأساوي وإنما وظفه لصالح العظة والعبرة.

وانظر إلى شعر جعفر بن عفان أحد شعراء أهل البيت عليهم السلام، وكذلك شعر دعبل بن علي الخزاعي حيث يقول في تائيته:

تجاوبنَ بالإرنانِ والزفرات نوائحُ عُجمُ اللفظِ والنطقاتِ

أفاطم لو خلت الحسين مجدّلاً وقد مات ظمآناً بشطّ فراتِ

إذن للطمت الخدّ فاطم عنده وأجريت دمع العين بالوجناتِ(٢)

وهي تائية رائعة لا يقرأ فيها الإنسان الدمع وإنما يقرأ فيها الفكر والعظة. وقد وظّف الحدث أيضاً أحسن توظيف.

فالمسألة إذن أن واقعة الطف لم تكن مجرد دموع على امتداد تاريخها، فهي من أيامها الأُولى كانت عبارة عن تذكير ووعظ وحثٍّ على الجهاد ونصرة الدين. وأول من وقف بعد مصرع الحسين عليه السلام هو عبد الله بن الحر أو سليمان بن قتة، فقد وضع سيفه على القبر وأنشأ يقول:

مررت على أبياتِ آلِ محمدٍ فلم أرَها أمثالَها يومَ حلّتِ

ألم ترَ أن الشمسَ أضحت مريضةً لفقدِ حسينٍ والبلادَ اقشعرّتِ

وكانوا رجاء ثم صاروا رزيةً لقد عظمت تلك الرزايا وجلّتِ

---

(١) مروج الذهب ٣: ٢٥٤، خزانة الأدب ١: ١٤٥.

(٢) ديوان دعبل: ٣٨، بحار الأنوار ٤٩: ٢٤٨.

أتسألنا قيس فنعطي فقيرَها ... وتقتلُنا قيس إذا النعلُ زلّتِ
وعند غني قطرةٌ من دمائِنا ... سنطلبُها يوماً بها حيث حلتِ
فلا يبعد اللهُ الديارَ وأهلَها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلّتِ
وإن قتيلَ الطفِّ من آلِ هاشمٍ ... أذلّ رقابَ المسلمين فذلّتِ(١)

وواضح من أبياته أنه لم يأخذ فيها الجانب المأساوي فقط وإنما أخذ فيها جانباً فكرياً؛ فيصرح بأن هذا الذي حدث قد أصاب المسلمين جميعاً بالذل ما لم ينهضوا بهذا الدم للأخذ بثاره.

إذن فالمسألة ليست كما يقال، وهذه من مزايا واقعة الطف؛ لأن الإمام الحسين‏ من سنخ القرآن الكريم، فكما أن القرآن يأخذ كل قارئ منه معنىً حسب فهمه فكذلك واقعة الطف ومصائب العترة‏؛ فهي من هذه السنخية عيناً؛ فكل واحد يأخذ منها معنىً وفائدة. وكلما عاودتها الأقلام وواجهتها أخذت منها زاداً؛ إذ أن فيها عطاء لا يقف عند حد؛ ففي كل سنة تعطي هذه الواقعة عطاء متجدداً، ولذا يقول الشاعر:

أنست رزيّتُكم رزايانا الّتي ... سلفت وهوَّنت الرزايا الآتيهْ
وفجائعُ الأيّامِ تبقى مدّة ... وتزول وهي إلى القيامةِ باقيهْ

وقد روي أنه حينما دخل دعبل الخزاعي‏ علىٰ الإمام الرضا‏، وأنشده قصيدته التائية التي مطلعها:

مدارسُ آياتٍ خَلتْ مِنْ تِلاوةٍ ... ومَنزلُ وَحْيٍ مُقفرُ العَرَصاتِ

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦٣، مثير الأحزان: ٨٨، مقاتل الطالبيّين: ٨١، أُسد الغابة ٢: ٢١، تهذيب الكمال ٦: ٤٤٧، سير أعلام النبلاء ٣: ٣١٨، البداية والنهاية ٨: ٢٣٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٥٩.

سُمعت جارية تبكي من وراء الخباء، ثم خرجت وتحت ردائها شيء فوضعته على الأرض فإذا هو طفل رضيع يضطرب. ويبدو أن الجارية ذكية فأرادت أن تعرض منظراً حيّاً متحرّكاً من مناظر الطفّ، فلمّا رأى الإمامعليه السلام ذلك انفجر باكياً[1] مع أن الطفل كان سليماً معافى ليس به شيء، ولكن المنظر ذكّره بواقعة الطفّ عندما رجع الإمام الحسينعليه السلام يحمل رضيعه بعد أن آبَ من أرض المعركة ودماؤه تسيل على يديه. وقفعليه السلام بباب الخيمة وصاح: **«رباب، خذي ولدك مذبوحاً»**. ومهما تكن البراعة والقدرة والصبر عند الإنسان وسيّما الأم فإنه لا يمكن تصوّر عاطفة أُم تنظر إلى رضيعها مذبوحاً؛ فهي واقعة أكبر من أن تتصوّر، وأكبر من أن يخوض فيها القلم. أخذت الطفل ورجعت به وهي ولهى إلى المخيم، وقد ذهب عنها رشدها، فوضعته إلىٰ جانب المهد تهزّه ذاهلة لا تشعر بما تصنع والمهد خالٍ منه، ثم راحت تدور حول مصرعه:

خذت سلوتي وظلّيت اسالي ... بـرويحتي والدمع هالي
أدورن علىٰ ايميني وشمالي ... أهز بالمهد والمهد خالي

* * *

كم رضيع لك بالطفّ قضىٰ ... عطشاً يصفق بالراحة راحا

---

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام ١: ١٥٣ / ٨، ٢٩٤ / ٣٤، ٢٩٦ / ٣٥. وليس فيها ذكر الطفل.

﴿ ١٢٧ ﴾

لغة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية الكريمة مجموعة من المواضيع والبحوث الهامّة سأعرض لها تباعاً إن شاء اللّه تعالى.

المبحث الأوّل: المستشرقون وشمولية رسالة نبيّنا ﷺ

إن المستشرقين قد استغلّوا المقطع الأول من الآية الكريمة، وهو قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ ضدّنا، وقالوا: إنكم تقولون: إن رسالة محمد رسالة عامّة، لكن القرآن لا يقول بذلك، بل يقول بخلافه؛ لأن اللّه أرسله باللغة العربية، وهي لغة تخصّ العرب، أي أنه مبعوث إلىٰ العرب.

وهذا قياس باطل لامعنىٰ له، لأن اللّه تعالىٰ لو أرسله بلغة أُخرى لورد

---

(١) إبراهيم: ٤.

الإشكال نفسه، فالواقع أن موضوع اللغة لايحدد الرسالة، فرسالته ﷺ رسالة عامة، لكن كونها باللسان العربي لايعني تخصيصها به، بل إن هذه اللغة لاتعدو أن تكون وسيلة للتبليغ والخطاب. فهذا الأمر لايمنع عموم الرسالة للأسباب التالية:

الأوّل: انفتاح اللغات

فكلّ لغة من اللغات تنفتح علىٰ اللغات الأُخرىٰ، أي أنك لايمكن أن تعثر علىٰ لغة لا يمكن ترجمتها، فكل لغة قابلة لأن تترجم إلى اللغات الأُخرىٰ ومنها اللغة العربية؛ فلا مشكلة إذن من هذا الجانب.

الثاني: مشكلة عولمة اللغة

ففي أيام النبي ﷺ لم يكن هناك وجود لأي لغة عالمية يمكن أن تعمّ العالم كلّه، بل و حتىٰ الآن، مع أنه هناك محاولة تقوم بها الأمم الأوروپيّة علىٰ تعميم لغة ضبط لكن لم ينجحوا، ولاقت محاولاتهم المتكررة حواجز كثيرة.

والإسلام حينما أراد أن يعمّم اللغة العربية علىٰ المسلمين، ومنهم إلىٰ الدنيا أراد أن تكون اللغة العربية هي لغة العالم؛ لأن فيها ميزات لاتوجد في غيرها من اللغات الأُخرىٰ؛ ومنها أن لها قابلية الانفتاح، كالاشتقاق الذي يمكن أن يحتوي كل اللغات الأُخرىٰ ويمتصّها. بل إن فيها مجالاً ضخماً للانتشار والتدويل(١).

دعوات تبسيط اللغة العربيّة

وأنا أعجب هذه الأيام حينما أسمع أن جماعات تنادي بضرورة تبسيط

---

(١) كبابي النحت والتوسّع.

اللغة العربيّة، فكيف يمكن تبسيطها؟ يقولون: إن المقدار الذي نحتاجه للتخاطب منها يجب أخذه ونشره، وما عداه من العويص فيجب تركه لأهل الاختصاص.

وهذا غلط فاحش؛ لأن اللغة العربية لغة القرآن فلا نستطيع أن نغيرها، ولأن حضارتنا مرتبطة بها أي أننا لا نستطيع أن نتعرف على أسرار حضارتنا إلا عن طريق لغتنا. فأنا حينما أقرأ في كتاب اللّه تعالىٰ : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[١] أستغرب من قوله : ﴿يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْـدِيهِمْ﴾؛ فهل يوجد هناك أحد يستطيع أن يكتب الكتاب برجله؟ طبعاً لا، إذن ماهذا التأكيد؟ أنا لا أعرف هذا إذا لم أرجع إلى حضارتي، لا أعرفه إذا لم أرجع إلى الخلفية الحضارية التي عندي وهي أن العرب إذا أرادت أن تؤكد شيئاً فإنها تلجأ إلى وسائل التوكيد المعهودة لديها، والتي من جملتها الأسلوب الآنف. فإن لم يرجع الباحث إلى أساليب لغته فإنه بالنتيجة لن يستطيع فهم أسرار حضارته.

الثالث: سهولة تبادل المعاني بين اللغات

فبما أن اللغة عبارة عن معانٍ، والمعاني يمكن نقلها إلى اللغات الأُخرىٰ فإن المسألة تكون قد حُلّت، فمثلاً قوله تعالىٰ : ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾[٢]. يمكن أن ينقل معناه إلى أيّة لغة أُخرىٰ دون أن يترجم القرآن الكريم حرفياً ولفظياً؛ لأن اللفظة لها خواصّها، ويجب إبقاء القرآن بألفاظه وخواصّه، فذلك سرّ إعجازه، أمّا المعنىٰ فلا بأس بترجمته التي يمكن أن تكون إلى أية لغة نريد.

---

(١) البقرة: ٧٩. (٢) الأنبياء: ٣.

الرابع: سهولة اللغة العربيّة نفسها

إن اللغة العربية نفسها سهلة جـداً، ولانـقاش فـي ذلك بـخلاف اللـغات الأُخرىٰ التي لاتخلو من تعقيد في قواعدها وأزمنتها.

فالآية الكريمة حينما تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ فهو أمر طبيعي؛ لأنه إن يأتِ بلغة غير لغته فسوف يقولون له: نحن لانفهم مـاتقول، ويجب أن تخاطبنا بلغتنا كي نفهم منك كل ماتقوله. أما ماحصل من تعصّب من بعض الشعوب، فلم يقبلوا بدين الإسلام، لأنه لم يكن بلغتهم فهو نـظرة ضيّقة، وإلا فالاسلام جعل لغة العرب لغة القرآن، ولغة القرآن أُريـد لهـا أن تكون لغة عالمية؛ لأن اللّٰه اختار لها ذلك.

وهناك من يقول: إن لغة القرآن لايـمكن أن تـتّسع لاسـتيعاب المـعاني الجديدة إذ يوجد كثير من المعاني الجديدة كالمخترعات وغيرها لايمكن أن يوجد لها مقابل في اللغة العربية مثل لفظة (تلفزيون). والحقيقة أن هذا ليس صحيحاً؛ إذ كلمة تلفزيون تتكون من مقطعين: الأول (tell) وهـي اخـتصار لكلمة (telling) أي إخبار، والثاني اختصار لكلمة (Vision) أي رؤية. وبهذا نستطيع أن نوجد لها في اللغة العربيّة مقابلاً مثل أن نقول: الخـبر المـصوّر. وهذا على سبيل المثال، وكل مانريد قوله هو أن يُشتق له لفظة تناسب معناه في لغته الأُم؛ فليس هناك شيء متعذر. فهذه كلها دعاوىٰ لا مستند لها.

المبحث الثاني: كيفيّة نشوء اللغة وتطوّرها

إن منشأ اللغة أمر لا زال مثار نقاش بين العلماء، فهل إن اللغة توقيفيّة أم أنها تنشأ من المجتمع؟ أي هل أن اللّٰه عزوجل ألهم آدمﷺ اللغة حينما أنزله

أوّل مرّة إلىٰ الأرض: ﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1] بأن قال تعالىٰ له: قل لأهلك: هذه نخلة، وهذه أرض وهذه سماء إلىٰ آخره، أم إنها ليست توقيفيّة، وإنّما هي قابلة لأن تتبرعم وتنمو؟ إن كلّ واحد منا لا بدّ أنه لاحظ أن لطفله أول نطقه لغة خاصّة به؛ فهو يسمي كلّ شيء باسم خاصّ، فيسمي الخبز باسم خاصّ، ويسمي لعبته كذلك، أي أنه يخترع الألفاظ للمعاني حسب قدرته. ثم بعد أن يكبر ويكبر معه رأسماله من اللغة بالتدريج نجده يطلق عليها أسماء أُخرىٰ جديدة، وهكذا. وعليه فالنظرية التي تقول: إن اللغة نشأت وتطوّرت في كلّ منطقة على حِدة، كالطفل في تدرّجه هي نظرية صحيحة.

إذن ليس الأمر أن اللغة أمر توقيفي بمعنىٰ أن اللّه عزوجل نزّل اللغة من السماء بل إنها نشأت على الأرض، فآدمؑ بدأ يتفاهم أول أمره مع أهله مبدئياً بلغة الإشارة، ثمّ بعد ذلك تطوّرت.

على أية حال إن بحثنا الآن ليس بحثاً لغوياً، لكن أردت أن أُشير إلى الموضوع إشارة كمقدمة وتوطئة؛ إذ أن اللغة ليست أمراً توقيفيّاً بل إنها نشأت محلّياً.

المبحث الثالث: أداء العبادات والمعاملات بغير العربيّة

لقد كثر الأخذ والردّ بين فقهاء المسلمين ووقع نزاع كبير بينهم حول جواز وقوع عباداتنا ومعاملاتنا بلغة غير اللغة العربية؛ كالزواج والطلاق والبيع والإجارة وغير ذلك. أمّا علماء الإمامية فأجمعوا على عدم جواز الإتيان بالعبادات بغير العربية إلّا الشيخ الصدوق فإنه ذهب إلى جواز إيقاع القنوت باللغة الفارسيّة[2]. أما المعاملات فأجمعوا عليها كذلك إلّا مع التعذّر من

---

(١) البقرة: ٣١.

(٢) عنه في مختلف الشيعة ٢: ١٨١.

العربية؛ فحينئذٍ يجوز إجراؤها بغيرها من اللغات. والشيعة يكونون بهذا قد خدموا اللغة العربية أكبر خدمة، ومع هذا يأتي التاريخ القذر ليصف الشيعة بالشعوبيّة وأنهم يكرهون العرب، مع أن ابن خلدون نفسه يحمل حملات شنيعة على العرب ويصفهم بأقبح الأوصاف، ومع ذلك لا أحد يحرك ساكناً او يتصدىٰ له ويردّ عليه، أمّا مع الشيعة فالأمر مختلف.

وقد وقعت معي مثل هذه القصة وهو أنني كنت جالساً ذات مرة في دار العلوم في القاهرة، ففاجأني أحد الأساتذة ممن تخرّج معنا من الدار علىٰ ماأظن باتّهامه دِعبلاً بالشعوبية، وراح يصفه بقبيح الوصف، فقلت له: كيف عرفت أنه شعوبي؟ فقال: أليس هو القائل للمأمون:

إني من القومِ الذين سيوفُهم ... قتلت أخاك وشرّفتك بمقعدِ
رفعوا محلَّك بعدَ طولِ خمولِه ... واستنقذوك من الحضيض الأوهدِ(١)

فكيف يحمل علىٰ الخليفة العباسي؟ فمادام يفعل ذلك فهو شعوبي. فقلت له: واللّه أنا أُهنئ الأُمّة الإسلاميّة بوجود عبقريّات فيها مثل عبقريتك، إنها عبقرية عظيمة، واستدلال ضخم. انظر كيف يصف رجلاً حرّاً وقف في وجه ظالم وذكّره بموقفه منه، فما هي علاقته بالشعوبية؟ ماهذا أيا دكتور حجاب؟ إنه واللّه لشيء غريب أن يصدر هذا من مثل هؤلاء. وأنا أتألّم غاية الألم حينما يأتيني بعض الشباب من غيرنا ويقول لي: هل هؤلاء هم حملة الفكر عندكم وقادة الأُمّة؟ إنه لشيء مخجل حقّاً.

إذن فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾، فإنما

---

(١) العدد القوية: ٢٩٢، بحار الانوار ٤٩: ٢٦٠ / ١٤، تاريخ مدينة دمشق ١٧: ١٦٣، وفيه الأبعد، بدل: الأوهد.

تريد التأكيد على أن من المفروض أن يكون نبي كل قوم ناطقاً بلغتهم حتىٰ يتمكن من التفاهم معهم.

المبحث الرابع: قبح العقاب بلا بيان

ثم قال تعالىٰ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، أي أن العلّة من إرسال الرسل هي نقل شرائع السماء للأرض؛ لأن الانسان لايستطيع أن يتّصل بـاللّه مـباشرة؛ لأن اللّـه تبارك وتعالىٰ لايحويه مكان. ولا يخلو منه مكان، وليس كل أحـد يـصلح للقاء اللّه؛ بل اللّه هو الذي يختار الأنبياء ويوحي اليهم ويجعلهم وسطاء بينه و بين الإنسانية، فيبيّنون للناس رسالة السماء عبر كـتبه تـعالى كـالإنجيل والزبور والقرآن وغيرها. غير أن بعض الناس تلاعب الشيطان بعقولهم فعمدوا إلى التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية فحرفوها، ولم يسلم من ذلك إلّا القرآن الكريم؛ لحكمة أرادها اللّه تعالى.

وقد يسأل سائل فيقول: توجد روايات عند بعض المسلمين بأن القرآن قد وقع فيه التحريف.

ونحن نقول له: إننا نضرب مثل هذه الروايات التي تنصّ على أن القرآن قد وقع فيه التحريف عرض الحائط؛ لأنه ليس عندنا رواية محترمة تقول: إن هناك قرآناً غير القرآن الموجود بين أيـدي المسـلمين. ومـا يـطلقه بـعض رخيصي الذمم من دعاىٰ رخيصة مثلهم بهذا الصدد فمرفوض البتّة، ولا يعار أيّ اهتمام. وأمثال هذه الروايات موجودة بشكـل مـا عـند كـلّ المـذاهب الإسلامية، لكنها ليست موضع ترحيب واحترام من عامّة المسلمين، بعد أن وقع إجماع جمهور المحقّقين علىٰ أن القرآن هو مابين الدفّتين لاغير.

هذا وإن وجدت روايات تقول بالتحريف فغاية مايقال فيها: إنها ترمي إلى

تفسير الآيات بغير معناها مثلاً قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[١].

فتأتي جماعة لتفسّرها على أن هذا الذي أحبّه الرسول ﷺ هو أبو طالب[٢]، في حين أن البعض يرفض هذا التفسير.

ونحن نقول لهؤلاء: يا إخوة، لماذا هذه الحساسية تجاه علي بن أبي طالب وأبيه؟ فلماذا حينما تأتون إلي بعض من يذمّهم القرآن الكريم بقوله: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[٣]، أو بقوله: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[٤]، أو بقوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[٥] نراكم لا تذكرونه بسوء أبداً؛ احتراماً لابنه، أمّا حينما يصل الأمر إلى أبي طالب ..هذا الرجل الذي لاينكر أحد فضله ولاسابقته ولامواقفه التي تخضع أمامها أعناق أهل الحقد والعداء له، فإنه يصبح عرضة للهجوم الشرس. ولماذا لا تمتنعون عن ذكره بسوء احتراماً لابنه؟

ونقول ببالغ الأسف: إن هؤلاء كارثة في تاريخ المسلمين، فهؤلاء هم الذين فتحوا أسواقهم للمتاجرة بالطائفية وبث الفرقة.

المبحث الخامس: الجبر ومدارسه عند المسلمين

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أُريد أن أقف عند هذه النقطة قليلاً؛ لأنها نقطة مهمة وخطرة جداً؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ يعني أن هذا الذي يأتي إلى الدنيا يأتي ضالاّ، والله هو الذي

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) انظر: مسند أحمد ٥: ٤٣٣، فتح الباري ٧: ١٤٩، جامع البيان، المجلد: ٧، ج ١١: ٥٧، وذكرها في ثمانية موارد أُخرىٰ، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٦، ٨: ٢٧٣.

(٣) القلم: ١١. (٤) القلم: ١٢.

(٥) القلم: ١٣، والمقصود بهذه الآيات الثلاث هو الوليد بن المغيرة، وقيل: الأخنس بن شريف، وقيل: الأسود بن عبد يغوث. انظر مجمع البيان: ١٠: ٨٨.

أضلّه، ومثله المهتدي فهو إنما جاء إلى الدنيا مهتدياً؛ لأن اللّه قد هداه. لكن نقول: ليس الأمر كذلك، ولايمكن حمل الآية على ظاهرها، بل إن هذا الظاهر هو الذي أخذه الجبريّون واستدلّوا به على صحّة مذهبهم ومنهجهم القائل بأن اللّه أجبر عباده على فعل الطاعة والمعصية. ولتوضيح الأمر بشيء من الإسهاب نقول: هناك خمس مدارس في الجبر في عالمنا الفكري:

الأولى: المدرسة الجبريّة الدينيّة

وهي التي يتمسّك أصحابها بظاهر هذه الآية ويستدلون به على صحّة منهجهم كما أسلفنا، فهم يقولون: كل مانعمله فاللّه خلقه فينا، وهو يضلّنا إن أراد، وهو يهدينا أيضاً إن أراد. ولذلك حينما تحاول أن تمنع بعض الناس من فعل الحرام كأن يكسب عيشه من الحرام فتقول له: لماذا هذا التوجّه إلى الحرام؟ وهل ليس في الدنيا إلّا الحرام؟ فإنه يقول لك: وماعساي أفعل وقد كتب اللّه تعالى عليّ ذلك؟ وإن أردت أن تمنع أحداً من ارتكاب جريمة أو تعنّفه على جرم ارتكبه قال لك: وماذا أعمل، وهذا هو قَسْمي من الكون، وحظّي من الدنيا؟ فاللّه قد قسم لي هذا، وجعله طريقي في الدنيا.

وهكذا فإنه وفق هذا المذهب يكون كل شيء نعمله ملقىً على عاتق القضاء والقدر، بل ربما نحن نعمد إلى إلقائه عليه، وهي محاولة اعتدائية غير صحيحة.

فهؤلاء الذين يقولون: إن اللّه هو الذى يخلق فعل العبد داخل نفسه يسمون (المجبّرة الدينية)، وسأتعرّض في نهاية البحث بعد سرد مدارس الجبر إلى فساد نظريّاتهم وآرائهم إن شاء اللّه تعالى.

الثانية: المدرسة الجبريّة الميتافيزيقيّة

وهي مدرسة يقودها الفيلسوف «سبينوزا» الذي يذهب إلى أن الإنسان متّحد مع اللّه تعالى ـ أستغفر اللّه ـ وهو مايسمىٰ بـ(مونيزم) اي اتّحاد الخلق مع الخالق، فهو يقول: إن هؤلاء الناس الموجودين في الكون كلّه ليسوا هم المخلوقين، بل إن هؤلاء هم اللّه؛ لأنه تعالىٰ متّحد بـخلقه. فكلّ الأشياء الموجودة هي عبارة عن مظهر من مظاهر اللّه: الحائط والبستان والحيوان، كلها مظاهر لوجود اللّه، ولا يوجد في الدنيا سوىٰ اللّه تعالىٰ فقط. وليس هذا مجال تفصيلها بل أحببت أن أُشير لك إليها.

الثالثة: المدرسة الجبريّة المنطقيّة

وتقول: كل حادثة إذا توافرت شروط حدوثها فلابد من أن تحدث، فالورق حينما تضعه فى النار لابد من أن يحترق لأن شروط الاحتراق قد توفّرت حينئذٍ.

وهذه المدرسة تتفرع من المدرسة الجبرية الميتافيزيقية.

الرابعة: المدرسة الجبريّة الفسلجيّة

وتقول: إن أفعال الإنسان كلها منعكسة عن أعضائه بفعل بعض الإنزيمات المتولّدة داخل جسمه. فهذه الأعضاء هي التي تحدّد فعله وليس له في ذلك اختيار. وهذه الإنزيمات التي تفرزها غدد موجودة في أجسامنا حينما تدخل خلايا الجسم تحوّل سلوكنا وحركاتنا إلى أفعال لا إرادية، وهي أفعال منعكسة عن أعضائنا.

الخامسة: المدرسة الجبريّة النفسيّة

وتقول: إن كلّ أعمال الإنسان معلولة لنفسيته ومزاجه، وهذا المزاج ينعكس سلباً أو إيجاباً علىٰ عمله.

نظرة وتقييم

فهذه خمس مدارس في الجبر، والملاحظ أن هذه المدارس الجبريّة كلّها تنتهي إلى أن الفاعل الوحيد هو اللّه عزو جل، وأن الإنسان مسلوب الإرادة ليس له حظّ في أفعاله. وهذا قول لانستطيع أن نقبله؛ لأنه إذا كان اللّه عز وجل هو من يخلق الفعل عندنا فمعنى هذا أنه حينما يأتي نبي ويقول لأُمّته: اعبدوا اللّه، وإني مخبركم أنكم إن لم تعبدوا الله، فليس ذلك منكم، بل لأن اللّه خلق المعصية عندكم. فهل سيجد هذا النبي أحداً يقترب إلى دينه وأحكامه وتعاليمه؟ طبعاً لا؛ لأنه حينما يقول له: اللّه خلق عندك فعل السرقة وهو مع ذلك سيحاسبك عليه قطعاً لليد وحرقاً في النار، فهل من عاقل سيقترب من هذا الدين الذي يخبره أنه يجبره على فعل شيء ثم يعاقبه عليه؟ هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ فإنه سيقول له: مادام اللّه قد جبلني على المعصية وأجبرني عليها فلماذا تدعوني إذن إلى خلاف ماجبلني اللّه عليه؟ إنك تخالف إرادة اللّه بهذا؟ ثم هل ترىٰ دعوتك تنفع مع شيء قضيَ أصلاً، إنما وجودك عبث لا مبرر له لأن اللّه جبلنا على المعصية وانتهىٰ.

دعني أنقل لك هذه الحادثة: المعروف أن البهلول عالم جليل، لكنه أظهر الجنون لمّا طُلب منه أن يقضي بين الناس. وكانت هذه ردّة فعل طبيعية؛ لأن من يشتغل بالقضاء آنذاك فيجب أن يكون أداة بأيدي السلطة والمقرّبين إليها، فليس هناك قضاء مستقلّ البتّة، ومن يفكّر في أن يستقلّ بالقضاء فإنه يعرّض نفسه للعقوبة والسجن والتنكيل. وكمثال على إملاء إرادة السلطة إرادتها في القضاء ماحدث مع القاضي أبي يوسف الذي أرسلت إليه زبيدة: إني مرسلة لك هؤلاء، وعندهم المسألة الفلانية، وأُحب أن تقضي بينهم بهذه الصورة.

أي احكم بينهم بالشكل الذي أُريده أنا، وفعلاً حينما جاء الأمر إليه حكم

به كما كانت تريد، وأفتاهم بما تحبّ. فأرسلت إليه بهدية، فداعبه جماعة من الحاضرين وقالوا له: يروى عن النبيﷺ قوله: **«إذا أُهديت إلى أحدكم هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها»**[١]. فأين قسمنا منها؟ فقال: إنما ذاك في الإقط والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ما ترون، يا غلام ارفع هذا إلى الخزائن. ولم يعطهم منها شيئاً[٢].

فتأمّل هذا الرجل، ترسل له زبيدة أن رأيي في المسألة الفلانيّة هكذا، وأُحبّ أن يكون الحكم فيها والفتوىٰ هكذا، فيجيبها إلى ماتريد وإن خالف الشرع مع أنه من كبار القضاة.

وهذا هو ماحدا بالبهلول لأن يتظاهر بالجنون ليعتزل الحياة، ويبعد نفسه عن مهاوي القضاء والقضاة؛ لأنه لم يكن على استعداد لأن يكون أداة بيد السلطة تحرّكه كيف يشاء.

وقد دخل البهلول المسجد يوماً، وأبو حنيفة يقرّر للناس علومه، وقال في جملة كلامه: إن جعفر بن محمد تكلّم في مسائل لا يعجبني كلامه فيها:

الأولى: أنه يقول: إن الله سبحانه موجود لكنه لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهل يكون موجود لا يرى؟ ما هذا إلّا تناقض.

الثانية: أنه يقول: إن الشيطان يعذّب في النار. مع أن الشيطان خُلق من النار، فكيف يعذب الشيء بما خلق منه؟

الثالثة: أنه يقول: إن أفعال العباد مستندة إليهم. مع أن الآيات دالّة على أنه تعالى فاعل كل شيء.

---

(١) الكافي ٥: ١٤٤/ ١١، مسند عبد بن حميد: ٢٣٤ / ٧٠٥، المعجم الأوسط ٣: ٥٣.

(٢) البداية والنهاية ١٠: ١٩٥، ولم يذكر أمر زبيدة.

الرابعة: أنه يقول: إن الخير من الله تعالى والشرّ من الإنسان. وأنا أقول: إنهما كليهما من الله.

فلمّا سمع البهلول ذلك، أخذ مدرة وضرب بها رأس أبي حنيفة وشجّه، فسال الدم على وجهه ولحيته، فبادر إلى الخليفة يشكو إليه البهلول، فلما أُحضر البهلول وسئل عن السبب، قال للخليفة: إن هذا الرجل غلّط جعفر بن محمد في أربع مسائل:

الأولى:: أنه يزعم أن الأفعال كلّها لافاعل لها إلّا اللّه، فهذه الشجّة من الله سبحانه، فما تقصيري أنا؟

الثانية: أنه يقول: كلّ شيء موجود لابدّ أن يُرى، فهذا الوجع في رأسه موجود مع أنه لا يراه أحد.

الثالثة: أنه مخلوق من التراب، وهذه المدرة من التراب، وهو يزعم أن الجنس لا يُعذّب بجنسه، فكيف تألّم من هذه المدرة؟

الرابعة: أن هذه المدرة إن كانت خيراً أو شرّاً فهي من الله تعالى على رأيه، فما ذنبي حيث يريد أن يقاضيني على أمر هو من الله تعالى؟

فأعجب الخليفة كلامه وحسن تخلّصه من أرش الشجّة[1].

فهذا ينتقد الإمام الصادقعليه السلام على أنه يقول: إن الإنسان مخيّر، وهو يقول: الإنسان مجبر، وأنا على رأي الصادقعليه السلام، فلو كان الإنسان مجبراً فأنا لم أفعل شيئاً، بل اللّه أجبرني على أن أشجّ رأسه بالحجارة، وكذا في مسائله الأُخرى. وهذه فكرة لبقة جدّاً حلّت أربع مشاكل بحجارة.

أعود إلى صلب الموضوع، إذن ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

---

(١) زهر الربيع: ٤٠٤.

يفسّره قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾، فالرسول ينقل الدين، والذي يطيع الدين يكون من أهل الهدىٰ والذي يبتعد عنه يكون من أهل الضلال، وهذا معنىٰ قولنا: إن اللّٰه يضل ويهدي يعني القانون السماوي نفسه الذي جاء به القرآن، فالذي يطيعه يهتدي والذي يعصيه يضلّ.

ونظير هذه القصة قصة أُخرى جرت بين المأمون والإمام الرضا، فعن أبي الصلت الهروي قال: قال المأمون للإمام علي الرضا: يا أبا الحسن، أخبرني عن جدك أمير المؤمنين علي بأي وجه هو قسيم الجنة والنار؟ وبأي معنى؛ فقد كثر فكري في ذلك؟ فقال له الإمام الرضا **«ألم تروِ عن آبائك عن عبد الله بن عباس أنه قال: سمعت رسول الله يقول: حبّ علي إيمان وبغضه كفر؟»**. فقال: بلى. فقال الرضا: **«فلما كانت الجنة للمؤمن والنار للكافر، فقسمة الجنة والنار إذا كانت على حبّه وبغضه؛ فهو قسيم الجنة والنار»**. فقال المأمون: لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن، أشهد أنك وارث جدّك رسول الله[(١)].

فلما كان حبّ علي حسنة وبغضه سيئة، وفاعل السيئة إلىٰ النار وفاعل الحسنة إلى الجنة جرىٰ هذا المعنىٰ، فلم هذا التعصّب؟ ألم يكن لكم فكر واسع لحلّ هذا الإشكال؟

المبحث السادس: لمن العزّة والمنعة؟

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾ ولنتأمّل في هذا التعبير، وهو أنه ليس هناك عزيز سوى اللّٰه تعالىٰ، كيف؟ صحيح أنك تصف بعض الأشخاص بأنه عزيز، لكن هذا أمر نسبي، وإلّا فهناك كثير ممّا يمكن أن

---

(١) عيون أخبار الرضا١: ٩٢ / ٣٠، ينابيع المودّة ١: ٢٥٤ / ١١.

يذلّ هذا العزيز، ومنه الجوع. فمن وسائل الإذلال المستخدمة عبر تاريخ الظلم التجويع، وهو وسيلة تذلّ من تُتّخذ ضدّه، فالظلمة على طيلة فترات حكمهم يحاربون الناس بأرزاقهم حتىٰ يجيعوهم؛ فإن وقع ذلك ركعوا وجاؤوا مستسلمين. وهذا مافعله الأُمويون مع أهل الكوفة، إذ أن الذي حدث في الكوفة أن الأُمويين أجاعوا أهلها لأنهم موالون لأهل البيت عليهم السلام ممّا اضطّر بعضهم لأن يركع أمام صرخات أطفاله التي تجبهه لحظة دخوله بيته بعد أن يعود دون كسب أو الحصول على فرصة عمل، فلا لقمة يسدّ بها رمق عياله ولا ثوب يستر به أجسادهم العارية، بعد أن سدوا بوجهه كل طريق في الحياة يكتسب به رزقه. وبطبيعة الحال فإنه لكلّ هذا سيذل ويركع.

وكذلك يذلّه المرض، فكل جبار متغطرس متكبّر إذا أراد اللّه أن يذلّه يبتليه بمرض بسيط يمرّغ كرامته في التراب. وهو جلّ وعلا كل ما يصيبه به ميكروب أو فايروس لا يرى بالعين يدخله إلى جسمه عن أي طريق، فيصيّره ذليلاً. وكمثال على ذلك ما يذكر من أن أبا الهيجاء الذي كان معروفاً بالغطرسة والتكبّر جاء إلى الفسطاط بمصر في منطقة فيها برغوث كثير، ولمّا أراد أن ينام منعته حشرة منه لذيذ النوم، وكان كلّما حاول أن ينام لم يستطع، فبقي مستيقظاً إلى الصباح وهو يقرأ هذه الأبيات:

تطاول بالفسطاطِ ليلي ولم يكن ... بوادي الغضا ليلي عليَّ يطولُ
تؤرّقني حدب قصار أذلّة ... وإن الذي يؤذينه لذليلُ
إذا جُلت بعض الليل منهنّ جولةً ... تعلّقن في رجليّ حيث أجولُ
فياليت شعري هل أبيتن ليلةً ... وليس لبرغوثٍ عليَّ سبيلُ[1]

---

(١) المستطرف في كل فن مستطرف ٢: ٢٢٣، وفيه أن الأبيات لأبي الرماح الأزدي.

فانظر إلى هذا الإنسان بما يتّصف به من عظمة وكبرياء وما يمتلك من سلطان، لكنه مع ذلك يؤرّقه كائن صغير ويسلب عظمته. وغالباً هؤلاء النماردة الجبابرة يسلط اللّه عليهم أصغر مخلوقاته من هذا اللون. سأل المنصور الإمام الصادق﴿ع﴾ ـ وقد أزعجته ذبابة كلّما ذبّها عنه عادت ـ: يا أبا عبد اللّه، لم خلق الله الذباب؟ فقال: **«ليذل به الجبابرة»**[1]. فوجم لها المنصور.

فالإنسان يذلّه الجوع، ويذلّه المرض، وتذلّه الحاجة، والأشدّ من هذا كلّه الموت، فليس يذلّه شيء مثل الموت،، وليس شيء أشدّ عليه منه، فأنت تجد هذا الجبّار المتغطرس، ذا الصِّعر يضعف وينهار أمام الموت، وبعدها تجد ذلك الخدّ المصعّر يفترش التراب.. ذلك الوجه الأنيق إن تأتِه بعد مدّة تجده بحالة مرعبة:

أعفر الثرىٰ يا ألفَ برجٍ وكوكبٍ	يضمّ الوجوهَ الزهرَ فضلُ نقابهِ
وجوهاً رأىٰ فيها الجمال أنيقة	وأُخرىٰ الجلالُ اختصّها لمهابِهِ
تغوّل معناها الثرىٰ غير آسفٍ	وعاث بمرآها الردى غير آبِهِ
ونُجلُ عيونٍ في محاسنَ بضّةٍ	قسا الدود في تمزيقها بحرابِهِ

وحينما أراد العباسيون أن يذلوا عبد اللّه بن الحسن ألقوه في السجن، ولكن إباءه أبىٰ أن يذلّ لهم. ولما قتل ابنه إبراهيم أحمر العينين كان هو وأخواه محمد وإدريس في سجن المنصور، فطلب المنصور من الربيع أن يذهب برأس عبد اللّه ويلقيه في حضن أبيه. فانظر إلى القسوة التي توارثوها عن أسلافهم، وإلا فهو ابن عمه، وغاية مافي الأمر أنه اختلف معه في الرأي، وكأن هذا الاختلاف يستوجب هذه القسوة. فأي قلوب هذه التي نُزعت منها

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٧٥، سير أعلام النبلاء ٦: ٢٦٤.

الرحمة؟ على أية حال دخل بالرأس على أبيه فوجوده يصلّي، فأعطاه لعمّه محمد، فقال له أخوه إدريس: أسرع في صلوتك يا أبا محمد. فالتفت إليه بعد أن أتمّها، وأخذ الرأس فوضعه في حجره، وقال يخاطبه: أهلاً وسهلا أبا القاسم، فوالله لقد كنت من الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[1]. فقال له الربيع: كيف أبو القاسم في نفسه؟ قال كما قال الشاعر:

فتى كان يحميه من الذلّ سيفُه ... ويكفيه إن يأتِ الذنوبَ اجتنابُها

ثم التفت إلى الربيع فقال: قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام، والملتقى القيامة. قال الربيع: فما رأيت المنصور قطّ أشدّ انكساراً منه في الوقت الذي بلغته به الرسالة[2].

وإبراهيم هذا لما جاءه نعي أخيه كان على منبر البصرة فقال يرثيه:

سأبكيك بالبيضِ الرقاقِ وبالقنا ... فإن بها ما يدرك الطالبُ الوترا

وإنا أناسٌ لا تفيضُ دموعُنا ... على هالكٍ منا ولو قَصم الظهرا

ولست كمن يبكي أخاه بعبرةٍ ... يعصّرها من جفن مقلته عصرا

ولكنني أشفي فؤادي بغارةٍ ... ألهّب في قطري كتائبها جمرا[3]

وهذا المعنىٰ نفسه حدث مع الحسين عليه السلام، فالملاحظ أن الناس يجتنبون مصرع عزيز من أعزّائهم ـ أي أنهم لايحبّون أن يشهدوا مصارع أعزّائهم

---

(١) الرعد: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المسائل الجارودية: ٦، مروج الذهب ٣: ٣٢٩.

(٣) مقاتل الطالبيين: ٢٠٥،: ٣، عمدة الطالب: ١٠٤.

قبلهم ـ لكن الإمام الحسين عليه السلام كان يتحرّك ضمن رسالة وهدف أراد أن يخرج من خلالهما إلى الدنيا بفكره، ثم يغادرها وقد تضاعف أجره، وذلك بأن يقدّم أعزّاءه وأبناءه وأصحابه في سبيل الله.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية إن هؤلاء الأعزّاء عليه هم أيضاً أبوا فراقه وتركه لوحده، بل حتىٰ تركه يتقدّم قبلهم نحو المعركة، ومع هذا نجد من المؤرخين من بلغت به الخسّة مبلغاً جعلته يقول: إن العباس عليه السلام قال لإخوته: تقدّموا حتى أرثكم[1]! فقل لي بربك: أيّ تفكير هذا وأي تسطير؟ أين العباس من هذا التفكير؟ ولم يظن نفسه أنه سيعيش بعد إخوانه؟ ثم إن تركيبة العباس عليه السلام النفسية تأبىٰ مجرد التفكير بمثل هذا الكلام، والله ليس هذا من نفسية العباس بل هو من نفسية وتركيبة من نقله ورواه.

وكلنا يعلم أن العباس كان ألزمَ للحسين عليه السلام من ظلّه، وهو في حياته كلّها لم يقل للحسين عليه السلام: (ياأخي) بل كان يخاطبه بـ(يابن رسول الله) أو بـ(سيدي أبا عبد الله)، ولقد كان أطوع للحسين عليه السلام من بنانه. وعليه فلا يمكن أن تصدر منه مثل هذه الكلمة أبداً، ولايمكن أن يفكر أنه يمكنه أن يدع الحسين عليه السلام ينزل إلى المعركة قبله. ثم إن هناك نوع علاقة بينه وبين الحسين عليه السلام لاسبيل إلىٰ تحديدها.

وهنا يتساءل المؤرّخون حينما يمرّون بهذه العلاقة التي تربط بين الحسين بالعباس عليهما السلام: من أين جاءت هذه العلاقة؟ هل ياترىٰ جاءت من الأم؟ إذ أن العباس عليه السلام عنده أمّ ولا ككلّ النساء، عقيلة من عقائل العرب هي أم البنين

---

(١) انظر: تاريخ الطبري ٤: ٣٤٢، الكامل في التاريخ ٤: ٧٦، والحقيقة أنه قال لهم: تقدموا حتىٰ أراكم قتلىٰ فأحتسبكم. مقاتل الطالبيين: ٨٢، مقتل الحسين عليه السلام (أبو محنف): ١٨٤.

(رضوان الله عليها)، امرأة تمثّل الروعة والأصالة والشرف بأسمىٰ معانيها، فهي لم تكن تعطي أولادها عُشر عنايتها، فكلّ عنايتها كانت تمنحها للحسنين عليهما السلام، وكانت ترعىٰ مشاعرهم بكل ماتستطيع، وحينما كان الأمير عليه السلام يناديها بفاطمة، كانت تطلب منه أن يناديها بكنيتها: أُمّ البنين؛ كيلا يسمع الحسنان اسم فاطمة ويتذكّرا أُمّهما عليها السلام ممّا يتسبّب لهما بالألم. وهكذا كانت هذه المرأة العظيمة، غاية في النبل والرقة والحنوّ والعاطفة وحب أبناء رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم؛ فلا غرو إن كان العباس عليه السلام ذا علاقة غير محدودة بالحسين عليه السلام؛ ولذلك فإن الحسين لم يتأثّر بمصرع أحد من أهله وأصحابه كما تأثّر بمصرع العباس، يقول المؤرخون: بان الانكسار في وجه الحسين، ورحم اللّه السيد جعفراً حين يقول على لسان الحسين عليه السلام مخاطباً العباس:

لسواك يلطم بالاكفّ وهذه بيضُ الظبا لك في جبينيَ تلطمُ

فهو عليه السلام يقول له: أنا لن ألطم بعدك بيدي بل سأتعرض للسيوف، وهي التي ستلطم جبيني. أي سآخذ بثأرك. وفعلاً نزل الحسين للمعركة بعد مصرع العباس، وأوصل الخيل إلىٰ النخيلة وهوه يصيح: **«إلىٰ أين تفرون وقد قتلتم ابن والدي؟ إلىٰ اين تذهبون وقد قصمتم ظهري؟»**.

وهكذا كانت للعباس علاقة غريبة مع الحسين، وكان عليه السلام يرعاه غاية الرعاية، وكان العبّاس يفدي الإمام الحسين عليه السلام وعياله بروحه؛ ولذا فإنه حينما سمع استغاثة النساء والأطفال من العطش، جاء إلى الحسين عليه السلام وقال له: أبا عبد اللّه، لي إليك حاجة. فقال عليه السلام له: **«ما تريد؟»**. قال: لقد سمعت أصوات الصبية يصيحون: العطش قتلنا. أبا عبد اللّه ايذن لي أن أنزل إلىٰ المشرعة، وأطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء.

وبعد محاولات طويلة أعطاه الحسين‏ الإذن، فنزل إلىٰ المعركة وهدفه الفرات، ذاد الخيل يميناً وشمالاً إلىٰ أن وصل إلىٰ الفرات، لمّا وصل ركز لواءه علىٰ حافة الفرات ونزل، إلىٰ هنا نترك الكلمة للإمام الصادق‏ هو يصورّ ذلك لنا. يقول الصادق‏: **«لمّا وضع عمي العباس يده بالماء أحس ببرده، فاغترف غرفة وأدناها إلىٰ فمه ثم قال: لا والله، لا شربت بارد الماء وأبو عبد الله عطشان»**[1].

ضاگ الماي بس هيّس ابّرده ... غرف غَرفه يروّي عطش چبده

تذكّر لن اخوه احسين بعده ... ذبّ الماي من چفّه وتحسر

ثم ملأ القربة وأراد أن يوصلها إلى الفاطميّات، فاعصوصب عليه القوم، واشتجرت عليه السيوف، واشتبكت عليه الرماح، وكمن له نوفل الأزرق من وراء نخلة، فضربه على يده اليمنى فقطعها، فقال:

واللّه إن قطعتمُ يميني ... إني أحامي أبداً عن ديني

وعن إمامٍ صادق اليقين

ثم حمل القربة على كتفه الأيسر فضربه نوفل فقطع يده اليسرى، فقال:

يا نفس لا تخشَي من الكفّارِ ... وأبشري برحمة الجبارِ

مع النبي المصطفىٰ المختارِ ... قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلِهم يا ربُّ حرّ النارِ

* * *

يگله أيّست سكنه من الماي ... تجي يمّي ذليله وتوچب احذاي

---

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

﴿١٢٨﴾

نظام تعدد الزوجات في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأوّل: في أن أحكام الشرع بعضها ثابت وبعضها متغيّر

سبق أن نوّهت في معرض كلامي إلىٰ أن الفقه الشريف ينضوي تحته قسمان من الأحكام بلحاظ سيّاليّتها:

القسم الأوّل: الأحكام الثابتة (الفقه غير المتحرّك)

وهو ما يسمىٰ بالأحكام الجامدة، وهي الأحكام التي تعمل في حالات معينة خصّها الشارع المقدّس بها في وقت معين، ومثالها أن يحتفر رجل بئراً في بيته، فما هي المسافة التي يجب أن يراعيها جاره حتىٰ يتمكن من أن

(١) النساء: ١٢٩.

يحفر بئراً له في بيته؟ أي ما هي المسافة بين بئره وبئر جاره، بحيث لا يؤثر معها بئره علىٰ بئر جاره؟ فهذه المسألة لها حكم عند الشارع، لكنها اليوم ليست محل ابتلاء لتوفر شبكات الإسالة التي توصل الماء إلىٰ البيوت، وهو ما جعل موضوع البئر موضوعاً ثانوياً جداً بل لا يكاد يعرّج عليه إلّا في بعض الأصقاع البعيدة عن الحضارة والتمدن، والتي لا زالت تستخدم البئر في حياتها اليومية. وهؤلاء قلّة قياساً إلىٰ الحالة العامّة للعالم كله.

وهذا يدخل ضمن الأحكام التي ذهبت موضوعاتها بحكم التطوّر الحاصل في الحياة، والذي نعيشه اليوم، لكن الحكم باقٍ بحيث إنه لو حصل موضوعه لوجب تطبيق ذلك الحكم الشرعي.

القسم الثاني: الأحكام المتحركة (الفقه المتحرك)

وهذا القسم ينضوي تحته الأعم الأغلب من أحكامنا الشرعيّة، وهو القسم الذي نتفاعل معه يومياً من خلال تعاملنا مع المجتمع أو الحياة أو النفس أو الخالق جلّ وعلا. ومن ضمن هذه الأحكام موضوع محاضرتنا هذه الذي سيمرّ بنا.

المبحث الثاني: في أن نظام التعدد ميراث إنساني

وهذه القضية التي ستكون محور محاضرتنا هي قضية هامّة وحسّاسة، وهي محلّ ابتلاء كبير يكاد يدخل في حياة أكثر الناس بل في المجتمع ككل. وهي قضية تعدّد الزوجات التي سنذكر موقف الإسلام منها ورأيه فيها. والحقيقة أنّ هذه المسألة جاءتنا كميراث إنساني وليست ميراثاً وضعياً، وهو ما دعانا إلىٰ القول بأنها تكاد تدخل في حياة المجتمع ككل، أي كل الشعوب والقبائل والأُمم. فهذه الظاهرة موجودة عند جميع الفئات الاجتماعية التي

ذكرنا بشكل أو بآخر، وفق تعدّد الشرائع والموروثات الاجتماعيّة.

أشكال التعدد عند المجتمعات

وهذا معناه أن هناك صوراً مشروعة للتعدد وصوراً غير مشروعة له. فمثال الصور المشروعة الزيجات الشرعية (الدائمة والمنقطعة) والإماء وغيرهما، ومثال الصور غير المشروعة الزواج العرفي الذي تشتهر به حتىٰ بعض البلاد الإسلامية؛ فهي لا تمرّ عن طريق الشرع أو القانون المعتمد في تلك البلاد، وهذا من قبيل اتخاذ الخليلات. كما أن هناك حضارات وقبائل لازالت تعتمد نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة ولا تعدّ ذلك عاراً أو خطأً. ولو قرّبنا الطريق وعرّجنا إلىٰ البلاد المتقدّمة أو المتطورة كأوروپا مثلاً، ونظرنا إلىٰ الكيفية التي يتم الزواج فيها لوجدنا أن الزواج المشروع قليل جداً، وأن الزواج الغالب هو الذي لا يأخذ الصفة الشرعية. (نسأل اللّه تعالىٰ ألّا يوصلنا إلىٰ هذا المستوىٰ من السقوط، وأن يحفظ لنا أُسرنا). فالأسرة التي رسمها الإسلام الحنيف لنا يجب مراعاتها؛ لأنها هي الأُسرة التي تتناغم مع الفطرة. وأُحبّ أن أُؤكد علىٰ أن الفطرة الإنسانية في أمسّ الحاجة للإشباع المباشر، ونظام الأُسرة الأمثل هو أن يعيش الرجل مع زوجته وأطفاله تحت سقف واحد. فهذه هي الحياة الكريمة التي نأمل من اللّه تعالىٰ أن يبقيها لنا، وألّا يحرمنا منها.

المبحث الثالث: أسباب التعدّد وحلول الإسلام له

إذن نحن ورثنا نظام التعدّد، وهو ميراث إنساني اجتماعي، لكن ما هي الأسباب التي تدعو إلىٰ التعدّد؟ وكيف عالج الإسلام هذه المسألة ووضع لها الحلول المناسبة؟ هناك عدّة أسباب وعدّة حلول تذكر في المقام، منها:

السبب الأوّل: العامل الاقتصادي

وهو أن يطمح الرجل من وراء تعدّد الزوجات إلىٰ الحصول علىٰ أكبر عدد ممكن من الأولاد؛ كي يستثمر طاقاتهم ومهاراتهم في العمل الصناعي أو الزراعي؛ مما يزيد في آلية الإنتاج والربح، فهو يريد منهم مثلاً أن يقفوا إلىٰ جانبه في كفاحه اليومي مع الحياة وفي صراعه معها.

وهناك جانب آخر (أو وجه آخر) للعامل الاقتصادي، وهو ما تلجأ إليه بعض الشعوب الأفريقية خاصة والشعوب الفقيرة عامّة، حيث يقومون ببيع أبنائهم للعائلات الغنية سيّما تلك التي لم ترزق بولد.

وهذا السبب لازال يستعمر عقول البعض إلىٰ يومنا هذا.

السبب الثاني: العامل الاجتماعي

والمراد به: العزّة والمنعة؛ لأنهم يعتقدون أن الذي عنده أولاد أكثر يكون أعزّ وأمنع؛ ولذلك كانت البيوت تفتخر بكونها تحوي عدداً أكبر من الأولاد وتعدُّ نفسها ذات منعة ومهابة الجانب لا يدنوها أحد. دخل عامر بن أُحيمر علىٰ النعمان فسأله النعمان: من أنت؟ قال: أنا من بيت هم أشعر العرب وأوفىٰ العرب. فأخرج النعمان من لباسه بردين وقال: ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أُحيمر فأخذهما فائتزر بواحدة وارتدى بالأُخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: نعم؛ لأن العزّ كلّه في معدّ، والعدد في معدّ ثم في نزار ثم في مضر ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني. فسكت الناس، فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعمّ عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العزّ

شاهدي. ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل. فلم يقم إليه أحد. فخرج بالبردين، وضُرب المثل بعزّه وببرديه[1].

وموضع الشاهد هنا أن هؤلاء كانوا يتغنون بالقوة، وهو أمر نابع من تأثير مجتعهم الذي كان لا يعترف إلّا بالقوة وسيلةً للتعامل مع الآخرين دون أن يكون هنالك أي وجود للقانون. فالمجتمع ليس مجتمع قانون بل مجتمع قوّة نابعة من مظاهر البداوة وضراوتها.

ومن هذه المظاهر أن البدوي حينما تكون عنده خصومة مع أحد فإنه يأنف أن يشتكي خصمه في دور القضاء؛ لأنه يُعدّ ذلك جبناً. فالحق عنده أن يؤخذ بالقوة وبيده هو، فهو يرىٰ أن ذلك هو الحق. وهذه روح بدوية لا تخضع لضوابط القانون.

والإسلام الحنيف بذل جهداً كبيراً لعلاج هذه الرواسب كي يتمكّن من جعل هؤلاء البداة يتقبلون هذه الوسائل الحضارية التي تخرجهم من عهود الوحشية إلىٰ عهود الاستئناس. وقد وصل الأمر بهؤلاء إلىٰ أنهم رفضوا الدخول في الإسلام؛ لأنه يأمرهم بالصلاة المشتملة علىٰ السجود، وهم يرفضون السجود خشية أن يعلوا رأس أحدهم استُه. فكيف يمكن أن يكون التعامل مع هذا اللون من العقليات؟

---

(١) خزانة الأدب ١: ٤١٢. وروي أنه لمّا قتل جسّاس بن مرة كليب بن ربيعة تشمّر أخوه مهلهل واستعد لحرب بكر، وجمع إليه قومه فأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان، فأتوا مرّة بن ذهل أبا جساس وهو في نادي قومه، فقالوا له: نحن نعرض عليكم خلالاً أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع. وذكروا منها أن يدفع مرّة إليهم هماماً لأنه كفء لكليب، فقال لهم مرّة: أما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه لي فأدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره. جمهرة خطب العرب ١: ٤١.

فهولاء إذن كانوا يتغنون بالمجد، ويتصوّرون أنه لا يمكن الوصول إليه إلّا عن طريق المنعة. وأحد أسباب المنعة الأولاد الذين سيشاركون القبيلة في غزوها وحربها، ذلك أنهم كانوا لا يستذوِقون الحياة إلّا مع السيف والسنان، بل حتىٰ لقمة العيش كانوا لا يستمرئونها إلّا إذا كانت قد اكتُسبت عن طريق السيف، بل وأكثر من ذلك أنهم كانوا يحتقرون المهن ويعتبرون أنها من سمات الضعيف.

مغالطات المستشرقين

ولهذا فإن المستشرقين حينما درسوا هذه الظاهرة وأرادوا الإساءة إلىٰ الرسول الأكرم ﷺ حاولوا جاهدين أن يسحبوا هذه الظاهرة عليه فقالوا: كان نبي المسلمين رجلاً يعيش علىٰ السلب والنهب. وهؤلاء في الحقيقة بعيدون عن فهم الإسلام وفهم نبيّ الإسلام ﷺ.

السبب الثالث: العامل النفسي

ويعني هذا العامل أن الإنسان يحبّ الحياة، وأحد مظاهر حبّ الحياة عنده هو الإنجاب. يقول العلماء: إن حبّ الحياة عند الإنسان يدل علىٰ وجود يوم القيامة؛ حيث إن اللّه لم يخلق شيئاً عبثاً. فانظر إلىٰ أعضاء جسمك فسترىٰ أن لها وظائف تختص بها، وكذلك أُمورك النفسية كلها لها وظائف، فلا يوجد جزء مخلوق عند الإنسان بحيث لا توجد هنالك حكمة وراء خلقه. فاللّه تعالىٰ خلق عندنا حب الحياة، وإلّا فمن منا يشتهي الموت؟ فلا يوجد أحد يحب الموت مطلقاً حتىٰ أُولئك الذين يعانون في هذه الحياة من مشاكل كثيرة لا يودّون مفارقتها. يقول أبو الطيب المتنبي:

ولذيذُ الحياةِ أوقع بالنفـ ـسِ وأشهى من أن تُمَلَّ وأحلىٰ

وإذا الشـيخُ قـال أُفٍّ فـما مَـ ... ـلَّ حياةً لكنما الضـعفَ ملّا[١]

حبّ الحياة دليل علىٰ وجود يوم القيامة

إذن حبّ الحياة غريزة أودعها اللّٰه فينا، وهو يدلّ علىٰ وجود عالم آخر. أما كيف يدلّ علىٰ ذلك، فهذا ما يتّضح بأمرين:

الأول: أننا نعرف أنّ هناك عالماً آخر سننتقل إليه بعد الموت، فكما خرج الإنسان من عالم التراب إلىٰ عالم الأصلاب إلىٰ عـالم الأرحـام إلىٰ عـالم الدنيا، وبعد ذلك إلىٰ عالم التراب (القبر)، فإنه سيخرج بـعد ذلك إلىٰ عـالم الآخرة[٢].

الثاني: أن الإنسان بطبعه لا يحبّ أن يخرج من الحياة إلّا بعد أن يـوجد امتداده الطبيعي فيها، وهذا الامتداد هو الولد؛ ولذلك فإن الإنسان إذا مـات وترك ذرّية صالحة قال الناس عنه: إن فلاناً لم يمت، وإنـه بـاقٍ ومـتجسّد بأولاده. فالإنسان إذن يريد امتداده الطبيعي؛ ولذلك كان العرب يُعيّرون من ليس له ولد ذكر، ويُعبّرون عنه بأنه أبتر؛ لأن الأُنثىٰ عندهم ليست امـتداداً طبيعياً للرجل، بل كانوا يحتقرونها كونها لا تخلّد أباها. مع العلم أنه لا فرق بين البنت والولد إذا كانا صالحَين، بل كلاهما يخلّد أباه.

إنّا أعطيناك الكوثر

ولذا فإن القاسم والطاهر وإبراهيم أولاد الرسولﷺ حينا قُـبضوا أخـذ المشركون يعيّرون الرسولﷺ بأنه أبتر ـ أي ليس له عقب ـ فنزلت سورة الكوثر: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِـرَبِّكَ وَانْـحَرْ *

---

(١) ديوان المتنبّي ٢: ٤٠٥.

(٢) بمعنى أن حبّ الحياة عنده يجعله يذعن بأنه وإن مات فإنه سيلج بعد موته حياة جديدة.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾(١). فاللّه تعالىٰ يقول له : أنت لست الأبتر، بل إن الأبتر هو عدوّك، وإن اللّه تعالىٰ حينما حرمك من الأولاد فإنه من جانب آخر جعل ذرّيّتك عن طريق ابنتك فاطمة الزهراء. ولذا كان يقول: **«الحسن والحسين ولداي»**(٢)، ويقول **«أحبّ اللّه من أحبّ حسيناً»**(٣)، ويقول: **«كلّ بني أُمّ ينتمون إلىٰ عصبتهم إلّا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»**(٤)؛ حيث إنه كان يرىٰ فيها امتداده الطبيعي. وهذا هو السبب الذي من أجله كان الصحابة والتابعون وغيرهم من المسلمين ينادونهما بعبارة «ابن رسول اللّه».

فالإنسان يرغب بأن يترك خلفه من يحيي ذكره ويمدّد وجوده في الدنيا قبل أن يموت، فإذا كانت المرأة غير قادرة علىٰ الإنجاب فإن الرجل سيكون

---

(١) الكوثر: ١ ـ ٣.

(٢) تحفة الأحوذي ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمّال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥ تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٣) الأدب المفرد: ٨٥، مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٠٣، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٣٦ / ٨٤٨٥، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٧٧.

(٤) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال رسول الله : «إن الله لم يبعث نبياً إلّا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر: كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلّا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمّال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

مضطرّاً إلىٰ الزواج من أُخرىٰ؛ كي يوجد ذلك الامتداد له من بعده.

السبب الرابع: العامل الطبيعي

وهو ناشئ من كون عدد الذكور أقلّ من عدد الإناث؛ وذلك بسبب الحروب الطاحنة التي أكلت الأخضر واليابس علىٰ مرّ التاريخ. فمعلوم أن الرجال هم وقود هذه الحروب؛ إذ أن الرجل هو الذي كان يجنّد في الحروب، وحتىٰ في الجيوش الحديثة التي تجنّد المرأة فإنها لا تعطيها مهامَّ قتالية أو أعمالاً حربية مباشرة، بل كل ما تُعطاه هو أعمال ثانويّة بعيدة عن القتال غالباً، كالأعمال الإدارية أو التعبوية، أما مباشرة الحرب والقتال فلا، بل توكل هذه المهمّة كما قلنا للرجل. ولذلك فإن عدد القتلىٰ يكون في الرجال أكبر؛ مما يؤدّي إلىٰ تضخّم في أعداد النساء. وهذا الأُمر غير مختصّ بمكان ما أو زمان ما، فقد كانت الدنيا ومازالت قائمة علىٰ الحروب الطاحنة والمنازعات والمخاصمات.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرىٰ فإن اللّه عزّ وجلّ أعطىٰ المرأة مناعة ضد الأمراض أضعاف ما أعطىٰ الرجل؛ لأن المرأة تمرّ بمشاكل كثيرة ـ وإن كان الرجل كذلك ـ من قبيل الحمل والنفاس وتربية الطفل وشؤون البيت؛ فهي أكثر عرضة لأسباب المرض من الرجل، ولذا أعطاها اللّه تعالىٰ خواصّ جسدية ونفسية لتحمل المرض ومقاومته والمناعة ضدّه.

ومن الخواصّ الجسديّة وجود طبقة شحميّة تحت الجلد تحميها وتمنع عنها عوارض الحرّ والبرد، ومن الخواص النفسيّة زيادة كمية الحنان والحب للطفل الرضيع، وهو أثر لهرمون كيمياوي يسمىٰ هرمون الأُمومة الذي يجعل منها كائناً ثريّاً بهذه المشاعر والأحاسيس، وهو ما ليس موجوداً عند الرجل

الذي يتعرّض للأمراض بحكم عمله مما جعله عرضة للموت.

علاج حالات نقص الذكور

وبهذا يكون عدد الرجال أقل من عدد النساء، ويمكن تلافي هذه الظاهرة وتحقيق التوازن فيه بأحد طريقين:

الطريق الأوّل: الزواج غير المشروع

وهو الطريق المعتمد عند الغالبية في أوروبّا وغيرها، وذلك أن يتّخذ الرجل أكثر من خليلة؛ فيكثر النسل، لكنه يبقى نسلاً غير شرعي.

الطريق الثاني: الزواج المشروع

وهو نظام تعدّد الزوجات الذي أقرّه الإسلام، لأنه يريد أن يخلق جيلاً نظيف المشاعر، ذا حياة نقيّة طاهرة بعيدة عن العلاقات الإباحيّة في الجنس، وبعيدة عن العهر والفجور. فقضية إباحة التعدّد قضيّة يهدف الإسلام من ورائها إلىٰ وضع حلول مناسبة لمسألة خطرة تواجهها البشرية جمعاء؛ سواء كانت هذه المسألة متعلّقة بإيجاد معادلة بين الذكور والإناث أو بإشباع الغريزة البشريّة إشباعاً مشروعاً.

السبب الخامس: عامل الفقر

وهذا العامل وإن كان داخلاً ضمن العامل الاقتصادي لكنه الآن يتعلّق بالمرأة وليس بالرجل؛ فبعض النساء فقيرات لا يملكن شيئاً، ولا يتمكنّ من العيش بالشكل الذي يردنه؛ وهذا يضطرهنّ إلىٰ القبول بالزواج من رجل متزوّج كي يسدُدن هذه الحاجة المعيشيّة، ويبعدن عن أنفسهن شبح العوز الذي قد يفقدن كرامتهن بسببه، وذلك فيما إذا وقعن تحت براثنه. وهذا ما يحدث بالفعل، فقد وقع الكثير من النساء في هوّة الانحراف والفجور، لا

لحبّ في الانحراف والفجور لذاتهما، بل للـهروب مـن واقـع اجـتماعي أو اقتصادي؛ فهنّ مضطرات إلى ذلك.

لكن هذا لا يصحّح الوسيلة، ولا يبرّر الخطيئة؛ فالنتيجة واحـدة، وهـي الوقوع في الحرام الذي لا يمكن أن يعدّ أي أمر ـ مهما بلغ ـ مسوّغاً للوقوع فيه. فهو معصية مهما كانت الأسباب؛ لأنه طريق إلى هـدم عـفاف الأُسـرة والمجتمع وتضييعهما. فالطريق الشرعي إذن هو الطريق الوحيد الذي يحفظ كلّ ذلك للأُسرة وللمجتمع؛ فالأولاد معترف بهم، وكرامة المرأة مـحفوظة. نعم، قد تتعرّض بذلك لبعض المضايقات، لكن ذلك أهون الشرّين؛ إذ أن هذه الحلول لا بدّ منها.

إذن لابد للطريق الصحيح والعلاج المشروع من العقود في قضايا النكاح.

شرائط التعدد ومسوّغاته

ونرجع إلىٰ موضوعنا فنقول: ذكـرنا أن هـناك أحكـاماً مـفتوحة يـترك تقديرها إلىٰ المكلّف نفسه، فمثلاً حينما يسـلط اللّـه مكـلفاً عـلىٰ مـلكيّته الخاصّة فهذا لا يعني أن تسليطه هذا يـصل حـدّ الانـحراف فـي الإنـفاق، فيسرف فيه بالشكل الذي يستنكره العرف ولا يقرّه الشرع. وكذلك الأُمـور الأُخرىٰ التي ترك اللّه سبحانه وتعالىٰ لنا فيها مساحة مفتوحة.

وعلاقة هذا بموضوعنا أنه تعالىٰ حـينما أبـاح مسألة تـعدّد الزوجـات، وأعطىٰ الإنسان الحقّ في ذلك فإنه قنّنه وربطه بأسبابه الداعـية إليـه، فـإذا كانت الزوجة جميلة ومخلصة وولودة فما الداعي لأن يـبحث الرجـل عـن أُخرىٰ؟ لكن الذي يحصل في مجتمعاتنا أن الرجل بمجرّد أن يملك زيادة من المال يسارع إلىٰ الزواج من ثانية وثالثة ورابعة، متذرّعاً بأن اللّه تعالىٰ قـد أباح له هذا الأمر.

أسباب حظر التعدد

السبب الأوّل: التمكن من الإعالة والتربية

والذي أودّ أن أُثبته هنا هو صحيح أن اللّه تعالىٰ قد أباح التعدّد، لكن يجب علىٰ الرجل أن يفكّر قبل الإقدام علىٰ الولوج في هذا المباح، ويسأل نفسه: هل أستطيع تربية الأطفال الذين سيولودون لي من هؤلاء الزوجات، وأُوفّر لهم الجوّ الروحي والتربوي؟ وهل أستطيع إعالتهم وتوفير المناخ الاقتصادي لهم بحيث إنهم لا يذوقون العوَز، ولا تلسعهم شوكته فينحرفون عن الطريق؟ وهل سينسجم هؤلاء الأبناء.. أبناء العلّات مع بعضهم بعد نضجهم واصطدامهم بالحياة؟

كل هذا يجب علىٰ الرجل أن يراعيه وينظر إليه بمنظار الواقع قبل أن يقدم عليه؛ لأنه بذلك سيحافظ علىٰ سلامة أُسرته من التفكّك، أما إذا لم يراعِه فإنه إنما يدفع بأُسرته نحو التفكّك، ويعجّل بها نحو الانهيار. وأروي لك هنا حادثة أُريدَ من ورائها الإيقاع بين محمد بن الحنفية﵀ والحسنين﵉، ذلك أن بعض ذوي النفوس الضعيفة جاؤوا إلى محمد وقالوا له: لماذا يقدّمك أبوك إلىٰ الحرب ويمنع الحسن والحسين عن أن يقتحماها؟ فقال﵀: الحسنان عينا أبي وأنا يده، والإنسان يذبّ بيده عن عينيه[1].

وهذا أُنموذج ريادي يجب أن يحذو حذوه كلّ الأبناء، وهو ما علىٰ الرجل أن يفكّر به قبل إقدامه علىٰ الزواج ثانية؛ من حيث تآلف أبنائه وعدم تآلفهم بعد ذلك. وهذا الأمر ليس متعلّقاً بطبيعة الأولاد فقط، بل إن له تعلّقاً بتربية الآباء وإحسانهم تلك التربية، فهل يستطيع هذا الأب أن يخصّص وقتاً

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٣.

لرعاية أبنائه بعد أن أضاف عبئاً جديداً علىٰ نفسه بالزواج والأولاد، وهو ما سيضطرّه إلىٰ العمل أكثر، وقضاء وقت أطول وأكبر خارج البيت؟ مع العلم أن الوقت يجب أن يكون أكبر مما كان عليه قبل زواجه الثاني أو الثالث لزيادة عدد الأولاد. فإن كان ذلك بالمقدور فلا بأس، وإلّا فلا.

إذن فإن اللّه تعالىٰ حينما أباح لنا التعدّد فإنما أباحه وفق شرائط معيّنة.

السبب الثاني: عدم العدل بين النساء

فاللّه تعالىٰ حينما يقول: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾، فإنما يعني المودّة لا النفقة وغير ذلك من الأُمور الماديّة. فالإنسان بطبعه يميل إلىٰ الجمال، وحتماً سيميل إلىٰ الزوجة الثانية الجميلة. ثمّ إن علاقة الرجل بالمرأة تكون علىٰ نحوين: مادية ومعنوية؛ فالعلائق المادية هي أن يوفّر لها السكن والملبس والمأكل، والعلائق المعنوية هي أن يحبّها ويحترمها ولا يعرّضها إلىٰ كراهة. وهذا مما يدخل في آية العدل بين النساء. أما المودّة فهي مما لا يمكن أن يقع فيه العدل؛ لأن هذا خارج عن إرادة الإنسان؛ إذ أن إحداهن قد تكون متميّزة بالجمال أو الأخلاق، وغيرها من الفوارق التي تجعله يميل إليها أكثر من غيرها. فهذا مما لا ضير فيه وإن لم يعدل، أمّا النفقة فلابدّ من العدل فيها، فإن عدل فبها ونعمت، وإلّا فلا يتزوّج، وهو معنىٰ قول الرسول الأكرمﷺ: «**اللهم هذا ما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك**»[1] من الميول النفسيّة والقلبية، أما في النفقة فكانﷺ مثال العدل، ولذلك كان حبّ خديجةعليها السلام قد استأثر بقلبه، حتىٰ بعد وفاتها، فكان

(١) مسند ابن راهويه ٢: ٢٣، صحيح ابن حبان ١٠: ٥، فتح القدير ١: ٥٢١، الديباج على مسلم ٤: ٧٩.

(صلوات اللّه وسلامه عليه وآله) إذا ذكرها اهتزّ من قرن إلىٰ قدم.

ومما ينقل في هذا المجال أن إحدىٰ نسائه ﷺ قالت له: ما هي إلّا امرأة عجوز حمراء الشدقين، وقد أبدلك اللّه خيراً منها. فقال ﷺ: **«كلّا، ما أبدلني اللّه بخير منها؛ إنها آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، ورزقني اللّه منها ولداً إذ حرمني من أولاد سائر النساء. وقد هبط علي جبرئيل وقال لي: بشّرها بأن لها بيتاً في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»**[(١)].

تقول عائشة: كان النبي ﷺ لا يذهب لإحدىٰ زوجاته في ليلتها حتىٰ يستأذنها فإذا أذنت له ذهب، وإلّا فلا.

وكان ﷺ حتىٰ في أيام مرضه يطبّق العدل بين نسائه، فكان ينقل علىٰ محفّة المرض كل ليلة إلىٰ غرفة من غرف أزواجه التي لها الحق ليلتها تلك.

السبب الثالث: القدرة علىٰ الوطء

وهو أمر هامّ في حياة المرأة، فقد يكون عند الرجل قدرة ماليّة لكنه لا يمتلك القدرة الجسديّة علىٰ إشباع غريزة المرأة، وهذا يجب عليه ألّا يتزوّج من أُخرىٰ مادام كذلك؛ ولذلك كان الإمام الصادق عليه السلام يقول: **«من جمع من النساء مالا يسع فزنين، فالإثم عليه»**[(٢)]؛ لأنه لم يستطع أن يلبّي حاجاتهن، وهن كما يجنحن إلىٰ إشباع غريزة الجوع فكذلك يجنحن إلىٰ إشباع غريزة المضاجعة. فإن لم تجد قدرة عند زوجها علىٰ إشباع هذه الرغبة، فربما تضطر إلىٰ الخطيئة، وهنا يكون هذا الزوج العاجز هو الجاني والآثم حسب التعبير المعصومي.

---

(١) الذرية الطاهرة النبوية (الدولابي): ٣٢، المعجم الكبير ٢٣ : ١٣، كنز العمال ١٢: ١٣٢ / ٣٤٣٤٨ ـ ٣٤٣٤٩، البداية والنهاية ٣: ١٥٨.

(٢) الكافي ٥: ٥٦٦ / ٤٢، دعائم الإسلام ٢: ١٩٣ / ٧٠٠.

فكيف إذن بالمتوكّل الذي كان عنده أربعة آلاف سُرّية ويسمىٰ محيي السنة ومميت البدعة[١]؟

ملاك الزواج الدائم

يقول الإمام الصادقعليه السلام: **«لا يحلّ لماء الرجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام»**[٢]. ونحن ليس عندنا نظرية تقول بجواز الزواج من أكثر من أربع نساء جمعاً، لكنه عند غيرنا كذلك. وقد تطرّقت لهذا الأمر مفصّلاً في كتاب (فقه الجنس)[٣].

وقد بلغ الحد عند بعضٍ من غيرنا أن أجاز الزواج من النساء بلا حدّ[٤].

---

(١) ورد ذلك في أُرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

(٢) مجمع البيان ٢: ٦، وسائل الشيعة ٢٠: ٥١٨ / ٢٦٢٣٩.

(٣) فقه الجنس: ٨١ ـ ٩٥.

(٤) قاله المفسّر النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾، فقد قال: ذهب جماعة إلى أنه يجوز التزوّج بأي عدد أُريد؛ لأن قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ إطلاق في جميع الأعداد، لصحّة استثناء كلّ عدد منه، وقوله: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ لا يصلح مخصّصاً لذلك العموم؛ لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينافي ثبوت الحكم في الباقي، بل نقول: ذكرها يدلّ على نفي الحرج والحجر مطلقا؛ فإن من قال لولده: افعل ما شئت؛ اذهب إلى السوق وإلى المدرسة وإلى البستان، كان تصريحاً في أن زمام الاختيار بيده ولا يكون تخصيصاً. وأيضاً ذكر جميع الأعداد متعذّر، فذكر بعضها تنبيه على حصول الإذن في جميعها. ولئن سلّمنا لكن الواو للجمع المطلق، فيفيد الإذن في جميع.
وأما السنة فلِما ثبت بالتواتر أنهصلى الله عليه وآله مات عن تسع، وقد أُمرنا باتّباعه في قوله: ﴿فاتّبعوه﴾[1]، وأقلّ مراتب الأمر الإباحة، وقد قالصلى الله عليه وآله: «فمن رغب عن سنتي فليس مني». غرائب القرآن ٤: ١٧٢.

---

(1) الأنعام: ١٥٣، وهي هنا حول الشريعة، ١٥٥، وهنا حول القرآن الكريم.

وعند بعضٍ أنه يجوز من تسع، وعند بعض آخر منهم أنه يجوز الزواج من ثماني عشرة امرأة[١]. ثمّ يأتي بعضهم ويرمينا به، فهم علىٰ حالهم وعادتهم: رمتني بدائها وانسلّت[٢].

إذن فاللّه تعالىٰ يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، أي كما يقول الفقهاء والمفسّرون: ليس لكم حق المساواة[٣]؛ وذلك أن العدل كما يعرّفونه وكما يعرّفه فقهاء القانون هو وضع الشيء في موضعه[٤]، والمساواة ليست كذلك دائماً، أي أن المساواة في كل شيء لا تحقّق العدل بل إنها تحقّق الظلم في بعض الموارد. فلو ساوينا بين الذكيّ والغبيّ فإننا نكون قد ظلمنا الذكيّ وقلبنا الموازين.

وقد يقول قائل: إن بعض المسلمين عندهم هذا النوع من المساواة غير العادلة، فمثلاً هم يقولون عن الصحابة وتابعيهم كلّهم: (رضي اللّه عنهم أجمعين)، فيقصدون المغيرة وغيره من النماذج التي علىٰ شاكلته، ويقصدون أيضاً الصحابة الأخيار والتابعين لهم بإحسان.

ونقول: هذه مقاييس فاسدة ولا يمكن أن نقبل بها؛ لذلك فإن اللّه تعالىٰ أعطىٰ كلّ فرد ما يستحقّ من قدره، فلابدّ من الرجوع إلىٰ المعاملة الفردية؛

---

(١) انظر: تبيين الحقائق ٢: ١١٢، رمز الحقائق ١: ١٤٣، نيل الأوطار ٦: ٢٨٩، المجموع شرح المهذب ١٢: ٩، ١٦: ٢٤٤، غرائب القرآن ٤: ١٧٢، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧. ، وقد مرّ ما في هذا الهامش والهامش الذي قبله مفصلاً في ج٢ ص٣١٩ ـ ٣٢٠/الهامش: ٣، من كتابنا هذا.

(٢) مثل يضرب لمن يعيب غيره بعيب فيه هو. الصحاح ٥: ١٧٣١ ـ سل، لسان العرب ٤: ٤١ ـ بحر، ١١: ٣٣٨ ـ سلل.

(٣) زبدة البيان: ٥٣٧، البحر الرائق ٣: ٣٧٩.

(٤) انظر: العدة في أُصول الفقه ١: ٣١ (حجري)، التبيان في تفسير القرآن ١: ١٥٨، مجمع البيان ١: ١٦٦، الرسالة (الشافعي): ٢٥، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٨٥.

لأنها هي التي تحقّق العدل الذي هو وضع الشيء موضعه كما قلنا. يقول تعالىٰ: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[1]، ويقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾[2]، يقول أيضاً: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3]. فكل هذه مقاييس وضعها الله لنا، ويجب ألّا نتخطّاها في تعاملاتنا؛ فتختلط الأوراق.

إذن فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فإنما يعني أنه ليس لكم حقّ المساواة، فإذا كان للرجل أن يتزوّج بأكثر من واحدة فليس للمرأة ذلك بحجّة المطالبة بالمساواة؛ لاقتضاء ذلك آثاراً فاسدة من ضياع نسب الولد وبالتالي ضياع الأُسرة من حيث إنه لم يُعرف له حينها والد معيّن.

اختيار الزوجة

ثمّ إن من العدل ملاحظة الرجل عائلة المرأة التي سيتزوّجها، ومعرفة نمط حياتها الذي كانت عليه، فإذا كانت تعيش نمطاً من الحياة مرفّهاً وحياتها ذات مستوىً رفيع فهل يصح أن تضعها في المستوىٰ نفسه الذي تضع به الزوجة الأُولىٰ التي كانت تعيش مستوىً حياة أدنىٰ من الزوجة الثانية؟ طبعاً لا؛ فالفقهاء يقولون: إن هذا ليس عدلاً، بل العدل هو المفاضلة هنا وذلك بإعطاء كل امرأة ما يكفيها من حيث تناسُبه مع حالتها المعيشية التي كانت قد اعتادت عليها.

---

(١) الحشر: ٢٠. (٢) فاطر: ١٩، غافر: ٥٨.
(٣) القلم: ٣٥ ـ ٣٦.

بل وحتىٰ في المهر، فإذا تزوّج من امرأة ولم يعيّن لها مهراً كان لها مهر المثل كما يقول الفقهاء[1]. أي تأخذ المهر الذي تأخذه عادة بنات طبقتها. وهذا هو الصحيح، وهو تشريع ليس فيه أي تفرقة، بل فيه مراعاة للحقّ الذي هو حال المرأة قبل الزواج.

دعوىٰ التناقض في قضية العدل في القرآن

وقد حاول البعض ممّن لا خبرة له ولا علم أن يثبت وجود تناقض بين آيات القرآن الكريم، ومن ذلك ما ادّعوه في قوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾[2]، وقوله تعالى في آية أُخرى: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾[3].

والجواب: أن هذا ليس تناقضاً؛ لأن متعلّق العدل مختلف، فالقرآن الكريم يقول: إن استطعت أن تعدل بالنفقة بحيث تكون عندك قدرة مالية وجسدية فخذ من النساء مثنى وثلاث ورباع، أما إذا لم تستطع أن تعدل بحيث يكون في التعدّد جور وظلم فلا. أمّا في الآية الأُخرى: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾، فذلك في المودّة؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يعدل فيها؛ إذ لا بدّ أن تكون لإحداهن ميزة تفضّلها على الأُخرى. بل حتى لو لم يكن ذلك فإن مطلق الميل النفسي ـ أي حتى مع عدم المبرّر ـ يجعل الإنسان يميل من جانب إلى آخر.

---

(١) انظر: رسائل المرتضىٰ ١: ٢٣١، المراسم العلوية: ١٥٤، النهاية (الطوسي): ٤٧٠، فتح العزيز ٨: ٢٨٢، المجموع شرح المهذب ٩: ٢٩١، وغيرها.

(٢) النساء: ١٢٩.

(٣) النساء: ٣، مع أن تمام الآية ـ وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ـ يؤكّد الآية السابقة.

فالقرآن الكريم يريد أن يجرَّ أيدينا إلى الواقع وأن يبين لنا أن الرغبات النفسية مما لا يمكن التحكم فيه، فلا تناقض في الأمر؛ لأن متعلّق العدل هنا هو المودّة، ومتعلّقه هناك هو المال.

الافتراءات علىٰ الشيعة

جاء في سؤال من أحد الناس يقول فيه: أنتم الشيعة عندكم أن المرأة لا ترث، فكيف تطالبون بميراث الزهراء؟

والجواب علىٰ هذا التساؤل يكون من جهتين:

الجهة الأولىٰ: حول فرية الميراث

وهذا من غرائب الأُمور، وافتراء علىٰ طائفة بحالها؛ ذلك أنه من قال: إن المرأة عندنا لا ترث؟ أما الزوجة فترث من كل شيء عدا الأرض، فترث من البناء والأوتاد وغيرها. وإنما منعت الميراث من الأرض؛ لأن مسألة الأرض مسألة حسّاسة جدّاً؛ فهي وسيلة الإنتاج الأُولىٰ عند أغلب المجتمعات، فالذي يملك قطعة أرض لا يمكن له أن ينساها؛ ولذلك عندما سئل الإمام عليه السلام: لماذا لا تأخذ المرأة من رقبة الأرض؟ قال عليه السلام: **«لئلا يتزوّجن فتدخل[1] عليهم من يفسد مواريثهم»**[2].

فإذا توفّي الرجل وبقيت زوجته بعده وورثته، ثمّ تزوّجت بآخر، فإنه حتماً سيأخذها سواءً بإرث أو بكونها ملك زوجته، وهو أجنبيّ عن أبناء زوجها الأول صاحب الأرض؛ فمن الممكن جدّاً حينها أن تحدث بينهم الكثير من المنازعات.

وقد يسأل سائل فيقول: إن البنت إذا أخذت الأرض فكذلك ستتزوّج

---

(١) كذا، والظاهر أنها: فيدخلن.

(٢) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٤.

وتذهب الأرض، فِلم لَم تُحرم كالزوجة؟

فنقول له: إن المسألة هنا تختلف؛ فإنّ البنت من صلبي؛ فهي بالتالي دمي ولحمي، ولذا فإنه حينما كتب محمد بن سنان جملة مسائل للإمام الرضا عليه السلام حول هذا كتب عليه السلام له: **«علّة المرأة أنها لا ترث من العقار شيئا إلّا قيمة الطوب والنقض؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها وبينه من العصمة، ويجوز تغييرها وتبديلها، وليس الولد والوالد كذلك؛ لأنه لا يمكن التفصّي بينهما، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا أشبههما، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مثله في الثبات والقيام»**(١).

فالمشرّع الإسلامي عندما منع ميراث الزوجة من الأرض فإنما منعها حتى لا تحصل مشاحنات ومنازعات ومشاكل، ومن جملتها أن العلاقات تتعقّد بين المجتمع، والله يريدها أن تكون علاقات منسجمة وطبيعيّة، فهو لم يحرمها وإنما أراد أن ينظّم العلاقات ويعطيها الحقّ الذي يتناسب مع تنظيم هذه العلاقات.

أما البنت فترث من كل شيء وفق ضابطة ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾(٢).

فلماذا هذا الافتراء علىٰ طائفة بأكملها؟ ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**﴾(٣).

الجهة الثانية: دعوىٰ الزهراء عليها السلام

ونحن نقول بهذا الصدد: إن نظرية فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) لا تعدو نظرية القرآن الكريم في شأن الميراث، فهي عليها السلام جاءت لتطالب بميراثها من

---

(١) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩. (٢) النساء: ١١.

(٣) الزمر: ٦٠.

أبيها رسول الله ﷺ، وكان رفض الخليفة الأوّل مبنياً علىٰ رواية مؤدّاها أن الأنبياء لا يورّثون إلّا العلم، وهذا صحيح لكن إذا عرفنا أن من سمات الأنبياء عليهم السلام أنهم لا يملكون إلّا القليل لعرفنا هذا، فنحن نعلم أنهم عليهم السلام غالباً لا يملكون شيئاً سوىٰ علمهم، غير أنه إذا وجد القليل من المتاع كان داخلاً في الميراث العام. هذا بناء علىٰ صحّة رواية **«نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة»**[1]، فهذا الإشكال بهذا الحديث هو عين إشكال من يشكل علىٰ القرآن بوقوع التناقض فيه بين قوله تعالىٰ: **﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾** وقوله: **﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾**[2]؛ فكما اختلف المتعلّق هنا ـ وهو الميل في الآية الأُولىٰ، والنفقة في الآية الثانية ـ فكذلك اختلف المتعلّق هناك.

المبحث الرابع: معنىٰ ﴿فَلا تَمِيلُوا﴾

ثمّ قالت الآية الكريمة: **﴿فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ﴾**، ومعنىٰ هذا أن الرجل حتىٰ لو كره المرأة وتزوّج عليها فإن المفروض به أن دينه يجب أن يمنعه من أن يعاملها بشكل غير لائق، بل يحتم عليه أن يحترمها ويعاملها بالحسنىٰ[3]. فالمرأة التي تقع بينها وبين زوجها نفرة وحاجز نفسي يمنعها من الحياة الزوجية بشكل طبيعي معه فإن علىٰ زوجها أن يقرّر أحد أمرين: إما أن يسرّحها سراحاً حسناً، أو أن يعاملها بالحسنىٰ والنبل؛ فلا يتركها معلّقة؛

---

(١) انظر: مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها كثير. المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، مسند أحمد ٦: ١٤٥، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، وغيرها

(٢) النساء: ٣.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي آخر». مسند أحمد ٢: ٣٢٩، صحيح مسلم ٤: ١٧٨. والفرك: البغض والكره. صحيح مسلم بشرح النووي ١٠: ٥٨، وفيه ذكر أن المقصود بالمؤمنة: الزوجة، لسان العرب ١٠: ٤٧٤ ـ فرك.

ذلك أن قانون النبل يقتضي المساواة ما بين النساء.

وقد كان الساسانيّون يعدّدون، فإذا أحبّ أحدهم إحدىٰ نسائه اعترف بها زوجة رسمية وترك الباقيات بمصافّ الخدم، يعاملن كجوارٍ، أما الأولاد فيعترف بالذكور ولا يعترف بالإناث. فالكثير من حضارات العالم القديم والكثير من الشعوب القديمة والحديثة تظلم المرأة وتعاملها معاملة الرق، في حين أن الإسلام كرّم المرأة؛ لأنها أدعىٰ إلىٰ العطف والمودّة. وقد أكّد الرسول ﷺ علىٰ ذلك بقوله: **«من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور»**(١).

لأن الأُنثىٰ في مجتمعنا ومجتمعات أُخرىٰ مظلومة دائماً، ولا تأخذ حقّها من العطف والمودّة، بل ينزلون بها عن مستوىٰ الذكر. فالرسول ﷺ يأمر بهذا؛ لكي ينشأ عندها شعور بأنها غير مزدراة، وأنها ذات قيمة، ولها مكانة في قلب أبيها ومجتمعها، وإلّا فإن معاملة المرأة بالشكل الذي عليه البعض هو الذي يولّد عندها الشعور بأنها مخلوق مزدرى وغير محترم.

وعليه فالواجب مراعاة حقّ المرأة كما قرّر الإسلام، وألّا ينصاع الأب للبواعث الاجتماعية المحيطة به وتقاليد الموروث الاجتماعي فيزدري ابنته، مع أن قلبه يحمل لها حبّاً أكبر وأكثر، ولا يترك مجالاً لتلك البواعث والموروثات الاجتماعية أن تحول دون إظهاره حبّه لابنته، أو تغلبه فيتخلّىٰ

---

(١) ثواب الأعمال: ٢٠١. وهكذا فإنه ﷺ أراد أن يُحدِثَ التوازن في ذلك المجتمع ويُعَدِّله في تلك الأجواء التي كانت تعتبر المرأة عاراً، وهذا ما صرّح به شاعرهم حيث يقول:

إذا المرئيّ شبَّ له بنات … عصبن برأسه إبة وعارا

العين ٨: ٤٢٠ ـ أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ ـ وأب، والمرئي في الأصل: امرئي، نسبة إلىٰ امرئ القيس، ثمّ قالوا مرئي، فكأنهم جعلوها منسوبة إلىٰ (مرء) مطلقاً. والإبة: الخزي.

عن العطف عليها.

ولنأخذ أنموذجاً حيّاً علىٰ هذا وهو أمر فاطمة «العليلة» بنت الإمام الحسين عليه السلام، فقد رسم لنا التاريخ من مصيبتها صوراً تبعث علىٰ الأسىٰ واللوعة، فعندما أراد الحسين عليه السلام أن يخرج من المدينة كانت هذه الصبيّة عليلة، فتمسّكت بثياب أبيها عليه السلام وقالت له: أبا عبد اللّه خذني معكم. فقال عليه السلام لها: **«بنية أنت عليلة لا طاقة بك علىٰ الحركة»**.

يقول المؤرّخون: فحملت الطفل الرضيع عبد اللّه وجاءت به إلىٰ أبيها وقالت له: أبي، دع لي هذا الطفل الرضيع لأسلو به بعدكم. فقال عليه السلام: **«بنيّة إنه صغير ولا يستغني عن ثدي أُمّه»**. ثمّ سلّاها وودّعها وتركها في بيت أُم سلمة (رضي الله عنها). فبقيت تنتظر وتتسمّع الأخبار إلىٰ أن جاء النعيُّ ينعى الحسين عليه السلام، فخرجت من الدار واستوقفته وقالت له: يا هذا أنت الناعي ريحانة رسول اللّه صلى الله عليه وآله؟ قال: بلىٰ. قالت: باللّه عليك أخبرني بالذي جرىٰ. يقول بشر: وبعد أن أخبرتها رجعت صارخة ومولولة، ودخلت دار أبيها واللوعة تملؤها:

يا دار ناغيني وناغيچ   چانت بدور وتزهر عليچ

والسا غراب البين ناعيچ

* * *

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا[1]



(١) شجرة طوبىٰ ١: ٩١.

الْمحتويات

